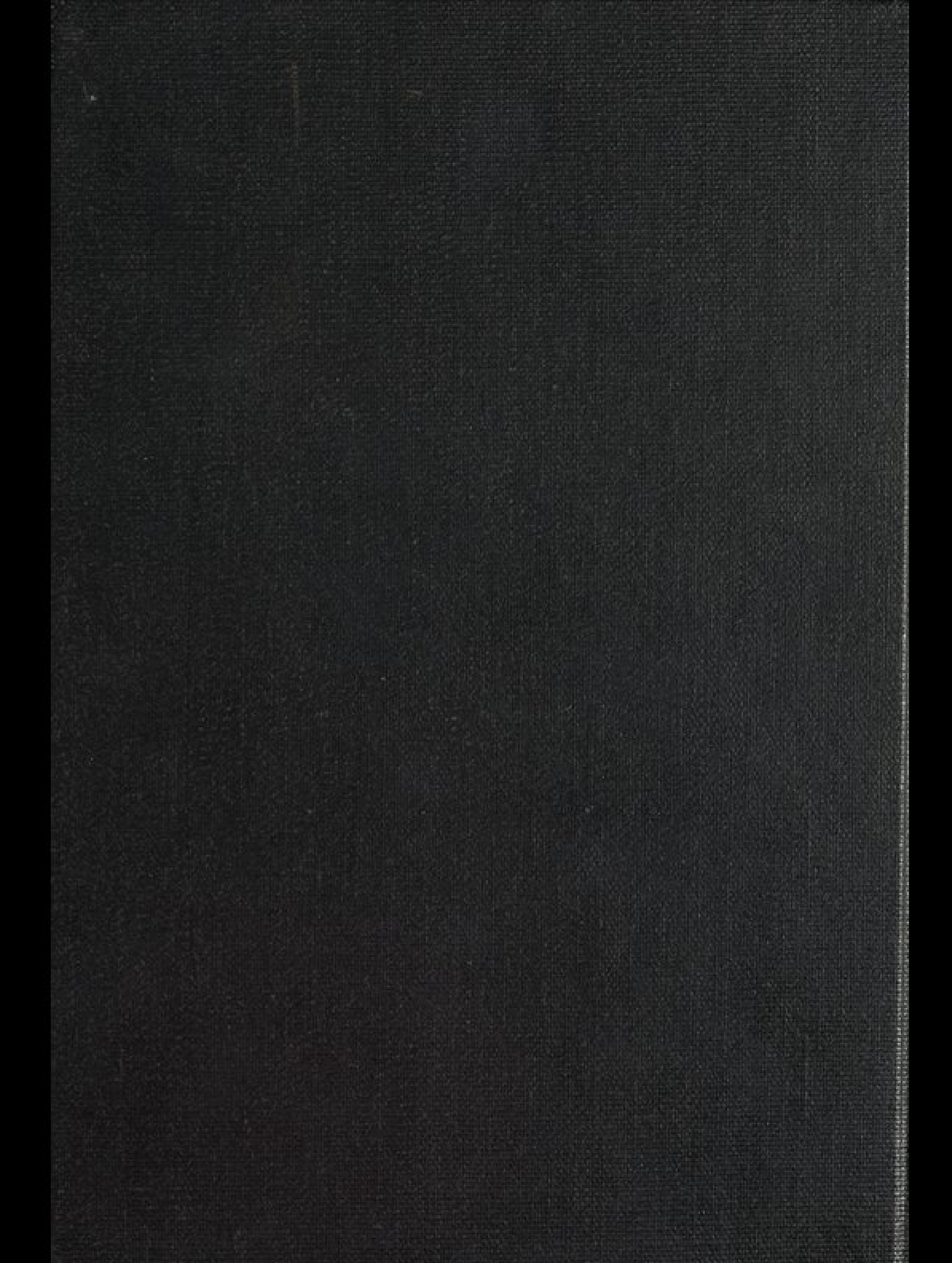
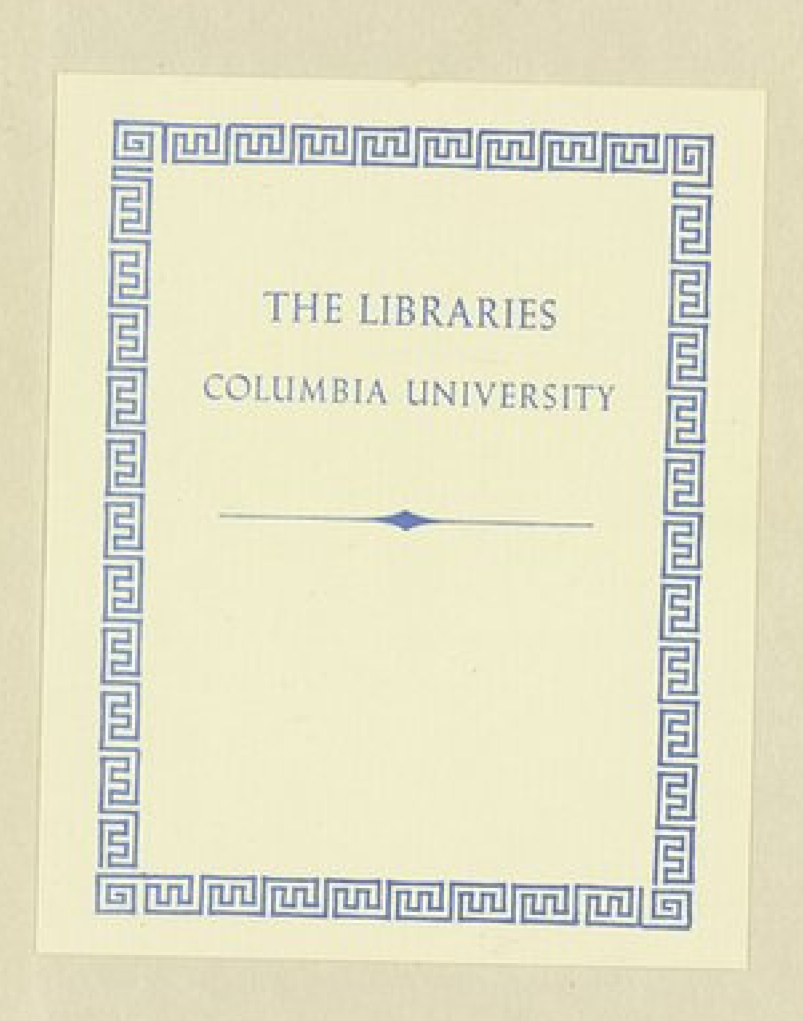
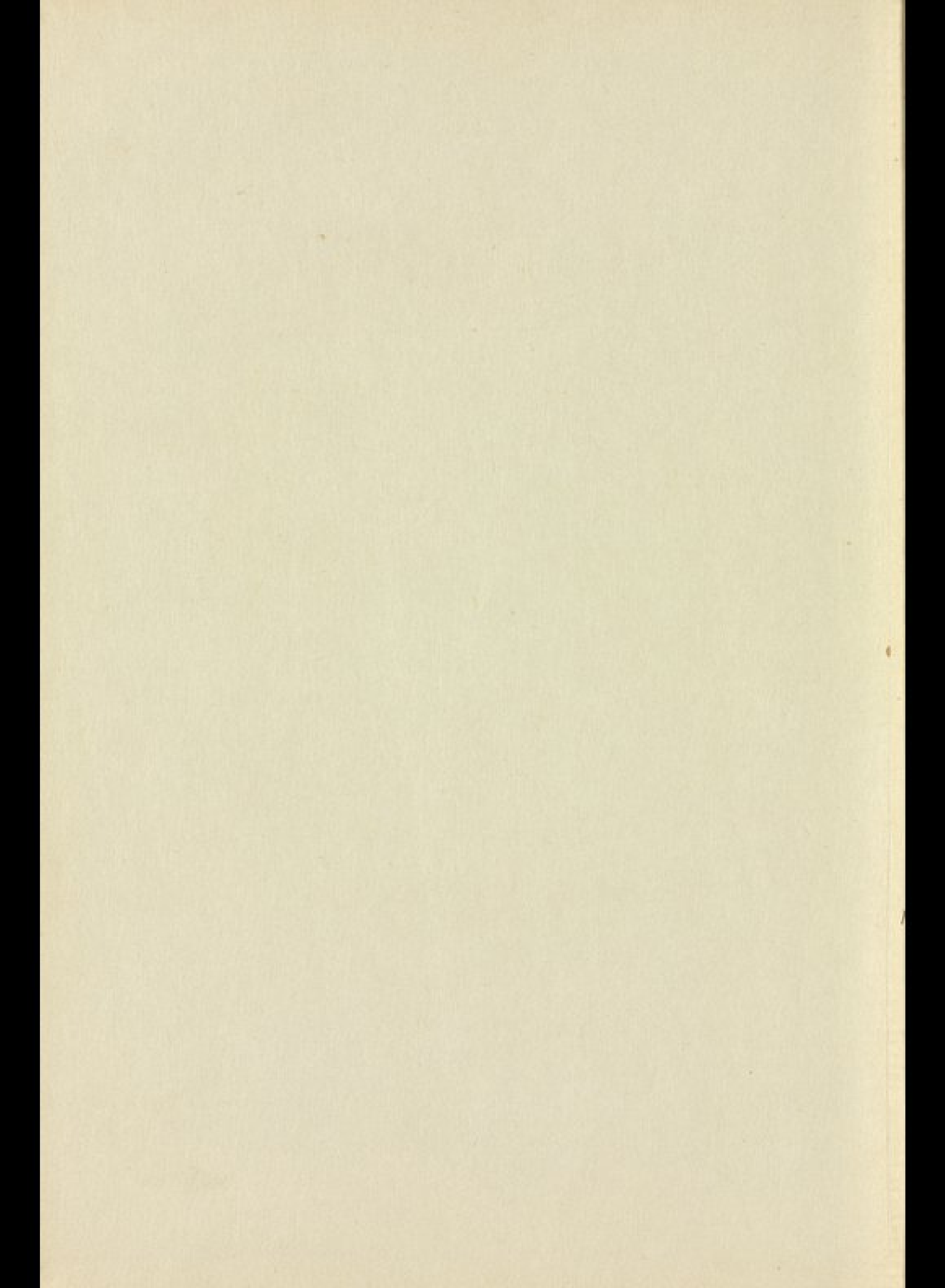
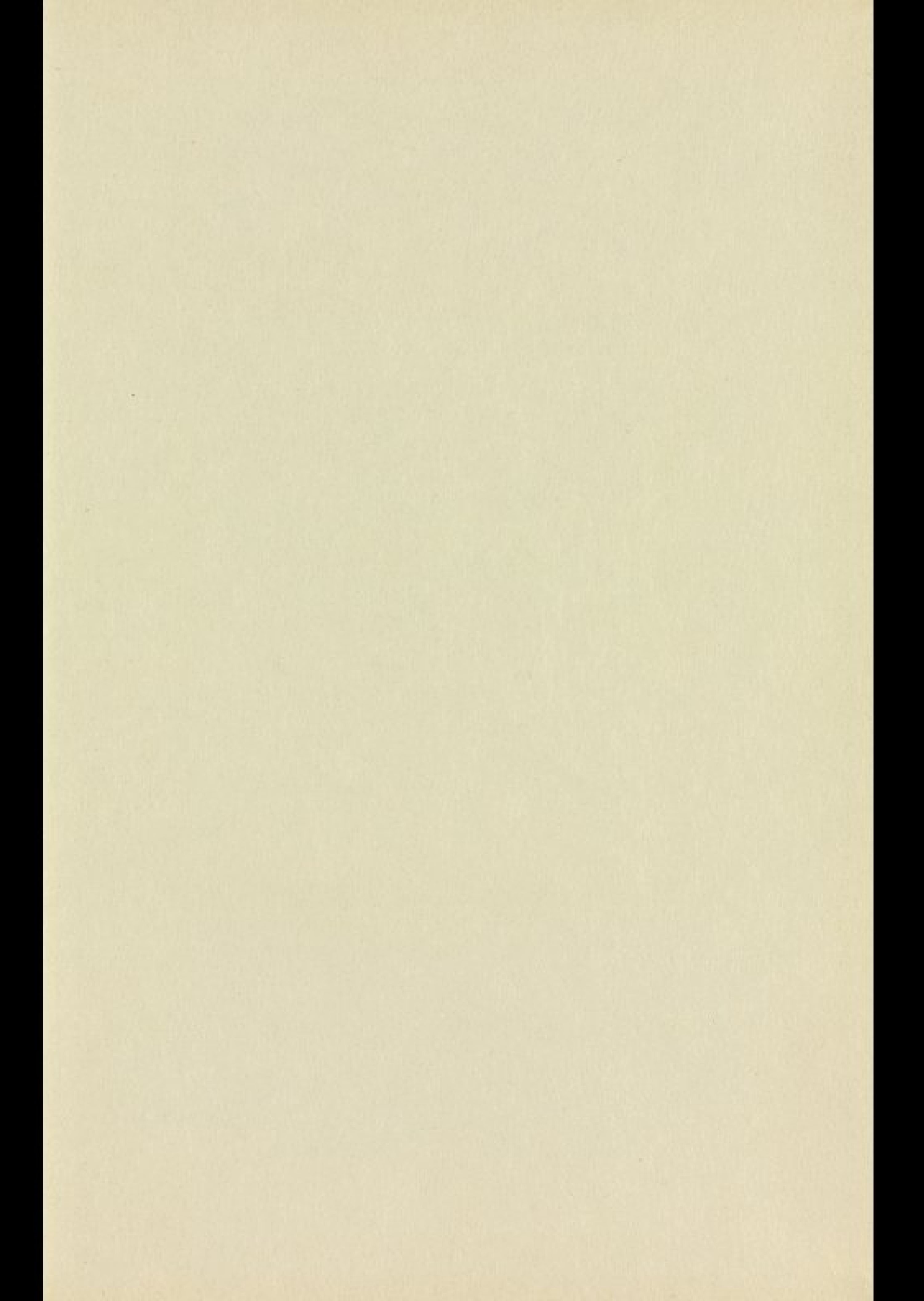
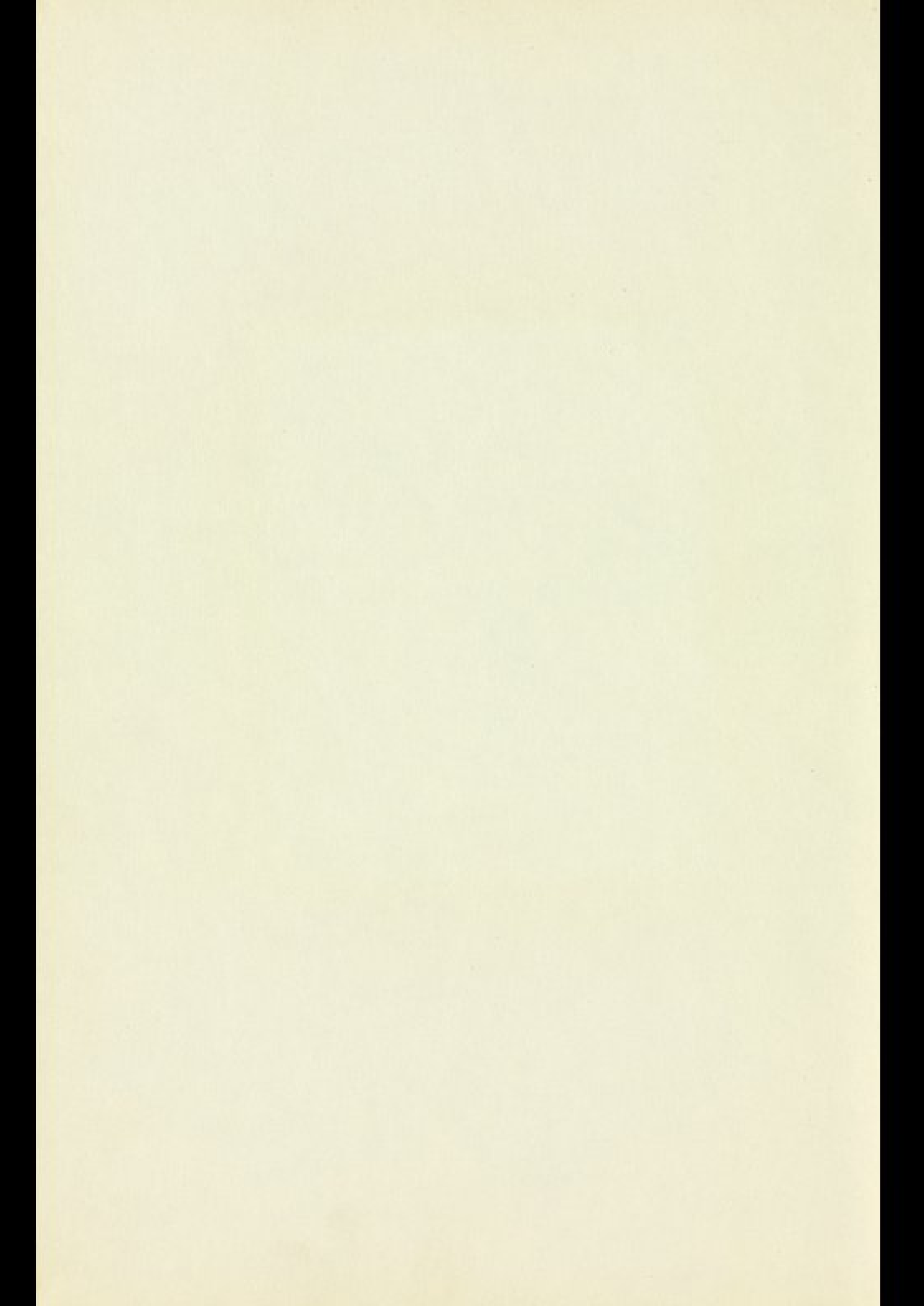
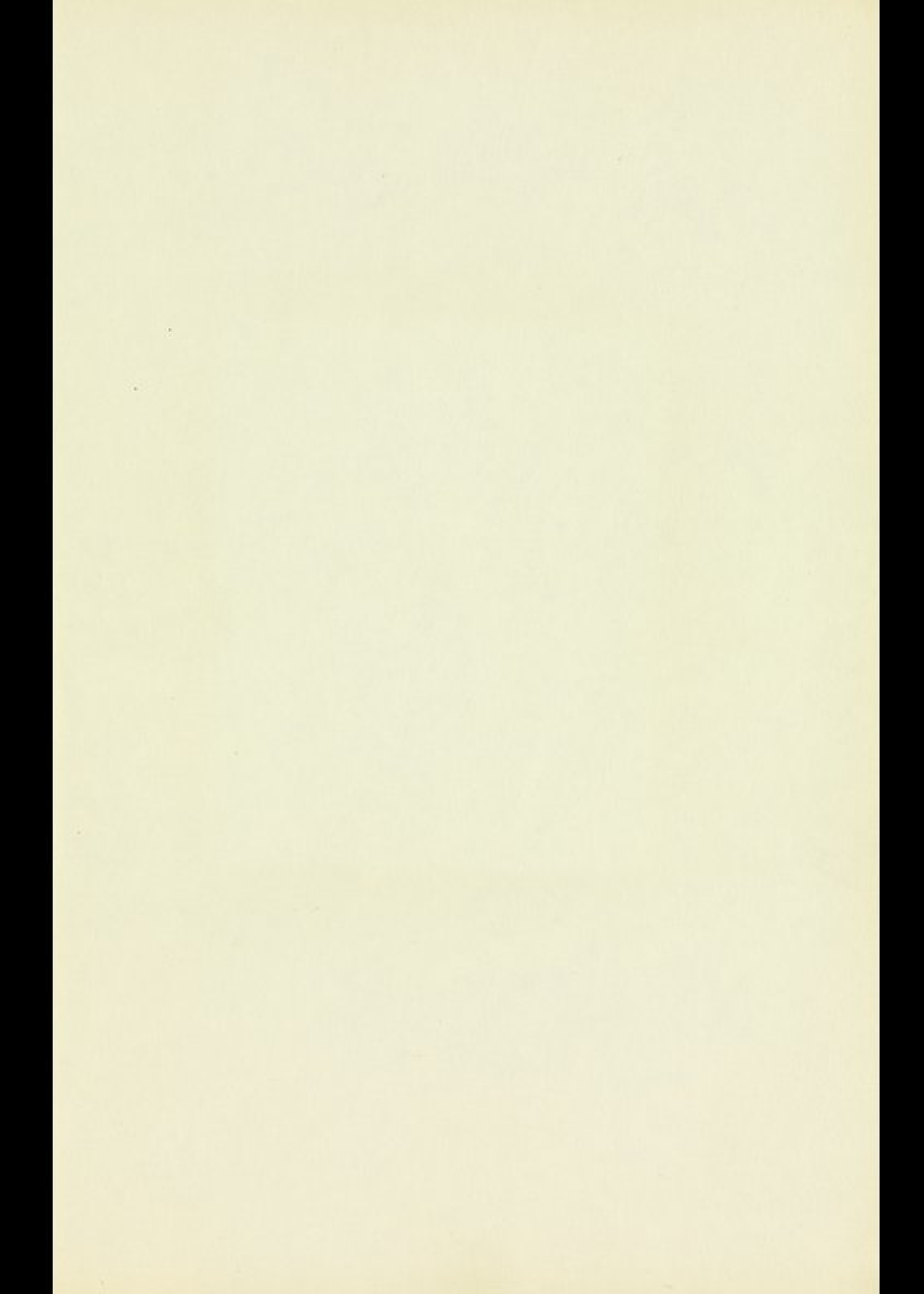












مثالب الوزيرين

أخلاق الصاحب بن عبّاد وابن العميد

لأبي حيّان التوحيدي

عني بتحقيقه

الدكتور ابراهيم الكيلاني

نشر وتوزيع

دار الفكر بدمشق

أبو حيان التوحيدي

٣١٠هـ - ٤١٤هـ

« فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة » .

ياقوت : إرشاد الأريب ٥/١٥

« ربما كان التوحيدي أعظم كتاب النثر العربي على الاطلاق » .

آ . متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١/٣٩٤

١ – عصر التوحيدي :

عاش أبو حيّان علي بن محمد بن العباس التوحيدي في القرن الرابع الهجري زمن بني بويه ، وهم جماعة من الفرس حكموا العراق وجنوبي فارس زهاء قرن ونيّف ، فكان من الطبيعي أن يصاب العربي في عهدهم بنكسة وأن تكون الغلبة للقومية الفارسية ، وأن يسود المذهب الشيعي ويتوغل في شرق الامبراطورية العباسية المفككة وغربها ، وأن يؤدي ذلك الى صراع عنيف بين السنيين الذين كان يساندهم الأتراك وبين الروافض الذين كان يساندهم البويهيون . وكان هؤلاء على مالهم من مزايا معروفين بالسطوة والجبروت والقسوة حتى امتلأ تاريخهم بأخبار الويلات والمآسي حلّت بالناس من جراء الفوضى التي سادت أيام حكمهم .

٢ - إن هذا الانحطاط السياسي كان يقابله رقي عقلي ، وكان من نتائج انقسام الدولة العباسية الى دويلات أن عمد أمراؤها سواء لأسباب سياسية أو بدافع حب الظهور أو تشبهاً ببغداد إبان عزّها الى تشجيع الحركة العلمية ورعاية أهل الفكر والأدب ،وبعد « أن كان نصير العلم الخليفة أو وزيره أو بعض عماله في بلد واحد أصبح نصراؤه في هذا العصر عدة ملوك وأمراء ووزراء في أشهر مدن العالم الاسلامي » فغدا كل قطر من اقطار المملكة مركزاً هاماً من مراكز الثقافة العربية فعرفت الحركة العلمية التي رعاها الخلفاء العباسيون شيئاً من الاستمرار .

وبالرغم من تشيع البويهيين ، ومن يقظة القومية الفارسية فإن هذين العاملين لم يحولا دون انتعاش الفكر العربي ، فقد كان كثيرون من البويهيين ووزرائهم على جانب من الثقافة حتى أصبح أساسَ الاختيار للوزارة عندهم شيئان : « القدرة الادارية والقدرة البلاغية » وعرف هـذا العهد وزراء احتلوا مكانة مرموقة في تاريخ الأدب والبيان العربيين منهم : أبو الفضـل بن العميد وولده أبو الفتح والصاحب بن عبّاد الذي جعل داره مجمعاً لجماعات الكتاب والمنشئين والمتكلمين والمتفلسفين والقراء حتى قال أبو حيّان التوحيدي يصف مجلسه : « وهل عند ابن عبّاد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون ! » ومن هؤلاء الوزراء الوزير المهلبي الذي كان « غاية في الأدب والمحبة لأهله » وبهاء الدولة أبو نصر سابور بن اردشير ، وابن سعدان وزير صمصام الدولة وهو القائل يفخر بأهل مجلسه على زميليه المهلبي وابن العميد « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وانهم لأعيان الفضل ، وسادة ذوي العقل ، وإذا خـلا العراق منهم فرقّن على الحكمة المروية ، والأدب المتهادي ، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحدٍ من هؤلاء ، أو تقدّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقلَّ واحد منهم ! »

كل هذا استدعى نبوغ كثيرين من العلماء والفلاسفة والفقهـــاء والمحدّثين والمفسرين والمتصوفة فعمّ النشاط العلمي مدناً في العراق وفارس كبغداد والبصرة والكوفة والريّ وأصفهان وشيراز وسيراف ، على أن بغداد على ما أصيبت به من ضعف وتضاؤل سياسي ظلت محتفظة الى حدّ ما ببقايا مجدها القديم ولم يخطىء متز حين قال : « إن جميع الحركات الروحية في مملكة الاسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد ، وكان فيها لجميع المذاهب أنصار » .

٣ ـ كانت الحالة الاجتماعية في أواخر القرن الثالث شبيهة بالحالة السيـاسية من حيث الفوضى وفقدان الاستقرار ، وكان من أبرز مظاهر هذا الاضطراب تباعد في الطبقات الشعبية وسوء توزيع للثروة العامة ، وفشو الاستغلال والترف والبذخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدنيا حتى أصبح النـــاس كما يقول مسكويه: « بين هارب جالٍ ، الى مظلومٍ صابر ، الى مستريح لتسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شرّه وبوائقه » وتعدُّ آثار التوحيدي صدى أميناً لحالة البؤس التي انحدر اليها الناس ومن بينهم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة وهم الجديرون بحياة كريمة شريفة ، فقد كان ابو سليمان السجستاني المنطقي المشهور « بحاجةٍ ماسةٍ إلى رغيف ، وحوله وقوته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غدائه وعشائه » وكان أبو سعيد السيرافي « عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الارض على حد تعبير تلميذه التوحيدي ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش » وكان سيد الفلاسفة يحيى بن عديّ النصراني « يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر » وكان المعافى بن زكريا النهرواني ذا « أنسةٍ بسائر العلوم » شاهده التوحيدي في جامع الرصافة « وقد نام مستدبر الشمس في يومٍ شاتٍ ، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم ، مع غزارة علمه، واتساع أدبه ، وفضله المشهور»

وقد زاد الحالة سوءاً كثرة الضرائب واشتداد وطأة الاقطاع ، وفرض

الرسوم ، واشتطاط عمال البويهيين من جند وقواد ومتصرفين في تحصيل الأموال ، واحتكار قوت الفقراء والاعتداء على الناس ومصادرتهم حتى ثارت الطبقات الفقيرة أكثر من مرة وخاصة في عهدي عضد الدولة وصمصام الدولة ، وقال المقدسي يصف حال العراق سنة ٣٧٥ : « إنه بيت الفتن والغلاء ، وهو في كل يوم الى الوراء ، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء » .

٤ ــ كان من الطبيعي أن تتأثر الآداب والفنون بهذا التدهور الاقتصادي فتجمع الأدباء والمفكرون وأهل المعرفة على أبواب الخلفاء والامراء طلباً للرزق والمثالة ، وكثر التزاحم بينهم في جوّ تسوده الدسائس والمؤامرات والوشايات والتملق مما أبعد الأديب عن المثالية والترفع عن الدنايا فحصر جهوده في الوصول الى المجد والثروة والشهرة فخفتت العاطفة الصادقة ، وغلب التكلف والمبالغة على الأدب ، وتلوّن بلون الشحذ والضراعة والاستعطاف، وآمن الناس بالحظوظ والطوالع والنجوم والرزق المقسوم فذمّوا الزمان والفقر وعدوه مصدر كثير من الشرور والآفات حتى قال أبو حيان التوحيدي وهو الذي اكتوى بنار الحرمان طوال حياته الطويلة : « لحا الله الفقر ، فانه جالب الطمع والطّبع ، وكاسب الجشع والضرع ، وهو الحائل بين المرء ودينه ، وسدّ دون مروءته وأدبه وعزة نفسه » وهو القائل أيضاً : « غدا شبابي هرماً من الفقر ،والقبر عندي خير من الفقر » ولذا قويت في هذا العصر نزعتا التصوف والتوكل ونما أدب الكدية الذي تمثله المقامة .

٥ ــ لمحة عن حياة أبي حيّان التوحيدي

ولد أبو حيّان علي بن محمد بن العبّاس التوحيدي سنة ٣١٠ هـ من أبوين فقيرين ، وصرف القسم الأكبر من حياته في بغداد حيث تلقى العلم على أيدي

أشهر أساتيذ عصره كأبي سعيد السيرافي (٢٤٨ هـ - ٣٦٧ هـ) الذي علمه النحو وغيره من أنواع المعرفة الشـائعة في عصره كعلوم القرآن والفقه والفرائض والحساب والكلام والبلاغة والشعر والعروض والقوافي ، كما أطلعه في سن مبكرة على أسرار علم التصوف ، وقد تأثر التوحيدي بآراء أستاذه وأفكاره إلى حد بعيد . ودرس التوحيدي أيضـاً علم الكلام والمنطق والعربية على علي بن عيسى الرماني (٢٩٦ هـ - ٣٨٤ هـ) وهو أحد أئمة اللغة والأدب والمتكلمين على طريقة المعتزلة، والتوحيدي مدين لأستاذه بتكوينه العقلي والمنطقي . ودرس التوحيدي الفقه الشـافعي على أساتذة ثلاثة : القاضي أبي حامد المروروذي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ وهو « من أئمة الفقه الذي لا يشقّ غباره » ، وأبي بكر محمد بن علي القفّال بن اسماعيل الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥هـ وكان « محدثاً ، فقيهاً ، أصولياً ، لغوياً ، شاعراً » ، والقاضي أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني (٣٠٥هـ-٣٩٠هـ) « أعلم الناس بفقه مذهب الطبري ونصرته والدفاع عنه » .

ودرس التوحيدي الفلسفة والمنطق على أبي زكريا يحيى بن عديّ الذي انتهت اليه « رياسة أهل المنطق في زمانه » كما درس الحكمة والمنطق على أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني وهو من أعاظم علماء زمانه ، وكان هؤلاء يجتمعون حوله لمناظرته ، وكان التوحيدي كثير الملازمة لأستاذه والأخذ عنه وتدوين كلامه ، ومن يتصفح كتاب « المقابسات » يجد أن أغلب المحاورات والمنـاظرات التي دوّنها التوحيدي هي من أحاديث أستـاذه السجستاني .

وهناك أساتذة آخرون كان أثرهم فيه أقل ممن تقدّم ذكرهم .

وهكذا قيّض للتوحيدي أن يتصل بأكابر علماء عصره مما أكسبه ثقافة موسوعية نرى آثارهـا ماثلة فيما وصل الينا من آثاره ..

٦ — قضى التوحيدي حياته شريداً طريداً تارة ، ومنزوياً تارة أخرى،ولم يعرف الهدوء والاستقرار إلا في فترات قصيرة ، ويبدو أنه طوّف في كثير من البلدان ، في الحجاز والعراقين والجبل والحجاز ، وقضى أكثر أيام عمره « متنقلاً من بلد إلى بلد ، يقف على الأبواب ، ويخالط الصوفية والغرباء» ولذا كثرت الفجوات في مراحل حياته وخفي علينا كثير من المعلومات التي تعين الدارس على تأريخ سيرة متصلة الحلقات .

توفي التوحيدي سنة ٤١٤ ﻫ في مدينة شيراز ودفن فيها .

٧ — اتصاله بكبراء عصره

كان لاتصال التوحيدي بكبراء عصره أثر كبير في ظروف حياته ونتاجه الأدبي . فكان أول من اتصل بهم الوزير أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي (٢٩١ - ٣٥٢ ﻫ) وزير معز الدولة . وكان المهلّبي « جامعاً لأدوات الرئاسة » يعطف على الأدباء وأهل العلم ، شديد التعصب على أعداء الشيعة ، بعيداً عن روح التسامح ، فلم يلق التوحيدي صدراً رحباً منه نظراً لموقف التوحيدي من الشيعة والرافضة ، وتذكر إحدى الروايات أنه نفاه من بغداد « لسوء عقيدته وزندقته وانحلاله » ، وقد اضطر التوحيدي إلى الاحتفاء واحتراف مهنة الوراقة على كره منه لمهنة فيها « ذهاب العمر والبصر » .

٨ — ثم بدا للتوحيدي الرحيل إلى أبي الفضل بن العميد ، وكان من ألمع شخصيات عصره علماً وأدباً وسياسة مما « بهر به أهل زمانه ، حتى أذعن له العدو ، وسلم الحسود ، ولم يزاحمه أحد في المعاني التي اجتمعت له » ، وكان التوحيدي يأمل من اتصاله بالوزير الفوز بالهدوء

والاستقرار بعد غربة وتشرّد ، غير أنه لم يفز منه بما كان يؤمل ، ولعلّ ابن العميد آلمه اعتداد التوحيدي بنفسه واستطالته عليه وهو ـ أي التوحيدي ـ صوفيّ السمت والهيئة « غرّ ، لا هيئة له في لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء » ، وفي ابن العميد « أبهة الفرس وعظمة السلطان » فاحتقره وازدراه ، فكان من رد الفعل عند التوحيدي تأليفه رسالة المثالب التي طعن فيها بابن العميد مظهراً عيوبه ونقائصه ، ثم اتصل بعد ذلك بأبي الفتح بن العميد ، فلم يكن نجاحه عنده بأحسن من نجاحه عند أبيه ، فأفرد له في رسالة مثالب الوزيرين مقاطع كثيرة طعن فيها بأدبه وخلقه حتى تداخل الاسمان في الرسالة وصعب أحياناً التمييز بينهما .

ولا شك في أن التوحيدي كان مدفوعاً بهواه وحقده في هجومه على ابن العميد وابنه وقلّما ينجو الإنسان من سلطان الغايات لأن الهوى كما يقول التوحيدي نفسه « مقيم لابث ، والرأي مجتاز عارض ، ولا بدّ للهوى أن يعمل عمله ، ويبلغ مبلغه ، وله قرار لا يطمئن دونه » كما أن الذام « لا يسلم إذا ذمّ من الإسراف تعنتاً لصاحبه ، وحملاً عليه بالانحاء الشديد ، والقول الشنيع ، والنداء الفاضح ، والحديث المخزي ، وجرياً مع شفاء الغيظ وبرد الغليل » .

وبعد فان التوحيدي لم يكتب ما كتب في ثلب الوزيرين إلا بتأثير إخفاقه في نيل عطاء ابن العميد والفوز برضاه بعد طول الرجاء والتأميل والخدمة لأن « جرعة الحرمان ـ على حدّ قوله ـ أمرُّ من جرعة الثكل ، وضياع التأميل أمضّ من الموت ، وخدمة من لم يجعله الله لها أهلاً أشدّ من الفقر » .

٩ ـ عند الصاحب بن عبّاد

في سنة ٣٦٧ هـ توجّه التوحيدي من بغداد إلى مدينة الريّ للوقوف بباب الصاحب بن عبّاد ، وكان هــذا يومئذٍ من كبار وزراء بني بويه ، وله شهرة ومقام في المجالين الإداري والأدبي . وكان التوحيدي قصد الصاحب كما يقول « بأمل فسيح ، وصــدر رحيب » وهو في « بقيّة من غرب الشبـاب ، وبعض ريعانه » « فأناخ في فنائه مع شدة العدم والانفاض والحاجة المزعجة عن الوطن ، وصفر الكف عما يصان به الوجه ، وبعد تردده إلى بابه في غمار الغادين والرائحين والطــامعين الراجين ، وصبره على ما كلّفه نسخه حتى نشب به تسعة أشهر خدمة وتقرباً وطلباً للجدوى منه ، والجاه عنده ، مع الضرع والتملّق ببعض ما فارق من أجله الأعزّة ، وهجر بسببه الاخوان » .

ماذا كانت عاقبة هجرة التوحيدي إلى الصــاحب بن عبّاد ؟ الاخفاق التام، لأن كل شيء في نفسيتي الرجلين يحمل على التباعد والتضاغن والجفـاء ، ويفسّر التوحيدي ذلك بقوله : « .... ولكني ابتليتُ به ، وكذلك هو ابتُلي بي ، ورماني عن قوسه مُغْرقاً ، فأفرغتُ ما كان عندي على رأسه مغيظــاً ، وحرمني فازدريتُه ، وحقرني فأخزيتُه ، وخصّني بالخيبة التي نالت مني ، فخصصتُه بالغيبة التي أحرقته ، والبـادي أظلم ، والمنتصف أعذر » . ويمضي التوحيدي في تسويغ سلوكه مع الصــاحب بن عبّاد بقوله : « ولئن كان منعني ماله الذي لم يبق له ، فما حظر عليّ عرضه الذي بقي بعده ، ولئن كنت قد انصرفت عنه بخفي حنين لقد لصق به من لســاني وقلمي كلّ عار وشنــار وشين ، ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبرّه ، إني لأراه أهلاً لقول الحق فيه ،

ونثّ ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظنّ أن ما يصير إليّ من ماله ضائع ، إني لأيقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولي شائع» .

ولا ريب في أن التوحيدي معذور فيما فرط منه لأنه فقير ، مدفوع إلى المبالغة والشطط في حالتي السخط والرضى ، وصاحب الفقر ـ كما يقول التوحيدي ـ « إن مدح فرّط ، وإن ذمّ أسقط » .

ولذا لم يترك التوحيدي طريقاً للطعن بالصاحب والإساءة إلى سمعته إلا سلكها، طعن في خلقه ، وأدبه ، وعلمه ، وعرضه ، فهو جاهل وبخيل وغبي ورقيع وسخيف وسفاك للدماء ، وغدّار ، وقليل الوفاء والذمة ، كما انه لم يدع أسلوباً من أساليب الوصف والتشنيع إلا اعتمد عليه في مهاجمة خصمه وجعله موضعاً للهزء والسخرية والضحك ، فكأن التوحيدي وهو « المجبول على الغرام بثلب الكرام » قد عبأ موهبته الفنية ، وقدرته البيانية وثقافته الواسعة ليكشف مساوىء الصاحب الذي أساء اليه وردّه خائباً بعد ثلاث سنوات من الانتظار كانت عقباها كما يقول التوحيدي : «واني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام بغير زادٍ ولا راحلة ، ولم يعطني مدة ثلاث سنين درهماً واحداً، ولا ما قيمته درهمٌ واحد ، فاحمل هذا على ما أردت ، ولما نالني منه هذا الحرمان الذي قصدني به ، واحفظني عليه ، وجعلني من جميع غاشية ورده فرداً ، أخذت أملأ ذلك بصدق القول عنه في سوء الثناء عليه والبادي أظلم » .

كان من أثر هذه الخصومة مع الوزيرين هذه التحفة الأدبية الثمينة التي أودعها على حد تعبيره « نفسه الغزير ولفظه الطويل والقصير » والتي يرجع الينا فضل السبق الى نشرها .

١٠ ـ رسالة مثالب الوزيرين

تعددت أسماء هذه الرسالة فهي مثالب الوزيرين وثلب الوزيرين عندابن خلكان، وذم الوزيرين وأخلاق الوزيرين عند ياقوت الرومي ، وثلب الوزيرين عند طاش كبري زاده ، وورد عنوانها في المخطوطة «رسالة أبي حيان التوحيدي في أخلاق ابن العميد والصاحب بن عبّاد » ، ووصفها أبو حيان نفسه في كتاب الامتاع والمؤانسة فقال مخاطباً ابن سعدان الوزير : « على أني عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد وهي تجزّع في دَسْت كاغدٍ فرعوني[١] » ، ويظهر ان أبا حيان قد أضاف اليها نصوصاً جديدة لأن ما وصل الينا أكثر مما وصفه مؤلفها. وقد ظلت هذه الرسالة مفقودة ، فلم نعرف عنها إلا مقاطع ذكرها ياقوت في إرشاد الأريب في ترجمة أبي حيان التوحيدي ، والصاحب بن عبّاد ، وأحمد ابن محمد بن ثوابة ، واعتقد المستشرق مرجليوت في مقاله عن التوحيدي في دائرة المعارف الاسلامية « أن هذه الرسالة محفوظة في القسطنطينية ، وأن مطبعة الجوائب وعدت بنشرها » .

١١ ـ العثور على الرسالة

إني من المولعين بأبي حيّان ، ومن أشد المتتبعين لآثاره حماسة ، وقد ظللت زمناً أتشوق للعثور عليها حتى عددت ذلك من أمنيات العمر إلى أن قيض لي القدر أحد المستشرقين وهو السيد مارك بيرجه Marc Bérgé الذي عثر عليها مصادفة، وكان يعرف مبلغ تعلقي بأبي حيان وحرصي على نشر آثاره فصوّر المخطوطة وأهدانيها فإليه شكري الخالص وشكر القراء والمعجبين بأدب التوحيدي على هذه الهدية القيمة .

---

(١) تجزع : تجزأ ، الدست : أربع وعشرون ورقة ، الكاغد : الورق ، فرعوني : مصري .

١٣ - وصف المخطوطة

وهي محفوظة في مكتبة أسعد افندي في استانبول تحت رقم ٣٥٤٢ ضمن مجموعة يبدأ رقم صفحاتها من ٤٣ ب الى ٩٢ ب ويتراوح عدد سطورها بين ٢٠ سطراً و ٣٢ سطراً وخطها نسخي ، عادي ، متداخل ، ويظهر ان المخطوطة كانت مهملة في الأصل وقد ضبطها أحد مقتنيها بحبر يخالف الحبر الأصلي مما جعل قراءتها عسيرة ومهمة المحقق صعبة .

١٤ - طريقة التحقيق

كانت عنايتنا في التحقيق موجهة الى النص ولذا لم نشأ اثقـــاله بالحواشي والتفاسير والملاحظات . وقد اعترضتنا أثناء التحقيق مقاطع وجمل وكلمات غامضة فلم نقف عندها مقرين بالعجز عن حلّها بل حاولنا جهدنا اعطاء حلّ هدانا اليه اجتهادنا تاركين للقارىء الحكم على خطئه أو صوابه .

أما ما ورد في الرسالة من جمل وأبيات وأخبار بذيئة يستنكرها التهذيب والحياء فلم نشأ حذفها أو التصرف بها حرصاً على الأمانة والنزاهة العلميتين .

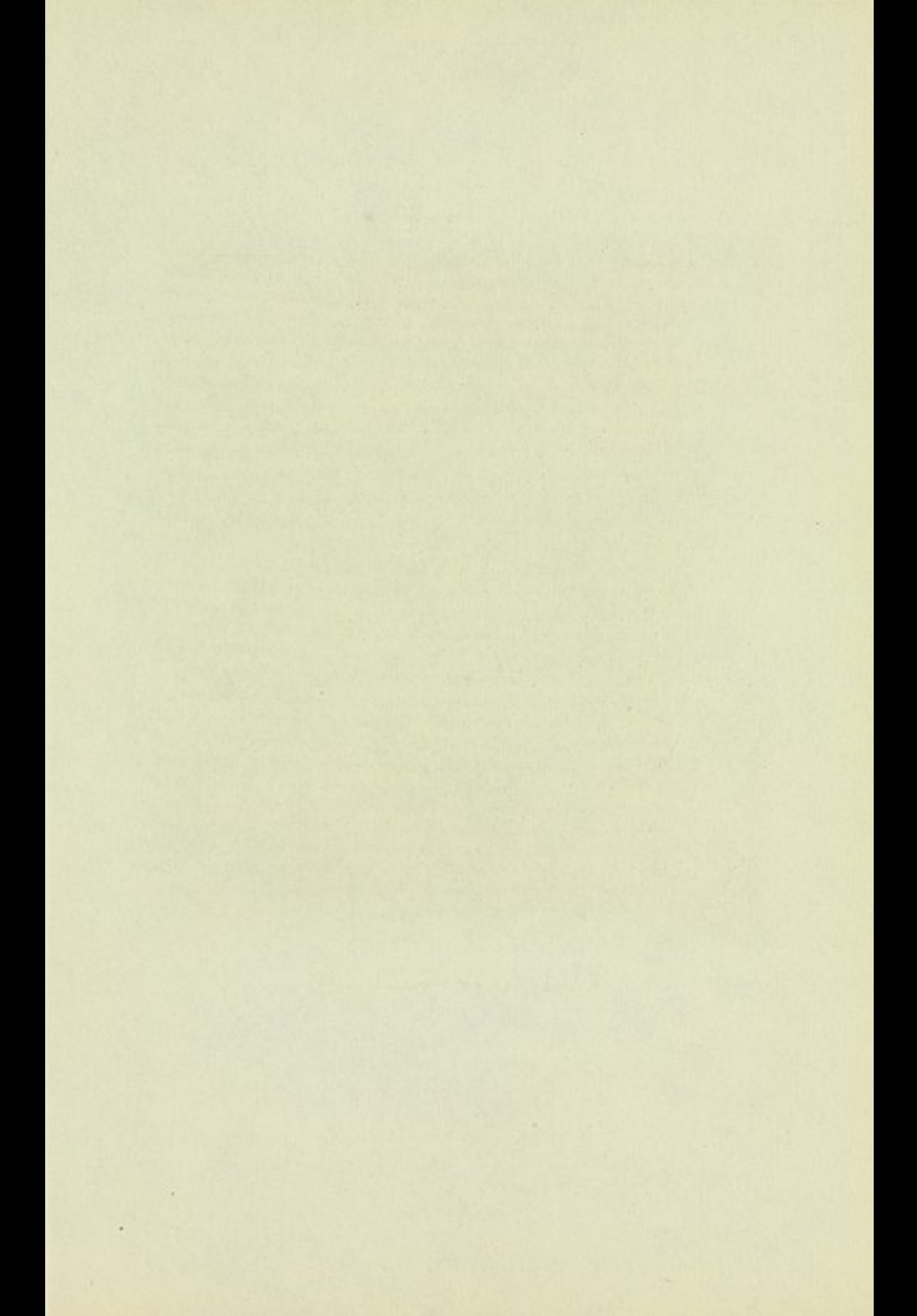
سدّد الله خطانا ووفقنا الى ما فيه خدمة تراثنا ولغتنا العربية الخالدة .

دمشق في ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

الدكتور ابراهيم الكيلاني

راموز الصفحة (٢٣) من المخطوطة

راموز الصفحة (٤٢) من المخطوطة



بسم الله الرحمن الرحيم

[قال ابو حيان التوحيدي :]

/ الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين ، أمتعك الله بنعمته عليك ، وتولاك بحسن معونته لك ، وألهمك حمده ، وأوزعك شكره ، ومنحك صنعه وتوفيقه ، وألبسك عفوه وعافيته ، وأوصل إليك رأفته ورحمته ، وصرف رغبتك إلى ما خلص عندك نفعه عاجلاً ، وحلت لك ثمرته آجلا ، وعرّفك ما في الغيبة والفرية [1] من الهجنة والشناعة ، وما في إظهار العيب والتنديد من العار والتباعة [2] ، وما في الإعراض عن أعراض الناس من السلامة والفائدة ،وما في مباقاتهم [3] ومقارتهم والتوقير لهم من الراحة والعائدة[4]،حتى لا تأتي ما تأتي إلا وأنت واثق بعاقبته ومرجوعه ، ولا تدع ما تدع إلا وأنت محسوم الطمع من خيره ومردوده ، وحتى لا تتكلف إلا ما في وسعك وطاقتك ، ولا تكلف أحداً إلا ما له طريق إلى طاعتك وإجابتك،وعنده الحجة القوية في تقديم أمرك ، والبلوى [5] فيما يتجمله لك ، ويتوخى فيه مسرتك ، ويقصد به جذلك وغبطتك ، ويصير بالصبر عليه من أوليائك وشيعتك ، ولا يخرج معه إلى محادّتك ومخالفتك لأمر

[١ب]

---

(١) الفرية : الكذب واختلاقه .

(٢) التباعة : ما ترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله في الشر .

(٣) لم نقف على هذا المصدر في المعاجم التي بين أيدينا ولعل أبا حيان يريد من « المباقاة» المفاعلة من الإبقاء على الصحبة .

(٤) في الأصل : « والفائدة » .

(٥) البلوى : الاختبار .

يعوز ، وحادث يعرض ، وعطن يضيق ، وبال يتحرك ، وطباع تخور ، وحاسد يطمن ، وعدو يعترض ، وجاهل يتعجرف ، وسفيه يتهانف[1] ، وصدر يحرج ، ولسان يتلجلج ، بل يتلقى أمرك بالقبول ، وينشط لخدمتك بالتأميل ، ويرى أن ما يناله من رضاك فوق ما يبذل فيه جهده لك ، وما يحرزه من ثوابك أضعاف ما يبرزه من كدحه عندك ، وما ينجو به من عتبك واسترادتك يوفي على ما يتعلق بسعيه في مرادك ، وما يعز به في الثاني من إحمادك أرد عليه مما يذل به في الأول من اقتراحك ، وما يقوى به من اليقين والطمأنينة في كرامته عندك أكثر مما يضعف به من الترنح والشك في بواره عليك .

[باب في أدب النفس]

وهذا باب يرجع إلى معرفة الأحوال إذا وردت مشتبهة مستبهمة ، وعواقب الأمور إذا صدرت مستنيرة متوضحة ، وثمرة هذه المعرفة السلامة في الدنيا، والكرامة في الآخرة ، وبهذه المعرفة يصح الفرق والموازنة ، ويميز ما اختلف فيه مما اتفق عليه ، وما ترجح من الاختلاف والاتفاق ، ولم يقم عند الامتحان والنظر على ساق . وهذه حال لا تستفاد إلا بقلة الرضا عن النفس ،وترك الهوينا في التشاور والتخاير ، ومجانبة الوِكال كيف دار الأمر ، وأين بلغت الغاية.

وأنت حفظك الله إذا نظرت إلى الدنيا وجدتها قائمة على هذه الأركان ،جارية على هذه الأصول ، ثابتة على هذه العادة ، فكل من كان نصيبه من الكَيْس

---

(١) يتهانف : يضحك ضحك المستهزىء .

والحزامة أكثر ، كان قسطه من النفع والعائدة أوفر ، وكل من كان حظه من العقل والتأييد أنزر ، كانت تجارته فيها أخسر ، وعاقبته منها أعسر. وهذا الباب جماع المنافع والمضار ، وبه يقع التفاوت بين الأخيار والأشرار ، وبين السّفلة وذوي الأقدار ، وهو باب ينتظم الصدق والكذب في القول ، والخير الشر في الفعل ، والحق والباطل في الاعتقاد ، والعدل والجور فيما عمّ ، والاخلاص واليقين فيما خص ، والراحة والسكون فيما بان ووضح ، والقناعة والصبر فيما نأى ونزح .

ومتى تمت هذه المعرفة ، واستحكمت هذه البصيرة كان الإقدام على ثقة بالظفر والنكول عن الاطلاع على الغيب . وهذه معان من أبصرها نقدها ، ومن نقدها أخذ بها وأعطى، وكان فيها أنفذ من غيره وأمضى ، / وهناك يحكم لغوْره بالبعد، ولصدره بالسعة ، ولصيته بالطيْرورة ، ولطباعه بالكرم ، ولخلقه بالسهولة ، ولعوده بالصلابة ، ولنفسه بالمرارة ، ولوجهه بالطلاقة، ولشباته بالخلابة . ومتى عاشرت مَنْ هذا نعته وحديثه ، نَعمْتَ معه ، وسلمت عليه ، وسعدت به، وكرمت لديه ، وكان حظك من خلالته ومجاورته الغبطة به والغنيمة بمكانه. [٢ أ]

[الانسان الكامل]

وأنى لك مَنْ هذا وصفه وخبره ، ومن لك بالمرء الذي لا بعده مع اضطراب دعائم الدنيا ، وتساقط أركان الدين . والأول يقول :

« وكيف التماس الدّرّ والضرع يابس [1] »

* * *

(١) البيت للمرقش الأكبر والشطر الأول :

تعاللتها وليس طي بدرها ...

تعاللتها : أخذت علالتها يريد سيرها مرة بعد مرة أي ساعة يرفق بها وساعة يجهدها ، أخذها من العلل وهو الشرب الثاني . طي : طلبي وإرادتي . درها: لبنها. (المفضليات ٢/٢٧)

« وما لامرىءٍ عمـا قضى الله مَزْحلُ »

* * *

« وليس لرحْلٍ حطّــه الله حاملُ »

* * *

« إن البريء من الهَنــاتِ سعيدُ »

* * *

« وما خيرُ سيفٍ لم يؤيد بقــائمٍ (١) »

* * *

« ... ولكن أين بالسيف ضارب (٢) »

* * *

« الله يرزق لا كيسٌ ولا حمق »

* * *

«والبرُّ خيرُ حقيبةِ الرحْلِ (٣) »

* * *

---

(١) من قصيدة لبشار بن برد وصدره :

وما خير كف أمسك الغل أختهـا

(الديوان)

(٢) تمام البيت : فهذي سيوف يا صدي بن مالك

حـداد ولكن أين بالسيف ضـارب

كما ورد الشطر الثاني في رواية ابن الفراء :

كثير ولـكن أين بالسيف ضـارب

راجع : أمالي ابن الشجري ٢٦٧/١ ومعاني القرآن للفراء ٦٤/١

(٣) صدر البيت : الله أمنح ما طلبت به « شرح ديوان الحماسة ١٦٢/٣»

ولقد أجاد المخزومي أبو سعد [١] في قوله :

« اصطلح السائلُ والمسؤولُ »

« ليس إلى مكرمة سبيلُ »

« غال بإخوان الوفاء غولُ »

« كل امرىء بشأنه مشغولُ »

بعد الآخر حين يقول :

أرى الناس شتى في النجار وإن غدتْ
خلائقهم في اللوم واحـدةَ النَّجْرِ
وقد زادني عَتْبـاً على الدهر أنني
عدمتُ الذي يُعدي على حادث الدهرِ

وهذا كثير ، والداء فيه مُتفاقم ، والقولُ عليه مُعاد مملول .

[الشعراء والحكمة]

فإن قلت: هؤلاء شعراء ، والشعراء سفهاء ، ليسوا علماء ولا حكماء ، وإنما يقولون ما يقولون والجشع بادٍ منهم ، والطمع غالب عليهم ، وعلى قـدر الرَّغبة والرهبةِ يكون صوابهم وخطأهم ، ومن أمكن أن يُزَحْزَحَ عن الحق بأدنى طمع ، ويُحمل على الباطل بأيْسر رغبةٍ ، فليس ممن يكون لقوله آتاء،

---

(١) أبو سعد المخزومي : واسمه عيسى بن الوليد من شعراء العباسيين عاصر دعبلاً وجرت بينهما مهاجاة « الفهرست ٢٣٥ ، الموشح ٣٤٧ ، الأغاني ١٨/٥٠ » .

أو لحكمته مضاء ، أو لقدره رفعة ، أو في حلقه طهارة ، ولهذا قال القائل : لا تَصْحَبَنَّ شاعراً فإنه يهجوك مجاناً ، ويطري بثمن ،وهذا لأنه مع الريح، أين مالت به مال ، يتطوّح مع أقل عارض ، ويجيب أول ناعق ، ويشيم أيّ برق لاح ، ولا يبالي في أي واد طاح ، قد جمع دينه ومروءته في قرن تهاونا بهما ، وعجزاً عن تدبيرهما،فهو لا يكترث كيف أجاب سائلاً ، وكيف أبطل مجيباً ، وكيف ذمّ كاذباً ومتحاملاً ، وكيف مدح مواربا ومخاتلاً ، فلا تفعل فداك عمك وشبّ ابنك ، فإن رسول الله صلى الله عليه [وسلم] قد قال : إن من الشعر لحكماً ، وقال : وإن من البيـــان لسحراً ، وكيف لا يكون ذلك كذلك وفيه مثل قول لبيد (١) :

إن تقوى ربنا خير نَفَلْ ... وبإذن الله ريثي وعجل (٢)

[الشعر والنثر]

والشعر كلام ، وإن كان من قبيل النظم ، كما أن الخطبة كلام ، وإن كان من قبيل النثر ، والانتثار والانتظام صورتان للكلام في السمع ، كما أن الحق والباطل صورتان للمعنى ، وكذلك المثـــل في السمع ، وليس الصواب مقصوراً على النثر دون النظم ، ولا الحق مقبولاً بالنظم دون النثر ، وما رأينا أحداً أغضى على باطل النظم ، واعترض على حق

---

(١) هو لبيد العامري « ... – ٤١ هـ » أحد الشعراء الفرســـان في الجاهلية ، أدرك الاسلام وسكن الكوفة وكان من المعمرين وهو من أصحاب المعلقات.

(٢) مطلع قصيدة . راجع الديوان ص ١١ طبعة بروكلمان ليدن ١٨٩٢
Die Gedichte Des Lebid Leiden 1892

النثر ، لأن النثر لا ينتقص من الحق شيئاً ، وما أحسن ما قال القائل [١] :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه
على المجالس إن كيساً وإن حمقا
وإنّ أشعر بيت أنت قائله
بيت يقال إذا أنشدته صَدَقا

وهذا باب لا يفيد الإغراق فيه إلا ما يفيد التوسط والقصد ، فلا وجه مع هذا للاطالة ، ولما يكون سبباً للملالة .

[أسباب تأليف الرسالة]

وهذه الجملة — أكرمك الله — أنت أحوجتني إليها ، وجشمتني صعبها ، حتى نشبت [٢] بها قائماً وقاعداً ، وتقلبت في حافاتها مختاراً ومضطراً ، وتصرفت في فنونها محسناً ومسيئاً لما تابعت إليّ من كتاب بعد كتاب ، تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عبّاد وابن العميد وغيرهما ممن أدركته في عصري من هؤلاء منذ سنة خمسين وثلاثمائة إلى هذه الغاية ، وزعمتَ أني قد خبرت هذين الرجلين من غمار الباقين ، ووقفت على شأنهما ، واستبنت دخائلها ، وعرفتُ خوافي أحوالهما ، وغرائب مذاهبهما وأخلاقهما ،

---

(١) البيتان لحسان بن ثابت الأنصاري راجع الديوان طبعة البرقوقي ١٩٢٩ ص ٢٩٢

(٢) نشب بالشيء : تعلق به .

ولعَمري قد كان أكثرُ ذلك إما بالمشاهدة والصحبة ، وإما بالسماع والرواية من البطانة ، والحاشية ، والندماء ؛ وذوي الملابسة وقلت : ينبغي أن تضيف إلى ذلك ما يتعلق به ، ويدخل في طرازه؛ / ولا يخرج عن الإفادة بذكره ؛ والاستفادة من نشره ؛ فإن ذلك يأتي على كل ما تتوق اليه النفس من كرم ولؤم ، وزيادة ونقص ، وورع وانسلاخ ، ورزانة وسخف ، وكيْس وبلَه ، وشجاعة وجُبن ، ووفاء وغدر ، وسياسة وإهمال ، واستعفاف ونطَف [١] ، ودهاء وغفلة ، وبيان وعيّ ، ورشاد وغيّ ، وخطأ وصواب ، وحلم وسفَه ، وخلاعة وتمالك ، ونزاهة ودنَس، وفظاظة ورقّة ، وحياء وقِحة ، ورحمة وقسوة . [٢ب]

[التزام الصراحة]

وقلت : ولا يحلُ موقع ذلك كله ، ولا يعذُب ورده ، ولا يغزر عدُه ، ولا ينقاد السمع له ، ولا يُراح القلب به إلا بعد أن تدع المحاشاة وأنت مقتدر ، وتفارق المحاشاة وأنت متبصّر ، وإلا بعد أن تترك العدو والحاسد يتقدان بغيظها اتقاداً ، ويرتدان على أعقابها ارتداداً ، فإن التقيّة في هذا الفن مَجزعة مَضرعة ، وركوب الردع فيه مأثرة ومفخرة .

[وضع الامور في نصابها]

وقلت والعامة تقوله : من جعل نفسه شاة دقّ عنقه الذئب ، ومن

(١) النطف : الريبة والفساد .

حيث تقسه نخالة أكله الدجاج ، ومن نام على قارعة الطريق دقته الحوافر دقاً ، والكبر في استيفاء الحق من غير ظلم ، كالتواضع في أداء الحق من غير ذل ، وكما أن المنع في موضع الإعطاء حرمان ، كذلك الإعطاء في موضع المنع خذلان ، كما أن الكلام في موضع الصمت فضل وهذر ، كذلك السكوت في موضع الكلام لكنة وحصر .

[نتائج الاحسان والاساءة]

وكما أن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ، كذلك النفوس طبعت على بغض من أساء إليها . والجبْلُ (١) والطبع وإن افترقا في اللفظ فإنهما يجتمعان في المعنى ، وكما أن الحب نتيجة الإحسان ، كذلك البغض نتيجة الإساءة ، وكما أن المنعَمَ عليه لا يتهنا بنعمته الواصلة اليه إلا بالشكر لواهبها ، كذلك المساءَ اليه لا يجد برد غلته ولذة حياته إلا بأن يشكوَ صاحب الإساءة ، وإلا بأن يهجو المانع ويذم المقصر ويثلِبَ الحارم ، وينادي على الخسيس الساقط ، والنذل الهابط في كل سوق ، وفي كل مجلس ، وعند كل هزل وجد ، ومع كل شكل وضد ، ميزان عدل ، ووزن بقسط ، ونصفة مقبولة ، وعادة جارية على وجه الدهر .

وقلت أيضاً : ومن وجعُ قلبه وجعُك ، وألم علته ألمك ، وحُرم حرمانك ، وخيّب خيبتك ، وجُرّع ما جُرّعته ، وقصد بما قصدت به ، وعومل بما شاع لك ، قال وأطال ، وكرّر وسيّر ، وأعاد

---

(١) جبله : خلقه وفطره .

وأبداً[١] ، وعرض وصرّح ، ومرّض وصحّح ، وقام وقعد ، وقرّب وبعّد ، وإنّ عيناً ترقد على الضيم للعمى أحسن بها ، وإنّ نفساً تقر على الخسف للموت أولى بها من حياتها .

[العتب على ابن العميد]

وقلت : أما سمعت قول العاتب على ابن العميد في رسالته حين قال الحق له قال : وليعلم المرء وإن عزّ سلطانه ، وعلا مكانه ، وكرُمت حاشيته وغاشيته ، وملك الأعنة ، وقاد الأزمة ، أنه بنعم له في الحمد على الحسَن ، والذم على القبيح ، وان المخوف يُرتاب من ورائه ، كما يقرّع المأمون في وجهه ، فأعلاهما حالاً أكثرهما عند التقصير وبالاً ، وهذا بابٌ يعرفه من الناس من ساس الناس ، وهذا الكاتب يعرف بالأشل .

[ذكر محاسن الوزيرين ومساوئهما]

وقلت أيضاً : ولست أسألك أن لا تذكر من حديثهما إلا ما كان جالباً لمقتهما ، أو داعياً إلى الزراية عليهما ، وباعثاً على سوء القول والاعتقاد فيهما ، بل تضيف إلى ذلك ما قد شاع لهما ، وشُهِرَ عنهما ، من فضائل لم يَثلثْهُما[٢] فيها أحدٌ في زمانهما ولا كبيرٌ ممن تقدمهما ، فإن الفائدة المطلوبة في أمرهما ، وشرح حديثهما ، تأديب النفس ، واجتلاب الأنس ، وإصلاح الخلُق ، وتخليص ما حسُنَ مما قبُح ، وتسليط النظر الصحيح

---

(١) في الأصل : أبدى .

(٢) ثلث « كضرب » كان ثالثهم .

مع العـــدل المحمود فيما أشكل ، واشتبـــه بين الحسن المطلق والقُبح المطلق .

[التوفيق بين المعنى والمبنى]

وقلت : ممـــا ينبغي أن لا تغفله ولا تذهب عنه ، وتطالب نفسك بالتيقظ فيه ، أن تجمع له باب اللفظ والمعنى في الصدق والكذب ، فإنك إن حرَّفت / في هذا بعض التحريف ، وجزَّفت بعض التجزيف ، خرج معناك من أن يكون فخماً نبيلاً ، ولفظك من أن يكون حـــلواً مقبولاً ، لأن الأحوال كلها في صلاحهـــا وفسادها موضوعة دون اللفظ المونق ، والتأليف المُعجب ، والنظم المتلائم ، وما أكثر ما رُدَّ صالح معناه لفاسد لفظه ، وقُبِلَ فاسد معناه لصالح لفظه . [٣ أ]

[صلاح الماضي]

وقلت : انما نبهتك على هذا شفقة عليك ، وحرصاً على أن لا يكون لمعْنِتٍ وعائبٍ طريقٌ إليك ، وأنت بحمـــد الله مستوصى (١) لا تحوج إلى تنبيه بعنف ، وإن أحوجت إلى إذكار بلطف . وقد كان البيان عزيزاً في وقت البيان ، والنُّصح غريباً في وقت النُّصح ، والدِّين مستظرفاً في وقت الدين ، إذ الحكمة معانقةٌ بالصدر والنحر ، مقبَّلةٌ بكل شَفَة وثغر ، مخطوبةٌ من جميع الآفاق ، يقرع من أجلهـــا كلُّ باب ، ويحرَّق على

---

(١) في الأصل : مستوص .

فائتها كلُّ ناب . والأدب متنافس فيه ، محروصٌ على الإكثار (١) منه مع شُعبه الكثيرة ، وطرائقه المختلفة ، والدين في عُرض ذلك مذبوبٌ عنه بالقول والعمل ، مرجوعٌ اليه بالرضا والتسليم ، مقنوعٌ به في الغضب والحِلم .

[فساد الحاضر]

فكيف اليوم وقد استحالت الحال عجاء ، وملك الغنى والثراء الرؤساء والعلماء ، وقل الخائض فيما كسب زيادة ، أو نفى نقيصة ، وأورث عزاً وأعقب فوزاً .

[حسن الاستعداد للقول]

وقلت : ولكن ذلك كله - إذا نشطت له مقصوراً غير مبسوط ، أو بين المقصور والمبسوط - فإنه إن زاد على هذا التحديد طال ، وإذا طال مُلَّ ، وإذا مُلَّ نُظِرَ إلى صحيحه بعين السقيم ، وحكم على حقه بلسان الباطل ، وتُخيل القصد فيه إسرافاً ، والعدل فيه جوراً ، وعند ذلك يحول عن بهجته ومائه ورونقه وصفائه .

وجميع ما قلته - حاطك الله - وأتيت به ، وسحبت ذيلك عليه ، ورفلتَ أعطافك فيه ، قد سمته وفهمته وطويته في نفسي ، وبسطته وجمعته بذهني وفرّقته ، ونظمته عندي ونثرته ، ولست جاهلاً به ولا ذاهلاً عنه ولكن من لي بعتاد ذلك كله وبالتأتي له ، وبالقدرة عليه ، وبالسلامة فيه إن فاتتني الغنيمة فيه مع صدري الضيّق وبالي المشغول ، ومع رزوح الحال ،

---

(١) في الهامش : استكثار .

وفقد النصر ، وعدم القوت ، وسوء الجزع ، وضعف التوكل ، نعم ومع الأدب المدخول ، واللسان الملجلج ، والعلم القليل ، والبيان النزْر ، والخوف المانع ، وإني لأظن أن الطائع لك في هذه الخطة ، والمجيب عن هـــذه المسألة قليل النقيّة [١] ، سيء البقية ، ضعيف البديهة والروية ، لأنه يتصدى لما لا يفي به ، ولا يتسع له ، ولا يتمكن منـــه ، فإن وفى واتسع وتمكن لم يسلم على كثير ممن يقرأ كلامه ، ويتصفح أمره ، ويقصّ أثره ، ويطلب عثرته .

[موقف الناس من المدح والذم]

لأن الناس في نشر المدح والذم ، وفي بسط العذر واللوم على آراء مختلفة ومذاهب متباينة ، وأهواء مشتملة ، وعادات متعاندة ، على أنهم بعـــد شدة جدالهم ، وطول مرائهم رجلان : متعصب لمن تذمه وتعيبه وتنثُ [٢] القبيح عنه ، فهو يغفر له جميع ما يسمع منك ، صادقاً كنت أو كاذباً ، معرّضـــاً كنت أو مفصحاً . أو متعضب على من تمدحه وتزكّيه ، وتفضّله وتثني عليه ، فهو يرد عليك كل ما تدعيه ، محققاً كنت أو محرفـــاً [٣] موضحاً كنت أو مزخرفاً ، ولذلك قال بعض علماء السلف الصالح : هما أمران مثواك بينها : راض عنك ، فهو يمنحك أكثر ممـــا هو لك ، وساخطٌ عليك ينقصك من حقك ، فرمّ [٤] ما ثلم البـــاغي بفضلة الراضي ، يعتدل بك

---

(١) النقية : مؤنث النقي وهي الكلمة .

(٢) نث الخبر ينثه : أفشـــاه .

(٣) في الأصل مجرفا .

(٤) رمه يرمه رماً ومرمة : أصلحه .

الأمر ؛ والشاعر قد فرغ من هذا المعنى وسيّره في قريضه المشهور المتداول حيث يقول :

وعين الرضـــا عن كل عيبٍ كليلةٌ
ولكنّ عين السخط تُبدي المساويا (١)

على أن هذا الشاعر قد أثبت العيب ، وإن كان قد وصفه بكلول العين عنه، ودلّ على المساوىء وإن كان السخط مبديها .

[الهوى والرأي]

وهذا لأن الهوى مقيم لابث ؛ والرأي مجتاز عارض ؛ ولا بــد للهوى أن يعمل عمله ، ويبلغ مبلغه ، وله قرار لا يطمئن / دونه ، وحد هو أبداً يتعداه ويتجاوزه ، وله غول تُضلُّ ، وتمساح يبتلع ، وثعبان إذا فحّ (٢) لا يبقي ولا يذر ، والرأي عنـــده غريب خامل ، وناصح مجهول . وقال بعض الحكماء : فضل ما بين الرأي والهوى أن الهوى يخصُّ ؛ والرأي يعمّ ؛ والهوى في حيّز العاجل ، والرأي في حيز الآجل ، والرأي يبقى على الدهر ؛ والهوى سريع البيود كالزهر ، والرأي من وراء حجاب ، والهوى مفتّح الأبواب ، ممدد الأطناب ، ولذلك قال أيضاً بعض العرب ويقال هو عامر ابن الظرب (٣) : الرأي نائم والهوى يقظان ، فأرقدوا الهوى بفظاظة ، وأيقظوا الرأي بلطافة . وقال الشاعر :

[٣ب]

---

(١) الشعر لعبد الله بن معاوية الأغاني ١٢/٢٣٣

(٢) في الأصل : نفح .

(٣) عامر بن الظرب العدواني : حكيم ، خطيب في الجاهليـــة كانت العرب لا تعدل بفهمه فهمـاً ولا بحكمه حكماً وهو أحد المعمرين في الجاهليـة وكان يقـال له ذو الحلم .

كم من أسير في يديْ شهواته
ظفر الهوى منه بحزمٍ ضائعِ

وقال أعرابي : لم أرَ كالعقل صديقاً معقوقاً ، ولا كالهوى عدواً معشوقاً، ومن وفقه الله للخير جعل هواه مقموعاً ، ورأيه مرفوعاً .

[الاسراف في المدح والذم]

وإذا كان الهوى - أبقاك الله - على ما وصفنا ، وعلى وراء ما وصفنا ، مما لا نحيط به وإن أطلنا ، فمتى يخلو المادح إذا مدح من بعض الافراط تقرباً إلى مأموله وخِلابة [١] لعقله ، واستدراراً لكرمه ، وبعثاً على تنويله وتخويله . وهذه حال مصحوبة في الممدوح إذا كان أيضاً غائباً أو ميتاً ، أو متى يسلم الذامّ إذا ذم من بعض الاسراف تعنتاً لصاحبه ، وحملاً عليه بالانحاء [٢] الشديد ، والقول الشنيع ،والنداء الفاضح ، والحديث المخزي وجرياً مع شفاء الغيظ وبرد الغليل .

[الحرمان والتأميل]

لأن جرعة الحرمان أمرّ من جرعة الثكل ، وضياع التأميل أمضّ من الموت ، وخدمة من لم يجعله الله لها أهلاً أشد من الفقر ، وإنما يُخدم من انتصب خليفة لله بين عباده بالكرم ، والرحمة ، والتجاوز ، والصفح ، والجود ، والنائل ، وصلة العيش ، وبذل مادة الحياة ، وما يصاب به روح الكفاية ؛ وحرمان المؤمّل من الرئيس ككفران النعمة من التابع ؛ ورَحى

---

(١) الخلابة : الخديعة باللسان .

(٢) أنحى عليه باللائمة : أقبل عليه بها .

الحرب في هذا الموضع راكدة ، والقراع عليه قائم ، والخطابة في دفعه وإثباته واسعة ، والتمويه مع ذلك معترض ، والاعتداد مردود ، والتأويل كثير ، والتنزيل قليل .

[الحرمان والشتم]

ولقد رأيت الجرجرائي[١] وكان في عداد الوزراء ، وجلة الرؤساء ، وإنما قتله ابن بقيّة [٢] لأنه نمّ[٣] له بالوزارة . يقول للحاتمي أبي عليّ ، وهو من أدهياء الناس : إنما تُحرم لأنك تشتُم ، فقال الحاتمي[٤] : وإنما أشتُم لأني أحرَم ، فأعاد الجرجرائي قوله ، فأعاد الحاتمي جوابه ، فقال : ثم ماذا ؟ فقال الحاتمي : دع الدَّست قائمة وإن شئت عملناها على الواضحة قال : قل !

[المادح والممدوح]

قال الحاتمي : نقطع هذا ألا يسمعوا مدائحهم ولا يكترثوا بمراتبهم ، وأن يعترفوا لنا بمزية الأدب ، وفضل العلم ، وشرف الحكمة كمأخذ ينالهم

---

(١) هو محمد بن الفضل الجرجرائي . تولى الوزارة زمن المتوكل من سنة ٢٣٢ هـ إلى ٢٣٦ هـ . توفي حوالي ٢٥٠ هـ . ورد ذكره في الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ٢١٧/٣

(٢) هو محمد بن بقية نصير الدولة ، خدم معز الدولة بن بويه واستوزره ابنه عز الدولة وهو الذي سمل عينيه سنة ٣٦٦ . ولما ملك عضد الدولة بغداد طلبه وألقاه تحت أرجل الفيلة وصلبه سنة ٣٦٧ هـ ، وفيه قال ابن الأنباري قصيدته المشهورة :

« علو في الحياة وفي المات »

(٣) النم : الكلام الخفي ومنه : نم .

(٤) هو أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي صاحب الرسالة الحاتمية توفي سنة ٣٨٨ هـ .

بعظمة الولاية ، وفضل العمل ، وبسط اليد ، وعرض الجاه ، والاستبداد بالتنعم ، والطاق والرواق ، والأمر والنهي ، والحُجّاب والبوّاب ، وأن يكتبوا على أبواب دورهم وقصورهم : يا بني الرجاء ابعدوا عنا ، ويا أصحاب الأمل اقطعوا أطماعكم عن خيرنا وميرنا ، وأحمرنا وأصفرنا ، ووفروا علينا أموالنا ، فلسنا نرتاح لنثركم[1] في رسالة تحبّرونها ، ولا لنظمكم في قصيدة تتخيرونها . ولا نعتدّ بملازمتكم لمجالسنا ، وترددكم الى ابوابنا ، وصبركم على ذل حجابنا ، ولا نهشّ لمدحكم ، وقريضكم ، ولا لثنائكم وتقريظكم ، ومن فعل ما زجرناه عنه ثم ندم فلا يلومن إلا نفسه ، ولا يقلعنّ إلا ضرسه ، ولا يخمشنّ إلا وجهه ، ولا يشقنّ إلا ثوبه .

[ثمن المدح]

وإن من طمع في موائدنا يجب أن يصبر على أوابدنا ، ومن رغب في فوائدنا نَشب[2] في مكائدنا ، فاما إذا استخدمونا في مجالسهم لوصف محاسنهم ، وستر مساوئهم ، والاحتجاج عنهم ، والكذب لهم ، وأن نكون ألسنة نفّاحة عنهم ، فليثيبوا على العمل ، فان في توفية العمال أجورهم قوام الدنيا ، وحياة الأحياء والموتى . فان قصرنا بعد ذلك في إعادة الشكر وإبدائه ، وتنميق الثناء وإنشائه ، فانهم من متعنا في حلّ ، ومن الإساءة الينا في سعة .

---

(١) في الأصل «لبشركم» وهو تصحيف .

(٢) نشب : لقي شراً .

[العطاء والمنع]

فرأيت الجرجرائي حين سمع هذا الكلام النقي ، وهـذه الحجة البالغة وَجَمَ [1] ساعة ثم قال : لعمري إذا جئنا إلى الحق / ونظرنا فيه بعين لا قذىً بها ، ونفسٍ لا لؤمَ فيها ، فإن العطاء أولى من المنع ، والتنويل أولى من الحرمان ، والخطأ في الجود أسلم من الصواب في البخل ، لأن الصواب في البخل خفيٌ جداً ، وقلَّ من يعرفه ، والخطأ في الجود حلوٌ جداً وقلَّ من يكرهه .

[٤ أ]

وأنا أقول : قد صدقَ هـذا الرجل الجليلُ في هـذا الحرف صدقاً لا تماري فيه .

[بين التوحيدي ومسكويه]

ولقد جرى بيني وبين أبي علي مسكويه [2] شيء هذا موضعه . قال مرة : أما ترى إلى خطأ صاحبنا ـ وهو يعني ابن العميد ـ في اعطائه فلاناً الف دينـار ضربة واحدة ، لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت له بعدما أطـال الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ أسألك عن شيء واحد وأصدق فانه لا مَدَبٌ للكذب بيني وبينك ، ولا هُبوبَ لريح التمويه علينا ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وأضعافه وأضعاف أضعافه أكنتَ تتخيله في نفسك مخطئاً ، ومبذراً ،

---

(١) سكت وعجز عن التكلم .

(٢) ابو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مؤرخ وفيلسوف اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق والتاريخ والأدب والانشاء . صحب عضد الدولة البويهي وأشرف على خزانة كتبه . وكان مسكويه معاصراً للتوحيدي وله مؤلفات كثيرة أهمها تجارب الأمم وتعاقب الهمم، وتهذيب الأخلاق. توفي سنة ٤٢١ هـ . راجع الامتاع والمؤانسة ١/٣٥

ومفسداً أو جاهلاً بحق المال . أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل وليته أربى عليه ! فان كان ما تسمع على حقيقته فاعلم ان الذي بدّد مالك ، وردّد مقالك إنما هو الحسد وشيء آخر من جنسه ، فأنت تدّعي الحكمة ، وتتكلم في الأخلاق وتزيف منها الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك واطلع على سرّك وشرك.

[البذل والمنع]

هذا ذكرته – أبقاك الله – لتتبين أن الخطأ في العطاء مقبول ، والنفس تغضي عليه ، والصواب في المنع مردود ، والنفس تقلق منه ، ولذلك قال المأمون وهو سيدٌ كريم، وملك عظيم ، وسائس معروف : لأن أخطىء باذلاً أحب إليّ من أن أصيب مانعاً . والشاعر يقول : [1]

لا يذهبُ العرفُ بين الله والناس

وإن كان يكفر النعمة بعض من أنعم عليه بها ، إنه ليشكرها كثيرٌ ممن لم يتلمّظ[2] حلاوتها، ولم يَطعم فتاتةً منها ، ولم يُسِغْ جرعةً من غديرها، ولم يسحب ذيلاً من أذيالها . وصدر هذا الكلام شبيه بشيء لا بأس بروايته في هذا الموضع ، وإن لم يكن من قبيل ما طال القول فيه ، وتوالى النَّفَس به .

---

١) البيت للحطيئة والشطر الأول :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

(٢) لمظ وتلمظ : أخرج لسانه بعد الأكل أو الشرب فسح به شفتيه ، أو تتبع بلسانه بقية الطعام بين أسنانه بعد الاكل .

[الطاعة والتوفيق]

قال المأمون (١) لأبي العتاهية (٢) : إذا قال اللهُ لعبده لِمَ لَمْ تطعني ؟ أيُّ شيء يكونُ من جوابه؟فقال : يقول : يارب لو وفقتني لأطعتك . قال : فان الله يقول : لو أطعتني لوفقتك . قال أبو العتاهية : فان العبد يقول : لو وفقتني لأطعتك، أيكون ما يحتاج العبد اليه نسيئةً ، وما يطالبه الله به نقداً ؟ قال المأمون : فما يقطع هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين اصرفْ عنه فان الدست قائمة .

[المحاسن والمساوىء]

وأرجع فأقول : وما خلا الناس منذ قامت الدنيا من تقصير ، واجتهاد ، وبلوغ الغاية ، وتصور عن النهاية،وتشارك في المحامد والمذام ،والمساوىء والمحاسن، والمناقب والمثالب والفضائل والرذائل ، والمكارم والملائم ، والمنافع والمضار والمكاره والمسارّ ومن بعض ما يكون للقائل فيه مندوحة ، والمشاغب به استراحة ، وللناظر فيه متسع ، وللسامع مُستمتع . وأحسنهم حالاً وأسعدهم جَداً، وأبلغهم يُمناً ، وأربحهم بضاعةً من كانت محاسنه غامرةلمساويه، ومناقبه ظاهرة على مثالبه ، ومادحه أكثر من هاجيه ، وعاذره أنطق من عاذله ، والمحتج عنه أنبه من المحتج عليه ، والنافح عنه أصدق من النافخ فيه ، وليس العمل على عدد هذه وهذه ، ولكن على أن لا يكون مع صاحب المحاسن من الخصال اللئيمة وما يُحبطها ، ويجتاحها ، ويختلعها ، ويأتي عليها ، وإن صغر جرم تلك الخلة، وخمل

---

(١) الخليفة العباسي ابن هارون الرشيد « ١٧٠ هـ — ٢١٨ هـ »

(٢) اسماعيل بن القاسم بن سويد العيني الشاعر العباسي المشهور «١٣٠هـ—٢١١هـ»

اسم تلك الخصلة ،وأن يكون مع صاحب المساوىء من الخلال الكريمة وما يَعطيها ويُسبل الستر عليها ،ويعين الزائد عنها ، ويبيّض وجه الناصر لها ، ويُمدُّ باع المتطاول اليها . وكما وجدنا السيئات يحبطن الحسنات ، وكذلك قد وجدنا الحسنات يُذهبن السيئات .

[الدين والخلق والعلم]

والعمود الذي عليه المعوَّل والغاية التي اليها الموئل في خصالٍ ثلاثٍ هن دعائم العالم،وأركان الحياة،وأمهات الفضائل وأصول مصالح الخلق في المعاش والمعاد ،وهن : الدين والخلق والعلم . بهن يعتدل الحال ، وينتهي إلى الكمال ، وبهن تملك الأزمّة ، وينال أعزُّ ما تسمو اليه الهمة ، وبهن تؤمن الغوايل ، وتحمد العواقب،لأن الدين جُمّاع[1] المراشد والمصالح ، والخلق نظام الخيرات والمنافع ، والعلم رباط الجميع ، ولأن الدين بالعلم يصح ، والخلق بالعلم يطهر ، والعلم بالعمل يكمل ، فمن سلم دينه من الشك واللحاء[2] ، وسوء الظن والمراء ، وثبت على قاعدة التصديق بمواد اليقين الذي / أقر به البرهان ، وطهر خلقه من دنس الملال ، ولجاج الطمع ، وهجنة البخل ، وكان له من البِشر نصيب ، ومن الطلاقة حظ ، ومن المساهلة موضع ، وحظي بالعلم الذي هو حياة الميت ، وحَلْيُ الحيّ ، وكمال الانسان،فقد برز بكل فضل ، وبان بكل شرف ، وخلا عن كل غباوة ، وبرىء من كل مَعابة ، وبلغ النجد الأشرف ، وصار إلى الغاية القصوى .

[٤ب]

ولم أذكر لك العقل في هذا التفصيل وهو أولهن ، وبه تم آخرهن ، وعليه

---

(١) جماع : كل ماتجمع وانضم بعضه إلى بعض .

(٢) اللحاء : المنازعة والممانعة والمعاداة .

مجرى جميع ما افتنّ القول به ، لأنه موهبة الله العظمى ، ومنحته الكبرى ، وباب السعادة في الآخرة والأولى ، وكان ما عداه فرعاً عليه ، ومضموماً اليه ، لأنه متى عدمه الإنسان الحيُّ الناطق فقد سقط عنه التكليف ، وبَطل عليه الاختيار وصار كبعض البهائم العاملة ، وكبعض الشخوص الماثلة ، وبه يعرف الدين ، ويقوم الخلق ، ويقتبس العلم ، ويلتمس العمل الذي هو الزبدة . وقد يعدم العمل والعقل موجود ، وقد يفقد الخلق والدين ثابت ، فليس الأصل كالفرع ، ولا الأول كالثاني ، ولا العلة كمجلوب العلة ، ولا ما هو قائم كالجوهر كما هو دائر كالعَرَض . فلهذا أضربت عن ذكره ، وغنيتُ عن الاستظهار به ، وإذا تمت فائدة الكلام ، فما زاد عليه لغوٌ ، وإذا استقرّ فيه المعنى ، فما ألمّ به فساد .

[أنصباء الناس من الاركان الثلاثة]

والناس - هداك الله - من هذه الخصال التي ميّزتها ، والخلال التي نصصتُ القول فيها على أنصباءٍ مختلفة ، وهم فيها على غايات متنازحة ، بالقلة والكثرة ، والضعف والقوة ، والنقصان والزيادة ، ومن أجلها يتَمَوحّون بالحمد على الاحسان ويُخدمون بالشكر على الجميل ، ويُحَيّون بالنصائح الخالصة ، ويجبّون بالقلوب الصافية ، ويثنى عليهم بالقرائح النقية ، والطويات المأمونة ، ويُذبُّ عنهم بالنيات الحسنة ، والألسنة الفصيحة ، ويعاونون عند الشدائد الحادثة ، والنوائب الكارثة ، والأمور الهائلة ،والأسباب الغائلة ، بالمال المدخور ، والنصح المنخول ، ويُدفع عنهم بالأيدي الباطشة ، والأقدام الثابتة ، والأرواح العزيزة ، والأنفس الكريمة .

[جزاء التقصير]

وكذلك يركلون على التقصير باللائمة ، ويجبهون على اللوم بالآبدة [١] ، ويذمون على التهاون بكل فاقرة [٢] ، ويطوقون بكل خزي ومعرة ، ويواجهون بكل شنعاء مُفْضِغَة [٣] ، ويُعتابون بكل فاحشة منكرة ، ويرمون بكل ساقطة ولاقطة ، ويحرقون بكل نار حامية ، ويقذفون بكل مخجلة مندية . فهذا جمهور الخبر عن حال المجتهد إذا أحسن وحال المسيء إذا قصر ، وهم وإن كانوا على هذا السياق ثابتين ، ولهذا المنهاج سالكين ، فإنهم ينزعون إلى أصول حديثة وقديمة ، وأعراق كريمة ولئيمة .

[السعادة في العطاء]

والمجدود من بينهم من لاث الله بيافوخه الخير ، وعقد بناصيته البركة ، وجعل يده ينبوع الافضال والجود ، وعصم طباعه من الخساسة والدناءة ، وكفاه عار البطالة والعثالة [٤] ، ونزهه عن الإسفاف والنذالة ، وهذا كله ثمرة البصيرة الباقية ، والنية الحسنة ، والضمير المأمون ، والغيب السليم ، والعقد المؤرب [٥] ، والحق المؤثر وإن كان مراً ، والأدب الحسن وإن كان شاقاً ، والعفافة التي أصلها الطهارة ، والطهارة التي أصلها النزاهة . ومن عجن الله طينته بهذا الماء ، وروح عنه بهذا الهواء ، وأطلق نفسه في هذا الجو ،

---

(١) الآبدة : الداهية يبقى ذكرها أبداً .

(٢) الفاقرة : الداهية الشديدة فكأنها تكسر فقر الظهر .

(٣) في الأصل مفصعة وهو تصحيف ومفضغة من فضغ العود كمنع هشمه .

(٤) عثل يعثل عثلاً : كان كبيراً وغليظاً ضخماً .

(٥) أرب : أحكم ووثق .

وقلّبه على هذا البساط ، وسقاه بهذا النوء فقد أيده بروح القدُس،ووصله بلطيف الصنع ، وأكمل عليه النعمة الجليلة ، وأبانه بالشرف المحسود ، وميزه بالمزية التامة، وخصه بخِيْم [١] الأنبياء ، وألبسه جلباب الأصفياء ، وآتاه ضرائب الصالحين ، وأحضره توفيق المهديين المرضيين .

[دواعي القول]

وقد صح ـ حفظك الله ـ عندي ، ووضح لي أن الذي هاجك على هذا المعنى حتى حركتني له ، وطالبتني به ، ولم ترض مني إلا بالمبالغة والاستقصاء ، وإلا بمبادلة الأعداء وذوي الشر ، اجتماعنا في مجالس العلماء ،أو تلاقينا على أبواب الحكماء والأدباء أيام كنت أفكّهك [٢] الحديث النادر ، واللفظ الحسن ، وأضحك سنك بما مَلُح وحرّ ، وأزيدك في خلال ذلك خبرةً بالدهر وأهله ، واعتباراً بالزمان وتصرُّفه ، وافتح عليك باب المؤانسة ، وأصف لك أخلاق الناس ، وما يفترقون به ويجتمعون عليه من غرايب الأمور ، وطرائف الأحوال ، أيام كان عود الشباب رطيباً ، وورق الحياة نضيراً ، وظل العيش ممدوداً ، ونجم الزمان متوقداً ، ومقترح النفس مواتياً ، وروض المنى خضلاً ، ودَرُّ النِّعمة متصلاً ، وداعي الهوى مشمراً ، أيام رأسك فَيْنان [٣] وأنت كالصَّعْدة [٤] تحت السنان، [٥ أ] / شِطاطُك [٥] معجب، وحديثك معشوق ، وقربك مُتَمنّىً ، والليل بك قصير ،

---

(١) الخيم (بالكسر) السجية والطبيعة بلا واحد .

(٢) فكه : أطعم الفاكهة وأطرف بملح الكلام وأطربه.

(٣) الفينان: حسن الشعر طويله .

(٤) الصعدة : القناة المستوية المستقيمة .

(٥) الشطاط : الطول وحسن القوام أو اعتداله .

والنهار عليك مقصور ، والعيون اليك طوامح ، والعواذل دونك نوافح ، وذلك زمان مضى فانقضى ، فإما غوياً وإما رشيداً ، وكان الوقت يقتضي ذلك ويسعه ، والحال تواتيه وتحمله ، والعذر يقع لطالبه وملتمسه ، لكني إذا نظرت إلى أملي المتعلق بك ، وطمعي الحائم عليك ، ورجائي المذبذب [1] حولك ، وحالي التي جعلك الله كافلها وراعيها ، وجامعها ومصلحها ، وناظم ما انتثر منها ، ومؤلف ما انتشر عنها ، رأيت البدار إليَّ يغنيك أدباً محموداً، وحظاً مُدرَكاً ،والتراخي عن طاعتك حرماناً حاضراً ، وعتباً مؤلماً .

[مساوىء الطمع]

وهكذا صنيع الطمع ، فقل لي : ما أصنع إن رد اعتذاري بعضُ من يسرُّه عِثاري ، ويسوؤُه استمراري ، وليس إلا الصبر ، فانه مفتاح كل باب مرتج ، وبرود كل حرّان ملهج ؟ وما زال الطمع قديماً وحديثاً ، وبدءاً وعَوْداً يضرع الخد الصقيل ، ويُرغم الأنف الأشم ، ويعفّر الوجه المفدى ، ويغضّن العارض المندّى، ويحني القوام المهتز ، ويدنّس العِرض الطاهر .

[مساوىء الفقر]

ولحا الله الفقر ، فإنه جالب الطمع والطّبَع [2] ، وكاسب الجشع والضرع [3] ، وهو الحائل بين المرء ودينه ، وسدٌّ دون مُروّته وأدبه وعزة نفسه . ولقـــد صدق الأول حيث قال :

---

(١) في الأصل « المذبذب عليك حولك » وعليك هاهنا زيادة من الناسخ .

(٢) الطبع : الصدأ والدنس والعيب والجمع أطباع .

(٣) الضرع : الذل والهوان .

وقد يَقْصرُ القلُّ الفتى دون همه
وقد كان لولا القلُّ طلاَّعَ أنجُدِ

وما كذب الآخر حيث يقول :

إذا المرء لم يقْنِ الحياء إذا رأى ... مطامع نيل دنسته المطامعُ
إذا قلَّ مال المرء قل صديقه ... وأهوتْ اليه بالعيوبِ الأصابعُ

وأجاد الآخر حين قال :

أزرى بنا أننا شالت نعامتُنا ... والفقر يُزري بأحسابٍ وألبابِ

وما أملح قول الأعرابي في قافيته :

ما بال أم حُبيشٍ لا تكلمنا ... إذا افتقرنا وقد نُثري فنتفقُ

وصدق ، لأنها إذا لحقته على الفقر رغبت عنه ولم تواصله وفَركتْه[١] واختارت عليه .

وما أحسن ما قال بعد هذا في وصف سيرته وحسن عادة أهله فإنه قال :

إنا إذا حُطَمةٌ حتّت لنا ورقاً[٢] ... نُمارس العودَ حتى ينبتَ الورقُ

وصاحب الفقر إن مدح فرّط ، وإن ذم أسقط ، وإن عمل صالحاً أحبط ، وإن ركب شيئاً خلط وخبّط ، ولم أر شيئاً أكشف لغطاء الأديب ، ولا أنشف لماء وجهه ، ولا أذعر لسرب حياته منه ، وان الحرّ الأنِف ، والكريم المتعيّف[٣] من مقاساته والتجلُّد عليه ، لفي شغل شاغل وموت مائت .

---

(١) فرك : أبغض وقيل هو خاص ببغضة الزوجين . والفارك المرأة التي تبغض زوجها والمفرك : الزوج المبغض .

(٢) الحطمة والحطمة : السنة الشديدة لأنها تحطم كل شيء ، حت الشيء : فركه وقشره ، والشيء : حطه وأزاله . نمارس : الممارسة شدة العلاج . والبيت لذي الخرق الطهوي . راجع : الاصمعيات : ص ١٣٣ .

(٣) المتعيف : المتشائم .

[التوحيدي وممدوحه]

وعلى ما قدمت من هذه الكلمات ، وأطلت به هذا الباب فقد امتثلت أمرك وسارعت اليه ، وأرجو أن تهب لي فيه رضاك إن وقع موقعه الذي أمّلته ، وتهديني إلى عين الصواب إن زل عن حدك الذي حددته ، وما غاية أملي به ، وقصارى همتي منه إلا أن أكون سبباً قوياً فيما جاز لك الشكر مني ، وأوفر عليك الحمد عني ، وأذاقك حلاوة مدحي وتمجيدي والشاعر يقول :

العرف أصل يُجتنى ... من فرعه الثمرُ الحميدُ

يبلى الفتى في قبره ... وفَعاله غُصنٌ جديدُ

وسأجعل قصدي نحو السلامة إذا غلبني اليأس من الغنيمة ، وأضيف إلى متن الحديث فوائد كبيرة ، واجتهد مُعذراً ، واقتصى معذوراً ، وأحكم متكرماً ، وأقول ما أقول رائياً وراوياً ، على أني لا أثق بالخاطر إذا طاش ، ولا باللسان إذا همز [١] ، ولا بالقلم إذا استرسل ، ولا بالهوى إذا اشتمل وسوّل ، فإن الهوى يُعمي ويُصم ، ولعل الغيظ يجرح ويُجهز .

[التزيد والتقصير في المدح والذم]

وهذه آفات متداركة لا سبيل إلى التفصّي [٢] منها والسلامة عليها [٣] ، وذلك لأن الكلام في حمد من يُحمد ، وذمّ من يُذم ، إن نمق تنميقاً دخله التزيد ، والمتزيد مَقْلي وإن أرسل على غراره شانه التقصير ، والمقصر معجز ، ولأن يدخله التقصير فيكون دليلاً على الإبقاء أحبُّ إليَّ من أن يدخله

---

(١) همز : اغتاب .

(٢) تفصى : تخلص من خير وشر والفعل فصى.

(٣) كذا في الأصل .

التزيد فيكون دليلاً على الإرباء ، على أن من وصف كريماً أطرب ، ومن أطرب طرِب ، والطربُ خفة وأريحية ، تستفزّان الطباع ، وتشبهان الحصيف بالسخيف . فأما من حدّث عن لئيم فان أساس كلامه يكون على الغيظ ، والغيظ نار القلب ، وخُبث اللسان ، وتشنيع القلم .

[التوحيدي والوزيران]

فكيف الانصاف في وصف هذين الرجلين على هذين الحدين مع سرف الهوى ، ووقَدان الغيظ ، وعادة الجوْر ، وداعية الفساد ، وصارفة الصلاح .

[٥ب] وهذه أعراض لا محيص منها ولا أمان / من اعترائها ولا راقي من تعاورها ، وبعض هذا يهتِك ستر الحلم وإن كان كثيفاً ، ويفتِق جيب التجمل وإن كان مكفوفاً ، ويُخرج إلى الجهل وإن كان العلم يقبحه متقدماً .

وكنت هممت ببعض هذا منذ زمان فكبَح عِناني عن ذلك بعضُ أشياخنا ، وقصّر إرادتي دونه ، وزعم أن الاختيار الحسن ، والأدب المرضي ينهيان عنه ، ولا يجوّزان الخوض فيه ، لأن الغيبة ، والقذع ، والعَضيهة[١] ، والتقبيح ، والسب المؤلم ، والكلام الفاشر ، والمكاشفة بالعلامة ، والشتيمة بلا مراقبة ، ليست من أخلاق أهل الحكمة ولا من دأب ذوي الأخلاق الكريمة . وقد قال بعض الحكماء : لا تكوننّ الأرضُ أكتم منا للسر ، ومن اعتاد الوقيعة في الأعراض ومباداة الناس

---

(١) القذع : الخناء والفحش . العضيهة : البهتان والكلام القبيح .

بالسفَه ، وثلبهم بكل ما جاش في الصدور ، وتذرَّع به اللسان ، فليس ممن يُذكر بخير ، أو يُرجى له فلاح ، أو يؤمن معه عيب .

قال : وهل الحلم إلا في كظم الغيظ ، وفي تجرع المضض ، وفي الصبر على المرارة، وفي الاغضاء عن الهفوات ، ومن لك بالمهذب الندْبِ[1] الذي لا يجد العيب اليه مختطى . والاول يقول :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه
على شعثٍ ، أيُّ الرجالُ المهذَّبُ[2]

وقيل : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، ولو تساويتم ما تطاوعتم، ولا بدَّ من هنَة تُغتفر ، ومن تقصير يُحتمل ، والاستقصاء فُرقة ، وفي المسألة تحبُّب ، ومن ناقش في الحساب فقد رغب عن سجاحة الخُلُق ، وحسن الملكة ، وإيثار الكرَم .

وهذا الذي قاله هذا الشيخ الصالح مذهب معروف ، وصاحبه حميدٌ لا يدفعه من له مُسكة من عقل وسيرة صالحة في الناس ، وأدب موروث عن السلف ، وليت هذا القائل وُلي من نفسه هذه الولاية ، وعامل غيره بهذه الوصية ، وليته بدأ بهذا الكلام وما شاكه[3] الرئيس الذي قد أخرج تابعه الى هذا العناء والكد ، وإلى هذا القيام والتعوُّد ، لا ! ولكنه رأى جانب البائس المحروم ألين ، وعذل المنتجع المظلوم أهوَن ، وزجرَ المتلذذ بما ينشُه ويستريح به أسهل ، فأقبل عليه واعظاً ، وأعرض عن ظالمه مُحابياً .

---

(١) الندب : السريع إلى الفضائل الظريف النجيب.

(٢) البيت للنابغه الذبياني من قصيدة مدح بها النعمان بن المنذر.

(٣) شاكهه مشاكهة وشكاهاً : شابهه وشاكله وقاربه .

وبعدُ فصاحب هـــذا القول وادعٌ غير مُحفظ ، وموفورٌ غير مُنتقَص ، وناعم البال غير مُغْبَط ، وصحيح الجناح غير مَهيض ، ولو شيك بحدٌ قتادة لكنا نقف على عريكته كيف تكون ، وعلى شكيمته كيف تثبت ، وكنا نعرف ما يأمر به ممّا يأتمر عليه ،وليس بردُ العافية من حرّ البلاء في شيء .

[أبو سعيد الحسن ومروان بن المهلب]

ولما وقعت الفتنة بالبصرة أيام المهلّب [1] كان أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يُثبط الناس عن الوثوب مع بني المهلب في قتال أهل الشام . وقام بذلك مقاوم شقّت على مروان بن المهلب ، فقام مروان ذات يوم خطيباً وحثّ الناس على الجد والانكماش [2] ثم عرّض بالحسن فقال : بلغني أن هـــذا الشيخ الضّال ، الطالح ، المرائي ، يُثبط الناس عن الطلب بحقنا ، والله لو أن جاره نزع من خُصّ داره قصبة لظلّ أنفه راعفـــاً ، ودمعه واكفاً ، وقلبه لاهفاً ، ولســانه قارفاً ، ويُنكر علينا أن نطلب مالنا ، وكلاماً غير هـــذا غادرناه قادرين لأنه لا وجه للاطالة به ، ولا أقول أن مروان بن المهلب أحق بما قال من الحسن ولكن الحسن تكلم على مذهب النسّاك ، ومروان قابل ذلك بمذهب الفتّاك .

---

(١) المهلب بن أبي صفرة (٧ هـ – ٨٣ هـ) من أمراء العراق ولي البصـــرة وحارب الأزارقة الخوارج ثم ولاه عبد الملك بن مروان خراســـان ومات فيهـــا وله أخبار ووقائع كثيرة .

(٢) الانكماش : الاسراع .

[المتوسط والمتناهي]

وفي الجملة أبقاك الله ، ليس المضطر كالمختار ، ولا المجروح كالسليم ، ولا الموفور كالموتور ، ولا كل حكم يلزم المتوسط في حاله يلزم المتناهي في حاله ، ومتى كان عافاك الله التابع كالمتبوع ، والآمل كالمأمول ، والمستميح كالمنعم ، والمغبوط كالمرحوم ، والمدرِك كالمحروم ، هذا في منقطع الثرى ، وذاك في قلّةِ [١] المزن .

[رسالة للجاحظ]

هذا عمرو بن بحر أبو عثمان [٢] وهو واحدُ الدنيا ، كتب رسالة طويلة في ذم أخلاق محمد بن الجهم [٣] ، ومدح أخلاق ابن أبي دؤاد [٤] وبالغ في الوصفين،وخطب على الرحلين ، ولم يترك قبيحة إلا أعلقها محمداً،ولا حسنة إلا منحها أحمد ، وحتى جعل ابن الجهم مع إبليس في نصاب واحد ،وابن أبي دؤاد مع ملَك في نِقابٍ واحد [٥] وهكذا عمل من طب لمن حبّ ،

---

(١) القلة : أعلى الرأس والجبل وكل شيء .

(٢) الجاحظ.

(٣) محمد بن الجهم البرمكي القاضي . راجع :

G. Lecomte Mubammad b. al gahm al Barmaki in Arabica V - 1958 263 — 241 .

(٤) ابن أبي دؤاد (١٦٠ هـ ــ ٢٤٠ هـ) القاضي المعتزلي المشهور قال عنه أبو العيناء : « مارأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من أبي دؤاد » كان المعتصم يستشيره في جميع أموره وجعله قاضي قضاته واتصل من بعده بالواثق والمتوكل . وتوفي في بغداد .

(٥) يقال : فرخان في نقاب ، يضرب للمتشابهين .

إذا غضب فسبّ أو رضي فمدح وأطنب ، وما أحسن ما دلّ على هـذا المذهب أشجع / السُلمي[1] بفحوى كلامه ، فانه قال : [٦أ]

أعليّ لومٌ إن مدحتُ مَعَاشراً
خطبوا إليّ المدح بالأموالِ
يتزحزحون إذا رأوني مُقبلاً
عن كلّ مُتكأٍ من الإجلال[2]

وإذا لم يكن عليه لوم في مدح المحسن اليه ، وكذلك لا عتب عليه في ذمّ المسيء اليه ، نعم وأفاد ابو عثمان في رسالته فوائد لا يخفى مكانها على قارئها ، وقام فيها مقام الخطيب المِصقع ، والشهم النافذ[3] ، والناصر المدلّ ، والمنتقم المستأصل ، فهل قال أحد ممن له يد في الفضل ، وقدم في الحكمة ، وعرفان بالأمور ، وقوله معدود فيما يقال ، وحكمه مقبول فيما يثبت ويزال ، بئس ما صنع ، وساء ما أتى به ، بل تهادوه ، وحفظوه ، واستحسنوه ، وتأدبوا به ، وحذوا على مثاله ، وإن كانوا وقعوا دونه .

[أخلاق الناس]

ولِمَ صنّف الناس المناقب والمثالب ، ولَمَ نشروا أحاديث الكرام واللئام ؟ وكثير من الناس — عافاك الله — لا غيبة لهم ، أو في غيبتهم أجر ، وقد وقع

---

(١) أبو الوليد أشجع بن عمرو السلمي ، شاعر عباسي كان معاصراً لبشار بن برد ولد باليمامة ونشأ بالبصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى البرمكي فوصله بالرشيد . مات أشجع حوالي سنة ١٩٥ هـ .

(٢) البيتان في ديوان المعاني للعسكري ١٧/٣ وروي الأول :

لا تعذلوني في مديحي معشراً — خطبوا المديح إليّ بالأموال

(٣) السيد النافذ الحكم .

في الخبر عن النبي ﷺ : أذكروا الفاسق بما فيه ، كي يحذره الناس . وحدثنا برهان الصوفي قال : ذم بشر الحافي [١] بخيلاً ثم قال : إن البخيل لا غيبة له . قيل: وكيف؟قال : لقول رسول الله ﷺ : يا بني سَلَمة من سيدكم ؟ قالوا : الجد بن قيس على بُخْل فيه . قال : فأي داء أدوى من البخل ؟ فذكره وليس هو بالحضرة .

[ابن فرخانشاه وأبو العيناء]

وهذا عيسى بن فرخانشاه [٢] عُزل عن الوزارة ،وكان مستخفاً بأبي العيناء[٣] فوقف عليه أبو العيناء وقال : الحمد لله الذي أذل عزتك ، وأذهب سطوتك ، وأزال مقدرتك ، وأعادك إلى استحقاقك ومنزلتك ، فلئن أخطأتْ فيك النعمة لقد أصابت منك النقمة ، ولئن أساءت الأيام بإقبالها عليك ، لقد أحسنت بإدبارها عنك ، فلا أنفذ الله لك أمراً ، ولا رفع لك قدراً ،ولا أعلى لك ذكراً. فهل قال أحد بئس ما صنع ؟ وليس للراضي عن المحسن أن يطالب المُساء اليه بأن يكون في مَسكه ، وعلى حال اعتدالة ، لأن بينها في الحال مسافة لا يقطعها الجواد المبرّز [٤] ولا الريح العَصوف .

---

(١) ابو نصر بشر بن الحارث بن علي المعروف بالحافي (١٥٠هـ — ٢٢٧ هـ) من كبار الصالحين والزاهدين توفي ببغداد .

(٢) ابو موسى عيسى بن فرخانشاه وزير المتوكل العباسي ثم المعتز من بعده . روى له التوحيدي كلاماً في الصداقة والصديق ١٦٣

(٣) محمد بن القاسم أديب فصيح ظريف (١٩١ هـ—٢٨٣ هـ) .

(٤) في الأصل المبر ، والمبرز هو الأول في حلبة السباق وكذلك السابق والمجلي (حلية الفرسان) .

[محمد بن طاهر]

وذُكر محمد بن طاهر[1] عند أبي العيناء فقال: ما دخلتُ عليه قط إلا ظننت أنه من طلائع القيامة ، قصير القامة ، مشؤوم الهامة ، خرج من خراسان وهو أميرُها ، ويطمع فيها وهو طريدُها . وبُلي على أسير الصُغار ، وطليق الهزيمة !

[رسالة لابن دينار]

ووجدت رسالة لأبي العباس عبد الله بن دينار على ما قدمت القول فيه ، وأنا أرويها على وجهها لأنها مفيدة، رواها لي المنصوري القاضي بأرّجان، أولها : إن في الشكر وإن قلّ وفاءً بحقّ النعمة وان جل ، بل أقول إن الشاكر للنعمة وإن أطنب وأسهب ، لا يلحق شأو المبتدىء بها ، ولا يخرج بأقصى سعيه من أداء حقه فيها ، لأن نعمته صارت سبباً لشكره ، داعية لذكره ، فلها فضل سَبقها ، وموقعها ، وفضلها ، فإن الشكر من أجلها ، وأنها حيث حلّتْ عائدة بثناء جميل ، وثواب جزيل ، ولا خلاف بين الحكماء أن الجالب خير من المجلوب، والفاعل خير من المفعول ، ومن لي بشكرك وأنت الذي لما قصدتك بالرغبة بلغت بي ماوراء المحبة ، وناديتك فأجبت من قريب ، ولذتُ بك فأنزلت بالبر والترحيب فلَمَمْتَ مني شعثاً ، ورعيت لي سبباً ، لولا رعايتك لكان رثّاً، ووفرت عليّ نعمة الجاه واليد ، وقمت لي مقام الرُكن والسند ، فأصبحت لي على الدهر مُعيناً ، ومن أحداث الزمان ملاذاً حصيناً ، وما زلت بكل خير

---

(١) محمد بن طاهر الخزاعي أمير خراسان سنة ٢٤٨ هـ وتوفي في بغداد سنة ٢٩٨ هـ .

قميناً (١) ، وجددت لي أملاً كان أخلَقَ ، وأمسكت مني بالرمق ، وتلقيتَ دوني نبوة من عاتبك واسترادك ، وجفوة من تغيُّظكَ فكادك ، في حين عزّ الشفيق ، وخذل الشقيق ، وجار الزمان ، وتواكل الإخوان ، فكشف الله بك تلك الغموم المطْبِقة ، وسكّن برأيك مني نفساً قلقة،فأنا في قصوري عما أوجبه الله عليّ لك كما قال الشاعر :

لو أن عمري الفُ حولٍ وقد | بُدّلَتِ الساعةُ بالدهرِ
وكان لي الفُ لسانٍ لما | نطقتُ من شكرك بالعُشْرِ

فشكر الله لك ما أتيت ، وتولى جزاءك على ما تحريت ، وكافأك بأحسن مانويت، ولا أخلاك من أمل يُناط بك تحقيقه ، وظنٍّ يُصْرفُ اليك فتصدقه، وشكر يوفر عليك فتستحقه ، وصان لك من النعمة راهنَها ، وبلغك أقصى ما تؤمل منها ، وتفضل عليك بما لا تحتسب فيها ، / وكل ما فصلناه من الدعاء لك مما يرغب المرء في مثله ، فوهب الله لي فيك ، ووهبه لك في كل أسبابك. [٦ب]

فأما فضائلك والمواهب المقسومة لك ، فقد قادت اليك مَودّات القلوب ، ووقفت عليك خبيئات الصدور ، وارتهنت لك شكر الشاكر ، وردّتْ اليك نفْرَةَ النافر ، وحاطت لك الغائب والحاضر ، وأقمحت (٢) عنك لسان المُنافر ، وقصرت دونك يد المتطاول ، وطامنت لك نخوة المناضل ، وأوفت بك على درجة الأدب ، والهمة ، والرئاسة ، فبلغك الله ذرى المحبة والأمل ، ووفقك لصالح القول والعمل ، ولا زالت الحرية معمورة بطول عمرك ، والمكارم مؤيدة بدوام تأييدك ، ولا برحت أيامك محفوفة بالعز والسعادة ، ونعمتك مقرونة

---

(١) جديراً .
(٢) أقمح : رفع رأسه وغض بصره .

بالنماء والزيادة ، ووقاك الله بعينه من الأعين ، وحاطك بيده من أيدي المحن ، وفداك من النوائب والأحداث والنكب . من قد فقئت به عين النعمة ، واتضعت بمكانه رتبة الهمة ، فلا يصدر عنه آملٌ إلا بنحيبة ، ولا يضطر اليه حر إلا بمحنة ، إن أؤتمن غدر ، وإن أجار أخفر ، وإن وعد أخلف ، وإن قدَر اعتسف ، وإن عاهد نكث ، وإن حلف حنِث ، تصدأ بمجاورته الأفهام ، وتصطرخ منه الدولة والأقلام ، سيّان قام أو قعد ، وغاب أو شهِد ، إن كشفته كشفتَ عن علج فدْم يُقضى له بكل خسة وذم ، لم يقف للحرية على ربع ولا رسم ، ولا عرف مكرمة في يقظة ولا حلم ، أسوأ الناس صنيعاً ، وأشدهم بالدناءة ولوعاً ، لم يسلك إلى المجد طريقاً ، ولا وجد يوماً من الجهل مَفيقاً ، أولى الناس بشتم وقذف ، وأجدرهم بمجانة وسخف ، ينطق قبح خَلقِه عن سوء خُلقه ، ويدل ركاكة عقله على لؤم أصله ، إذا اكتنفته الحوادث لوى عنها شدقه ، وإن لزمه الحق لواه ومحقه ، وقد وفّر الله حظه من الفدامة كما قصّر به في القامة ، فهو بكل لسان مهجو ، ولكل حرّ عدو ، وإن عوتب على الزهو والتيه أقام فيهما على تماديه ، يلوث عمته على دماغ فارغ ، وحمق ظاهر سائغ ، فهو في آخر حالاته عند نفسه كما قيل صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة .

[هجاء الصاحب]

وصلت هذا الفصل بقول فاضت به النفس بعد امتلائها ، وجاشت به بعد تردده فيها ، وما اضطرني اليه إلا تتابعُ المكروه من جهته ، والشرُّ الذي لا يزال يتعقبني به ، وانه حين وجد غِرة اهتبلها ، ولما رأى الفرصة انتهزها ، ولم يرض حتى حسرَ عن الذراع يداً ، فكشف القناع ، وجرّد المداوة

والتعصب ، وأظهر التسلط والتغلب ، وأنا أعتذر من أن أصل مخاطبتي لك بمثله ، وإن كنت أجعله بمنزلة اللهو الذي أستعين به على الحق ، والهزل الذي أستريح به من الجد . وقد قيل : من لم يذمُم المسيء لم يحمَد المحسن ، ومن لم يعرف للاساءة مضضاً لم تجد عنده للاحسان موقعاً ، وعلى أني لست أدري أميلي اليك أصدق أم انحرافي عنه أوثق ؟ ورغبتي فيك أشـد أم زهدي في أوكد ؟ ومودتي لك أخلص أم أنا على مصارمته أحرص ؟ وسكوني اليك أتم أم نبوتي عنه أحكم ؟ وأنا على ذمه أطبـع أم في حمدك أبدع ؟ كما لست أدري ،أحظك من الهمة والمروة أجزل أم حظه من الدناءة والقلة أجلُ ؟ ومكانك من الحزامة [1] والكرم أرفع ، أم محله فيها أوضع ؟ وكيف يُقرن بك أو يساوى ، وما أتأملك في حال من الأحوال إلا وجدتك فيها حساماً قاضباً ، وشهاباً ثاقباً ، وعوداً صليباً ، ورأياً عند معضل الخطوب مصيبـاً ، في شمائل حلوة عِذاب ، وأخلاق معجونة بآداب ، لاَ تتجافى عن مكرُمة ، ولا تَخِلُّ لدى أمل بحرمة ، ولا تؤودك الخطوب إذا اعتورتك ، ولا تتكاءدك [2] الجهات إذا اكتنفتك ، قد تعرفتك الأيام بحالتي النعمى والبلوى ، فكشفت منك عن أمضى من الدهر عزماً ، وأرزن من رضوى حلماً ، وأثبت من الليل جناناً ، وأسمح من صوب الغمام ندىً ، وأمنع من السيف جانباً ، وأعز من كليب وائل صاحباً ،/ وما أتأمله في حال من الأحوال إلا وجدته بَرْقاً كاذباً ، ورأياً عازباً، وركاكة ظاهرة ، ونذالة وافرة، وهيئة خسيسة ، ونفساً على الذم حبيسة ، لم ينشأ منشأ أدب ، ولا راضته أولية حسب ، فهو دهرَه على وجل وذعر ، إن صال فعلى القريب الداني ، وإن همَّ فبمضلاَّت الأماني،فليس تتجاوز صولته عبده

[٧أ]

(١) الحزامة : ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة .

(٢) تكاءده الأمر: شق عليه .

ولا يخاف عدوه كيده ، قد جمع إلى قبح المخبر بشاعة المنظر ، وإلى دمامة الخلق سوء الخُلُق ، إذا فكر المفكر فيما أوتي من الحظ ، ومُنح من الحال أيقن بعلوّ الجهل وفوز قِدْحه ، وإكداء الباطل وكساد ربحه ، هو والله كما قال الشاعر :

عدوٌّ لمولاه [١] عدوٌّ صديقه ... وتلك التي يأتي اللئيم من الفعلِ

مقلمةٌ أظفاره عن عدوّه ... على أقربيه ظاهر الفحش والجهلِ

وما أخطأ بوجه المشوّه قول الحمدوني [٢] : كأنّ دماميل جمعت فصور وجه منها .

والعجبُ كل العجبُ ، والحديث الذي عندي سيّان فيه الصدق والكذب ، ما تظهره من الانحراف والازورار على ما بي عنه من السلوة والاصطبار ، وما محله فيما يأتيه إلا محل أم عمرو وما قيل فيها :

ألا ذهب الحمارُ بأم عمروٍ ... فلا رجعتْ ولا رجع الحمارُ

بل هجوه والله الفائدة التي يجب في مثلها الشكر ، والأحدوثة التي يحسن فيها الذكر ، فأما غضبه وتغيّظه فغضب الخيل على اللجُم الدِلاص [٣] . وأنا أقول فيه كما قيل :

فإن كنتَ غضباناً فلا زلت راغماً

وإن كنت لم ترغبْ إلى اليوم فاغضبِ

والله لو كانت له مثل أياديك التي لها مني موقع القطْر في البلد القفْر ، ولطف محل الوصل يَعقِب التصارم والهجر ، لما وجدني محتملاً له أذىً ، ولا مغضياً له

---

(١) في الأصل : مولاه .

(٢) ورد ذكره في البصائر والذخائر ١/٧٤ .

(٣) الدلاص : اللينة البراقة .

على قذىً ، ولو كان تخويفه إياي بمثل إعراضك الذي أدنـــاه يُقلق الوساد ، ويُمرض الفؤاد ، لما ألفاني له معتباً ، ولا اليه معتذراً ،فكيف وهو من لا يجب له حق الصنيعة ، ولا ذمام أدب ، ولا ذمار معرفة،لم أسرّ برضاه لما رضي فأساء بغضبه وقد غضب ، ولا نفعني إقباله فيضرني إعراضه،لأنه بحمد الله كما قلت :

فتىً إن يرض لا ينفعْك يوماً وإن يغضب فإنك لاتبالي

لست والله أحفل به ، أقبـــل أم أدبر ، وسكن أم نفر ، ولا أبالي بحالتيْ سخطه ورضاه ، ولا بأوليْ أمره ولا بأخراه ، فـــأدام الله له سورة النبْوة والإعراض ، وأعانه على الجَفْوة والإنقباض، ولا أخلاه من الغضب والامتعاض فقد رضينا بذلك فيه حظاً ، وا كتفينا به فيه وعظاً .

[ابن مكرم وأبو العيناء]

وأخبرنا المرزُباني [١] عن الصولي [٢] قال : كتب ابن مكرم الكاتب إلى أبي العيْناء : لست أعرف طريقاً للمعروف أحْزنَ ولا أوعر من طريقـــه اليك ، ولا مستزرعاً أقل زكاءً ، ولا أبعد من ثمره خير من مكانه عنـــدك ، لأن المعروف يضاف منك إلى جنبٍ دنيء ، ولسانٍ بذيء ، وجهل قد ملك عنانك، وشغل زمانك ، فالمعروف عندك ضائع ، والشكر لديك مهجور ، وإنما غايتك في المعروف أن تحوزه ، وفي موليه أن تكفره .

فكتب اليه أبو العينـــاء : بسم الله الرحمن الرحيم :

---

(١) محمد بن عمران المرزباني (٢٩٦هـ-٣٨٤هـ) العلامةالبغدادي المشهور صاحب التصانيف الكثيرة وأهمها الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . ومعجم الشعراء .

(٢) أبو بكر الصولي من كبـار علماء الأدب والمؤلفين والنقـاد . توفي في البصرة سنة ٣٣٥هـ .

وأنت كما قال الآخر فإنما

أتيت بلفظٍ ضعفه فيك موجدُ

أما بعد : فقد وصل إليّ كتابك ، سبُّك وعرُّك [(١)] ، ولقد كان لك في سديفٍ وبغا ، ما يشغلك عن البذا ، ولكنّ الله إذا أراد بقومٍ سوءاً فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال ، وأنت امرؤٌ تزعم أنك من أهل ماذارايا [(٢)] وهناك حلّت بك الخزايا ، من غير تقصٍ لأهلها ، ولا دفع لفضلها ، لأنك تحبها وتشنؤك ، وتنتمي اليها وتدفعك . وإن امرءاً مكرمٌ أبوه لجدير عند الفخر أن يعفرَ فوه ، وأما أمك فمرأة من المسلمات الغافلات ، والغفلة مقرونة بالخير ، والعجب لك ولأخيك أنك لا تَنيك ولا يَنيك ، فعلامَ غرّرتم الحرائر ، واستهديتم المهائر [(٣)] ، وأنتم قوم تلقفون ما تأفكون ، والله أعلم بما توعدون ، وفيم خطبتم النساء وأنتم تُخطبون ، وكيف نقدتم المهور مع حاجتكم إلى الذكور ، ثم أظهرتم حب النساء ، وبكم عرق النساء ، وكيف ادعيتم في الحرب الطعان ، وأنتم معشرٌ تخِرون للأذقان ، ولكم في كل يوم دفاع ، ومعترك جِماع ، ثم تلقون وقعاً للصدور ، والرماح / في أعجازكم تمور [(٤)] ، وقد طبتم أنفساً بأن أضحت نساؤكم عند جيرانكم ، ورجالكم عند غلمانكم ، فاذا سبّبتموهنّ بالزناء سبّبنكم بالبغاء ، وقد لعمري أظهرتم الدّف ، ونقرتم الدّف ،

[٧ب]

---

(١) عره : ساءه ولطخه بشر .

(٢) قرية بالقرب من البصرة ويرجح ياقوت أنها بالقرب من واسط.

(٣) المهيرة من النساء : الحرة الغالية المهر .

(٤) تمور : تموج وتضطرب .

وأكثرتم الطعن ، وادعيتم الآثار (١) ، فلما احتيج منكم إلى اللقاء ، وتنجز منكم الوفاء ، انهزم الجمع ، ووليتم الدبر ، فقبحاً لكم آل مكرم، قبحاً يُقيم ويَلزم :

فلستم على الأعقاب تدمى كلومُكم
ولكن على أعجازكم يقطر الدمُ

فيا بؤس العروس وإزارها الذي لم يُحلل ، وفرعها الذي لم يُبلل، وللظبية الغريرة وطرفها الفتّان ، وقولها للأتراب:أما لآل مكرم زباب، وقد زعمت النساء ، غير ما إفك ، أنك وأباك وأخاك جندٌ ماهنالك مهزوم من الأنباط . وذكرت أنك لا تعرف للمعروف طريقاً أحزن ولا أوعر من طريقه إليّ ، ولا مستزرعاً أقل زكاء ، ولا أبعد من ثمره خير من مكانه عندي ، فلو كان ما وصفتَ على ما ذكرت لما لحقك كفر إنعام ، ولا شكر إحسان لقصور جدتك عن الفضل ، وهمك عن الافضال ، بلى أستغفر الله ! لو وجدت فضلاً لوجهت به الى العاملين عليها ، أعني أمّ الفلَك ، القاضية عليك بالهلَك ، وأين أنت فيلحقني اكرامك ، أو ينالني إنعامك ، هيهات ! جلّ الأمر عن الحزَن ، وعفى السيلُ والعَطن ، ولكنك يا أبا جعفر ، وأنّى لك بجعفر ، لا يعرف للجماع طريقاً أسهل مأتى ، ولا أقرب مأخذاً من طريقه اليك ، وحلوله عليك ، هذا مع دنس أثوابك ، ووضر أطرافك ، ونتن أرواحك . وزعمت أن المعروف يحصل مني في حسب دنيء ، ولسان بذيء ، فانظر ، لك الويلات ! كيف ارتقيت ، وإلى من تعديت ، وهل فوق رسول الله صلى الله عليه [وسلم] مفخر ، وهل عن خلف الله مرغب ، ولولا عدل سلطاننا ، وفضل أحلامنا ، وأن الاقتدار يمنع الحرّ من

---

(٣) الأثر والأثر : أثر الجرح والجمع آثار وأثور .

الانتصار مع دَفنِكَ (١) عن المجازاة ، وسقوطك عن الملاحاة ، لاصطلمك مني الاعتزام ، فاشكر لؤمك إذ نجاك ، وخصمك إذ رفع قدره عنك . وأما البَذاءُ ، فما اعتذرُ اليك من أقماع اللئيم ، وتعظيم الكريم ، ولذلك أقول :

إذا أنا بالمعروف لم أثنِ صادقاً
ولم أشتم الجِبسَ اللئيم المذمَّما
ففيم عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسمه
وشقَّ ليَ الله المسامعَ والفما

[من رسالة للجاحظ]

وأما الجاحظ فانه يقول في رسالة : سألتني — أبقاك الله — عن فلان وأنا أخبرك بالأثر الذي يدل على صحة الخبر ، وبالواضح الذي يدل على الخفي ، والظاهر الذي يقضي على الباطن ، فتفهم ذلك رحمك الله ، ولا قوة إلا بالله ، فمن ذلك أني رأيته وهو في جيرانه كالحيضة (٢) المنسية ، وكلهم يعرفه بالأبنة (٣) ، وله غلام مديد القامة ، عظيم الهامة ، ذو ألواح وأفخاذ ، وأوراك وأصداغ ، أشعرَ القفا ، يلبس الرقيق من الثياب ، ويثابر على العطر ودخول الحمام ، ويتزيَّن ، ويقلّم الأظفار ، وكان مع هذه الصفة المدبّر لأمره ، والمشفّع لديه ، والحاكم على مولاه دون بنيه وأهله وخاصته ، والصارف له عن رأيه إلى رأيه ، وعن إرادته إلى هواه ، وكان أكثر

---

(١) الدفن : الستر والمواراة .
(٢) الحيضة : خرقة الحائض .
(٣) الأبنة : العيب والحقد .

أهله معه جلوساً ، وأطولهم به خلوة ، ولا يبيت إلا معه ، وإذا غضب حزّنه[1] غضبه ، وطلب رضاه ، وكان أيام ولايته لا يتقدمه قريب ولا بعيد ، ولا شريف ولا وضيع ، إن ركب فهو في موضع صاحب الحرس من الخليفة ، وإن قعد في موضع الولد السارّ ، والزوجة البارة ، وإن التوت على أحد حاجة كان له من ورائها ، وكانت أهون عليه من خلع نعليه ، يبيت في لحافه ، فحكمنا عليه بهذا الحكم الظاهر ، ولا حكم القضاة بالتسجيل ، وتجليدها في الدواوين ، ولا كالاقرار بالحقوق وشهادات العدول .

[تحذير العتبي]

وكتب العتبي[2] الى صديق له يحذره رجلاً ويصف ، فقال: إحذر فلاناً ، فان ظاهره برّ ، وغيْبَه عداوة ، وإن أفشيت اليه حديثك وضعه عند عدوك ، وإن كتمته إياه سبَّك عند صديقه ، لا يصلح لك عند نفسه حتى يفسدك عند غيره ، وهو / صديقك بما يلزمك من حقه ، وعدوك بما يضيع من حقه عليك ، إن دنوت منه أذاك ، وإن غبت عنه اغتابك ، يلطخ كرم صاحبه بأذاه ، فان غسله بالأعتاب أعاد بالعتب ، وإن تركه عيّر به ، السلامة منه أن لا تعرفه ،فان عرفت فهو الداء ، إن تداويت لم ينفعك ، وإن تركته قتلك . أخلط الناس جده بهزله ليمنعك ما في يده منع هزلٍ ، ويغلبك على ما في يدك مسألة جَدّ .

[٨أ]

---

(١) حزنه : أحزنه .

(٢) محمد بن عبد الله أديب شاعر وراوية للأخبار توفي سنة ٢٢٨ هـ راجع : الفهرست ١٧٦ .

[بين أبي هفّان وابن مكرم]

ووجدت أيضاً رسالة لأبي هِفّان (١) الى ابن مكرم وهي :

أما بعد يا بن مكرم ضد اسمه ، وخطيئة أبيه وأمه ، يا سُبّة العار على سبّته ، ولعنة ابليس على لعنته ، ما أظنك من نُطفة ، ولا كانت لواضعتك عُذرة (٢) ، أفرغك من سَلْحة على سلحة، وأجراك من أمك من فَقْحَة الى فقحة(٣) فأنت كما قال الشاعر :

لعنـــة الله على نَتْنِهما

شعرتين احتكتا في طَلَبــهْ

أولك زنية ، وآخرك أبنة (٤) ، فكلك لعنة في لعنة ، تقصع القمل بأسنـــانك ، وتمسح مُخاطك بلســانك ، وتستنزل منيّك ببنانك ، ومنيّ غيرك بعجانك (٥) . عبدك يصفعك ، وخادمك يقمعك ، وكلبك يلطعك(٦) ، وصديقك يقطعك ، نفَسُك فُســاء ، وجسمك خرَاء ، وريقك ماء العذرة (٧) ، وكلُّ خلالك قذرة ، وأنت للأحرار عيّاب ، وبين الـكرام

---

(١) عبد الله بن أحمد بن حرب أبو هفان المهزمي العبدي الشـاعر ، كان من أهل البصرة وسكن بغداد وكانت له منزلة كبرى في الأدب . راجع : تاريـخ بغـداد ٣٢٠/٩ ، سمط اللآلىء ٣٣٥ .

(٢) العذرة : البكارة .

(٣) الفقحة : حلقة الدبر وواسعها ، وراحة الكف .

(٤) الأبنة : العيب .

(٥) العجان : الاست والقضيب الممدود من الخصية إلى الدبر .

(٦) لطعه : لحسه بلسانه وضرب مؤخره برجله .

(٧) العذرة : ماء الغائط .

نمّام ، أنت للأدباء حاسد ، وللعلماء شاتم ، وبالجليس هامز ، وفي المحسن اليك غامز ، تُظهر جورك ، وتتعدى طورك ، مَهين في نفسك ، عُرّة في جنسك ، حالفٌ في كل حق وباطل ، كذوبٌ على الجادّ والهازل ، تطلب أن تهجا ، وتستدعي أن تُزَنّى ، وقد سبق القول في مثلك مع نذالة فعلك ولؤم أصلك .

أما الهجــاءُ فدقّ عِرضُكَ دونه
والمدح عنــكَ كما علمتَ جليلُ
فاذهب فأنت طليقُ عِرضــك إنه
عِرضٌ عززتَ به وأنت ذليل [1]

فأنت يابن الكشخان [2] القرنان ، الديوث الصفعان ، عِتّق لاست الشيطان، لا لوجه الرحمن ، فالهجاء من أن يعذّب بك في أمان ، فأنت بعز لؤمك في سلطـان ، معرفتك تشين ، وقطيعتك تزين ، وذكرك سُبّة ، وقتلك قُربة ، لا يحصي الخلق عيوبك ، ولا يثبت الحفَظــة ذنوبك ، أنت بالله مُشرك ، وفي خلقه متهتك ، نقصك مفروض ، ودينك مرفوض ، وبكل قبح منعوت ، وعند العالم ممقوت ، أحسنُ آدابك الزندقة ، وأفضل حالاتك الصدَقة ، نذل الأبوّة ، رذل الأخوّة ، عدوّ المروّة ، لم تؤمن بنبوّة ، ولم تُعرف بفتوة ، تقصد الكريم بسبابك ، فيذلك بترك جوابك ، جئت بأمّ من حمام الدجال ، توازي بهــا أمهات الرجال ، لا صوم ، ولا صلاة ، ولا صدقة ، ولا زكاة ، لا تغتسل من جنابة ، ولا تهمّ بإنابة ، عقوقك بأبيك أنه غيرُ من يدّعيك ، لقاتلك أرفع الدرَج ، وما على قاذفك من حرج ،

---

(١) البيتان لمسلم بن الوليد الديوان ٢٤٢ ليدن ١٨٧٥ .

(٢) الكشخان : الديوث .

وكل ذلك بالآيات والحجج ، الحدّ لتـارك وصفك ، والنار للمطنب في مدحك ، ولقـارىء مثالبك وكاتب معايبك ثواب مُعتق الرقاب ؛ يوفـى أجره بغير حساب ، فله فيك من الثواب ، أكثر مما لك من العقـــاب ، لك خُلقت سقر ، ومن أجلك يعذب البشـــر ، أحسن في عينك من القمر ، ما تستدخله من الكَمَر(١) ، تعيب المؤمنات والمؤمنين ، وتقذف المحصنات والمحصَنين ، إذ ليسوا لك بآباء ، ولستَ لهم في عداد أبناء ، فأنت كما قال الشاعر :

مغرىً بقـــذف المحصنـــا
ت ولســتَ من أبنائهـــا

آنفُ للعلم الذي حويته ، وأغارُ على الشعر الذي رويته ، فأنت وإن غلطت بكلمة طريفة ، أو حجة حكيمة ، أو نادرة مليحة ، اعتباراً للسامع ، وفكرة للعاجب ، سفيه على إفراط قذرك ، حسود على شـــدة بَخَرك(٢) ، ووقّاع على قاتل ذَفَرك(٣) ، تمازح فلا تحسن ، وتجاب وتذعن ، إن تركت عبَثت ، وإن عُبِثَ بك استغبت ، فمثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، فاستمع لكلام يشبهك في الأنام ، يا عيب المعائب ، ويا شين الحاضر والمغائب ، فلك المثل الأسفل ، والقياس الأرذل ، والشَبَه الأنذل . كما قيل :

وأدعوكَ للأمر الذي أنت شينُـــه
على شينه يا فاضحاً للفضـــائحِ

---

(١) الكمرة (محركة) رأس الذكر والجمع كمر .

(٢) البخر : رائحة الفم الكريهة .

(٣) الذفر : شدة الرائحة النتنة .

[رسالة العروضي في ابن مقلة]

/ وجدت رسالة أفادنيها أبو محمد العروضي[١] لابن حماد في ابن مُقلة أبي [٨ب] عليّ[٢] يمزقه فيها ، ويذكر خساسة أهله ، وسقوط قدره ، ولؤمَ نفسه ، وفحشَ منشأه ، تركت تخليدها في هذا المكان .

[حمد المحسن وذم المسيء]

وكذلك تركت غيرها هرباً من التطويل . وبعد : فحمد المحسن ، وذم المسيء أمران جاريان على مر الزمان مذ خلق الله الخلق ، وعلى ذلك يجري إلى أن يأذن بفنائه ، وهو عز وجل أول من حمد وذم ، وشكر ولام ، ألا تراه كيف وصف بعض عباده عند رضاه عنه فقال : « نِعْمَ العبدُ إنه أوّاب[٣] » ، وقال في آخر : « إنه كان صادقَ الوعد[٤] » وعلى هذا فإنه أكثر من أن نبلغ آخره ، ثم انظر كيف وصف آخر عند سخطه عليه وكراهته لما كان منه فقال : « همّازٍ مشّاءٍ بنميم . مَنّاعٍ للخير مُعْتدٍ أثيم . عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم[٥] » وهذا فوق ما يقول مخلوق في مخلوق .

---

(١) أبو محمد العروضي : راجع ما ذكره صاحب تاريخ الحكماء ص٢٢٤

(٢) محمد بن علي بن الحسين بن مقلة أبو علي وزير وشاعر وأديب يضرب بحسن خطه المثل ولد في بغداد سنة ٢٧٢ ثم امتحن بقطع يده ولسانه توفي سنة ٣٣٨ هـ

(٣) سورة ص .

(٤) سورة مريم.

(٥) سورة القلم.

وقال الحسن البصري [١] : الهمّاز :العيّاب، ومشّاء نميم: ينقل الكلام القبيح، منّاع للخير: بخيل ، معتدٍ أثيم: ظلوم ذميم ، عتل: جاف ، والزنيم: الدعيّ .

قال أبو سعيد السيرافي [٢] : العتلُ تراه من قولهم : جيء بفلان يُعتل إذا غلظ عليه ، وعنف به في القود ، وكيف يأثم الإنسان في غيبه من كان قلبه نغلاً بالنفاق ، وصدره مريضاً بالكفر ، ونفسه فائضة بالتأَقة [٣] ،ووجهه مكسواً بالصفاقة ، ولسانه ذرباً بالفحش والبذاءة ، وسيرته جارية على الكيد والعداوة ، وعشرته ممقوتة بالنكد والرداءة ، وقد أثنى الله على واحد ولعن آخر ، وحطّ هذا الى الحَش [٤] ، ورفع ذاك الى العرش ، وعاتب ، وأنّب ، ولام ، وذمّ ، وكذلك رسوله ﷺ ومن تقدمه من الأنبياء والمرسلين ، والأولياء المخلصين ، وعلى هذا فورق السلف الطاهر ، والصحابة العلية ، وهم القدوة والعمدة ، واليهم ينتهى في كل حال ، وعليهم يعتمد في كل أمر ذي بال ، فمن ذا يزري على هذا المذهب إذا خرج القول فيه معضوداً بالحجة ، ممدوداً بالمعذرة ، معقوداً بالنصَفة ، وكان فيه برد الغليل ، وشفاء الصدور وتخفيف الكاهل من ثقل الغيظ على أجمل وجه وأسهل طريق ، مع مسامحة ظاهرة ، وتغافل عريض .

وقيل لبعض الصالحين :أي شيء ألذ ؟ قال : ركوب هوى وافق حقاً،وإدراك شهوة لا تثلم ديناً، وقضاء وطر لا يخيف مروءة،وبلوغ مراد لا يسيِّر قالة قبيحة .

---

(١) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ إمام أهل البصرة وكبير علمائها وفصائحها ونساكها المشهورين . توفي بالبصرة سنة ١١٠هـ .

(٢) الحسن بن عبد الله ولد سنة ٢٨٤ هـ من كبار النحاة والمتكلمين المعتزلة وهو من أساتذة أبي حيان التوحيدي وعليه درس النحو واللغة والتصوف توفي سنة ٣٦٨ هـ .

(٣) التأقة : شدة الغضب والسرعة إلى الشر .

(٤) الحش : بفتح الحاء وضمها البستان ، وهو أيضاً المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين .

والمذهب الأول هو مذهب الزهاد والمتأبدين وأصحاب الورع والمتعبدين ، ونحن قد بيّنا الأصل في هذا الباب فليس بنا حاجة الى التكثير ، وكيف يلزمنا حلم من يتعجرف في قوله ، ويحتار على رأيه ، ويعترض بجوره ، ونحن قد اقتدينا بالله رب العالمين ، وجرينا على عادة الأنبياء والمرسلين ، وأخذنا بهدي عباد الله الصالحين ،وإنما أشكل القول في هذا المذهب على قوم مدحوا الصمت ، وكرهوا كثيراً من القول . وقليل الكلام عندهم فضل ، وكثيره هُجْر ،وفيه اللغو الذي يجب أن يتجنّب،والحشو الذي لا ينبغي أن يُعتاد .وهؤلاء قوم ـ أكرمك الله ـ لا يعرفون فضل ما بين التفيهق[١] المذموم ، والبلاغة المحمودة ، والتشدّق[٢] المكروه ، والخطابة الحسنة ، وما هو من باب البيان المشتمل على الحكمة ، وما هو من باب العيّ الشاهد بالهُجْنة[٣]،ومتى كان ذكر المهتوك حراما ، والتشنيع على الفاسق مُنكراً ، والدلالة على النفاق خطَلاً ،وتحذير الناس من الفاحش المتفحش جهلا ؟ هذا ما لا يقوله من قد قام بالموازنة وبالمكايلة ، وعرف الفرق بين المكاشفة والمجاملة ، وإنما غزر الأدب ، وكثر العلم ، وجزلت العبارة ،وانبعجت[٤] العبر ،واستفاضت التجارب لما وقفوا عليه من أبناء الناس وقصصهم وأحاديثهم،في خيرهم وشرهم،وفي وفائهم وغدرهم،والحسن الذي شاع عنهم، والقبيح الذي لصق بهم ، والمكارم التي بقيت لهم ، والفضائح التي ركدت عليهم. والدنيا دار عمل ، فمن عمل خيراً ذُكر به ، وأكرم من أجله، ولحظ بطرف الوقار ، وصين عرضه عن لصوص العار والشنّار ، وألحق بأصحاب

---

(١) تفيهق في الكلام : توسع فيه .

(٢) التشدق : لي الشدق للتفصح .

(٣) الهجنة من الكلام : العيب أو القبيح أو ما يعيبه الانسان .

(٤) انبعج علي بالكلام : تدفق .

التوفيق ومن له عند الله الوزن الراجح ، والوجه المُسفر ، ومن عمل شراً لِيمَ عليه ، وأهين من أجله ، ونظر اليه بعين المقْت ، وألصق بعرضه كل خزي، وبيع بثمن ينقص لا بثمن يزيد ، والجزاء وإن كان مؤخراً إلى الدار الآخرة لأهله فإن بعض ذلك قد عُجل لمستحقه ، ولهذا قال الله عز وجل / في تنزيله : [٩ أ]
« ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنيا وَلَهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيم [١] ».

والذي ذكرته عن الجاحظ [٢] فليس هو أول من اقتضبه وسنّه ،وقد سلف فيه قوم كرام ، وخلف عليه ناس من جِلّة الناس .

[رسائل]

أنا قرأت رسالة لابن المقفع [٣] في معائب بعض آل سليمان بن علي الهاشمي، [٤] وكذلك أصبت رسالة لسهل بن هرون [٥] في مثالب الحرّاني [٦] ، ورأيت أيضاً

(١) سورة المائدة .

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إمام البيان العربي وواضع أسس النثر الفني ، ولد في البصرة سنة ١٦٣ هـ وتوفي فيها سنة ٢٥٥ هـ ، له مؤلفات كثيرة في مقدمتها الحيوان والبيان والتبيين .

(٣) عبد الله بن المقفع إمام الكتاب والمترجين وواضع أسس الكتابة الفنية ولد سنة ١٠٦ هـ ومن آثاره المشهورة : كليلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة ، قتل في البصرة سنة ١٤٢ هـ .

(٤) سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ولي البصرة وعمان والبحرين لأبي جعفر المنصور وتوفي بالبصرة سنة ١٤٢ هـ .

(٥) سهل بن هارون بن راهبون أبو عمرو الدستميساني من كبار الكتاب والبلغاء وواضعي القصص،تولى رئاسة « خزانة الحكمة » زمن المأمون وكان شعوبياً يتعصب للعجم على العرب ضاعت آثاره كلها ولم يبق منها سوى رسالة في «البخل» أوردها ابن عبد ربه في العقد الفريد . توفي سهل سنة ٢١٥ هـ .

(٦) سنان بن ثابت بن قرة الحراني أبو سعيد طبيب عالم من حران ، نشأ وتوفي في بغداد سنة ٣٣١ هـ .

رسالة لسعيد بن حميد [١] في فضائح علي بن هشام ، وحتى الصولي بالأمس ذمَّ بعض بني المنجم في رسالة له .

وحدثنا حمزة المصنف عن أبي الحسن البغدادي قال : كتب أبو العيناء إلى أحمد بن أبي دؤاد : أما بعد فالحمد لله الذي حبسك في جلدك ،وأبقى لك الجارحة التي بها تنظر الى زوال نعمتك .

قال وهي طويلة . قال:وقال أبو العيناء : لولا أن القدر، يُعْشي البصر ، لما نهى ولا أمر .

ومن غريب هذا الفن رسالة لأبي العباس محمد بن يزيد [٢] في خبائث الحسن بن رجاء .

ورأيت أيضاً رسالة للعمري في رقاعات الفضل بن سهل [٣] ذي الرياستين .

[الشعراء والصدق]

وأما الشعراء وأصحاب النظم،وأرباب المدح والهجاء،والثلب والحمد، والتشنيع والتحسين ، فهو كالطّم والرّم [٤] ، لا يكسبون إلا بهذا المذهب ، ولا

---

(١) أبو عثمان سعيد بن حميد من الكتاب المترسلين والشعراء ولد ببغداد وتولى ديوان الرسائل للمستعين العباسي ، توفي سنة ٢٥٠ هـ

(٢) محمد بن يزيد أبو العباس المعروف بالمبرد ، أحد أئمة الأدب والعربية في زمنه ولد ببغداد سنة ٢١٠ هـ وتوفي فيها سنة ٢٨٦ هـ ، أشهر كتبه « الكامل » .

(٣) الفضل بن سهل السرخسي وزير المأمون « ١٥٤—١٧٨هـ » .

(٤) الطم : الماء والبحر والعدد الكثير . الرم : الثرى . ويقال : جاء بالطم والرم أي بالبحري والبري، أو بالرطب واليابس، أو بالتراب والماء ،أو بالمال الكثير .

بيشون إلا على هذا الاختيار ، ولهم الهجـــاء المنكر ، والقول المُخزي، والقَذْع المؤلم ، واللفظ المُوجع ،والتعريض الذي يتجاوز التصريح،والتصريح الذي يجمع كل قبيـح ، وأمرُهم أظهر من أن ندلّ عليه ،وشأنهم أبيَن من أن نردّد القول فيه .

وإنما المدار على الصدق في القول ، وعلى تقدير الحق في العقد ، وقصـــد الصواب عند اشتباه الرأي ، وغلَبة الهوى .

فأما قول أبي الحرث جُمَّين [1] ، وقد سئل عمن يحضر مائدة محمد بن يحيى [2].وجوابه :الملائكة.قيل له : إنما نسألك عمن يأكل معه قال : الذُباب ، فان هذا من باب الملَح والمَجانة ، وليس من قبل الصدق في شيء ، وإن كان بعض الصدق مَشوباً ، وبعض الحق ممزوجاً ، ولا بأس ولا حرَج فان ذلك القدر لا يقلب الصدق كذباً ، ولا يُحيل الحق باطلاً ، وأين المحضُ من كل شيء ، والخالصُ من كل خير ؟ ، إنك إن رُمْتَ ذاك في عالم الكون والفساد ، ودار الامتحان والتكليف مع هذه الطبائع المختلفة ، والعنـاصر المتمازجة ، والأسباب القريبة،رمت محالاً ، ورائم المحال خابط ، وطالب الممتنع خائب ، ومحاول مالا يكون مكدودٌ معنّىً ، ومحدود معرّىً ، ومرجعه إلى الندم ، وغايته الأسف الذي يشجو النفس،ويَمْرُسُ الفؤاد،ويوجع القلب، ويضاعف الأسى ، وربما أفضى إلى العطب .

---

(١) أبو الحارث جمين وفي رأي صاحب القاموس جميز ، من أهل الأدب والدعابة ، كان معاصراً للجاحظ ، راجع أخباره في الأغاني ٣٧/١ ، ١٧/٦ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي المتوفى في بغـداد سنة ٣٣٥ هـ .

[غرض رسالة الوزيرين]

قد ذكرنا ــ حاطك الله ــ جملة من القول رأينا تقديمها والاستظهار بها قبل أخذنا فيما أنشأنا له هذا الكلام قصداً لفلّ حدّ الطاعن ، وحسماً لمادة الحاسد ، وتعلماً للجاهل ، وارشاداً للمستجير ، واحتجاجاً على من يُدِلُّ بحفظ اللسان ، وكتمان السر ، وطي القبح ، ومسالمة الناس ،واغتفار المنكر، وهو مع ذلك في قوله كالأسد في غيله (١) ، والنمر في أشَبِهِ (٢) ، والثعبان في وِجاره ، حتى إذا غُمز غمزةً ، أو وخز وخزةً،رأيت معاقد حِلمه متحللة، وذخائر صبره منتهبه،وكظمه الذي كان يُدل به مفقوداً ، وجلَده الذي كان يدّعيه باطلاً .

وما أكثر مَنْ يتكلم على السلامة من النفس والمال ، وطيب القلب،ورخاء البال ، وعند مواتاة الأمور وطاعة الرجال ، ومساعدة المراد بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، وبالنظر الدقيق، واللفظ الرقيق، حتى إذا التوت عليه حال ، وتعسّر دون مراده أمر، وعرض في بعض مطالبه تعقّد سمعت له هناك ، زخرة ونخرة ، وضجرة وكفرة ، كأن لم يسمع بالحلم والتحلم،والصبر والتصبر ، يخرج من فروته عارياً من الحلم والكظم ، باديَ السوءة بالبذاء والجهل كما يخرج الشعر من العجين .

ولعلّ ما نزل به ، وحلّ عليه لم يرزأه زُبالاً (٣) ، ولا مسح عنه عذاراً ، وهذا هو اللئيم الذي بلغك ، والساقط الذي سمعت به ، والله تعالى يقول :

---

(١) الغيل : موضع الأسد .

(٢) الأشب : كثرة الشجر حتى لا يجاز فيه .

(٣) الزبال : ما تحمله النملة في فمها يقال « ما أصاب منه زبالاً أي شيئاً » .

« لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلا مَنْ ظُلِمَ[١] »وروى أصحابنا عن ابن عباس أنه قال: معناه: إلا من لم يكرم في ضيافته، فإن كان هذا التأويل صحيحاً وهذا الوجه معروفاً فأنا / ذلك المظلوم، ولا بدّ لمن ظُلم من أن يتظلم، وكيف يكون المظلوم إذا انتصر ظالماً والله يقول: « وَلَمَنِ انتصرَ مِنْ بعد ظُلْمِهِ فأولئك ما عليهم من سبيل[٢] »، ولو كان المظلوم إذا تظلم ظالماً لكان الظالم إذا ظلم معذوراً، وكما هجّن الله لوم المحسن فكذلك حسّن توبيخ المسيء، وكما أثاب على تزكية من كان طاهراً كذلك آجر على جرح من كان مدخولاً، ألا ترى أن التقرب إلى الله بعداوة أبي جهل وذمه ولعنه، وذكر لؤمه وخساسته كالتقرب إلى الله بولاية أبي بكر ومدحه والترحم عليه وذكر فضله وبلائه ونُصرته.

[٩ب]

وهذا مستمر في خبر أبي جهل ممن عادى الله ورسول الله ﷺ كما أنه مستمر في غير أبي بكر ممن أطاع الله ورسوله، وإنما الأمور بعواقبها، والمذاهب بشواهدها، والنتائج بمقدماتها، كما أن الفروع بأصولها، والأواخر بأوائلها والسقوف بآساسها.

[نزاهة التوحيدي وحياده]

ولست أدعي على ابن عبّاد ما لا شاهد لي فيه، ولا ناصر لي عليه، ولا أذكر ابن العميد بما لا بينة لي معه، ولا برهان لدعوايَ عنده، وكما أتوخى الحق عن غيرهما أن أعترض حديثه في فضل أو نقص كذلك أعاملها به فيما عرفا بين

---

(١) سورة النساء .

(٢) سورة الشورى.

أهل العصر باستعماله،وشهرا فيهم بالتحلي به . لأن غايتي أن أقول ما أحطتُ به خُبراً ، وحفظته سماعاً .

[صفات الوزيرين]

وسهلٌ عليّ أن أقول:لم يكن في الأولين والآخرين مثلهما ، ولا يكون إلى يوم القيامة من يعشرهما،اصطناعاً للناس ، وحلماً عن الجهّال ، وقياماً بالثواب والعقاب ، وبذلاً لقنْية المال ، ولكل ذخر من الجواهر والعقد ، وأنهما بلغا في المجد الذروة الشمّاء، وأحرزا في كل فضل وعلم قصب السبق ،وأن أهل الأرض كانوا لهما ، وخضعوا لفعالهما ، وأن النقص لم يشنْهما بوجه من الوجوه، وأن العجز لم يعترهما في حال من الأحوال ، وأنهما كانا فيشعار إمام الرافضة وعصمته المعروفة ، وأن الاستثناء لم يقع في وصفهما في حال ، لا في الصناعة والمعرفة ، ولا في الأخلاق والمعاملة ، ولا في الرئاسة والسياسة ، ولا في الأبوة والعمومة ، ولا في الأمومة والخؤولة ، وان الولادة مرت على شرف المحنة ، والمنشأ جرى على كرم المولد ، فالجوهر فائق في الأصل ، والمجد عميم في الفرع ، والنصاب مقوّم بالقديم المذكور ، والخير شامل في الحديث المشهور ، والنجابة معروفة عند الولي والعدو ، والعرق نابض بكل فعل رضيّ ، والغور بعيد على المتأمل ، والامر كله عالٍ عن المتطاول ، وأنه كما يقال لهذا ابن العميد لنباهة أبيه ، كذلك كان يقال لذاك ابن الامين لخير كثير كان فيه ، وان العميد وإن كان مقدماً في الكتابة ، فقد كان الأمين معظّماً في الديانة،والكتابة صناعة تدركها الخُلوقة ،والديانة حِلية لا تزداد إلا الجدّة ، وتلك الدنيا وهي زائلة ، وهذه الآخرة وهي باقية . والله تعالى يقول :

« والآخِرَةُ خَيْرٌ وأبقى (١) » وما عند الله باق ،على أن الأمين كتب لركن الدولة كما كتب العميد لصاحب خراسان ،والأمين كان ينصر مذهب الأشناني(٢) تديُّناً وطلباً للزلفى عند ربه ، والعميد كان يعمل لعاجلته ، وإن قلت كان الأمين معلماً بقرية من قرى طالقان الديلم .

قيل : وكان والد العميد نخّالاً في سوق الحنطة بقُم ، فدع هذا ونظيره ، وإنك متى أردت أن تحصي صنائع ابن العميد وابن عبّاد أردت عسراً ، ومتى آثرت أن تحصل فضائلها حاولت ممتنعاً ، وانهما كانا بالسياسة عالمَيْن ، ولأولياء نعمها ناصحيْن ، وإلى الصغير والكبير متحببين ، وعلى القاصي والداني حدِبين ، ولأموالهما باذلين ، ولأعراضها صائنين ، وفي مرضاة الله دائبيْن ، وعلى هدى أهل التقي جاريَيْن، ومن كل دنس ونطف (٤) بعيديْن، نزهيْن ، وأنهما لو بقيا لنزل عليهما الوحي ، ولتجدد بهما الشرع ، وسقط بمكانهما الاختلاف ، وزال بنظرهما ما فيه الأمة من هذا العيش النكد ، والشؤم الشامل ، والبلاء المحيط، والغلاء المتصل ، والدرهم العزيز ، والكسب الدنس ، والخوف الغالب ، ولكانت الارض تخرج أثقالها ، وتلفظ كنوزها ، ويستغني من ألم الفقر أهلُها ، ومن فضيحة الحاجة أربابُها ، ويعود ذويْ الدين ناضراً ، وخامل المروءة نبيهاً .

---

(١) سورة النبأ .

(٢) راجع : الأوراق للصولي أخبار الراضي والمتقي ٢٣٤

(٣) لعله القاضي أبو الحسين عمر بن الحسن بن مالك الشيباني الذي ذكره صاحب الفهرست ص ١٦٦

(٤) نطف : الشيء فسد ونطف الرجل : اتهم بريبة وتلطخ بعيب .

[احتمال تكذيب التوحيدي]

ولكن قد يسمع هذا الكلام مني / مَنْ شاهدهما ، وتبطنْ أمرهما ، وخبر حالهما ، وعرف مالهما فلا يتماسك عن زجري وخسئي (١) وإسكاتي ، ومَقتي ، ولا يُنَهْنِهُه شيء عن مقابلتي بالتكذيب واللوم ، ولا يجد بداً من أن يردّ قولي في وجهي ، ولا يسعه إلا ذاك بعد ازدرائي وتجهيلي ، ولا يلبث أن يقول : انظروا إلى هذا الكذب الذي ألفه ، وإلى هذا الزور الذي فوّفه (٢) ، والباطل الذي وصفه ، والحق الذي دفعه بسبب ثوب لعله أخذه ، أو درهم ثنى عليه كفه ، أو حاجة خسيسة قضيت له، يبلغ به قلة الدين وسوء النظر فيما يتعقب بالتقبيح والتحسين أنه يمدح واحداً مقذوفاً بالزندقة والكفر ، ويقرّظ آخر معروفاً بالإلحاد والسخف ، ويصف بالجود من كان أبخل من كلب على عِقْي صبي (٣)، ويدعي العقل لمن كان أحمق من دُغة (٤) ، ومن أظلم ممن يصف السفيه بالحصافة ، واللئيم بالكرم ، والمتعجرف بالأناة ، والعاجز بالكفاية ، والناقص بالزيادة ، والمتأخر بالسبق ، والعنيف بالرفق ، والبخيل بالسخاء ، والوضيع بالعلاء ، والوقاح بالحياء ، والجبان بالغناء ، ولا يكون حينئذ لقولي قابل، ولا لحكمي ملتزم ، ولا لنصي مرجوع ، ولا لسعيي نجح ، ولا لصوابي مختار ، ولا لحِدائي مستمع . وفي الجملة لا يكون لدعواي مصدّق .

[١٠ أ]

---

(١) خسأ الرجل الكلب : طرده وأبعده .

(٢) مفوف : مطرز ومنمق وموشى .

(٣) العقي : شيء يخرج من بطن المولود حين يولد قبل أن يأكل وهو أسود لزج كالغراء يقال : « أحرص من كلب على عقي صبي » .

(٤) دغة بنت مغنج : امرأة عجلية يضرب بها المثل في الحمق .

[التوحيدي والصاحب]

ولعمري لو انقلبت عن ابن عبّاد بعد قصدي له من مدينة السلام،وإناختي بفنائهمع شدة العدم والإنفاض،والحاجة المزعجة عن الوطن ، وصفر الكف عما يصان به الوجه ، وبعد ترددي إلى بابه في غُمار الغادين والرائحين ، والطامعين الراجين ، وصبري على ما كلفني نسخه، حتى نشبت به تسعة أشهر خدمة وتقرباً وطلباً للجدوى منه ، والجاه عنده مع الضرَع والتملق ببعض ما فارقت من أجله الأعزة،وهجرت بسببه الاخوان ، وطويت له المهامه والبلاد ،وعلى جزء مما كان الطمع يدندن حوله ، والنفس تحلم به ، والأمل يطمئن اليه ،والناس يعذرونه ويحققونه لكنت لإحسانه من الشاكرين ، ولإساءته من الساترين ، وعند ذكره بالخير من المساعدين المصدقين ، وعند قرنه بالسوء من الذابّين المتمضين والشاعر يقول :

ومن يُعطَ أثمان المحامد يُحمدِ

والآخر يقول :

والحمد لا يُشترى إلا بأثمانِ (١)

والآخر يقول (٢) :

وإنّ المجد أوله وعورٌ ومصدر غِبّهِ كرمٌ وخيرُ
وإنك لن تنال المجد حتى تجود بما يضنّ به الضميرُ

---

(١) البيت لحاجب بن حبيب الأسدي وصدره :

والمعطيان ابتغاء الحمد مالهما

المفضليات ٢/١٧١

(٢) الأبيات لعمرو بن الأهتم راجع المفضليات ٢/٢١٠ طبعة دار المعارف ١٣٦٢ هـ.
غبه : عاقبته . الخير : الكرم .

بنفســـك أو بملكك في أمورٍ (١)
يَهابُ ركوبَهـــا الورع الدّثورُ

والآخر يقول(٢) :

والحمدُ لا يُشـــترى إلا له ثمنٌ
مما يضِنُّ به الأقوامُ معـــلومُ
والجود نافيـــةٌ للمال مَهلِكةٌ
والبخل مُبقٍ لأهليه ومذمومُ (٣)

وقال آخر :

ومن لا يصُن قبـــل النوافد عرضه
فيحرزه يُعـــرَرْ به ويخرّقِ
ومن يلتمس حُسن الثنـــاءِ بماله
يصُنْ عِرضَه من كل شنعاءَ مُوبقِ

[دوافع حقد التوحيدي]

ولكنّي ابتليتُ به ، وكذلك هو ابتُلي بي ، ورماني عن قوسه مُعْرِقاً (٤) ، فأفرغت ما كان عندي على رأسه مَغيظـــاً ، وحرمني فازدريته ، وحقرني فاخزيته ، وخصني بالخيبة التي نالت مني ، فخصصته بالغيبـة التي أحرقته ، والبادىء أظلم ، والمنتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

---

(١) رواية المفضليات:بمالك . الورع : المتحرج . الدثور : الخامل النؤوم .
(٢) الأبيات لعلقمة بن عبدة في المفضليات ٢٠١/٢
(٣) رواية المفضليات باق .
(٤) أعرق : صـار عريقاً في الكرم ويقال في اللؤم أيضاً .

وإن لســـاني شهـدُهُ يُشتفى به
أجلْ وعلى من صبّه الله عَلْقمُ

ولئن كان منعني ماله الذي لم يبق له ، فما حظر عليّ عرضه الذي بقي بعده ، ولئن كنت انصرفت عنه بخُفيْ حُنين لقد لصق به من لساني وقلمي كلُّ عار وشَنار وشين ، ولئن لم يرَني أهلاً لنائله وبرّه ، إني لأراه أهلاً لقول الحق فيه ، ونثّ (١) ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظنّ أن ما يصير أليّ من ماله ضائع ، إني لأيقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولي شائع ، والحساب يخرج الحاصل من الباقي . والنظر يميز الصحيح من السقيم ، والاعتبار يُفرد الحق من الباطل ، والمنصف في الحكم يعذر المظلوم ويلوم الظالم والشاعر يقول :

فإنْ تمنعوا ما بأبيـــاتكم
فلن تمنعونا إذن أن تقـولا

وقال آخر :

فيـاقومَنـــا لا تظلمونا فإننـــا
نرى الظلم أحيـاناً يشُلُ ويُعرج
ونترُكُ أعراضَ الرجال كأنهـــا
فريسة لحم ليس عنها مُهجهِجُ (٢)

وقال آخر (٣) :

إنّ الذي يَقبض الدنيا ويَبْسُطهـــا
إنْ كانَ أغناكَ عني فهو يُغنيني (٤)

---

(١) نث : أفشى .
(٢) هجهج الرجل : رده عن الشيء .
(٣) هو ذو الأصبع العدواني في مفضليته ١٦٠/١
(٤) رواية المفضليات : سوف يغنيني .

ماذا عليَّ وإن كنتم ذوي رَحمي
ألا أُحبَّكمُ إذ لم تُحبُّوني

/ يا قوم ! إن حصاتي ذات مَعْجمةٍ[١] على العدو ، فخلوهم وخلوني . [١٠ب]

وقال آخر :

لئن طِبْتَ نفساً عن ثنائي إنني
لأطيبُ نفساً عن نداكَ على عُسري

فلستُ إلى جدواكَ أعظمَ فاقةٍ
على شدة الإعسار منك الى شُكري

وروى الخزنبل[٢] عن ابن الاعرابي[٣] قال : مدح زياد الأعجم[٤] بعض العمال فحرمه ، ورأى لُكنته فاستحقره ،فدخل وأنشده :

وكنت إذا ما عامل عقَّ أمَّه
ولم يَحْمِها مني أبحتُ حِماها

كسوتهما بُردَيْن من يَمنيَّةٍ
إذا ألبسا كانا بطيئاً بلاهما

وأجهل الناس في ارتفاع منزلته من ظنَّ أنَّ عرضه في خفارة قدرتهِ ،

---

(١) معجمة : قوة وصلابة .

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عاصم التميمي روى عن ابن السكيت كتاب السرقات « الفهرست ١٠٨ » .

(٣) محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي لغوي ونسابة وراو وعالم بالشعر ، ولد بالكوفة سنة ١٥٠ هـ ومات بسامراء سنة ٢٣١ هـ .

(٤) زياد بن سليمان الاعجم شاعر ولد ونشأ في اصفهان وانتقل الى خراسان ومات فيها سنة ٨٥ هـ ، كان معاصراً للمهلب بن أبي صفرة وله فيه مدائح ومراث ، وكان هجاءاً ، وسمي الاعجم لعجمة في لسانه .

وأن المقدَّم عليه متعرضٌ لنكيرِه ، وخيرٌ من هـــذا الظن أن يحتمل ألمَ مُفارقة المال ببعض الميسور حتى لا يقْرَفَ بشيء ، لا غاسل له ، ولا نافح عنه .

ما الذي ربح اليزيدي(٢) حين آسَدَ (٣) الشـــاعر الذي حرمه على نفسه حتى قال فيه شيئاً شـــافياً لغليله منه بما بقي على است الدهر (٤) وذلك قوله :

بنو اليزيديّ في أدبارهم شـــعَرٌ
قد شـــاب مما عليه تحلبُ الكمَرُ
أما حُبَيْشـــة منهم فهو ممتحن
من البغـــاء بما لم يمتحنْ بَشرُ
بودّه أنّ كل النـــاس من حُمُرٍ
وكلّ جارحـــةٍ في جسمه ذَكَرُ

واللهِ لَلْمَخروج من الطارف والتالد أسهل من التعرض لهذا القول والصبر عليه ، وقلة الاكتراث به . ولهذا بكت العرب من وقع الهجـــاء ، كما تبكي الثكلى من النساء ، وذاك لشرف نفوسها ونزاهتها عن كل ما يتخوّن جمالها ويعيب فعالها .

---

(١) قرف فلاناً : عابه واتهمه .

(٢) أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد من كبار علماء العربيـــة والادب « ٢٢٨ ـ ٣١٠هـ » .

(٣) آسد : هيـج وأغرى .

(٤) أست الدهر : قدمه .

[التوحيدي وابن العميد]

ومما يُختل(١) به الرئيس ، ويذهل عليه أنه ينظر إلى جماعة بين يديه قد أحسن إلى كل واحد منهم وقرّبه وأعطاه واختصه بشيء وأبانه بحال . وإذا رأى واحداً بعد هؤلاء لا نباهة لقدره ، ولا جهارة لمنظره ، أو لا شهرة لاسمه ومنصبه حقره ، وثنى طرفه عنه ، وأغضاه دونه ،ولم يهشّ لذكره ورؤيته ، واعتقد أنه ليس بذي محل يُبالى به، ولا يبين في غُمار الباقين ، أو يجب على ذلك المحروم أن يذكره بما هو أغلب عليه وأشهر عنه ، وأن يعدّ نيلَ غيره كرماً قد عمّ ، وإن كان إخفاقه وحده لؤماً قد خصّ . وهذا موضع يُشكل قليلاً ، وتطول فيه الخصومة بين الآمل والمأمول ، على أن الكرم والاحتجاج لا يجتمعان ، واللؤم والاحتيال لا يفترقان. وقد ألمّ الشاعر بطرف من هذا المعنى بقوله :

إن تكلمتُ لم يكنْ لكلامي
موقعٌ والسكوت ليس بمُجْدِ
فأبِنْ لي ، أكلُّ هذا التواني
في جميع الاحوال أم فيَّ وحدي
أم ترى ما اصطنعته عند غيري
واجبٌ أن أعدّه لك عندي

---

(١) ختل : خدع .

[شروط السؤدد]

والذي أقول غيرَ محتشم ولا مراقب أن السـؤدد لا يكون إلا باحتمال خصالٍ من الصبر والحلم والتكرّم والبذل والعطاء والتفقد ،وهن أثقل ما يعاينه الزائر بآمله ، والفقير برجائه ، والشـاعر بطمعه ، والمنتجع بزيارته . اللهمّ إلا أن يكون السيـد يجري في هذه الاخلاق والشيم على الهوى فيُعطي من كان أخفّ روحاً عنده وأحلى شمائل ، وألطف فضـلا ، وأعْيَرَ[1] قولاً ، فهذا ليس عليه من ثقل السؤددِ شيء،لأنه قد ميّز ما يخف عليه مما يَثقُل ، وما يتصل بنفسه مما ينبو عنه ، وما هـذا من السؤدد إذا كان صريحاً تاماً ، عريقـاً في شيء ، بل السؤدد ما قال أبو الاسود الدؤلي[2] لعبيد الله بن زياد[3] : إنك لن تسود حتى تصبر على شرار الشيوخ النجر[4]. وهذا الكلام كالمثل،وقال الشاعر :

لا تحسـب المجد تمراً أنت آكلُه

لن تبلغَ المجد حتى تلعقَ الصـبرا

وقيل لعديّ بن حاتم[5] : من السيّد ؟ قال : الأحمق في ماله ،

---

(١) أعارت القصيدة : سارت والاعارة السيرورة .

(٢) ظالم بن عمرو الدؤلي الكناني واضع علم النحو . وله ديوان شعر ،مات بالبصرة سنة ٦٩ هـ .

(٣) عبيد الله بن زياد بن ظبيان من فتاك العرب كان مقرباً من عبد الملك بن مروان وهو الذي قتل مصعب بن الزبير ثم ثار على الحجاج مع ابن الجارود مات في عمان سنة ٧٥ هـ.

(٤) النجر : الأصل والحسب .

(٥) عدي بن حاتم صحابي رئيس قومه في الجاهلية والاسلام أسلم سنة ٩ للهجرة وشهد فتح العراق وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي بن أبي طالب يروى له ٦٦ حديثاً في الصحيحين مات سنة ٦٨ هـ .

الذليل في غرمه المطَّرح لحقده ، المنيُ بأمر جماعته فليس يسود المرء إلا بعد أن يسهرُ من اوّل ليله الى آخره فكراً في قضاء الحقوق ، وكفّ السفاه ، وازدراع المحبّة في القلوب ، وبعث الالسنة على الشكر .

[معاملة الناس بالمثل]

وفي الجملة . من جهل حقك فليس يلزمك ان تعترف له بحقه ، ومن لم ينظر فيما لك عليه لم يجب عليك أن تنظر فيما له عليك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه [وسلم] : لاخير لك في صحبة من لايرى لك مثل ماترى له .

وقد قيل : تواضع للمحسن اليك وان كان عبداً حبشياً ، وانتصف ممن اساء اليك وان كان حرّاً قرشيا . ومن صفات الكريم ماقال الشاعر :

إن الكريم من تلفّتَ حوله
وإنّ اللئيمَ دائمُ الطرفِ أقودُ

وقال آخر :

لحا اللهُ اكبانا زناداً (١) وشرّنا
وأيسرَنا عن عرض والده ذبًا
رأيتك لما نلتَ مالاً وعضّنا
زمانٌ ترى في حدّ أنيابه شَغْبا (٢)
جعلتَ لنا ذنباً لتمنعَ نائلاً
فأمسِكْ ولاتجعلْ غناك لنا ذنباً

[١١أ] / وقال آخر :

نال الغنى بعد فقرٍ فاستغاثَ به
كما استغاثَ بباقي ريقهِ الشرِقُ

---

(١) كبا الزند : لم يور .
(٢) كذا في الأصل ولعلها «شعبا» والشعب: أسنان السفود التي يغرز فيها اللحم للاشتواء .

[التزام التوحيدي للبرهان والعيان]

واذا احتججت بالعيان في وصف هذين الرجلين في الكرم واللؤم فقد رفعتُ المِرْية ، وإذا أقمتُ الشاهد على الدعوى فقد منعتُ من اللائمة ، وإذا أريْتُ الضرورة فقد بلغت الغاية .

وأيُّ خَفْقةٍ للقلب بعد اليقين ، أم أيُّ وحشةٍ للنفس بعد الاستبصار ، أم أيُّ تقيّةٍ على المحتج إذا وصل البرهان ، أم كيف يستحييَ من الحق وإن كان مراً ، أم كيف يعتذر من الصدق وإن كان موجعاً هذا ما لا يُكلّفُه حكيم، ولا يأمُرُ به مرشد ، ولا يحُثُّ عليه ناصح . وهذا مبدأ الخبر في حديث ابن عبّادعلى مايتفق من ترتيبه ووضعه غير آخذ في أهبة ، ولا محتفلٍ بتقدمة .

[رقاعة الصاحب وسخفه]

فأول ما أذكره من ذلك ما أدلُّ به على سعة كلامه ، وفصاحة لسانه ، وقوّة جأشه ،وشِدّة مُنّته وإن كانفي فحواه ما يدلُّ على رقاعته ، وانتكاث مريرته ،وضَعْف حَوْلِه ، وركاكة عقله ، وانحلال عقده . ولما رجع من همذان سنة تسع وستين وثلاثمائة بعد أن فارق حضرة عضد الدولة استقبله الناس من الريّ وما يليها واجتمعوا بساوَةَ [1] ودونها وفوقها وكان قد أعدّ لكل واحد منهم كلاماً يلقاه به عند رؤيته وأين كانوا يقعون منه ، وأين كانوا يبيتون عنده ، وهذا الذي ذهب به في الإعجاب والكبر ، وبعثه على احتقار الناس ، وتركه في التيه المضلّ . فأول من دنا منه القاضي أبو الحسن الهمذاني وهو من

---

(١) مدينة بين الري وهمذان .

قرية يقال لها أسداباذ [١] ، فقال له : أيها القاضي ما فارقتُك [٢] شوقاً اليك ، ولا فارقني وجداً عليك ، ولقد مرت بعدك مجالس كانت تقتضيك ، وتخطُبك وترتضيك ، ولو شهدتني بين أهلها وقد علوتُهم ببياني ولساني وجدَلي لأنشدتَ قول حسان بن ثابت في ابن عباس [٣] ورأيتني أولى به منه ، فإن حسّان قال :

إذا ما ابن عبّاسٍ بدا لك وجهُ رأيت له في كل مَجْمَعَةٍ فضلا [٤]
إذا قال لم يترك مقالاً لقـــائلٍ بِملتقطاتٍ لا ترى بينها فصلا [٥]
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدَع
لذي إربَةٍ في القول جِداً ولا هزلا [٦]
سموتَ إلى العليا بغـــير مشقّة
فنلت ذُراها لا دنيّاً ولا وَغْلا [٧]

ولذكرت أيضاً أيها القاضي قول الآخر وأنشدته، فإنه قال فيمن وقف موقفي، وقَرف مَقْرفي [٨] ، وتصرّف متصرّفي وانصرف مُنصرفي ، واعترف له معترفي :

---

(١) اسداباذ : قرية تبعد مرحلة واحدة عن همذان نحو العراق .

(٢) المفارقة : المخالطة .

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي الصحابي الجليل لزم الرسول صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيحة توفي بالطائف سنة ٦٨ هـ .

(٤) لم يرد هذا البيت في الديوان انظر ديوان حسان بن ثابت ٣٥٩

(٥) ملتقطات : متخيرات .

(٦) إربة : حاجة .

(٧) الوغل : النذل الضعيف الساقط .

(٨) قرفه : اتهمه وعابه .

إذا قال لم يترك مقالاً ولم يقف
لعيٍ ولم يثْنِ اللسان على هُجْرِ
يصرّفُ بالقول اللسان إذا انتحى
وينظر في أعطافه نظر الصقْر

ولقد أودعتُ صدرَ عضد الدولة ما يطول به التفاته إليّ ، وبديم حسرته عليّ ، ولقد رأى ما لم ير قبله مثله ، ولا يرى بعده شكله ، فالحمد لله الذي أوفدني عليه على ما يسرُّ الوليّ ، وأصدرني عنه على ما يسوء العدوّ .

أيها القاضي ! كيف الحال والنفس ، وكيف الامتاع والأنس ، وكيف المجلس والدرس ، وكيف القرس والجرْس ، وكيف الدسّ والدّعس ، وكيف الفرْس (١) والهرس (٢) ، وكاد لا يخرج من هذا الهذيان ، لتهيُّجه واحتدامه ، وشدة خيلائه وغلوائه ، والهمذانيُّ مثل الفأرة بين يدي السنّور قد تضاءل وقموَ (٣) لا يصعد له نَفَسٌ إلا تبرع تذللاً وتقللاً ، هذا على كبره في مجلسه ، مع نذالته في نفسه . ثم نظر إلى الزعفراني ، رئيس اصحاب الرأي (٤) فقال : أيها الشيخ سرّني لقاؤك ، وساءني عناؤك ، وقد بلغني عُدواؤك (٥) ، وما يتخيّله اليك خيلاؤك ، وأرجو أن أعيش حتى يردّ عليك

---

(١) الفرس : القتل .
(٢) الهرس : الدق الشديد .
(٣) قمؤ : ذوى وصغر .
(٤) الزعفراني رئيس فرقة الزعفرانية وهي فرقة من النجارية أتباع الحسين بن النجار الذين وافقوا أهل السنة في أصول والقدرية في أصول وانفردوا بأصول . راجع : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥١/٢ ، والامتاع والمؤانسة ٧٨/٢
(٥) العدواء : الشغل يصرفك عن الشيء .

غلواؤك ، ما كان عندي انك تُقدم على ما أقدمت عليه ، وتنتهي في عداوتك لأهل العدل والتوحيد إلى ما انتهيت اليه ، ولي معك إن شاء الله نهارٌ له ذيل ، وليلٌ يتبعه ليل ، وثبورٌ(١) يتصل به وَيْل ، وقطر يدوم معه سَيْل و وسيعلم الكفّار لمن عُقبى الدار . قال الزّعفراني : حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ثم أبصر أبا طاهر الحنفي فقال : أيها الشيخ ما أدري أأشكوك أم أشكو اليك ؟ أما شكواي منك فلأنك لم تكاتبني بحرف ، حتى كأنّا لم نتلاحظ بطرف ، ولم نتحافظ على إلف ، ولم نتلاق على ُظرف ، وأما شكوايَ اليك ، فهو أني ذممت الناس بعدك ، وذكرت لهم عهدك ، وعرضت بينهم ودك ، وقدحت عليهم زندك ، ونشرت عندهم غرائب ما عندك ، فاشتاقوا اليك بتشويقي ، واستصفوك بترويقي ، وأثنوا عليك بتنميق وتزويقي . وهكذا عملُ الأحباب إذا نبأت(٢) بهم الركاب ،والتوت دونهم الاعناق ، واضطرمت في صدورهم نار الاشتياق ، فالحمد لله الذي أعاد الشعب ملتئماً ، والشمل منتظماً ، والقلوب وادعة ، / والأهواء جامعة ، حمداً يتصل بالمزيد ، على عادة السادة مع العبيد ، عند كل قريب وبعيد . [١١ب]

ثم التفت إلى ابن القطّان القزويني الحنفي ، وكان من ظرفاء العلماء فقال: أيها الشيخ كدت والله أحلُم بك في اليقظة ، وأشتمل عليك دون الحَفَظة ، لأنك قد ملكت مني غاية المكانة والحظوة ، والله ما أسغت بعدك ريقاً إلا على جَرَض ، ولا سلكت بعدك طريقاً إلا على مضض ، ولا وجدت للظرف سوقاً إلا بالعرض ،سقى الله ربعاً أنت ساكنه بنزاهتك ، وطبعاً أنت

(١) الثبور : الهلاك والخسران .
(٢) نبأ ونبؤ : خرج من أرض إلى أرض .

طابنه (١) ببراعتك ، ومَغرســاً (٢) أنت أينعته (٣) بنباهتك ، وأصلاً أنت فرعه بفقاهتك . وقال للعباداني : أيها القاضي ! أيسرك أن أشتاقك وتسلوَ عني ، وأن أسألَ عنك فتنسلُ مني ، وأن أكاتبك فتتغافل ، وأطالبك بالجواب فتتكاسل ؟ وهذا ما لا أحتمله من صاحب خراسان ، ولا يطمع مني فيه ملك مِنْ ساسان ، متى كنت منديلاً ليد ، ومتى نزلت على هذا الحد لأحد ، إن انكفأت إليَّ بالعذر انكفاء ،وإلا اندرأت عليك بالعَذْل اندراء ، ثم لا يكون لك معي قرار بحال ، ولا يبقى لك بمكاني استكثــار إلا على وبالٍ وخبال . ثم طلع أبو طالب العلوي فقال : أيها الشريف ! جعلتَ حسناتك عندي سيئات ، ثم أضفت اليهــا هَنات بعد هَنات ، ولم تفكر في ماض ولا آت ، أضعت العهدَ ، وأخلفتَ الوعدَ ، وحققت النحسَ ، وأبطلتَ السعد،وحُلْتَ (٤) سرَاباً للجيران ، بعدما كنت شراباً للحرّان ، وظننتَ أنك قد شبعت مني ، أو اعتضت عني ، هيهات ! وأنّى لك بمثلي ، أو من يعثر في ذيلي ، أوَلَنهار كنهاري ، أو ليلُ كليلي ، وهل عائض مني وإن جلّ عائض ، انا واحد هذا العــالم ، وانت بما تسمع عالم ، لا إله إلا الله وسبحــان الله . ايها الشريف ! اين الحق الذي وكَدناه (٥) ايام كادت الشمس عنا تزول ، والزمان علينا يصول وأنا اقول ، وانت تقول ، والحال بيننا تحول ؟ سقى الله ليلة تشييعك وتوديعك ، وأنت متنكّر

---

(١) في الأصل غير منقوطة ورجحنا طابنه ،وطابنه : وافقه .

(٢) المغرس : موضع الغرس .

(٣) في الأصل ينعه .

(٤) حلت : تحولت .

(٥) وكد يكد كوداً : أصاب والعقد : أوثقه .

تنكراً يسوء الوليّ ، وأنا متفكر تفكراً يسُرُّ العدو . هذا ونحن متوجهون إلى وَرَامين (١) خوفاً من ذلك الجاهل المهين ، يعني بالجاهل المهين ذا الكفاءتين حين أخرجه من الريّ بعد أن ألَبَّ عليه ، وكاد يُؤتى على نفسه الخبيثة ، وهو حديث له فَرْش (٢) ، وما أنا بصددٍ يمنع من اقتصاصه ، ولعله يجري على وجهه فيما بعد ، ولقد ُظلم بقوله ، وكان بالجهل والمهانة أحق ، وسيمر مايدل على قولي ، ويصحح حكمي ، ويبيّن لك انه لم يكن معه إلا الجَدّ المساعد فقط ، وما في ذلك تشيعٌ وإيهام ، وتمويه وكذب ، وبُهْتٌ ووقاحة .

ثم نظر إلى أبي محمد كاتب الشروط فقال : أيها الشيخ ! الحمــد لله الذي كفانا شرَّك ، ووقانا عَرَّك (٣) ، وصرف عنا ضُرَّك ، وأرانا فَيْحَك(٤) وحرَّك ، دَبَبْتَ الضراء لنا ، ومشَيْتَ الخَمَرَ (٥) علينـا ،ونحن نحيس لك الحَيْس (٦) ، ونصِفُك بالألبابة والكَيْس (٧) ، ونقول : ليس مثله ليس ، وأنت في خلال ذلك تقابلنا بالوَيْح والوَيْس (٨) ، لولا أنك فَرْحان (٩) لسقط العشاء بك منّا على سِرْحان (١٠)

---

(١) بليدة من نواحي الري تبعد عنها ثلاثين ميلاً .

(٢) فرش : بسط وتوسيع .

(٣) العر : السوء .

(٤) فيحك : الفيح : خصب الربيع في سعة البلاد . ويقــال : أفح عنك من الظهيرة : أبرد .

(٥) الخمر : المخاتلة ، يقال : « هو يدب لنا الضراء ويمشي له الخمر » لمن ختل صاحبه.

(٦) حاس يحيس : الشيء : خلطه والحبل : فتله .

(٧) اللبابة : العقل . الكيس : العقل والظرف والفطنة .

(٨) ويح : كلمة ترحم وتفجع . ويس : بمعنى ويح .

(٩) الفرحان : من أصابه الفرح .

(١٠) السرحان : الذئب .

[الصاحب وابن أبي خراسان]

وقال لابن أبي خراسان الفقيه الشافعي : أيها الشيخ! ألغيت ذكرنا عن لسانك ، واستمررت على الخلوة بانسانك ، جارياً على نسيانك ، مستهتراً بفتيانك وافتنانك ، غيرَ عاطفٍ على إخوانك وأخدانك ، لولا أني أرعى قديماً قد أضعتَه ، وأعطيك من رعايتي ما قد منعتَه ، لكان لي ولك حديث ، إما طيّب وإما خبيث ، خلفتُك محتسباً ، فخلفت مكتسباً ، وتركتك آمراً بالمعروف ، فلحقتك راكباً للمنكر ، قد يفيل (١) الرأي ، ويخيبُ الظنُّ ، ويكذبُ الأملُ . وقد قال الأول :

ألا رُبَّ مَنْ تغتشُّهُ لك ناصحٌ
ومؤتمنٍ بالغيبِ وهو ظنينُ

[الصاحب والشادباشي]

ثم نظر إلى الشادباشي فقال : يا أبا عليّ ! كيف أنت وكيف كنت ؟ فقال : يا مولانا لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف كنت ، ولا لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف لم أكن . فقال : اغربْ يا ساقط يا هابط ، يا من يذهب الى الحائط بالغائط ، ليس هذا من نحت يدك ، ولا هو مما نشأ من عندك ، هذا لمحمد بن عبد الله بن طاهر أوله :

كتبتَ تسأل عني كيف كنت وما
لاقيتُ بعدك من غمٍ ومن حزن

---

(١) فال يفيل فيولة وفيلاً : الرأي أخطأ وضعف .

لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف كنتُ ولا
لا كنتُ إن كنتُ أدري كيف لم أكنِ

[صورة هزلية]

وكان يُنشـــد وهو يلوي رقبته ، ويجحظ حدقته ، ويهزّي أطراف منكبيه ، ويتسايل ويتمايل كأنه الذي يتخبطه الشيطـــان من المَسّ ، ثم قال يا أبا عليّ ! لا تعوّل على أيرٍ في سراويل غـــيرك ، لا أير إلا أيرٍ تمطّى تحت عانتك ، فانك إن عولت على ذلك خانك وشانك ، وفضح حالك [1] ومانك .

[الصاحب والغلام]

ثم نظر الى غلام قد بقَل [2] وجهُه كان يتهم به على الوجه الأقبح ، فالتوى وتقلقل وقال : أدن يا بنيّ ! كيف كنتَ ، ولم حملت على نفسك هـــذا العناء ؟ وجهُك هـــذا الحسن لا يُتبذل للشحوب ، ولا يُعرّض للفحات الشمس بين الطلوع والغروب ، أنت يجب أن تكون في بذلة بين حجَلة [3] / وكلّة ، تُزاح بك العلة وتعلا فيك القُلة [4] ، وتشفى منك الغُلة [5] . [١٢]

---

(١) في الأصل : خانك .
(٢) بقل وجه الغلام : خرج شعره .
(٣) حجلة : « محركة » كالقبة ، وموضع يزين بالثياب للعروس.
(٤) القلة : النهضة من علة أو فقر .
(٥) الغلة : العطش أو شدته .

[الصاحب وفيروزان المجوسي]

هذا آخر حديث الاستقبال ، وقد حذفتُ منه أشياء كثيرة من رقاعاته ، لأن الغرض غير مقصور على فن واحد من حديثه . وقال يوماً في دار الإمارة لفيروزان المجوسي ، وكان الخرائطي حاضراً ، في شيء نابذه عليه : إنما أنت مخشّ مجشّ محش ، لا تهش ولا تبش ولا تمتش ، فقال له فيروزان : أيها الصاحب! برئت من النار إن كنت أدري ما تقول ، إن كان من رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم ، فان العرض لك ، والنفس فداؤك ، لستُ من الزنج ولا من البربر ولا من الغزّ[1] ، كلمنا بما نعقل على العادة التي عليها العمل ، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ، ولا لغة أهل دينك من هذا السّواد، فقد خالطنا الناس فما سمعنا منهم هذا النمط ، وإني أظن أنك لو دعوت الله بهذا الكلام لما أجابك ، ولو سألته لما أعطاك ، ولو استغفرت الله به ما غفر لك ، وحقيق على الله ذلك . فقال الخرائطي : أيها الصاحب ! والله لقد صدق فلا تغضب ، فليس كلُّ من وثق بأنه لا يُراجع في قوله وفعله ركب ما يحمّق فيه ، شاهداً وغائباً ، فقام عنهما خزيان يردّد ريقه حقداً عليهما ، وكان ذلك سبباً كبيراً في فساد أمرهما .

[رأي الزعفراني في الصاحب]

وقلت للزعفراني الشاعر ، وكان من أهل بغداد : أصدقني أيها الشيخ عن هذا الانسان كيف وجدته في طول ما عجمت عوده ، وتصفحت أخلاقه ، وخبرت دُخلته ، فقال : وجدته كليلَ الكرم ، حادّ

(١) الغز : جنس من الترك .

اللؤم ، رقيعَ الظاهر ، مريبَ الباطن ، دنِسَ الجيب ، مثرياً من العيب ، كأنه خلق عبثاً ، بما مليء خبثاً ، سفهُه ينفي حكمة خالقه ، وغناه يدعو إلى الكفر برازقه ، وأنا أستغفر الله من قولي فيه ونفاقي معه ، ولعن الله الفقر فهو الذي يَخْبُلُ المروءة ويقدح في الديانة،ولو كان لي ببغداد قوتٌ يحفظ عليَّ ماء الوجه ما صبرت على هذا الرقيع البارد ، والمجنون المطاع ساعة . ولكن ما أصنع ، قد قلبت أمري ظهراً لبطن ، مالي إلى الرزق باب إلا منه وأنشدت :

والرزق كالوسميِّ رُبَّتَما عدا
روض القطا وسقى مهامه جلقِ
فاذا سمعتَ بحوّلٍ متألهٍ
متأدبٍ فهو الذي لم يرزقِ
والرزق يُخْطيء باب عاقل قومه
ويبيت بوّاباً لباب الأحمقِ

وأنشد أيضاً :

الرزق قد يأتيك في وقته
والحرصُ لا يُغني ولا يُجدي
كم قاعدٍ يبلّغ مأموله
وطالبٍ مضطربٍ يُكدِي
فاسترزقِ الرازق من فضله
وارضَ بما يوليك من رفْدِ
وثِقْ باحسانٍ له واسعٍ
فهكذا عادتُه عندي

وأنشد القرميسيني[١] قال : أنشدنا علي بن سليمان الأخفش لشاعر :

قد يرزق المرء لم تتعب رواحلُه
ويُحرم الرزق مَنْ لم يُؤتَ من تعبِ
يا ثابتَ العقل كم عاينتَ ذا أدبِ
الرزقُ أعدى له من ثابت الجَربِ
وإنني واجدٌ في الناس واحدةً
الرزق والنَّوْكُ مقرونان في نسبِ [٢]
وخصلة قلَّ فيها من يُنازعني
الرزق أروغ شيءٍ عن ذوي الأدبِ[٣]

[رأي المسيني في الصاحب]

وقلت للمسيني : ما قولك في ابن عبّاد ؟ فقال : له في الخلاعة قرآنٌ مُعجز ، وفي الرَّقاعة آية منزلة ، وفي الحسد عِرْقٌ ضارب ، وفي الكذب علمٌ لازب ، لا ينزع عن المساوىء إلاَّ مللاً ، ولا يأتي الخير إلا كسلاً ، ظاهرُه ضلالة ، وباطنه جَهالة ، وليس له في الكرم دلالة ، ولا في الاحسان إلى الأحرار آلة . فسبحان من خلقه غيظاً لأهل الفضل والأدب ، وأعطاه فيضاً من المال والنشب .

---

(١) راجع : الامتاع والمؤانسة ١/١٣٤

(٢) النوك : الحمق .

(٣) راغ : حاد وذهب ههنا وههنا .

[رأي الخوارزمي في الصاحب]

وقلت لأبي بكر الخوارزمي الشاعر[1] وكان قد خبره : كيف وجدت الصاحب وقد أعطاك وأولاك وقدّمك وآثرك ، وسفَر لك إلى عضد الدولة وهو اليوم شاهُ الملوك ، حتى ملأت َعيابَك[2] تِبْراً ، وحقائبك ثياباً ، ورواحلَك زاداً ؟ فقال : دَعْني مما هنالك والله إنه لخوّارٌ في المكارم ، صبّارٌ على الملائم ، زحّافٌ إلى المآتم ، سمّاعٌ للنمائم ، مقدام على العظائم[3] يدعو إلى العدل والتوحيد ، ويدّعي الوعد والتخليد ، ثم يخلو باستعمال الأمور ، ويشتمل على الفسوق والفجور ، ويُمسي وهو بور ، ويصبح وما على وجهه نور .

[أبو بكر الخوارزمي]

وكان الخُوارزمي من أفصح الناس ، ما رأينا في العجم مثله ، وإنما نوّله الصاحب ما نوّله ، وخوّله ما خوّله ، لأنه كان أذكاهُ[4] عَيناً على محمد بن ابراهيم صاحب الجيش بنيْسابور ، واستملى فيه أخبار المشرق ، وبهذا المعنى استدرّ له من ملك بغداد بواسطة ابن يوسف ، وكان الظاهر انه إنما يُعطيه لأدبه ، ويُجيزه لشعره ، ويصطفيه لفضله .

---

(١) محمد بن العباس الخوارزمي أبو بكر من أئمة الكتاب والشعراء العلماء . كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب ، ولد في خوارزم وتوفي في نيسابور سنة ٣٨٣ هـ.

(٢) العيبة : الزنبيل من أدم وما تجعل فيه الثياب كالصندوق .

(٣) العظيمة : النازلة الشديدة .

(٤) يقال : أذكى عليه العيون أي أرسل عليه الجواسيس .

[رأي الزعفراني في الصاحب]

ولقد قلت للزعفراني : أرى الخُوارزمي سيء الرأي في ابن عبّاد مع مايصل اليه منه ، فما السبب ؟ فقال : ابن عبّاد سيء السياسة / لصنائعه ، وذاك أنه [١٢ب] يُعطي الانسان عطيّةً ما ثم يلوه بجفاءٍ يتمنى معه لَقْطَ النّوي في السكك. والمُصْطَنِعُ الكريم هو الذي يكون اصطناعه بلسانه ، فوق اصطناعه بيده ، وإني أحدّثك ببعض ما عامل به الخوارزمي ليصح لك القياس عليه ، والعجبُ منه .

[الخوارزمي والصاحب]

حضر الخوارزمي يوماً وجرى حديث القافة [١] . فقال الخُوارزمي: دخل محرز المدلجي على رسول ﷺ ونظر إلى أقدام أسامة وزيد فقال : هذه أقدام بعضها من بعض ، وصحف البائس كما يصحف الناس العلماء فمن دونهم .

وكان ابن عبّاد على بِرْكَة فما زال يدور حول البركة وهو يصفع الخوارزمي ويقول محرز بحياتي إلى أن رَعَفَ [٢] الخوارزمي وتنحّى وخرج ، فهذا وما داناه هو الذي كان يُفسد به ما يفعله من الخير والبرّ .

[رأي أبي الطيّب النصراني في الصاحب]

وحدثني بذكر أبي بكر عيناً بخراسان أبو الطيّب النصراني وكان على السرّ عند مؤيد الدولة ، وكان يعرف من مخازي ابن عبّاد عجائب ، سمعته يقول :

---

(١) القائف : من يعرف الآثار والجمع قافة .

(٢) رعف الرجل : خرج الدم من أنفه .

لو بُحْتُ بما في نفسي من حديث هذا المأبون لتصدَّع الجبل، ولتقلَّع الجَنْدَلُ .
وكان ابن عبّاد شديد السَّفه، عجيب المناقضة، سريع التحوّل من هيئة إلى هيئة، مستقبلاً للأحرار بكل فِرْية (١) وفاحشة . كان يقول للانسان الذي قدم عليه من أهل العلم : تقدَّمْ يا أخي وتكلمْ، واستأنس، واقترحْ، وانبسطْ، ولا تُرَعْ (٢)، واحسبني في جوف مُرَقَّعَة، ولا يهولك هذا الحشم والخدم، وهذه الغاشية والحاشية، وهذه المرتبة والمسطبة، وهذا الطاق والرواق، وهذه المجالس والطنافس، فان سلطان العلم فوق سلطان الولاية، وشرف العلم أعلى من شرف المال، فليفرخ روعك (٣)، ولينعم بالك، وقل ما شئت، وانصر ما أردت، فلست تجد عندنا إلا الانصاف والاسعاف والاتحاف والاطراف، والمقاربة والمواهبة، والمؤانسة والمقابسه، وعلى هذا التنزيل ومن كان يحفظ ما يَهذي به في هذا وغيره، حتى إذا استقى ما عند ذلك الانسان بهذه الزخارف والحيل، وسال الرجل معه في حدوره على مذهب الثقة، وركب في مناظرته، رَدَعَه وحاجّه، وراجعه وضايقه، وساكعه (٤) ووضع يده على النكتة الفاصلة، والأمر القاطع، تَنَمَّرَ له، وتَنَغَّرَ (٥) عليه، واستحصد (٦) غضباً، وتلظى لهباً، وقال بعد وثبتين أو ثلاث : يا غلام خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس

---

(١) الفرية : الكذب واختلاقه .
(٢) لا ترع : لا تخف .
(٣) ليذهب رعبك . افرخ الروع : انكشف .
(٤) سكع : مشى على غير هداية . ورجل سكع : متحير .
(٥) نغر الرجل على فلان : غلا جوفه عليه غضباً .
(٦) استحصد الرجل : غضب .

وضعه فيه بعد أن تصبّ على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة عصاً فانه معاندٌ ، ضدٌ ، يحتاج إلى أن يشدّ بالقِد [١]، ساقطٌ هابطٌ، كلب نبّاح، متعجرفٌ وقاحٌ ، أعجبه صبري وغرّه حلمي ، ولقد أخلف ظنّيّ ، وعدت على نفسي من أجله بالتوبيخ ، وما خلق الله العصا باطلاً ، ولا ترك خلقه هاملاً ، فيقام ذلك البائس على هذه الحال التي تسمع ، على أن مسموعك دون مشاهدتك لو شاهدت ، ومن لم يحضر ذلك المجلس لم يرَ منظراً رفيعاً ، ورجلاً رقيعاً قد عامل بمـــا وصفت الجريري [٢] غلام ابن طرّارة ، والحامدي [٣] الشاعر الوارد عليه من البصرة ، وأبا زيد الكلابي وغيرهم .

[رأي ابن العميد في الصاحب]

وكان أبو الفضل،أعني ابن العميد،إذا رآه يقول : احسبوا أن عينيه ركبتا من زئبق ، وعنقه عمل بلولب . وصدق لأنه كان ظريف التثني والتلوي ، شديد التفكك والتفتّل ، كثير التعوّج والتموّج في شكل المرأة المومسة ، والفاجرة الماجنة ، والمخنث الأشمط .

[رأي الصاحب في الطب]

وسمعت أبا الفضل الهروي يقول له يوماً : لو وضع في خزانة الكتب

---

(١) القد « بكسر القاف » السير يقد من جلد غير مدبوغ يقيد به الأسير .

(٢) في الأصل الحريري وكذلك في تاريخ الحكماء للقفطي والصواب ما أثبتناه نسبة إلى مذهب ابن جرير الطبري.

(٣) ورد ذكره في تتمة اليتيمة ١/ ٢٧

للوقف شيء من الطب لكان ذاك باباً من المنافع الحاضرة ، والفوائد المعجّلة ، والخير العام . فقال على حدّته وجنونه : الطبُ يا أبا الفضل سلّمٌ إلى الالحاد ، ولقد أسررت في هذا القول حسْواً في ارتغاء [1] ، أنت مهندس وأنت متهم ، ويكفي منك في هذا المعنى ماهو دون هذا ، فانخزلَ الهروي ، وكان جباناً ، وأخذ يتلافى ما فرّط منه .

قال أصحابنا بالريّ : كيف يُسوّغ له أن يقول هذا ، وهو يشاور الطبيب في كل غداةٍ ، ويعتمد على الطب في كل عارض ، ويجمع الكتبَ فيه ، ويرجعُ اليه .

[الصاحب وعلم النجوم]

قالوا : وليس هذا بأعجب من عيبه لعلم النجوم ، وذمه لأهله ، وهو لا يفارق التقويم ، ولا يخلو يوماً من النظر فيه مرات ، لأنه كان لا يركب إذا وجد نحساً ، هذا على تقليده فيه ، لأنه ما كان يعرف حرفاً من علم النجوم، لا على طريقة من ينظر في أحكامه ، ولا على مذهب من يختاره لهيئته، فهل رأيت بُهتاً أشدّ من هذا ، / ومناقضةً أقبح من هذا ، يذمّ شيئاً في الظاهر ، ثم يحبه في الباطن ، ويزهّد غيره في شيء وهو يُؤثره . وكان من ضعف عقله يقول: يجوز أن يكون الفلك من سَلْجَم [2] أو جزر أو فجل . قال هذا للصاغاني أبي [3] حامد ونحن حضور ، وهو مع هذا [١٣أ]

---

(١) اسر حسواً في ارتغاء : مثل يضرب للماكر المخادع .

(٢) سلجم « كجعفر » نبات .

(٣) ورد ذكره في الامتاع .

العقل السخيف يطلب كتب الأوائل ، ويجمعها وينظر فيها ، ويشتهي أن يفتحَ فاتحٌ عليه شيئاً منها في السر وعلى وجه التهجين،لا على وجه التقبل .

ويقول في أبي الحسن العامري [١] قال : الحرّاني كذا وكذا وإذا خلا نظر في كتبه ومصنفاته وكان أحدها من أبي الحسن الطبيب الطبري طبيب ركن الدولة .

[قلة دين الصاحب]

وكان مع هـــذا المذهب الذي يُدِلّ به ويسميه العدل والتوحيد قليلَ التوجه إلى القبلة ، قليل الركوع والسجود ، وكان مع حفظه الغزير عليه مؤونة في تلاوة آية من كتاب الله عز وجل إذا أراد أن يستدل بها في المناظرة والجدل ، أو يذكر وجهاً من وجوهها في المذاكرة ،ولم يكن عليه طابعُ العبادة ولا سيماء المتألهين .

[مساوىء الصاحب]

وكان مع ذلك سفاكاً للدماء ، قتّالاً للنظراء والأكفاء ، وكان شديد الحسد لأهل الفضل والدراية ، ولأصحاب الحفظ والرواية ، وكان جــلُّ حسده لمن كتب فأحسن الخط ، وأجاد اللفظ ، وتأتى للرسم ، وملّح في الاستعارة ، وكان إذا سمع من إنسان كلاماً منظوماً ، ومعنىً قوياً ، ولفظاً مَسْجوعاً ، ونثراً مطبوعاً ، وبياناً بليغاً ، وغرضاً حكيماً ، انتقص طباعه،

---

(١) محمد بن يوسف أبو الحسن العامري ورد ذكره في مواضع عدة من المقابسات والامتاع والمؤانسة ، ويقول عنه التوحيدي « انه من أعلام عصره » .

وذهب عليه أمره ، وتبدّد حلمه ، وزال عنه تماسكه ، والتهبَ كأنه نار ، واضطرب كأنه شِرار ، وحدث نفسه بقتله أو نفيــــه ، أو إغرامه [١] وابعاده وحرمانه .

[رأي التميمي الشاعر في الصاحب]

وقلت للتميمي الشاعر المصري المعروف بالرغيب : كيف ترى هذا الرجل أعني ابن عبّاد؟فقال : طويل العنان في اللؤم ، قصير الباع في الكرم ، وثّاباً على الشر ، مُقعداً عن الخير ، كافراً بالنعم ، متحرشاً بالنقم ،جبّاها بالمكروه سفيهاً في الجملة ، خليعاً في التفصيل . فقلت : أين هو من صاحبكم بمصر أعني ابن كلس؟فقال : ذاك رجل له دار ضيافة وله زوّار كالقطر ، لا يعرف مَحْكاً ولا لجاجاً ، ولا مجادلة ، ولا كياداً ، ولا مخاتلة ، يُعطي على القصــــد والتأميل ، والرجاء والتّوجّه ، والطمع والطلب ، وسائر الوسائل عنده بعد هذه الاوائل فضل يستحق به الزيادة ، وليس هناك امتحان ولا محاسبة ، ولا احتجاج ولا تعسير . المالمصبوبٌ، والخازن قائمٌ ، والمفرّق مُجْرِف [٢]، والنداءُ عالٍ، والواصلُموصول ، والمؤملُ مشكور ، والراحل شاكر ، ووزارة ذاك نيابة عن خلافة ، ووزارة هذا خلافة عن ُعمالة .

[عطاء الصاحب]

هل ترى هاهنا صلة ترتفع عن مائة درهم إلى الف ؟ أليس أنبلُ من ورد

---

(١) أغرمه : ألزمه بوفاء الدين .

(٢) جرف جرفاً جرفة : ذهب به كله أو أخذه أخذاً كثيراً.

عليه البديهي (١) وهو شيخه في العروض ، وعنه أخذ القوافي وتفتحه وهدايته؟ قال الشعر،هل زاده في طول مقامه إلى رحيله على خمسة آلاف (٢) درهم تفاريق ، وإن أقل ضيف بمصر يصير اليه مثل هذا في أول يوم . وقد سألت جماعة من سادة الناس عنه ، وحصلت عن كل واحد منهم جواباً سيمر بك فيما يستقبل ، واذكر هاهنا أشياء حدثني بها بطانته وخدمه .

[حديث أبي بكر الجرفادقاني]

حدثني الجرفادقاني أبو بكر ، وكان كاتب داره قال : يبلغ من سُخْنَةِ (٣) عين صاحبنا أنه لا يسكت عمّا لا يعرف ، ولا يُسالم نفسه فيما لا يَفي به ، ولا يكمُل له ، ويظن أنه إن سكت عنه فُطِنَ لنقصه ، وإن احتال وموّه جازَ ذلك وخفيَ واستتر ولم يظهر ، ولم يعلم أن ذلك الاحتيال طريق إلى الإغراء بمعرفة الحال . وصدق القائل : كاد المريب يقول خذوني . قلت له : وما الذي حداكَ على هذه المقدمة ؟ قال: قال لي في بعض هذه الأيام : ارفع حسابك فقد أخّرْتَهُ وقصرتَ فيه ، واغتنمتَ سكوتي وشغلي بتدبير الملك ، وسياسة الأولياء والجند ، والرعايا والمدن وما عليَّ من أعباء الدولة ، وحفظ البيضة (٤) ، ومشارفة الأطراف النائية والدانية ، باللسان والقلم والرأي والتدبير والبسط والقبض ، والابرام

---

(١) علي بن محمد أبو الحسن البديهي الشاعر ، راجع ترجمته في اليتيمة ٣/٣٠٩ وفي تاريخ بغداد ١٢/٨٣ .

(٢) في الأصل : « خمسة آلف » .

(٣) سخنة العين : نقيض قرتها . وقرت عينه : هدأ واطمأن.

(٤) البيضة : ساحة القوم وحوزة كل شيء .

والنقض ، وما على قلبي من الفكر في الأمور الظاهرة والغامضة . وهذا لعَمْري باب مُطمع ، وإمساكي عنه مغرٍ بالفساد مُولع ، فبادر عافاك الله إلى عمل حساب بتفصيل باب باب تبينُ فيه أمرَ داري وما يجري عليه دَخْلي وخَرْجي. قلت له : وهذا كله تثبتُ قوله هات حسابك بما تراعيه ، قال : إي والله ! ولقد كان أكثر منه وإنما اختصرته . وصدق هذا الكاتب ،كان يأخذ طرَفاً من الحديث فيمدُّه إلى الملل بالغثاثة والجهل والهذَر [1] . قال أبو بكر : فتفردتُ أياماً وحررتُ الحساب على قاعدته وأصله والرسم الذي هو مألوفٌ بين أهله ، وحملته اليه فأخذه من يدي وأمرَّ عينهُ فيه / من غير تثبت أو فحص أو مسألة ، ثم حذَفَ به إليَّ وقال : [١٣ب] أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟ أهذا تحصيل ؟ والله لولا أني قد ربيتُك في داري ، وشمِلْتُ بتجريبك ليلي ونهاري ، ولك حُرمة الصبا ، ويلزمني رعاية الآباء لأطعمتُك هذا الطومار [2] ! وأحرقتك بالنفط والنار ، وأدَّبتُ بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتُك مُثْلةً لكل شاهدٍ وغائب ، أمثلي يُموَّهُ عليه ، ويُطمعُ فيما لديه ، وأنا خلقتُ الكتابة والحسابة ، والله ما أنام ليلة إلا وأحصلُ في نفسي ارتفاعَ [3] العراق ، ودخل الآفاق ، أغرَّك مني أني أجرتُك رسنَك ،وأخفيتُ قبحك ، وأبديتُ حُسنك ، غيِّرْ هذا الذي رفعتَ ، واعرف قبلُ وبعدُ ما صنعتَ ، واعلم أنك من الآخرة قد رجعتَ ، فزدْ في صلاتك وصدقتك ، ولا تعوّل على قحتك ، وصلابة حذقك ، قال : فوالله ما هالني كلامُه ، ولا أحاكَ فيَّ هذيانه ، لأني كنتُ أعلمُ جهله

---

(١) سقط الكلام ورديئه .

(٢) الطومار والطامور : الصحيفة والجمع طوامير .

(٣) كذا في الأصل.

بالحساب ، ونقصه في هذا الباب ، فذهبتُ وأفسدتُ ، وقدّمتُ وأخرت ، وكابدتُ وتعمدت ، ثم رددته اليه فنظر فيه،ثم ضحك في وجهي وقال : أحسنتَ بارك الله عليك ، هكذا أردتُ ، وهذا بعينه طلبت ، ولو تغافلتُ عنك في أول الأمر لما تيقظتَ في التأني ، فهذا كما ترى ، إعجَبْ منه كيف شئت !

[شتم الصاحب للأبهري]

ومن رقاعاته أيضاً : سمعته يقول يوماً ، وقد جرى حديث الأبهري المتكلم ، وكان يُكنى أبا سعيد فقال : لعن الله ذلك الملعون ، المأبون[١] المأفون[٢]، جاءني بوجه مكلّح[٣] ، وأنف مفلطح[٤] ، ورأس مسفّح[٥]، ودقن مسلّح ، وسُرْم[٦] مفتّح ، ولسان مبلّح[٧]، يكلمني في مسألة الأصلح . فقلتُ له : اغرُبْ عليك غضبُ الله الأترَح ، الذي يلزم ولا يبرح . بالله يا أصحابنا ! حدثوني أهذا عقل رئيس أو بلاغة كاتب ؟ أو كلام متماسك ؟ لِمَ تجنونَ به ، وتتهالكون فيه ؟ وتغيظون أهل الفضل

---

(١) أبنه : اتهمه وعابه والأبنة : العيب والحقد .

(٢) أفن وأفن أفناً : ضعف رأيه .

(٣) كلح وجهه : تكشر في عبوس وكذلك الكلوح .

(٤) فلطح القرص : بسطه وعرضه ورأس فلطاح ومفلطح ومفرطح: عريض.

(٥) سفح : سفك وأراق .

(٦) السرم:الدبر .

(٧) بلح : يبس وجف .

به . هل هناك إلا الجدّ الذي يرفع من هو أنذلُ منه ، ويضع من هو أرفع منه .

ولقد حدثت بهذا الحديث أبا السلم الشاعر فانشدني لشاعر :

سبحانَ من أنزلَ الدنيا منـــازلها
وصيَّر النـــاسَ مَشنوءاً ومَرموقا
فعـــاقلٌ فطِنٌ أعيتْ مذاهبهُ
وجاهلٌ خَرِقٌ تلقـــاه مَرزوقا
كأنه من خليـج البحر مُغترِفٌ
ولم يكن بارتزاق القوتِ محقوقا
هـــذا الذي تَركَ الألبـابَ حائرةً
وصيَّر العـاقل النِّحريرَ زنديقا

[حديث المأموني]

وحدثني المأموني عند روايتي هـذا الحديث : سمعته أنا يقول على غير هذا الوجه قال : جاءني فلان بهامة مُسطّحة ، وأرنبة مُفلطحـــة ، ولحية مُسرّحة ، وفقحة مُسلحة ، وجبهة موقّحة ، وجملة مقبّحة ، يناظرني في المصلحة، فهممتُ والله أن أصلبه على باب المسلّحة ، وباب المسلحـــة بالريّ سوق معروفة . وهذا الكلام الثاني هو الأول ، يسفق[1] ويؤذي، ويصيحُ ويَهذي ، ويوهم ويدّعي ، وقاحة وجهلاً ، وازدراء للنـــاس ، وحقراً لكل من يرى من أهل الفضل والأدب والحُرمة والحسب ، وكان كلفه بالسجع

(١) سفق وجهه : لطمه .

في الكلام والعلم عند الجِدّ والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد .

[الصاحب والسجع]

قلت للمسبني : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذاك أنه لو رأى سجعة تنحلُّ بها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غُرم ثقيل، وكُلْفَة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال لكان يخفُّ عليه أن لا يَفرجَ عنها ويخليها ، بل يأتي بها ، ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها .

وقال علي بن القاسم الكاتب : السجع لهذا الرجل بمنزلة العصا للأعمى ، والأعمى إذا فقدَ عصاه فقد أقعدَ ، وهذا إذا ترك السجع فقد أفحم .

[استرقاع ابن العميد الصاحب]

وقلت للخليلي : كيف كان ابن العميد أبو الفضل يقدم هذا ويرشحه ، وهذا عقله ولفظه وشمائله ؟ فقال : كان يسترقعه ويضحك منه ، ولا يغتاظ ، لأنه كان تحت تدبيره ، والرقاعة الخالية من القُدرة مقبولة ، وإنما تضاعف اليوم حديثه في الرقاعة لأنه أصبح بسيط اللسان بالدولة ، مُطاع الأمر في القريب والبعيد . ونعوذ بالله من جنون موصول بانقياد الأمور ، وطاعة الرجال .

[أبو الفضل بن العميد]

وكان يقول : هو مع هذا الطيش والخفة والتفتل والتثني أفضلُ من أبيه ،

فان أباه كان ثوراً خوّاراً ، وحماراً نهّاقاً ، وكان أيضاً يقدح [1] ابنه أبا الفتح ، ويبعثه على الحركة والنطق ، وكان أيضاً مظنوناً به وهو غلام ما بَقَلَ وجهُهُ . قال : وأسباب الجَدّ عجيبة ، وكما لا يدري الانسان من أين تحقق ذلك ، كذلك لا يدري من أين يُنال .

[ابن العميد والصاحب]

[١٤أ] فقلت للخليلي : أما كان ابن العميد يسمع كلامه ؟ قال : / بلى ، وكان يقول : سجعُهُ يدل على الخلاعة والمجانة ، وخطه يدل على الشلل والزمانة ، وصياحهُ يدل على أنه قد غُلِبَ بالقهر في الحانة ، وما نظرت اليه قط في وقت إلا خِلْتُ أنه قد سقاه الغَباوة دواء مذ ساعة ، وهو أحمقُ بالطبع إلا انه طيب ، وإن كان له يوم تضاعف حمقه ، وذهب طيبُه ، وضرّ أهل النّعم والمروءات والأدب بالحسد والكِبْر والإعنات.

[طالع الصاحب]

قلت للخليلي : هل عرفتَ طالعه ؟ قال : حدثني أصحابنا منهم المرَوي أن طالعه الجوزاء « كط » ، والشِعْرى اليمانية « كظ » وكان زُحَلُهُ في الحادي عشر في الحمل « كح » ، والقمر فيه « بط » ، والشمس في السنبلة « نح » ، والزهرة فيها « بي » ، والمشتري في الميزان « كد » ، والمريخ في العقرب « ن » وسهم السعادة في القوس « يد » ، وسهم الغيب في الجدي « يذ » ، والرأس في الثالث في الأسد « با » . قال : وخفيَ عليّ عُطارِد ، وذكر أنه ولد سنة ثلاثمائة وستٍ وعشرين من الهجرة لأربعَ عشرةَ

---

(١) قدح في عرضه : طعن في عرضه وعابه وتنقصه .

ليلة بقيت من ذي القعدة « روزشروس » « من ماه شهرير » قلت : فأين ولدَ ؟ فقال : كان عندنا أنه ولد بطالقان ، وقال لنا قومٌ بل بإصطخْر ، وقال لي غير الخليلي : كان ُعطارد في السنبلة « ط . ي » .

[التوحيدي عند الصاحب]

وكنت بالريّ سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وابن عباد بها مع مؤيد الدولة قد وردا في مهمات وحوائجَ،وعقد ابن عباد مجلسَ َجدَل ، وكنا نبيتُ عنده في داره بباب سين ، ومعنا الضرير أبو العباس القاضي ، وأبو الجوزاء الرّقي ، وأبو عبد الله النحْوي الزعفراني وجماعة من الغرباء .

[الصاحب والشاب السمرقندي]

فرأى ليلة في مجلسه وجهاً غريباً صاحبَ ُمرقّعة،فأحب أن يفرّه ويعرف ما عنده ، وكان الشاب من أهل سمرقند زعم أنه يُعرف بأبي واقد الكرابيسي، فقال له : يا أخ!انبسط واستأنس وتكلم فلك منا جانب وطيءٌ ومشرب رَويٌ ، ولن ترى إلا الخير. بِمَ تُعرَفُ ؟ قال : أعرفُ بدقّاق، قال : تدُقُّ ماذا ؟ قال : أدقُّ الخصم إذا زاغ عن الحق ، فلما سمع هذا تنكّر وعجب ، لأنه ُفجىء ببديعة ، فقال له : دَعْ ذا [و] تكلم.قال :أتكلم سائلاً ؟ والله ما بي حاجة إلى مسألة ، أم أتكلم مسؤولاً ؟ فوالله إني لأكسلُ عن الجواب ، أم أتكلم مُقرراً؟فوالله إني لأكره أن أبدد الدُرّ في غير موضعه، وإني لكما قال الأول :

لقد عجمتْني العاجماتُ فلم تجدْ
َهلوعاً ولا لينَ المجسّةِ في العَجْم

وكاشفتُ أقواماً فأبديتُ وَصمَهم
وما للأعادي في قناتيَ من وصْمِ

فقال له : يا هذا ما مذهبك ؟ قال : مذهبي ألا أقرّ على الضيم ، ولا أنامَ على الهَوْن ، ولا أعطي صمتي لمن لم يكن وَليّ نعمتي ، ولم يصِلْ عصمته بعصمتي . قال:هذا مذهب حسن ، ومن هذا الذي يأبى الضيمَ طائعاً ، ويركب الهوْن سامعاً ؟ ولكن ما نِحْلتُك التي تنصرُها ؟ قال: نِحْلتي طوية صدري ولستُ أتقرب بها إلى مخلوق ، ولا أنادي عليها في سوق ، ولا أعرضها على شاك ، ولا أجادلُ عليها المؤمن . قال : فما تقول في القرآن ؟ قال : وما أقول في كلام رب العالمين الذي يَعجز عنه الخلق إذا أرادوا الاطلاع على غيبه ، وبحثوا عن خافي سرّه ، وعجائب حكمته ، فكيف إذا حاولوا مقابلته بمثله ، وليس له مِثْلٌ مظنون ، فكيف عن مثل مُتيقَّن ؟ قال ابن عباد : صدقتَ ، ولكن أمخلوقٌ هو أم غير مخلوق ؟ فقال : إن كان مخلوقاً كما تزعم فماذا ينفعُك ؟ وإن كان غير مخلوق كما يزعُمُ خصمُك فماذا يضرك ؟ فقال : يا هذا أبهذا العقل تناظر في دين الله ؟ وتقوم على عبادة الله ؟ إن كان كلامَ الله ينفعني إيماني به وعملي بمحكمه ، وتسليمي لمتشابهه ، وإن كان كلامَ غيره ، وحاشا لله من ذلك ، ضرّني . فأمسك عنه ابن عبّاد وهو مَغيظ ، ثم قال له : أنت لم تخرج من خراسان بعد ، فمكث الرجل ساعة ثم نهض،فقال له ابن عبّاد : إلى أين يا هذا ، قد تكدّر الليل،بِتْ هاهنا . قال : أنا بعدُ لم أخرج من خراسان كيف أبيتُ بالريّ ، وخرج فارتاب به ابن عبّاد فقفّاه بصاحبٍ له ، ووصّاه بأن يتبع خُطاه ، ويبلغ مداه من حيث لا يفطنُ له ، ولا يراه ، فما راغ الرجل عن باب ركن الدولة حتى دخل ووصل في ذلك الوقت الفائت اليه ، فقيل لابن عبّاد ذلك فطار نومُه من

عينه وقال : أيُّ شيطان هبط علينا ، وأحصى ما كنا فيه بيننا ، وبلغ أربه منا ، وأخذ حاجته من عندنا بلسان سليط ، وطبع مَريد.

[ركن الدولة والخراساني]

فحدثني الهروي وكان يبيت عند ركن الدولة أن ركن الدولة قال للخراساني : كيف رأيت ابننا ؟ قال : رأيتُ وجهه وجه خنزير ، وعقله عقل سنّوْر ، وكلامه كلامَ مُبَرْسَم ،وحركته حركةَ مخنَّث ، ونظره نظر فاجر ، ورأيه رأيَ موسوس ، وأعضاءه أعضاءَ مفلوج . ولقد عشّانا وتعشّى معنا فما زال / يذكر القدر والخبز ، والأدم والبوارد ، والغضائر (١) والمطابخ،حتى عرقت جباهنا من الحياء والانخزال ، واسترخت أيدينا من الخجل ، فقال له ركن الدولة : لو علمت أنك هكذا تنقلب عن مجلسه لما أذنتُ لك في لقائه،ولكن قد فات . قال الهرَوي : وكان هذا الكرابيسي عيناً لركن الدولة بخراسان ، فلذلك كان قريباً منه ، وكان أحد رجالات الدنيا ، ولم يتمكن من مكاثرته . [١٤ب]

[مقارنة بين الصاحب وابن العميد]

وقلت للخليلي : بما انفرج ما بين هذا الرجل أعني ابن عبّاد وصاحبكم،أعني أبا الفتح ذا الكفاءتين؟ فقال : كان صاحبنا غِرّاً ، صعبَ القياد ، شديدَ الزهو ، وهذا على رقاعته التي ترى ، ولم يكن بينهما عاقلٌ يرأبُ المصدوع ، ويصلُ المقطوع ، ويرفعُ الموضوع ، ويضعُ المرفوع ، ويردُّ هذا عن حدّته

(١) الغضائر : مفردها غضارة ، وهي القصعة الكبيرة .

بلسانه ، ويكف ذاك عن تيه واعتنانه[١] ، وقد كان ركن الدولة يكنفهما بظله ، ويكفهُما بفضله ، ويخفضُ لهما جناحَ إحسانه ، ويمزجُ بينهما في استخدامه،ويجمعهما على طاعته بصحة رأيه ، وحسن مُداراته ، ونفوسهما على ذلك تَغْلي ، وصدورهما تفيض ، والألسنة تكنيّ ، والحواجبُ تتغامز ، والشفاهُ تلتوي ، والأعينُ تختلج ، والوُشاة تدبُّ ، والزمانُ يعمل عمله ، فلما مضى سائسها تفارقا الفرحة ، وتنازعا الرتب ، فكان ما كان. قلت : ما الذي كان ينقم هذا من ذاك ، وذاك من هذا ؟ فقال : كان صاحبنا يقول : أشدُّ ما عليّ أن خصمي معلمٌ مأبون ، وكان هذا يقول : كيف أسامي حَدَثاً صغير الرأس ، كليلَ اللسان،قليلَ الهمة ، الخيرُ عنده حرام[٢]، والدرمُ في نفسه ربٌّ ؟ وكان ينشد فيه :

فتىً يمنع الطعامَ لا يمنع الحُرَمْ

فجمعُ النساء الحِلُّ ، والمطبخُ الحَرَمْ

فهذا هذا .

[كتابة الصاحب]

قلت لأبي عبيد الكاتب النصراني ببغداد ، وكان سهل البلاغة ، حلو اللفظ ، حسنَ الاقتضاب ، غريبَ الإشارة ، مليحَ الفصل والوصل : كيف ترى كتابة ابن عبّاد ؟ فقال : هي شوهاء ، فيها شيءٌ في غاية التقبّح ، وفيها شيء في غاية الركاكة ، وبينها فتورٌ راكدٌ بمذاهب المعلمين الحمْقى المتعاقلين أشبهَ منها بمذاهب السلف الأولين من الكتاب وأصحاب

---

(١) العتن : عتنه يعتنه : دفعه دفعاً شديداً عنيفاً ، واعتن على غريمه : اذاه وتشدد .

(٢) في الأصل « حر » ولعل الصحيح ما أثبتناه .

الدواوين . قال : السجعُ الذي يلهج به هو مما يقع في الكلام ، ولكن ينبغي أن يكون كالطّراز في الثوب ، والصنفة [١] في الرداء ، والخط في القَصَب [٢] ، والملح في الطعام ، والخال في الوجه ، ولو كان الوجه كله خالاً لكان مَقلياً . قال : وبديعُه في هذا الفن لا يستر ركاكته في سائر فنون الكلام ، فان فنون الكلام محصَّلةٌ على التقريب بين البدد والسجع ، والوزن وما يسميه قوم تجنيساً وتطبيقاً . قال : ومنها شيء يجب أن يسمى المسلسل وأمثلته في كلام أبي عثمان موجودة . ثم قال : والذي ينبغي أن يُهجَرَ رأساً ، ويُرغَبَ عنه جملة التكلف والاغلاقُ ، واستعمال الغريب والعويص ، وما يستهلك المعنى أو يُفسده أو يُحيله ، وينبغي أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى ، والغرض الثاني في تخيّر اللفظ ، والغرض الثالث في تسهيل النظم وحلاوة التأليف ، واجتلاب الرونق ، والاقتصاد في المواخاة ، واستدامة الحال ليستمر الثاني على الأول ، والثالث على الثاني ، وأن تتوقى الفضاء الذي يعرض بين الفصل والفصل . قلت : ما معنى الفضاء ؟ قال : عدم الرباط بين المتقدم والمتأخر وهو النبوُّ العارض في النفس عند سماعه وتحصيله : قال والهُجنَةُ التي ليس بعدها هجنة ، والركاكة التي ليس فوقها ركاكة الولوعُ بالغريب وما يُشكل فيه الاعراب ويتجاذبُه التأويل ، فانّ هذا وما شاكله كلفة على النفس عند سماعه ، ومؤونة على الطبع عند تخيّره ، ومشقة على اللسان عند اللفظ به .

---

(١) في الأصل الصنيفة والصنفة : حاشية الرداء والثوب أو جانبه الذي لا هدب له أو الذي فيه هدب .

(٢) القصب : ثياب ناعمة كتان .

[الأسلوب المثالي]

ثم قال : فخيرُ الكلام على هذا التصفح والتحصيل ما أيده العقلُ بالحقيقة ،وساعدَه اللفظ بالرقة ، وكان له سهولةٌ في السمع ورَيَعٌ في النفس ، وعذوبة في القلب ، وروح في الصدر ، إذا وَرَدَ لم يُحجب، وإذا صدر لم يُنس ، وإذا طال لم يُمل ، وإذا قصُرَ لم يُحقر ،له غَنَجٌ كغنج العين ، ودَلٌّ كدلّ الحبيب ، ولذة كلذة الغناء ، وانقياد كانقياد الذليل ، وتيهٌ كتيه العزيز ، وجَمْشٌ كجمش[1] الغانية ، ووقار كوَقار الشيخ ، وحلاوة كحلاوة العافية ، ولين كلين الصبيب[2] ، وأخذٌ كأخذ الخمر ، وولوجٌ كولوج النسيم ، ووقعٌ كوقع القَطْر ، وريح كريح العِطر ، واستواءٌ كاستواء السطر ، وسبكٌ كسبك التِبر ،يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام ، فأما صحته: فمن جهة شهادة العقل بالصواب ، وأما بهجته : فمن جهة جوهر اللفظ ، واعتدال القسمة ، وأما تمامُه : فمن جهة النظم الذي يستعير من النفس شغفها ويستثيرُ /من الروح كلَفَها. [١٥أ]

[أنواع الكتّاب]

ثم قال : قال ابن الربيع : الكتاب سبعة: الكامل ، والأعزل ، والمبهم، والرِقاعي ، والمخِيل ،والمِخْلَط ،والسُكَيْت[3].

---

(١) الجمش : الصوت الخفي .

(٢) الصبيب : المصبوب والعسل الجيد .

(٣) السكيت : آخر خيل الحلبة ، وإنما قيل له سكيت لما يعلو صاحبه من الذل والسكوت .

فأما الكامل : فهو الذي له في الانشاء والاملاء حظ .

والأعزل : الذي يُملي ولا يكتب .

والمبهم : الذي يكتب ولا يُملي .

والرِقاعي : الذي يبلغ في الرقاع حاجته ، ولا يصلح لعُظْم الكتابة.

والخيل : الذي له عارضة، وبيان، ورواية، وانشاء، ويُعرف بالآداب، ولا طبع له في الكتابة ، وإذا كان عاقلاً صَلُحَ لمنادمة الملوك .

والمخلط : الذي يُرى له في الكتاب الواحد بلاغةٌ جيدة ، وفدامة (١) عجيبة .

والسُكَيْت : المتخلف المتبلد ، وربما جاء بالشيء المحتمل إذا تعنّى (٢) فيه .

[مكان الصاحب]

قلت له : فمن أيهم ابن عبّاد ؟ قال : هو مُشكل ، لا يجوز أن تهضمه فتضعه في أسفل سافلين ، ولا يجوز أن تغلط فيه فترفعه إلى أعلى عليّين ، ثم تضعه بين هذين أين شئت ، على أنه على كل حال جَبَليٌ ! قلت له : قد استمرّ قولك بما لو كان تصنيفاً لك لساغَ وبقي تمامُه في كلمة ،هذا وقت المسألة عنها ومعرفة الحال فيها ، قال : قلْ فقد استرسلنا في الحديث وتباثثنا كل ضمير .

---

(١) الفدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة .

(٢) عنا يعنو : بذل مشقة .

[رأي في القرآن]

قلت : كيف ترى كتابنا، أعني القرآن، وأنت رجل قد أشرفت على غاية هذا الباب ، واستوعبتَ جميع ما فيه ؟ قال: ذاك كلام ليس فيه أثرٌ للصنعة ، ولا علامة للتكلف ، وهو كلامٌ منسكب انسكاباً ، وجارٍ جرياً ، يزيدُ لطفه على الطبع بقدر ما يزيد الطبع على التصنُّع ، قليلُهُ كثير ، وكثيره غزير ، ومعناه أقوم من لفظه ، ولفظه أرشق من وزنه ، ووزنه أعدل من نظمه ، ونظمه أحلى من نثره ، ومجموعه أبهى من مفرَّقه ، ومفرَّقه أظرف من مجموعه، وبعضه أغرب من كله ، وكله أعجب من بعضه ، وهو شيء يستوي فيه تعجب الجاهل وتحيُّر العالم ، ويستعلي الذهن ، ويستغرق الفهم ، ويحجب الرويَّة عن الادراك ، ويردُّها إلى البديهة في التسليم .وهذا يصح ويبين لمن كان ذا أداة تامة ، وعقل ثابت ، وعلم غزير ، وطبع سجيح [١] ، وبصرٍ بالجوهر صحيح ، ومعرفة بالصورة والصورة ، وتمييز بين الحال والحال، ورفق[٢] فيما تريد البيان عنه ، لا تحمله ما لا يطيق ، ولا تحتمل له ما لا يجب ، ويكون في جميع ذلك كالطبيب الحاذق ، والناصح المُشفق.

قلت له : أفما يكون هذا كله ، وما هو عتيدُ عندك داعياً إلى الايمان به، والتصديق لصاحبه ؟ فقال : أتراني لا أنصح لنفسي في قضاء الحق عنها مجتلباً للسعادة ، كما أنصح لها في اقتضاء الحق لهـا مكتسباً للزيادة ؟ بلى والله ! ولكن وراء هذا ما يُشكل ، ويُعضل ، ويَطول ، ويُمل .

---

(١) السجيح : اللين السهل .
(٢) الرفق بالكسر : ما استعين به .

وكان هذا الرجل ممن يدوّن كلامه كما يدوّن كلام أبي هلال الصابىء [1] ، [قال ينصح] صاحباً له : يا هذا انفع صاحبك على كل حال وإن ضرّك ، وزيّنهُ وإن عرّك ، وحسّنْ به ظنك وإن غرّك [2] .

[ولع الصاحب بالسجع]

ومما يدلُّ على ولوع ابن عبّاد بالسَّجْع ، ومجاوزة الحدّ فيه بالافراط ، قوله يوماً : حدثني أبو علي بن باش ، وكان من سادة الناش . جعل السين شيناً .

ومرّ في الحديث وقال : هذه لغة ، وكذب ، وكان كذوباً . وكان أبو مالك مرة [3] بين يديه ، [فقال له :] [4] إنما أنت خط وقط فقط ، وقبّت [5] أطرافه بحركاته تخنثاً وتأنثاً .

وقال لعبد الله المعلم وقد أنشده : يا عبد الله أنت طويل النَّفَس ، عتيق القوَس ، شديد المرَس . وقال لشيخ من خراسان في شيء جرى . والله لولا شيء لقطّعتك تقطيعاً ، وبضّعتك تبضيعاً ، ووزّعتك توزيعاً ، ومزّعتُك تمزيعاً ، وجزعتك تجزيعاً ، وأدخلتك في حر أمك ، ثم وقف وقفةً وقال : جميعاً .

---

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الصابىء ولد سنة ٣١٣هـ . نابغة عصره في الأدب والانشاء تولى دواوين الرسائل زمن البويهيين كان متعصباً لدين الصابئة وكان الصاحب بن عباد يحبه ويتعصب له توفي سنة ٣٨٣ هـ .

(٢) يبدو أن في الأصل نقصاً .

(٣) في الأصل « أنت » ولعله غلط من الناسخ .

(٤) في العبارة نقص ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(٥) كذا في الأصل .

ومُلَحُ هذه الحكاية يتثر في الكتابة ، وبهاؤها ينقص بالرواية دون مشاهدة الحال ، وسماع اللفظ ، وملاحةِ الشّكل في التحرُّك والتثني، والترنُّح والتهادي ،ومدّ اليد ، وليّ العُنُق ، وهزّ الرأس والاكتاف ، واستعمال جميع الاعضاء والمفاصل .

وقلت لابن القصّار الفقيه : لو ناظرته ، وكان يذهب مذهب القلانسي. فقال : الرجل كلف بالمذهب،والكلفُ لا يُفْهِمُكَ ما يقول استكباراً عليك، ولا يَفهم ما تقول استحقاراً لك .

[صورة هزلية]

وطلع عليّ يوماً في داره ، وأنا قاعد في كسر رواق أكتب له شيئاً قد كأدَني (١) به ، فلمّا أبصرته قمت قائماً،فصاح بحلق مشقوق أقعدْ فالورّاقون أخسُّ من أن يقوموا لنا ، فهممت بكلام فقال لي الزّعْفَرانيّ الشاعر : احتمل فانّ الرجل رقيعٌ فغلب عليّ الضحك ، واستحال الغيظ تعجباً من خِفّته وسُخفه لأنه قال هذا وقد لوَى شِدْقه ، وشَنَجَ أنفه ، وأمال عنقه ، واعترض في انتصابه ، وانتصب في اعتراضه ، وخرج في مَسْكِ مجنونٍ / قد أفلِتَ من دَيْرِ جنون . [١٥ب] والوصف لا يأتي على كُنْهِ هذه الحال لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ ، ولا يُؤتى عليها باللفظ ، أفهذا كله من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء ، وسيرة أهل العقل والرّزانة؟ لا والله ! وتَرَّ بالمن يقول غير هذا .

---

(١) كأده بالشيء : كلفه به .

[مخازي الصاحب]

وسمعت الخثعمي الكاتب ، كاتب علي بن كامه يقول : مارأيت في طول عمري ، مع علوّ سنيّ ، وكثرة تجاربي ؛ وشدة تتبّعي رجلاً أجمع للمخازي والمقابح والرقاعات والجهالات والخساسات والفواحش والخبائث من ابن عبّاد ، أفيَلَ الناس رأياً إذا ارتأى ، وأنكلهم عن الخصم إذا تراءى ، وأقلّهم وفاءً لمن جعله الله وليّ نعمته ، وأوقحهم وجهاً مع كل إنسان ، وأحدّهم لساناً بكل خَنَى وفُحش ، وأحسدهم لنظير ، ولمن دون النظير ، وأسعاهم بالفساد على الصغير والكبير ، وأخطبهم[1] على الدين وأضرّهم للمسلمين ، وأفجرهم من بين العالمين . فقلت له : ما الذي يُعدّه على ما هو فيه ، وبأي شيء يَطّرِد له ما هو عليه ؟ فقال : لم يَبْقَ فيمن فوقه من ينتقدُ ، ولا فيمن دونَه من يزاحم ، فقد خلا له الجو فهو يبيض ويَصْفَرُ ، ويتمطّى ويَبُوع[2] ، ويقول سبعاً في ثمان ، لم يذلّ لأحد وذلّ له كلُ أحد ، وأمرَ كلّ إنسان وما نهاهُ إنسان ، وضرّع اليه كلُ محتاج وما احتاجَ الى غيره ، نشأ على البطر والحَبْون[3] ، وعلى الخَلاعة والمجون ، فبهذا وأشباهِهِ فسدَتْ أخلاقُه ، وساء أدبه ، وبذؤ لسانُه ، ووقح وجهُه ، وغلطَ في نفسه غلطاً شديداً ، وأعجب بعربيّته إعجاباً بعيداً ، وهكذا يفسدُ كلُ من فَقَدَ المخطّيء له إذا

---

(١) كذا في الأصل ولعلها من الخطب ، وهو الأمر المكروه.

(٢) باع ، يبوع : بسط يده ومد باعه .

(٣) رجل أحبن : منتفخ البطن خلقة أو من داء ، وبه حبن وقد أحبنه كثرة أكله أو داء اعتراه وخرجت به حبون وهي دماميل مقيحة.

أخطأ ، والموبّخَ له إذا أســاء ، والمقوِّمَ له إذا اعوجّ ، لا يسمع إلا : صَدَقَ سيدُنا ، وأصــابَ مولانا ، وما له في الزمان ثانٍ ، ولم يُعرف فيمن تقدّم له نظير ، رجل هذه المملكة الواسعة العريضة على ماترى من التمكن والاستعلاء وهو لا يحصّل شيئاً من خراجهــا وعمارتها ، ولا ينظر في مصلحتها ومفسدتها ، ولا يعرف المختلس منها ولا الضائع ، بين الناظرين فيها أعمالٌ بائرة ، وبلاد غامرة ، وأموال مُجتجنَة ، وطمعٌ مستحكمٌ ، وضعفٌ غالبٌ ، وعدوٌ راصدٌ ، ووقتٌ فائتٌ بالفرص ، وخوفٌ مؤذن بسوء العاقبة ، وهو قاعد في صدر مجلســه يقول : قال شيخنا أبو علي وأبو هاشم ، تارة يتطلّس ويتعمّم ويتلحّى ويناظر العامة هذا البقـال ، وهذا الخبّاز ، وهذا الخلقـاني(١) ، وهــذا الاسكاف بالفارسية إما بالدرية وإما بالرازية وإما بغيرهما ، ويرى أنه في شيء مهم ، وأنه في نشر مذهب ، ونُصرة دين ، وتارةً يناغي هذا الأمرد ، ويعاتب هـذا الخادم ، وينشد الشعر البارد الذي يورث الفالج :

أبا يوسف إن العثانين آفةٌ (٢)
على حامليهـا فاتخذْ لحيةً قصدا
ولا تكُ مشغوفاً بسحب فصولهـا
ولا تُولها إلا الابادةَ والحصدا

وينشد :

قد استوجبَ في الحكم سليمانُ بنُ مختارِ

---

(١) أخلق الثوب : بلي والخلقاني : بائع الثياب العتيقة .

(٢) العثانين : مفردها عثنون وهو اللحية .

بما طوّلَ من لحيَـــــــتهِ التحريقَ بالنارِ
أو النتف أو الجزّ أو النشرَ بمنشارِ
وقد صار بها اشهَ رَ من راية بيطارِ

[نوادر مجونية]

فاذا ملّ الشعر قال : قال سعيد بن حميد لأبي هِفّان :لئن ضربتُ عليك ضرطة لأُبلغنك الى فَيْد (١) ، فقال أبو هفّان : زدني أخرى تبلغني مكّة فاني صَرورة (٢)؟ أتدري يا أبا فلان ما الصّرورة ؟ وكم لغة فيها ، وما أصلُها ، وما نظيرتُها ؟

ويقول : ضَرَب المتوكل على قَفْحَة (٣) عبـــادة فضرط،فقال : ويحك ما هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين خليفةٌ يَقْرع باب قوم ٍ فلا يجيبونه !

ويقول : مرّ بعلي بن الحسن العلوي رجلٌ عباسي مأبون فقال : من هذا ؟ فقيل : هذا تَيْسُ الجنّ ، فقال : ينبغي أن يقال له نعجة الإنس !

ويقول : جمع مزَبّد (٤) بين قحبة وصديقها في بيت فتعاتبا ، فأراد أن يجامعها فامتنعت وقالت : ليس هذا موضع ذا ، فسمعها مزبّد فقال : يازانية !

---

(١) فيد : اسم مكان على طريق مكة .
(٢) صرورة : الذي لم يحج .
(٣) القفحة : حلقة الدبر.
(٤) مزبد المديني أبو اسحق من مشهوري أصحـــاب النوادر والفكاهة والعبث . قال التوحيدي عند كلامه عن الجاحظ « وإن هزل زاد على مزبد » معجم الأدباء ٩٨/١٦، فوات الوفيات ٣٠٣/٢

فأين موضعه ؟ أين القبر والمنبر ، والله ما بُني هذا البيت إلا من خدر القحاب ولا وُزِنَ ثمن خشبه إلا من أثمان نعال اختطفت في شهر رمضان من المساجد ، وما اشتريت أرضُه إلا من السرقة ، وما أعرف موضعاً أحقّ بالزنا فيه منه .

وكان ينشد لابن الحجّاج[١] كل سُخْف ويستجيده ويعجب به . أنشد له يوماً :

يسائلني محمدُ عن أخيه
وعنه وقد بلوتُهما شديدا

فقلت : كِلا كما جَمَس ولكنْ[٢]
أخوك الحقُّ أكثرُ منك دودا

ويقول : امرؤُ القيس والنابغة يقصّرانِ عن هذا الفن وينْشِدُ أيضاً له :

ومُصرِّفٍ أنفاسَ ليثٍ خادرٍ[٣]
يَصْدُرْنَ عن لهواتِ كلبٍ رابضٍ[٤]

---

(١) أبو عبد الله الحسين بن احمد بن الحجاج الكاتب الشاعر الخليع راجع ترجته في معجم الأدباء ٢٠٦/٦ ، يتيمة الدهر : ٣١/٣ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤٢٦/١ .

(٢) جمس : تغوط .

(٣) خدر الأسد في عرينه : لزمه .

(٤) لهوات : مفردها لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الحلق. ربضت الدابة : بركت .

ذي لَبّةٍ غرَوِيّة (١) الريّا (٢) وذي
لحمٍ مُصلٍّ (٣) في لُعابٍ حامضِ
رثّ الثياب يجرّ مَنْبَتُه دماً
فكأنما شفتاهُ شفرا حائض
لم أدرِ ماذا قال ، إلا أنه
ما زال يَفْسو ضرسهُ في عارضي

[أحاديث الصاحب]

ومن أحاديثه السخيفة التي يتنزّه عنها الرؤساء قال : قدم أبو فرعون الأعرابي،/ وكان يسمى سلطان البصرة ، فنظر إلى بعض آل المهلب على ((٤)) [١٦أ] قد فرش له ، ووصيفته أدماء كأنها ظبية قائمة تذبُّ عنه، فجعل يحدج (٥) اليها،ويحدُّ النظر فقال له صاحبها: أتشتهيها ؟ فقال: إي والذي خلقها ، قال: فهل لك أن تكشف عما معك بين يدي و تنكحها وأنا أنظر ، فان فعلت ذلك فهي لك ، فلما ألقاها وأخرج مَتاعَه كأنه عمود البيت وبَرَكَ عليها ،صاح به الناس زرّ زرّ (٦)، فأكثروا عليه فاستحيا وفتَرَ وولى هارباً والناس في إثره يصيحون فأخذ برأس متاعه وقال :

---

(١) غروية : من غري ، وغرا السمن قلبه لزق به من الغرا وهو ما طلي أو ألصق به .

(٢) الريا : الرائحة .

(٣) صل اللحم وأصل : أنتن .

(٤) غير واضحة في النص .

(٥) في الأصل « يجمح » تصحيف .

(٦) زر القميص : شد أزراره وأدخلها في العرى .

فيا لك من أيرٍ جُزيتَ شرّا
أقمتُــهُ حتى إذا اكفهرّا
واضطربتْ أعراقُــهُ ودَرّا
عادَ إليَّ وجهُــه مزورّا
أريــد جوّاً ويريــد برّا
كأنّه صــاحبُ ذنبٍ فرّا
كأنمــا ألقم شيئاً مرّا
وما عليــك أن يقال زرّا

وحدّث أيضاً قال عُبادة : اختصم الحِرُ والجُحْرُ في الجلدة التي بينهما ، فكان كلٌ يدّعيها فتقدما إلى الأيرِ فقال : ليست لأحدكما ، قالا : فلمن هي ؟ قال : هي لي إذا دخلت حططتُ عليها رحلي، وإذا خرجت استرحتُ عندها من كَرَبي .

وحكى يوماً عن جَحْظة قال : كانت لي جارية ، فحبلت ،فقلتُ لها : يا ملعونة ! من أحبَلَكِ ؟ قالت : مَنْ غرّقه يا مولاي !

قال : وقيل لعُبادة : لم صــار الصَّفْعُ بالقَرْع على القفا ثقيلاً وفي الجوف خفيفــاً . قال : لأنه ينزل على القفــا جملة ، ويدخل الجوف تفاريق .

وكان ديدنُه السخفَ والخلاعة والمجون ، والرواية عن مزبّد المدني ،

---

(١) أبو الحسن احمد بن جعفر البرمكي شــاعر وأديب وراوية للأخبــار عرف بالجرأة والاستهتار ولد سنة ٣٤٧ في بغداد ، وتوفي فيها سنة ٤٢١هـ ، معجم الأدباء ٢٤١/٢ ، ابن خلكان ٤١/١ ، تاريــخ بغداد ٦٥/٤

وأبي الحارث جُمَيْز (١) وعبَّاد وجَحْظة وبصلة براليك ومن أشبه هؤلاء .

وكان يضعُ أحاديث من الفواحش على بني ثوابة ويرويها عنهم ، ويسمهم بها ، وكان القوم معادين منها على ما حدثنا شيوخٌ جلّة كرماء ، لهم دين ومروءة ، وكان يتكذب على اليزيديين وغيرهم ، وكان أكثر هذا فيه ، وإنما كان يتحدّث بمثله تبرؤاً ونزاهة ، وكان أدنسَ من الخنزير ، ولمثل هذه الخصال كتب اليه أبو راغب فتىً من آل أبي جعفر العُتبي الوزير بخراسان رسالة هَتَكَهُ بها ، وأنا أرويها لتعلمَ أني لم أنفرد بتهجينه ، والنكير عليه ، بل كلُّ حرٍّ كريم ، وكلُّ ديّن مذكور ، وكل ذي مروءة ظاهرة معي فيما نثوت(٢) عنه وكرهته منه ، فإن لم تعبأ بما تسمع مني فاعبأ لمن لعله عندك أشفُّ مني ، ولا تتسرع إلى عُتبى هذا الرجل بما قد دونته حتى يتبين الأمر على حقه وصدقه .

[رسالة أبي راغب العتبي إلى الصاحب]

كتب أبو راغب : أصلحك الله أيها الرجل لنفسك ، فانك إذا صلحتَ لنفسك ، صلحت لقريبك وبعيدك ، أما بعد : فان بُعْدَ صيتك بعثني على تصفح شأنك ، وتصفحي لذلك وقفني على أحوالٍ كرهتها لك ، وأنفتُ منها لمن بلغ درجتك ، والعيبُ منك مضاعف ، واللسانُ فيك جوّال ، والحقدُ عليك سريع ، ولولا الحال التي أنت عليها من القدرة والتمكن لكان

---

(١) في الأصل جبن ، ويرجح صاحب القاموس والأغاني جميز . وهو من أرباب النوادر والفكاهة عاصر الجاحظ ودعبل . الأغاني ٨٣/١ ، الحيوان : ١٩٢/٥،٨٤/٣

(٢) نثا الحديث : حدث به وأشاعه .

العذرُ يناضل عنك ، والتوبيخ يتبدّد دونك . وما أحسن ما قال شاعر عصرك في نظمه :

ولم أرَ في عيوبِ الناس شيئاً
كنقصِ القادرينَ على التمامِ (١)

قد خوّلك الله ما يفوتُ ذرْعَ همتك ، وآتاك مايتجاوز اشتطاطك، في حكمك من المال والثروة والرئاسة والعلم والقوة والمكانة . ولم يخصك بهذا كله بسابقة لك عنده ، ولا لحقٍّ لك عليه ، بل كله تفضّل في الأول ، واختيار في الثاني ، وثواب أو عقاب في الثالث ، ولقد شددت وسْطي في تعرف أخبارك ، واستعنتُ كل عين وأذْن في معرفة ليلك ونهارك ، فلم أجد في تفصيل ذلك إلا ما يَعْصِبُ برأسك العار ، ويحشد عليك أسبابَ الدمار ، ويكون عاقبتَك منه دخولُ النار ، لأنك تظهر القول بالوعيد ، ثم تركب كلّ كبير من أخذ المال المحرّم ، واستباحة الحريم المصون ، وقتل النفس المؤمنة ، ومساهمة الفَسَقة الفَجَرة ، وخِدْمَة الظلمَة الغَشَمَة ، وتقديم أهل المجون والعَيَّارة(٢) ، وفي عُشر هذا سقوطُ المروءة ، والانسلاخُ من الدّيانة ، فيا أيها المدلُّ بالتوحيد والعدل ! أهذا كله في مذهبك أو في مذاهب أسلافِك مثل واصل بن عطاء(٣) ، وعمرو بن

---

(١) البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها : « ملومكما يجل عن الملام »

(٢) العيار : الكثير التجوال والطواف الذي يتردد بلا عمل يخلي نفسه وهواها .

(٣) أبو حذيفة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وإمام المتكلمين في زمنه ولد سنة ٨٠ هـ في المدينة وتوفي سنة ١٨١ هـ « ابن خلكان ٢/١٧٠ » .

عبيد [١] ، وأبي موسى المردار [٢] ، والجعفريْن [٣] ؟ أما كانوا مع بدعتهم التي شانوا بها وجه الاسلام ، وكادوا بها أهله ، مجتهدين في غير ما أنت به راضٍ لنفسك ومصرّ عليها ، باعتذارك أن الله لا يُخادَع ، ولا منجاة للعبد إلا بالطاعة الخالصة ، والتوبة النّصوح ، هذا إذا كان الايمانُ ساكنَ صدره ، والخوفُ من الله متردداً في أقطار فكره ، واليقين بالمعاد عمودَ دينه ، والعلمُ بالجزاء راسخاً في فؤاده . فأما إذا كان عارياً من هذا كله [١٦ب] / فهو الكافر بعينه الذي سمعت به ، وعاقبة الكافرين جهنّم يَصْلَوْنها وبئس المصير .

والله ما حركني لنبذ هذا الكلام اليك مَعتَبَةٌ عليك ، لأني لم أنتجعْك ، ولم أطمع في مالك ، ولا عرفتَ وجهي ، ولا سمعت باسمي ، لكن أبتْ نفسي أن تقرّ على الجهل بحالك ، وبدُخْلة [٤] ما يكون عليه أمثالك فآثرتُ نصيحتك ؛ فان النبي صلى الله عليه [وسلم] قال : الدينُ النصيحة ، وما أخوفني أن تكون جرأتك على هتك حُرُمات الدين، ومعارضة الصالحين مع العُكوف على الخسران المبين ، إنما قويت وثرتَ لأنك شارد

---

(١) أبو عثمان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة الأولين توفي بمران قرب مكة سنة ١٤٤هـ زمن المنصور ، تاريخ بغداد : ٢/١٦٦—١٨٨ هـ

(٢) أبو موسى عيسى بن صبيح المردار الكوفي من أشياخ المعتزلة وصاحب طريقة المردارية في الاعتزال ، كان شديد التطرف والمغالاة في عقيدته .

(٣) الجعفران : جعفر بن مبشر الثقفي المتوفى سنة ٢٣٤ هـ وجعفر بن حرب الهمداني المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، من رؤساء المعتزلة وعلماء الكلام في بغداد واليهما ينسب مذهب الجعفرية في الاعتزال .

(٤) الدخلة « مثلثه » : النية والمذهب وجميع الأمر والخلد والبطانة.

على ربك ، كافرٌ من دين نبيّك مدّعٍ له بلسانك ، شاكٌّ فيه بفؤادك ، متعجبٌ ممن له اخلاص ، أو له بالديونة اختصاص ، والويل لك إن كنت بهذا قانعاً من نفسك في الحال الاولى ، ثم الويلُ لك مع الثبور إن كنتَ جاهلاً بما عليك في الحال الأخرى .

حدّثني ، أيُّ أمر أنت فيه على رُشد ، وآخذٌ منه باحتياط ، ما أنت عليه مع الغلمان المرْد الجُرْد ، أم ما أنت مشهور به من المجانة والسخف؟ ثم تدعي الاطعام للخاص والعام ، وقد شاهدنا فوجدنا على بابك قوماً يَضربون بالمقارع وجوه الناس ، ويحطون على رؤوسهم العذاب طرداً لهم وإبعاداً . أمّا هذا بأمرك وعينك وأذنك ؟ فلِمَ تتكلف ما لا تقرّ به ، ولِمَ تدعي ما لا تسلم فيه ؟ لقد وقفنا عياناً من استخفافك بالأحرار ، ووضعك من ذوي الأقدار ، وكفرك بوليّ نعمتك ، وتعريك من كل شبهة في أمرك ما لو تنفسنا به بين الناس ، أو رسمناه بالقلم في القرطاس ، لكان ذاك زائداً على تمرد فرعون ، وكفر أبي جهل ، وجرأة ديك الجن[١] . لقد قيست مروّتك إلى مروّات قوم قُرنوا بالزندقة ، فوجدت مروّاتهم فوق دياناتك ، ولقد رأينا قوماً لم يتحلوا بالدعوى تحليك استنفدوا قوتهم في طلب مرضاة مؤمليهم ومنتجعي قطرهم ، وبلغوا من ذلك المبالغ وأنت مع تمكنك ويَسارك لم تسمح من الشاة بظلفها ، ثم ملأت الدنيا بقباقاً بالامتنان على الصغير والكبير ، كأنك خالق الخلق ، وباسط الرزق.

انظر ! أيها الرجل أيّ آخرِ سؤلك ، والله إنك شديد الثقة وقد قيل : ربّ واثق خجل ، أيها الرجل :

ما طار طيرٌ فارتفعْ
إلاّ كما طارَ وَقَعْ

---

(١) عبد السلام بن رغبان الشاعر الحمصي المشهور ولد سنة ١٦١هـ وتوفي سنة ٢٣٥هـ.

أما تعتبرُ بما آلَ اليه أمرُ ذي الكفاءتين مع ذلك التأو[1] والخُنزوانة[2]، أما رأيت بعينك في هذه السنين ما يحدوك على الأخذ بالوثيقة لنفسك ، وكفّ اليد عن كثير مما يُوتغ[3] دينك ، ويهشم أنف مروّتك ، ويقطع عِرق أبوّتك ، ويَهيجُ الألسنة على تبكيتك ، ويبسط الأيدي في الدعاء عليك ، ويحشو القلوب تمني زوال دولتك ، فاتعظ بقول الشاعر :

يا أيُّها الباغي على الأحرار

ثقةً بلينِ مَقادة الأقدارِ

لا تغترِرْ بمدىً تطاولَ حينُه

فالظلم يقصر من خُطى الأعمارِ

والعيش نهلةُ واردٍ ولربما

سُدّت عليه مدارجُ الإصدارِ

وأختم قولي هذا بما قال بعض السلف لأصحابه . قال : أحذّركم الدنيا ، وأخوّفكم يوم التّناد ، يوم لا يُعرف لخير أمدٌ ، ولا ينقطع لشرّ أمدٌ ، ولا يعتصم من الله أحدٌ.

وأرجو أن تسمع ما صدقتُ القول فيه باتضاح ، وتعرف ما تؤتيه بارتياح ، والسلام .

---

(١) التأو : التكبر .

(٢) الخنزوانة : الكبر .

(٣) وتغ : شدخ .

[نوادر الصاحب]

قال : ويقول أيضاً ، قال أبو العيناء لحجّاج الكاتب : ابنُكَ في أي شيء هو من النحو ؟ قال : هو في باب الفاعل والمفعول ، قال : هو إذاً في باب والديه ! ويقول : قيل لأعرابي : اشترى الأمير سراويل من فَنَك. فقال : التقى الثريان (١) ! ويُنشد :

شيخ لنا يُعرف بالخلدي
يريده في غلظ المرْدي (٢)
أدخلني يوماً إلى داره
فناكني والأير من عندي (٣)

[عودة إلى مخازي الصاحب]

قال الخثعمي : وهو في هذا كله على نَزَق شديد ، وقهقهة عالية ، وتفكك قبيح ، وسيلان منكر ، وشمائلَ منفّرة ، الويلُ له ! هلاّ ترك هذه السخافات والحماقات على قوم يَليق بهم هذا النمط ، وأقبل على الدولة فنظم مختلّها ، وسدّد التي ليس لها محصول؟ ياقوم ! أيُّ دين يصح له وقد

---

(١) جاء في القاموس المحيط : التقى الثريان ، شعر العانة ووبر الفروة .

(٢) المردي : خشبة للدفع في السفينة .

(٣) رواية ياقوت :

أديبنا المعروف بالكردي
يولع بالغلمان والمرد

قتل آل العميد ؟ وأيُّ وفاء يسلم له وقد سمّ أولاد بُوَيْه الذي هو وليُّ نعمته ، وحافظُ بهجته ، وباسطُ يده ، وبه نال ما نال ، وبلغَ ما بلغ ؟ وأيُّ مروءةٍ تبقى له وهو يمنُّ بالقليل إذا أعطى ؟ وأيُّ كرم يُعتقد فيه وهو يغرُّ الآمل ، ويسحبُه على الوعد ؟ حتى إذا انتهى فقراً وضجراً حَرَمَهُ حرماناً يابساً ، وردّه ردّاً مرّاً ، وأعطاه شيئاً قليلاً وقحاً .

[الصاحب وبنو المنجّم]

وهل تجد فيمن تقدّم عنده ، ونَفَق عليه غير ابن المنجّم (١) ؟ وهو يعبثُ بلحيته وهامته ، ويسخرُ منه ، ويضحكُ به ، ويعمل له الشعر في النوروز والمِهْرجان وغيرهما ، ويسمّعُه في نفسه يوم المحفل ، ويطربُ على إنشاده ويقول : ما أحسنَ شِعركَ ، وما أسلسَ طبعَك ، ويُعطيه على ذاك ، ويتقدم اليه بالقيادة ، وبكلّ ما لا يُجيزه الدين والمروءة ، وكذلك ابن المنجّم الآخر أبو محمد جِبْسٌ جاهل ، صلفٌ ، سبيله وحديثه / أن يقول : وردت على مولانا الصاحب وأنا كالبدر إذا طلع ، [١٧أ] فعشقني وعشق عِذاري ، وهامَ بسببي ، ورُزِقتُ منه ، وخففتُ على

---

(١) راجع ما ذكره صاحب اليتيمة عن بني المنجم فقد وصفهم بقوله : « ... وما منهم إلا أغر نجيب ، ولهم وراثة قديمة في منادمة الملوك والرؤساء ، واختصاص شديد بالصاحب ... وهم : هبة الله بن المنجم ، وأبو عيسى بن المنجم ، وأبو الفتح بن المنجم ، وأبو محمد بن المنجم ، وأبو الحسن بن المنجم » اليتيمة ٣/٣٩١ ، الأوراق للصولي : أخبار الراضي والمتقي ٩، ١١٥، ١٣٧

قلبه ، وحظيتُ عنده ، وكان يُعجبُه مني ما لا يجوزُ التحدّثُ به ، وصدَقَ الخثعمي في هـذا كله . وكان أبو محمد يقول ما هو أكثر مما قال ، وكان مع ذلك في مَسْك[1] كلب ، خسّة ، ولؤماً ، ونزَقاً ، وطمعـاً ، رأيته يوماً وقد كتب لانسانٍ كتاباً بمِكْنسة أخذهـا منه وجعلها في كمّه . وقضى لآخر حاجة بعشر باذنجانات ، والباذنجان إذ ذاك بالري مائة بدانق .

وقال أيضاً الخثعمي : وهل يتقدم عنـده إلا هؤلاء الهُوج الطغـام الذين يجوبون الدنيا ، ويدخلون كل مكان ويسخرون فيقولون : فعل مولانا ، وكان مولانا ، وما رأينا مثـل مولانا ، وإن رأى مولانا أمكننا من نسخ رسائله ، وكُتُبِ ألفاظه ، فاذا سمع هذا وأشباهه ، ماعَ وسال ، وترجرجَ وذابَ ، وأعطى عليه وجاد .

[علم الصاحب]

وقال أيضاً : كيف تدعي له التبريز في كل علم ، وهو لا يعرف النحو إلا ما جـلّ منه ، ومن الكلام إلا ما وضَح ، ثم هو في اللغة على تصحيفٍ شديد ، وتخليط كثير ، وفي الأخبـار على تمويه لا يخفى على مميّز ، وقد أفسدَ رسـائله بطريقة المتكلمين ، وأفسد طريقة المتكلمين بطريقة الكتّاب ، وكذلك النحو واللغة والحديث . وهذا وصف ظاهر لا يدفعه إلا مكابر . وصدق هـذا الشيخ ، فاني رأيتُ ابن ثابت البغدادي

---

(١) المسك : الجلد .

المحدّث [١] وقد سأله عشية يوم عن قول النبي صلى الله عليه [وسلم] « قوّموا صفوفكم فتراصوا ألا يتخللكم الشياطين كأنها بنات الحذف ما الحذفُ؟ » [٢] فلم يُجبْه ، وقال : سأقول لك ، وأخذ في حديث آخر قال الخثعمي : وهو مع هذا كله يكذب صراحاً في كل شيء ، يقول : كان عندنا معلّم وسئل عن يوسف أذكرٌ هو أم أنثى؟ فقال: يوسف يذكر ويؤنث ، ألا ترى إلى قول الله عزّ وجلّ : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ [٣] » وقد اجتمعت له العلامتان . وكان هذا ينسبه إلى إنسان معروف بالأدب ، ولكنه كان يُحمّق ابن عبّاد ويثّ مخازيه ، وكان هذا يضع عليه نوادر باردة .

[ادعاءات الصاحب]

قال : ويقول : دخلت بغداد فلقيت أبا سعيد السيرافي [٤] ، وعلي بن عيسى [٥] ، والمراغي [٦] ، وناظرتُ المراغي في عسى ولعلّ وكاد وغير ذلك

---

(١) أحمد بن ثابت بن بقية من أهل واسط نزل بغداد وحدث بها ، سمع منه أحاديث سنة ٣٥٣هـ « تاريخ بغداد ٤/٥٨ »

(٢) الحذف : ورق الزرع .

(٣) سورة يوسف .

(٤) الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي النحوي تولى القضاء في بغداد وتوفي فيها سنة ٣٦٨ هـ « الفهرست ٩٣ ، ابن خلكان ١٣٠ »

(٥) أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني البغدادي من كبار النحاة في زمنه ، ولد في بغداد سنة ٢٩٦هـ وتوفي فيها سنة ٣٨٤ « طبقات النحويين للزبيدي : ١٣٠ » .

(٦) أبو عبد الله المغلسي المراغي ، اليتيمة ٣/٤١٥ ، الامتاع ١/١٢٩

فابرزتُ وذكرتُ وأشير إلي بالأصابع ، وفُسح لي في المجامع ، وكذلك ناظرتُ فلاناً وفلاناً وأفدتُهم أكثر مما استفدت منهم.

وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال : سبحان الله ! وسكت استعظاماً لهذا الحديث ونفياً له وهو كما أومأ اليه .

[الصاحب والعروض]

وقلت للمراغي : أكان لهذا الحديث أصل ؟ فقال : لا والله . وقال الخثعمي : وهل يدلُّ وَلوعُه بالعروض إلا على سوء الطبع ، وقلة التأتي ، وكان أخذها عن البديهي ، وإنما ردؤ شعرُ البديهي أيضاً لمثل هذا ، وبلغ من جنونه عليها ، أعني العروض، أنه كان يلقيها على كل انسان ، ويطالبُ بها كلَّ شاعرٍ وكاتب حتى أخذ في هذه الأيام يلقنُ غلاماً تركياً ، وآخر قوهياً (١) وآخر زنجياً ، وكان يظهر بهذا وما أشبهه الحذق والبراعةوالتخريج.

[الصاحب والنحو]

ثم ينظر في كتاب « الفصيح [٢] » و « مختصر الجَرْمي [٣] » ويقول :

---

(١) قوهي : نسبة إلى قوهستان وهي كورة بين نيسابور وهراة قصبتها قاين ، وهي أيضاً بلد بكرمان قرب جيروفت .

(٢) الفصيح تأليف أحمد بن زيد بن سيار المعروف بثعلب ، إمام الكوفيين بالنحو « ٢٠٠هـ — ٢٩١هـ » .

(٣) الجرمي : أبو عمر صالح بن اسحاق البجلي الجرمي ، فقيه نحوي تتلمذ على الأخفش كان يقول عن نفسه : « أنا مذ ثلاثون أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه» توفي سنة ٢٢٥هـ طبقات النحويين للزبيدي ٧٦ — ٧٧

ما رأيت كاتباً يُخطىء إلا من هذا ، ولا يلحنُ إلا من هذا ، وهذا حفظك الله منه مغالطة . إن الكاتب قد يُخطىء من غيرهما أيضاً وهو ذاك المخطىء المحرّف إذا وزنت كلامه بالقسطاس واعتبرته بالقياس على ما أوضحه العلماء والنحويون . قال : ومن أراد ذلك بِنت له ، فليس الباب دونه مغلقاً ، ولا الطريق اليه متعسفاً .

[سخف الصاحب]

ثم قال الخثعمي : وهل مداره إلا على السخف ، والجَبَه ، والمكابرة ، والبُهت ، يقول فيمن هو أكتب ، وأعفُّ وأسرى:

جُحْرُ أبي نصر بنِ كوشاذ [(١)]

أوسع من مصرٍ وبغداذِ

قلت له : هل لك في فَيْشَةٍ [(٢)]

فقال مولاي وأستاذي !

ينشد هذا وهو يتطاير ويفتل يده ويتسيّل ويصفق ! أفهذه مخايل ذوي الأقدار والرئاسة ، أم مخايلُ أصحاب الرّعاع والسفلة .

[الصاحب وأهل القصص والحديث]

وهل شاعَ القولُ بتكافؤ الأدلة في هذه الناحية إلا به ، وكثر المِراء والجدلُ والشكُّ إلا في أيامه ؟ لأنه منع أهل القصص من القصص والذكر

---

(١) هو أبو نصر خواشاذه الفارسي من رجال العهد البويهي .

(٢) الفيشة والفيش : رأس الذكر .

والزجر والمواعظ والرقائق ، ومنع من رواية الحديث - وقال : الحديث حشو - وتفسير القرآن ونشر التأويل ، وسماع قول الصحابة والتابعين ، وما يُعْنى به من الحلال والحرام ، ويتعلق بجلائل الأحكام ، وطرَدَهم ونفاهم ، منهم : ابن فارس [١] والروباني [٢] وابن بابويه [٣] وابن العطار ، وابن شاذان [٤] والبلخي وفلان وفلان ، وأجلس النجار ليجتدع الدَّيْلم بالزيدية ، ويزعم أنه على مقالة زيد بن عليّ ورأيه ودينه ومذهبه ، وزيد - يعلم الله - منه بريء لفسقه وفجوره وتهتكه وظلمه وغصبه ونهبه ، / وقتله النفس المحرَّمة ، [١٧ب] وأخذه الأموال المحظورة. أتراناا لا نعرف مذهب زيد وأن جميع ما هو فيه مخالفٌ للدين والاسلام !

وقال الخثعمي [٥] : زعم أنه إنما منع المذكّرين والقصاص لئلا يفشو الحشو والتشبيه ، ولئلا يقيسوا عليه الصغير والكبير ، فهلاّ منع من الكلام والجدل لئلا يفشوَ الالحاد ولا يكثر الشُّبه .

ثم يجلس لأصحاب الحديث ، ويروي ، ويُفسد ، ويكذب ، ويختلق الأسناد ، ويَبِتُك [٦] المتن ، فأيُّ عيب لم يظهر به ، ولم يغلب عليه ، وأيُّ

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس من أئمة اللغة والأدب صاحب المجمل والصاحبي في علم اللغة ولد سنة ٣٢٩ هـ وتوفي بالري سنة ٣٩٥ هـ .

(٢) نسبة إلى روبى قرية ببغداد.

(٣) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع ، له مصنفات كثيرة توفي في الري سنة ٣٨١ هـ .

(٤) ورد ذكره في الامتاع ١٢٩/١ ، ١٣٤

(٥) اسمه محمد بن عبد الله أو عبد الله بن محمد ، له من الكتب : الشعر والشعراء ، « الفهرست ١٥٩ »

(٦) بتك : قطع .

خِزْيٍ لم يَبِنْ ولم يكثر ، وأيُّ فعل سَيِّىء لا فعله . أليس هو سببَ كل قبيحة ، وفاتح كلّ باب شرّ ؟ فما هذا العَلْط [١] فيه ، وما هذا التعصب له ؟ وما هذا اللجاج بسببه ؟ أين العدل الذي يُدل به في مذهبه أن يجور ويغضب ويقتل ؟ أم من التدين بالتوحيد أن يركبَ الفواحش ، ويأتي القاذورات ، ويخلو بالأُبَن [٢] والسوءات ، ويتسنم الكبائر المبيرات ، ثم يبني داراً يسميها دار التوبة استهزاء وسخرية وسُخْنة عين ؟ أم من المعروف أن يتعاطى كل منكر قولاً وفعلاً ؟ إني لأظن أن من ينصر هذا الرجل لأعمى أصمّ قد أسلمه الله من يده ، وألجأه إلى الشيطان قرينه ؛ أم من العقل والمروءة والكرم والفتوة أن يقول : أين مائدتنا من مائدة مطرّف ـ يعني أبا نصر مطرّف بن أحمد وزير مرداويج الجبلي ، وكان أكرمَ الناس ـ ومن مائدة المهلبي ، ومن مائدة ابن العميد ! وأين طعامُنا من طعامه ، وأين إطعامنا من إطعامه !

[ابن العميد وابنه في نظر الصاحب]

وكان أبو الفضل سيّداً ، ولكن لم يشقّ غبارَنا ، ولا أدرك سرارَنا [٣] ولا مَسحَ عِذارنا ، ولا عرف غرارنا ، لا في علم الدين ، ولا فيما يرجع إلى منافع المسلمين . فأما ابنه فقد عرفتم قدره في هذا ، وفي غيره ، طيّاش قلاش [٤]

---

(١) العلط : الذكر بالسوء .

(٢) الأبن : جمع أبنة وهي العيب .

(٣) السرار : محض النسب وأفضله ، وسرارة الشيء : أطيبه وخالصه .

(٤) القلاش والأقلش : المحتال .

ليس عنده إلا قاش وقماش مثل ابن عياش ، والهروي والحواش . يا قوم هذا كلام مَن له عقل ورجع إلى رزانة ؟ .

[تفاخر الصاحب]

ثم يقول في مجلسه : أنا الذعّاف[١] لمن حساني ، والجرّاف لمن عصاني ، والجحّاف[٢] لمن عناني أو حرّك عناني ، أخمَصي[٣] فوق هامة الدهر ، أين ابن الزيات منا[٤] ؟ أين ابن خاقان[٥] من غلامنا ، يعني أبا العباس الضبيّ ، ومَنْ عليُّ بن عيسى الحشوي ؟ ومَنْ ابن الفرات[٦] الأرعن ؟ ومَنْ ابن مُقلة الخطاط ؟ ومَنْ الحسن بن وَهْب[٧] الضرّاط ؟ هل كانوا إلا دوننا إذا ذكرتْ سيادتُنا ، وشُوهدت سعادتُنا ؟ ولدتُ والشِعْرى في طالعي ، ولولا ربيعة لأدركت النبوة ، وقد أدركتُ النبوة إذ قمتُ بالذبّ عنها ، والنصرة لها ، فمن ذا يجارينا ، ويُمارينا ، ويُبارينا ، ويُعادينا ، ويُضارينا ، ويُسارينا ، ويُشارينا ؟.

---

(١) الذعاف : ساقي الذعاف وهو السم القاتل سريعاً .

(٢) جحف : جرف .

(٣) أخمص القدم : ما لا يصيب الأرض من باطنها ، وربما يراد به القدم كلها .

(٤) محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات الوزير الأديب المنشى «١٧٣هـ—٢٣٣هـ» .

(٥) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوح أديب وشاعر وزر للمتوكل وقتل معه سنة ٢٤٧ هـ .

(٦) أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي توفي بالرملة سنة ٣٢٧هـ .

(٧) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين ، كاتب وشاعر ، كان معاصراً لأبي تمام والبحتري توفي سنة ٢٥٠ هـ .

وكاد الخثعمي لا يقطع هـــذا المجلس لطول ما مرّ فيه ، وشدة ما أهمه منه ، فهذا كما ترى .

[المسيني والصاحب]

وقلت للمسيني يوماً : لِمَ انقطعتَ عن هـــذا الرجل وقد كانَ محسناً اليك ، مقدّماً لك ، معجبا بك ؟ فقـال : الصبرُ على الرّقاعة مُعْوِرٌ ، ومكاذبة النفس وخداع العقل من الكُلف الشـــاقة والأمور الصعبة ، ولعن الله الرغيف إذا لم يُصَبْ إلا بضعةِ النفس ، وغضـــاضة القدر ، وكدّ الروح ، ومفـارقة الأدب الحسن ، ودَنَس العرض النقي ، وتمزيق الدين المعتقد ، وكسب الزور المُحْبط ، وإزالة المروءة المخدومة ، وإني لَـكما قال الشـاعر :

وإني على عُدْمي لَصـــاحبُ همّةٍ
لهـا مذهبٌ بين المجرّة والنسرِ
وإنّ امرأً دنيـــاه أكبرُ همّه
لمستمسكٌ منهـــا بحبل غرورِ

[كلام بذيء]

وسمعتُه يقول لابن ثابت : جَمَلك الله ممن إذا خرىء شطـّر ، وإذا بال قطـّر ، وإذا فَســا غبـّر ، وإذا ضرط كبـّر ، وإذا عفـّج [١] عبـّر !

---

(١) عفج من العفج : وهو ما ينتقل اليه الطعام بعد المعدة .

وهذا سُخف لا يليق بأصحاب الفرضة ، والذين مشوا بالمزرّفة ، واختلفوا إلى الخندق ودار بانوكه والزّبد والخلد (١) .

[التقبح عند الصاحب]

وسمعته يقول : أنشدني صِقلاب (٢) وابن باب ، وقرأت على ابن البوّاب ، وسمعتُ من أبي الحُباب ، ورويت لأبي المرتاب الدبّاب كل شيء عجاب ، ولقد تحيّر المهلّبيُّ مني ، وعرف معزُّ الدولة فضلي وأدبي ، وأكبر قدري ، وبلغ الحدّ الأقصى في أمري !

[انكار الجبر]

وأنشدني أبو دُلف الخزرجي عنـــدما رأى من كلفه بالمذهب وإفراطه في التعصب(٣):

يا بنَ عبّادِ بن عبّا　　سِ بن عبد الله جِرْهـا
تُنكِرُ الجَبْرَ وقد أخـ　　ـرِجْتَ في العالَمِ كُرْها(٤)

---

(١) أسماء أمكنة للفساد والدعارة فيما يبدو !

(٢) ذكره الجاحظ في البيان ونسب اليه البيت الآتي في المعلمين :

وكيف يرجى الرأي والعقل عند من
يروح على أنثى ويغدو على طفل

(٣) نسب البيتان في ياقوت ، وكذلك في اليتيمة إلى السلامي في هجاء الصاحب ، ورواية البيت الثاني في ياقوت: تنكر الجبر وأخرجـ　ـت إلى دنياك كرهـا

(٤) وجره يجره وجراً : أسمعه ما يكره .

[الصاحب وبنو ثوابة]

وكان إذا نشط واهتزّ لا يُسمع منه إلا حديث عبادة وجحشويه وأمثال هؤلاء ، وكان يضع على بني ثوابة كل حكاية غثّة فاحشة .

[دفع التهم]

وكان إذا أراد أن ينفي عن نفسه ما يُقرف به قال : قيل لقاضي الفساد : نيك الرجال زينة ، فقال: هذا من أراجيف الزناة .

وقيل لابن ماسويه [١] : الباقلّى بقشوره أصح في الجوف، فقال: هذا من طب الجياع! وقيل للوطيّ: إن اللواط إذا استحكم صار حُلاقاً [٢] قال: هذا من توليد أصحاب القحاب .

[كلام المجانين]

[١أ] فأما الذي يدل على كلام المُبَرْسمين [٣] والمجانين ، / ومن قد شهر بالصرع والماليخوليا [٤] فما سمعته يقول لشيخ خراساني قد دعا به وأكرمه وتوفّر له وكلّه ،فسمعته يقول : ما يجب أن يكون لا يقتضي ، وما يكون فيه لا يجب أن يكون ، وقد يجب أن يكون ما يكون ، ويكون ما يجب أن

---

(١) يوحنا بن ماسويه الطبيب . راجع أخباره في تاريخ الحكماء للقفطي طبعة ليبسك ٣٨٠—٣٩٠ ، الفهرست ٤١١

(٢) الحلاق : ألا تشبع الأتان من السفاد ولا تعلق على ذلك وكذا المرأة.

(٣) البرسام : التهاب الحجاب الذي بين الكبد والقلب ، والمبرسم من أصيب بالبرسام .

(٤) السوداء Mélancolie .

أن لا يكون، وإنما لا يكون ما يجب أن يكون، فيكون ما يجب أن لا يكون، لأن يجب أن يكون ليس في وزن ما يكون ، والكون والوجوب لا يتلازمان، بل يجتمعان ثم يفترقان ، والاجتماع والافتراق عليها جاريان، فلهذا يُرى الواجب كائناً ، والكائن واجباً ، وما أكثر من يظنّ أن الكون متضمن الوجوب، والوجوب متضمن الكون ، وتحصيل الفصل بينهما بالنظر من سحر العقل ، وهذا فنٌ لم أجد فيه لمشايخنا شوطاً محموداً ، ولعلي أملي فيه كلاماً بسيطاً بجميع ما يكون شرحاً له إن شاء الله .

[الابتلاء بالصاحب]

فلما خرجنا قلت للخراساني وقد أخذنا في المؤانسة ، وتجاذبنا أطراف الحديث كما قال الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناقِ المطيّ الأباطحُ [١]

كيف سمعت الليلة ذلك الكلام في الكون والايجاب؟ فقال: يا خيبتي! إما أن يكون هذا الرجل مرجوماً في أيديكم ، أو تكونوا مرجومين في يده ، أما في بلدكم مارستان ! أما للسلطان شفقة على هذا الانسان ، أما له من يأخذ بيده وينصح له في نفسه ، ويكسح هذا الخرف [٢] من عقله ، إنا لله وإنا إليه

---

(١) من قصيدة للمضرب وهو عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى ومطلعها :

وما زلت أرجو نفع سلمى وودها
وتبعد ، حتى ايض مني المسائح

راجع : أمالي المرتضى ١/٤٥٨

(٢) في الأصل «الحر» ولعل المقصود حرارة الغيظ أو غيره .

راجعون. عُمّ عليٌّ باسمه عندنا بخراسان (١) به في تلك البلدان، وقد كان والله يلوح خللٌ كبير لقومٍ من أهل العقل والأدب والحكمة من رسائله ورِقاعه ، وكانوا يحملون الذنب على الوراقين .

[فلسفة الحق]

وقال يوماً آخر لابن القطّان أبي الحسن الفقيه المتكلم : أيها الشيخ ! أنت على الحق قال : نعم. قال : والله الحق. قال: نعم . قال : فأنت على الله. فقال القصار: الحمد لله على سرعة هذا الانقطاع ، وسطوع هذا البرهان ، ولزوم هذا الحكم . فلما خرج قلنا له : هلاّ فصلت أيها الشيخ وقد عرّض بك ، وتضاحك عند الاشارة اليك؟ فقال: وما مناقلتي رجلاً لو كان في المارستان مغلولاً لكنت لا آمن جنايته إذا كلمته ، فكيف وهو مطلقٌ مطاع ؟ ونعوذ بالله من مجنونٍ قادر مطاع ، كما نعوذُ به من عاقل ضعيف مَعْصيّ !

ثم قال : وهذا الكلام من صاحبه سوء أدب ، وضعف عقل ، وخسارة نفس ، واجتلابُ مَقْت ، وقلة دين ، إن الحق ، والحق اسمان يقعان بالاشتراك في اللفظ على معنيين مختلفين وأنا على الحق ، ولكن على الحق الذي ضده الباطل ، ولستُ على الحق الذي لا ضدّ له ، والحقُ يُطلقُ على الله ، ويراد به أنه مُحقّقٌ ، والحق يُطلق على ما عدّاه ، ويراد به أنه مُحقق ، والله الحق المحقق ، وما جاوره فهو الحق المحقق ، وإذا قيل في وجه آخر : الله مُحقق فالمراد به غيرُ هذا ، لأنه يُراد به أنه مُثبت موجود ، ومعتقد مشهود له بالوحدة والقدرة ، والحكمة والمشيئة .

---

(١) في الأصل : «طوسا» وهي غير واضحة .

[انقطاع الصاحب]

وحدّثنا ابن عبّاد يوماً قال : ما قطعني إلا شاب وَرَدَ علينا أصبهان من بغداد يقصدني فأذنتُ له ، وكان عليه مُرقّعة ، وفي رجله نعلُ طاق ، فنظرتُ إلى حاجبي، فقال له وهو يصعد إليّ: اخلع نعلك ، قال : ولِمَ؟ ولعلي أحتاج اليها بعد ساعة ، فغلبني الضحك وقلت : أتراه يريد أن يصفعني بها ؟

[علي بن الحسن الكاتب والصاحب]

وقال لي علي بن الحسن الكاتب (١) : هجرَني في هذه الأيام هجراً أضرّ بي، وكشف مستورَ حالي ، وذهّب عليّ أمري ، ولم أهتدِ إلى وجه حيلةٍ في مصلحتي ، وورد المهرجان فدخلت عليه في غمار الناس ، فلما أنشد يونس تقدمت فأنشدت فلم يهشّ لي ، ولم ينظر إليّ ، وكنت ضمّنتُ أبياتي بيتاً له من قصيدة على رويّ قصيدتي ، فلما مرّ به البيت هبّ من كسله ، ونظر إليّ كالمنكِر عليّ ، فطأطأتُ رأسي ، وقلتُ بصوت خفيض : لاتلُم ولا تزد في القُرحة فما عليّ محيل وإنما سرقت هذا البيت من قافيتك لأزينَ بها قافيتي ، وأنتَ بحمد الله تجودُ بكلّ عِلقٍ ثمين ، وتهبُ كلّ جوهرٍ مكنون ، أتراك تشاحّني على هذا القدر ، وتفضحني في هذا المشهد ، فرفع رأسه وصوته وقال : يا بُنيّ أعد هذا البيت ،فأعدته، فقال :

---

(١) علي بن الحسن بن حسول أبو القاسم كاتب الصاحب ، ورد ذكره في الامتاع ١/٢٤

طَنّانٌ والله ، يا هذا ارجع إلى أول قصيدتك ، فقد سَهونا عنك ، وطارَ الفكرُ بنا في شـــأن آخر ، والدنيا مَشْغَلة ، وصار ذلك ظلماً لك ، لا عن قصد منا ، ولا تعمد ، قال : فاعدتها وأمررتُها وأطربت بانشادها ، وفغرتُ فمي بقوافيها ، فلما بلغت آخرها قال : أحسنت ! إلزَمْ هـــذا الفن فانه حَسَنُ الديباجة ، وكأنَّ البحتري قد استخلفكَ ، وأكثِر بحضرتنا ، وارتفعْ بخدمتنا ، وابذل نفسك في طاعتنا ، نكن من وراء مصـــالحك بأداء حقك ، والجذب بضَبْعِك[1] / والزيادة في قدرك على أقرانك . قال : فلم أرَ بعد ذلك إلا الخير حتى عَراهُ مَلَلٌ آخر فعاد إلى عادته ، ثم وضعني في الحبس سنة وجمع كتبي وأحرقها بالنار وفيها كتب الفرّاء والكسائي ، ومصاحف القرآن وأصول كثيرة في الفقه والكلام ، فلم يميزها من كتب الأوائل ، وأمر بطرح النـار فيهـــا من غير تثبت لفرط جهله ، وشدة نزقه ! أفهذا يا قوم من سيرة أهل الدين أو أخلاق ذوي الرئاسة أو من جنس ما يَعتادُ ممن له عقل أو تماسك ؟ وهلاّ طرح النار في خزانة كتبه على قيـاس هـــذا ؟ فان فيها كتبَ ابن الراوندي[2]، وكلام ابن أبي العوجاء في معـارضة القرآن بزعمه، وصالح بن عبدالقدوس[3]، وأبي سعيد الحَصيري مع غيره من كتب أرسطاطاليس وأشباهه ، ولكن من شاء حَمَّقَ نفسه .

[١٨ب]

---

(١) الضبع : العضد .

(٢) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن اسحـاق الراوندي فيلسوف متهم بالزندقة وهو أحد زنادقة الاسلام الثلاثة أبو العلاء المعري وأبو حيان التوحيدي . ولد سنة ٢٠٥ هـ وتوفي في بغداد سنة ٢٤٥ هـ

(٣) صالح بن عبد الله بن عبد القدوس ، شاعر حكيم متكلم اتهمه المهدي بالزندقة فقتله ببغداد سنة ١٦٠ هـ.

[الصاحب والأقطع الكوفي]

كان الأقطع المنشد الكوفي يقول كثيراً : لو لم تستدل على جنون هـــذا الرجل ، وقلة دينه ، وضعف عقله ، إلا بنَفاقي عليه لكفى ، لأني رجل قطعتُ في اللصوصية، فما قولك في لص مقامر ؟ أقودُ ، وألوطُ، وأزني، وآثم وأضرب ، وليس عندي من خيرات الدنيا شيء لأني لا أصلي ، ولا أصوم، ولا أزكي ، ولا أحج ، ونشأتُ في المساطب والشُّطوط والفرَض [١] والمواخير ، ومشيتُ مع البطالين سنينَ وسنين ، وجرحتُ وخنقتُ وطرّرتُ [٢] ونقبت وقتلت وسلبتُ وكذبتُ وكفرتُ وشربتُ وسكرت وشابكت وساكنت وماحكت ودامكت [٣] ، ولم يبق في الدنيا منكر إلا أتيتُ ، ولا خنا إلا ركبت ، وهو على هـــذا يغري بي ، ويلجُّ معي ، ويؤذيني ، ويمنعني من الرجوع إلى بيتي وامرأتي ، قد حبسني في داره هكذا فاذا اغتلمتُ جلدتُ عميره ضرورة .

وصدق هذا الشيخ ، كذا كان مذهبه وعليه شاخ ، ولكن ابن عباد كان يتعلم منه كلام المكارين ، ومناغاة الشحّاذين ، وعبارة المقامرين ، ومن بَصُرَ في اللعب بالكعبين ، ويضجر ، ويكفر ويتخر ويشق

---

(١) مفردها فرضة وهي من النهر الثلمة ينحدر منها الماء وتصدر منها السفن ويستقى منها ، ومن الجبل ما انحدر من وسطه وجانبه .

(٢) أطر : أغرى وقطع .

(٣) دمك : أسرع في عدوه .

المئزر ، ويبزقُ في الجو ، وكان لا يجد هذا عند أحد كما يجده عنده ، فلذلك كان يتمسك به .

[نوادر الأقطع]

وكان الكوفيُّ هذا مع ما وصفناه طَبًّا (١) مليحاً نظيفاً ظريفاً فصيحاً ، وهو الذي حدَّثنا عن بعض أصحـــابه في المسطبة قال : قلنا له : إنك تحب الطيِّب ، وتلهجُ بالنكاح وتُفرط . قال : فقـال لنا : والله ما أقتدي في هذا إلا بنبينا صلى الله عليه [وسلم] فانه قال : حُبِّبَ إليَّ من دُنيـــاكم ثلاثة : الطيبُ والنساء قال : فقلنا له ؟ ففي الخبر : وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة ، وأنت لا تُصلي أصلاً ، فقال : يا حَمْقى ! لو صليتُ لكنتُ نبيّاً ، وقد قال صلى الله عليه [وسلم] لا نبيَّ بعدي !

ورأيت الأقطع هذا واقفاً بين يديْ ابن عبّاد في صحن الدار ، وذاك أيضاً واقف ، فطلع صـــالح الوراق فقال ابن عباد حين نظر اليه وإلى لحيته المسرَّحة :

وليحة كأنهـــا القُباطي (٢)

فقال الأقطع بلا وقفة :

جعلتهـا وقفـــاً على ضُراطي

وكان صالح هذا يقول : أنا من ولد محمد بن يَزداد الوزير .

---

(١) الطب : الحاذق الماهر بعمله .

(٢) القباطي : ثياب من كتان منسوبة إلى القبط .

[حفظ شعر الصاحب]

وكان ابن عباد يطالب الأقطع بأن يحفظ قصائده في أهل البيت وينشدها الناس على مذهب النوح ، وكان يعطيه على كل بيت درهماً ، وإذا لم يحكم ضربه لكل بيت بعصا عجراء [١] ، فكان الأقطع المسكين كل يوم يضرب فقلت له : من كلفك الصبر على هذا الضرب إحفظ كما كنت تحفظ ، واربح الدراهم ، وتخلص من الألم فقال : والله لو ضربني بكل عصا في الأرض كان أخف علي من حفظ شعره الغث ، وانشاد قافيته الباردة ، والله ! وان شعره في أهل البيت خرا ! فهذا قوله .

[تصرّف مشين]

وكان لا يدع الأقطع لينصرف إلى منزله ، وكان يشكو الشبق [٢] ، وكانت امرأته تأتيه في كل قليل إلى دهليز الباب وتغيّر ثيابه ، وتصلح أمره وتحدثه وتنصرف بشيء معه قد جمعه ، فصادف الأقطع يوماً الدهليز خالياً ، وكانت الهاجرة منعت من الحركة ، فراودها ، وطرحها في المكان المتخطى وتقمّمها ، وأخذ في عمله ، فرمقه بعض الستريين فغدا ورفع الحديث إلى ابن عبّاد وذكر الحال والصورة ، فهاج من مقيله البارد ، ومكانه الظليل ، وحشيته التي قد استلقى عليها حاسراً حافياً قد جعل طرف كمه على رأسه بلا

---

(١) العصا العجراء : ذات الأبن أي العقد .

(٢) الشبق : اشتداد الشهوة للجماع .

سراويل ، ولَقَطَ قدَمَهُ لَقْطاً حتى وقف على الاقطع وهو يكوم ، يُولج ويُخْرج ويَهْزُ ذاهبَ العقل فقال له : يا أقطع ! ويلك يا ابن الزانية إيش هذا في داري ؟ فقال : أيها الصاحب اذهب ليس هذا موضع النظّارة ، وهذه امرأتي بشهودٍ عدول ، وعَقْد ، وقبالة ، اذهبْ اذهب [فأخذ] يهذي ولا يعقل حتى أفرغ وسيدي على رأسه يضحك ، ويصفّق ، ويرقص ثم أخذ بيده على تلك الحال وهو يشدُّ تكتّه وابن عبّاد بعينه وأدخله إلى / مقيله يعاتبه ويسأله [١٩أ] عن العمل والحال وكيف استطابه وكيف هاج ، ثم خلع عليه ووهب له ، ووهب لامرأته ثياباً وطيباً .

أفهذا من المروءة والفضيلة وأدب الرئاسهوآيين(١) الوزارة ؟! أهكذا كانت البرامكة وهو لا يرضاهم ؟ أم هكذا كان حامد بن العباس ، والعباس بن الحسن ، وآل الفرات ، وآل الجرّاح ، وهو لا يزنهم بشيء فيمن تأخر . إن من يستحسن هذا وأمثاله ، ويعذر أهله في الرئاسة والجلالة لضعيفُ النّحيزة ، سليب المروءة ، وإن من ينظر هذا وشبهه لصفيقُ الوجه ، قليل المرفة .

[لحية ابن الزيات المتكلم]

وقال لابن الزيات المتكلم يوماً في مناظرته : لا تعبث بلحيتك ! فقال ابن الزيات : وما عليك منها ؟ هي لحيتي! قال : أنا سلطان ! قال : أفي عهدك النظر في لحيتي ؟ قال أصحابنا : بل قال له : أنا سلطان وإذا خرجت من عندي ولحيتك على غير الشكل الذي دخلت عليَّ به ظنَّ الناس أني ظلمتك فيها عند المناظرة والخلاف ، وأنا أحبُّ صيانتك وصيانتي عند الناس بسببك ، قلت لابن الزيات ببغداد : كيف رأيت ابن عبّاد ؟ قال : هو كالحِرِ لا يرجع اليه من خرج منه .

(١) آيين الوزارة : القواعد أو التقاليد ، فارسية .

[رأي الجيلوهي في الصاحب]

وقلت للجيلوهي الشاعر ، وكان شيخـــاً له تجربة ومعرفة بأيام الناس ومشاهدهم[١] . حدثني عن ابن عبّاد قال : مغرور من نفسه لمواتاة جدّه ، وتصديق ذوي الأطماع في جميع دعواه ، وما أحوجه إلى إنصاف الناس من نفسه بأحد شيئين : إما بأن لا يدّعي الكمال ، أو بأن لا يبكّت الرجال ، فلا هو بريء من النّقص ، ولا هو غير مستحق للتبكيت ، وليس من لا يمكن أن يُواجه بالنقص الذي فيه ، وبالتوبيخ الذي يستحقه على فعله ليـــدٍ له في السلطان قوية ، وشمس له في الدولة طالعة ينبغي أن يركب هام الناس ، ويأكلهم بلسانه ، فريح الدولة قد تركُد ، والضعف يزول ، والحشم يتحوّل ، وقد يقال وراء ظهره ما يُربي على ما هو عليه ولو قصر يده على فضله الذي له لم تشلّ ، ولو وقف قدمه عند غايته لم تزلّ ، ولكنه يجري طلقاً ثم يكبو ، وينصلت للقراع ثم يَنْبو ، ويتطاول إلى ما لا يناله ثم يخبو ، وهذا طريق الجاهلين المغترين ، ثم قال : والكذب من آفاته ، وهو خُلُق يَعُرُّ المروءة ، ويشين الديـانة ، ويُسقط الهيبة ، ويجلب الخِزْي ، ويستدعي المَقْت ، ويقرّب الموت ، وقلّ من لهج به إلا كان حتفه فيه ، وما رؤي شيء أمحى لنضـــارة الوجه ، ولبهجة العلم ، ولزينة البيان منـــه . قال : وعلى ذلك فما رأيت رئيساً يُحسن ما يُحسن من الاحسان ، مردود بالتنكّد لانه ما هنّأ قط بنعمته ، ولا أمتع بإحسانه ، ولا ترك له يداً بيضاء عند أحد إلا وكرّ عليها بالتسويد .

قال : وقد شاهدت النافقين عليه ، والمتقدمين لديه ، ووقفت على مرادهم ووسائلهم وأسبابهم وذرائعهم فلم أجد فيهم إلا مخشيّ اللسان استكفّ شرّه بالاحســـان كالخوارزمي وغيره ، أو مرتبطاً لأمر يُراد منه لا يفي به سواه

---

(١) في الأصل « مشاهده » تصحيف .

كالهمذاني ومن جرى مجراه ، ملعوباً به قُرِّب على ظنَّةٍ وريبة ، وحال زائدة على القبح والفضيحة كفلان وفلان، وهم الدهم . ولم أجد في ضروب المتوسلين اليه بعد هؤلاء من وصل إلى درهم من ماله إلا يبذل النفس وإزالة العِرض ، ومواصلة البُكور والرَّواح ، واستنشاق الغُبار والرياح ، وتجرُّع الغيظ والكد ، ومزاحمة أهل الجهل والنقص، ومغالبة ذل الحُجّاب، وسوء أدب البواب ، والرضا بالهزء والسخرية ، وما ابيضّت له يد عند أحد ، ولا تمّت له نعمة على أحد لِمَلَلِه ، وحسده ، وضجره ، ونكده، وامتنانه وكثرة ذكره لفضله ، ومدحه لنفسه . والعرب تقول في حكمها : المنّة تزري بالألباء . على أن عطاءه لا يزيد على مائة درهم وثوب الى خمسمائة، وما يبلغ الى الف نادر ، وما يوفي على الالف بديع ، بل قد نال به ناسٌ من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف ، وعدد هؤلاء قليل جداً ، وذاك أيضاً بابتذال النفس ، وهتك السّتر ، والافراج عن الدين والمروءة والعرض والانَفَة .

[غرور الصاحب]

قال : وأيُّ عقل يكون لمن يقول : لم يكن في الدولتين الأمويه والعباسية مِثْلي . وهذا الكلام قد دَوَّنَهُ في بعض كتبه ، وقد حكيتُ هذا بمدينة السلام ، فسمعه قومٌ كرام يرجعون إلى فضل كثير ، وبصائر حسنة ، منهم ابن البقّال الشاعر[1] ، ومحسّن ابن

(١) ورد ذكره في الامتاع والمؤانسة ١٩٠/٣ ، ١٩٥ ، ٢١٣

التنوخي (١) ، وابن قناش المصري ، فضحكوا وهزئوا وشعثوا عرضه وجحدوا محاسنه التي لو سكت عليها لسلمت له ولادعى في جملتها أكثر مما يدعيه لنفسه . ولعمري ما كان له ممن يقدم في الدولتين مثل ، ولا شبيه ، ولكن في الخلاعة والمجون ، والرقاعة والجنون . قال : ومن العجب أنه يدعي العدل والتوحيد وهو لا يفيق من قتل من ظن / به عداوته ، والوقيعة فيه ، أو القدح في رقعة له ، وإن كان ذلك الانسان من الصالحين العابدين . [١٩ب]

[ركاكة الصاحب]

ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوي فكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه ، وخبراً ينمقه ويرويه يبلق عينيه ، وينشر منخريه ، ويري أنه قد لحقه غشي حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل له : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذي نابك وتغشاك؟ فيقول : ما زال كلام مولانا يروقني ويؤنقني حتى فارقني لبي ، وزايلني ذهني ، واسترخت له مفاصلي ، وتحللت عرى قلبي ، وذهل عقلي ، وحيل بيني وبين رشدي . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عجباً وجهلاً ، ثم يأمر له بالمكرمة والحباء (٢) والصلة والعطاء ، ويقدمه

---

(١) المحسن بن علي بن محمد بن داود بن الفهم التنوخي عالم وأديب وشاعر وقاض صاحب كتاب نشوار المحاضرة ، والفرج بعد الشدة ، والمستجاد من فعلات الأجواد . ولد في البصرة سنة ٣٢٩ هـ وتوفي ببغداد سنة ٣٨٤ هـ .

(٢) الحباء : العطاء .

على بني عمه وبني أبيه . ومن ينخدع هكذا أفلا يكون ممن له في الكتابة قِسْطٌ ، أو في النّاسك نصيبٌ، وهو بالنساء الرُعن ، والصِّبْيان الضعاف أشبهُ منه بالرؤساء والكبار .

[حديث الشاذباشي]

وحدثني الشاذباشي قال : حُجبتُ مدة عنه فضقتُ ذرعاً بذلك ، فان الجاه الذي كنت مددته ازوى ، والأمر الذي قوّمته تأوّد ، وأخذت المادةُ تقف ، والحال تنقص ، والذكر يقلُّ ، فأحييتُ الليل أرَقاً وفكراً فيما اعتل ، فقَدَحَ ليَ الخاطرُ بحيلةٍ فأصبحتُ وكتبتُ رقعة ذكرت فيها إني رجل امتُحِنتُ بما لم يُمتَحن به أحد ، غشيَ بابك ، ونالَ احسانك ، واستمرع فِناءك ، واستحصد جنابك .

إني بعد هذا الدأب الشديد ، والنصَب المتصِل ، والقراءة والنّسخ ، والبحث والمناظرة ، والصبر والمناصحة ، قد شككتُ في مسائل الأصول الخمسة التي عليها مدارُ المذهب ، وركن المقالة ، وهذه محنة بل فتنة بل شيء فيه هَلاكي وخُسران عملي وذهاب عمري فالله الله فيّ ! تداركني فاني من الأموات بين الأحياء ، غريبُ الدار ، خائبُ الأمل ، بائرُ البضاعة خاسرُ الصَّفقة ، طلبتُ الزيادة على ما كان عندي ،فأتلفتُ ما كان معي . قال : فلما قرأ الرقعة قلق في نصابه ، وأقبل على أصحابه وقال : مسكين الشاذباشي ، لقد نزل به أمرٌ عظيم ، وحلّ به خطبٌ جسيم ، دُهيَ في دينه ، وأصيبَ بيقينه ، إنّ هذا لهو البلاء المُبين ، عليّ به ، هاتوا البائس ، ودُعيتُ فأدناني ولاطفني وقال : ما هذا الشكُّ الذي اعتراك ، وأين أنت عن القاضي أبي الحسن حتى يحلّ ذاك .

قلت : لستُ أثق الا ببيان مولانا ، ولا عجَبَ من بيانه ، ولكنْ العجبُ من انصافه مع سُلطانه ، وحسن اقباله مع أشغاله. قال : فانفسخ عقدُه ، وابتلّ شنُّه ، واستحال ذلك المللُ استظرافاً ، وذلك النبوّ استعطافاً . وأقبل يقول: هات ! وأنا أهاتيه هكذا أياماً وليالِيَ ، أتأطرُ له تارة بالاستحسان والقبول ، وأتعسّر عليه تارة بالتوقف والفتور ، ولا أفارق الكَيْس والحيلة حتى استنفدتُ قوته وقوتي له ، ثم قبّلتُ أطرافه ، وتباكيتُ وقلت : يا مولانا ! أسلمتُ على يدك ، ونجوتُ من النار بارشادك . فقال : يا أبا عليّ ! أكثر عندنا ، واقتبس علمنا ، قد ذللنا لك الحجاب ، وتقدّمنا بذلك إلى الحُجّاب ، فاسكُنْ واطمئن ، وطب نفساً وارفأنْ (١) ، ولا تقلق فترجحنّ . قال : فانصرفتُ من مجلسه قريرَ العين ، ممدودَ الجاه ، مملوءَ اليد ، ونفسي ريَّا بكلّ أمل ، وتفتّحت عليّ أبواب الرزق ، وجمعت إجّانة (٢) كبيرة خضراء دنانير . قال الجيلوهي : وحديث هذا الرجل ذو شجون ، على أنك إذا أنصفتَ لم تجد له نظيراً في دهرك ، ومتى بُليتَ به طلبتَ الخلاص منه ولو بفقرك . قال : وما أخوفني أني اذا دُفعت الى غيره بعده تمنّيته فأكونَ كما قال الأول :

عتبتُ على بِشْرٍ فلمّا فقدتُهُ
وجرّبتُ أقواماً بكيتُ على بِشْرِ

هكذا أنشد وغيره ينشد على عمرٍو، والصحيح على سَلْمٍ ، وله حديث.

---

(١) رفأ : سكن واطمأن .

(٢) الإجانة : إناء تغسل فيه الثياب .

[بين العامة والحجاب]

قال : ومن خواص ما فيه حبُّه للعامة ، وذاك بقدر بغضه للخاصة ، وقد قال يوماً : أنا أعلم أن الحِجاب قبيح وبغيض ، والصبر عليه متعذّر ، وهو الذي يُورث المداوة الشديدة ، ويبعثُ على القالة الشنيعة ، ويمحو كلَّ حسنة ، ويهجّن كل نعمة ، ويثير كل نقمة ، ويُبدي كل عورة ، ويُبرزُ كل سوءة، وقد دُهي الناس منه قديماً وحديثاً ، لكني أتلذذُ به، ولستُ أجد طعم هذه المرتبة العليّة ، ولا أعرف ثمرة هذه الحال السنية إلا بعد أن احتجب ، وتقف الناسُ على منازلهم بالباب ، وأعلمُ أن صدورهم تَغْلي بالغيظ ، وألسنتهم تجري بالعيب ، وأهواءهم تأتلفُ على القِلى والبغض ، فان الحديث ينخرق بكل معنى الى سوء ، ولكن لا أسمع بحلاوة / الدولة ، وبجلالة الصولة ، وبهيبة المكانة وبما إن سهوت عنه صرت إلى المهانة . قال هذا الشيخ : وهذا قول من قد نصَّ الله على خذلانه ، وأسلمه إلى خبله[١]، وأنطقه بلسان إبليس الذي هو عدو الله ، ولا شك ان هذا المذهب من علامات الشقاء في الدنيا ، وآيات الخسران في العاقبة .. ولن يُقدم عليه إلا من قد سمح بعرضه ، واستهانَ بشنيع القالة في نفسه وأبيه وعمه وأسرته وجميع من ضرَّب في مذهبه بسهم ، وشابهه بوجه .

[٢٠أ]

[حديث ابن الثلاج المتكلم]

وحدثني ابن الثلاج المتكلم ، وكان ديّناً صدوقاً ، قال : العجبُ أن ابن عبّاد يدّعي أنه قرأ على شيخنا أبي عبد الله البصري [٢] ، ولقد كذب في

---

(١) في الأصل : « خوله » ولعل الصحيح ما أثبتناه ، والخبل : الفساد

(٢) راجع : الفهرست ٢٩٤

دعواه ، وفَجَر في قوله ، لقد ورد علينا بغداد وهو ينصر ابن كلاب على حد المبتدئين ، فحمله مسكويه إلي ، ودخل الواسطي عليه ، وفتح باب المذهب له ، ولم يكن غير ذلك .

وكان أبو عبد الله لا يعرفه ولا يعدّه ، لأنه كان لا يدري ما يكون منه ، ويصير اليه في الثاني(١) .وما قدر كُوَيْتِبٍ يرد مع صاحبه لا سِرَّ له ، ولا شهرة ، ولا إفضال ، ولا توسع ، ولا حاشيــــة ، ولا حشم . ودارت الأيام ، ودالت الأحوال فكتب هذا الشيخ إلى هذا الإنسان بعماد الدين ، وأنا أبرأ إلى الله من دين هذا عمادُه .

وكتب هذا إلى ذاك بالشيخ المرشد ، وأي إرشاد كان عنده ، وكيف يكون مرشداً من ليس برشيد؟ ! وكيف يكون رشيداً من لا يفارق الغيّ؟، إن كنت تشك في أمره فانظر إلى غلمانه الرازي وابن الغازي ، وابن طرخان ، والبزاز ، والنّصيبي أبي اسحاق ، والصّيرفي ، والهَمَذاني ، والدامغاني ، عصابة الكفر ، ما فيهم من يرجع إلى وَرَع وتُقى ، أو إلى مراقبةٍ وحياء أو هدى .

[مناظرة في مجلس عز الدولة]

ولقد رأيت أبا عبد الله البصري في مجلس عز الدولة ، سنة ستين في شهر رمضـــان . والجماعة هنا أبو حامد المَرْوَرُّوذيّ (٢) ، وأبو بكر

---

(١) العبارة غير مستقيمة ولعل في الأصل نقصاً .

(٢) أبو حامد أحمد بن بشر البصري المرورّوذي القاضي ، عالم وأديب وفقيه شـــافعي عده ابن خلكان « من أئمة الفقه الذي لا يشق غباره فيه » وهو أستاذ أبي حيان وكان هذا كثير الاعجاب باستاذه ، توفي أبو حامد سنة ٣٦٢هـ .

الرازي[١]، وعلي بن عيسى، وابن نَبْهان، وابن كعب الانصاري، والابهري، وابن طرّارة ، وابو الجيش شيخ الشيعة ، وابن معروف ، وابن أبي شيبان ، وابن قريعة وناس كثير ، وهو في إيوان فسيح ، في صدره من حضروا من أجله ، وأبو الوفاء المهندس [٢] نقيب المجلس ومرتب القوم ، فسُئل البصري عن مسألة فأظهر انه في بقيّة علتّه ، وأنه لا يقدر على الكلام ، ثم قام علي بن عيسى الشيخ الصالح وقال : هذا مجلس يُبْتَهَى [٣] بحضوره لشرفـه ، ويُفتخر بالكلام فيه لكثرة من يعرف ويُنْصف ، والمغالطة فيه مأمونة ، وليس في كل أوان يتفق هذا الجمع ، وبيننا وبين هذا الشيخ يعني أبا عبد الله مسألة من أجلها ومن أجل نظائرها قد استجاز تكفيرنا ، وتفسيقنا ، والتشنيع علينا ، وتنفير المقتبسين منا ، وهأنذا قد ابتدأت سائلاً ، فلينصر مذهبه كيف شاء ، وانما هو دين يجب أن نبحث عنه من العارفين . فقال عز الدولة : كلام مُنصف ، ما أسمع بأساً ، ولا أرى ظنّة تحثُ بذلك على الجواب ، فاصفرّ أبو عبد الله ، وقلق ، وفطن أبو الوفاء ، وكان ضلعُه معه ، وصفوه له فحـال بينه وبين الأمير وقال : الشيخ عليل وانما حضر للخدمة ، وبعض غلمانه ينوب عنه، ولا ينبغي أن يتعبَ فيحمى جسمه ، ويُخاف نَكْسه ، ويصير ما قُصد من قضاء حقه في التجمل بحضوره سبباً للتألم .

---

(١) محمد بن زكريا الرازي فيلسوف وعالم بالطب والموسيقى ، تولى رياسة أطباء البيمارستان في بغداد ، صنف كتباً كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست . توفي ببغداد سنة ٣١١ هـ

(٢) أبو الوفاء المهندس البوزجاني ولد سنة ٣٣٦ هـ كان من كبار علماء زمانه « بلغ المحل الأعلى في الرياضيات ومن مشاهير أئمة علم الهندسة » وكان يعطف على أبي حيان التوحيدي وهو الذي أنقذه من براثن الشقاء توفي سنة ٣٧٦ هـ

(٣) ابتهى به : افتخر .

ثم أقبل أبو الوفاء على علي بن عيسى فقال : يُكلمك أيها الشيخ من غلمانه من تحب . فقال : لا حاجة لي الى الكلام مع غلمانه ، انما كان الكلام معه هو القصد لان الاجتماع بيننا يقلّ ، ولان الخصومة تكون معه الفيْصل ، وذاك أنه يكتب كلامي سائلاً ، وكلامه مُجيباً ، ثم لا نزاع . فأما أصحابه فانهم يكلمون أصحابي وذاك قائم بينهم ، وكانت البُغية قطع المشادّة ، وحَسْم الشغب ، وبلوغ الحدّ ، واذا وقع الاباء فلا لجاج ، واذا عرف المراد فلا حجاج .

ثم قال عزّ الدولة : هاتوا شيئاً آخر قبل أن يتصرّم النهار بما ليس له درء. وكان فصيحاً ، فأعرض أبو الجيش الخراساني ، وكان متكلم الشيعة . فسأل عن القرآن وقال : أروني من القرآن تنزيله على هيئته الأولى حين نزل به جبريل على قلب محمد ﷺ وتلاه على أمته بلسانه ، فإني أجد عند حَمَلتِه اختلافاً كثيراً في تحريفه ، وتصحيفه ، ونقصه وزيادته ، وإعرابه وغريبه ، ووضعه وترتيبه ، ولهذا وأشباهه اختُلف في تأويله ، وشُكّ في تنزيله ، وكثر خوض الناس فيه وفي تفسيره ، والاحتجاج له .

وقد سبق علمي أن كلام الله لا يكون في حكم كلام عباده، وأن ما يجوز على ذلك لا يجوز على هـذا لأن الله حكيم كريم ، رحيم ، والحكمة والكرم والرحمة تأبى ما تصفون به كتاب ربكم ، وتستجيزونه في كلام خالقكم . قال: وهذا الذي قلت بيّن معروف ، القرّاءُ تختلف / ضرباً من الاختلاف، والنقلة [٢٠ب] تختلف ضرباً آخر ، والفقهاء تختلف على قدر ذلك ضرباً آخر ، وكذلك أصحاب الكلام ، وحتى أفضى هـذا إلى طعن الزنادقة فيه ، وانجرّ عليه قدح الملْحدين به.

وقال كلاماً كثيراً من هذا الجنس، فكلهم كاع[1] عن الجواب ، وكاد

(١) كاع : جبن .

أبو الجيش بعد تذرّعه بالقول يشمت ويبـالغ في التشنيع . فقال عز الدولة : يا أبا الجيش! أنت في معركة لا مبارٍ لك فيهـا فافرِ كيف شئت وذر، والله المستعان .

فانبرى أبو حامد وتكلم بملء فيه ومحق أبا الجيش ، وبيّض وجوه الناس، فلما خرج قال له محمد بن صالح الهاشمي : لقد دعمتَ الاسلام بدعامة لا يزعزعها الزمان ، ولقد حصّنتَ الدين حصـانةً الله يجزيك عنها ، ورسوله صلى الله عليه [وسلم] يكافئك عليها .

ولو أن هذه الرسالة لاتحمل المسألةَ والجواب بما فيها من فنون القول لأتيتُ بالمجلس على وجهه .

[البصري جُعَل]

فهذا كان اقتدار البصري جُعَل في المنـاظرة ، وقوته عند لقاء الخَصْم، ونصرة المذهب والدين ، ولقـد كان عيناً عشرين سنة على صاحب بغداد للصـاحب (١) ، حتى آلت الأمورُ إلى ما عرفه الصغيرُ والكبيرُ بأصحابه ، أصحابِ المحابر والأقلام والكراريس ، ولقد بلغ من قلة دينه أنه صنّف رسالة ذكر فيها الدلالة على أنه هو المهديّ المُنْتَظَر ، فانّ معنى المَهْدي أن الله هداك وهدى أهلَ العدل والتوحيـد ، وأما المُنْتَظَر فلأنّا كنا ننتظرك في العراق .

وهذه الرسالة مشهورة آخر ما رأيتها عند أبي عبد الله المذهّب ، مكتوبة بالذهب ، وحُملت في جملة الهدايا إلى قابوس .

وسمعتُ أبا محمد الفرغاني الحَنَفي يقول : ما خلوتُ بفكري في أمري ،

---

(١) في الأصل : ولقد ذكا عيناً عشرين سنة على صاحب بغداد لصاحب .

وملازمتي هذا الرجل، يعني البصري، إلا ظننتُ أن الله تعالى يرسل عليَّ صاعقة، أو يجعلني آيةً وعبرةً باقية .

[حديث ابن أبي كانون]

وأما ابن أبي كانون ، فاني قلت له يوماً : ما لي أراك واجماً من غير عارض ، وطويل السكوت من غير عيٍّ ، وكثير الفكر من غير وسواس ، وشديد الحزن من غير إفلاس ، ليس لك أنسٌ بالجماعة ، ولا تفكُّهٌ بالمحادثة ، ولا استمتاع بالمجالسة بعدما عهدتك في حدثان مقدمك ، وأنت تتقّدُ كالنار ، وتزخر كالبحر ، وتأرَن كالمُهر ، وتذكو كالعنبر، فقال: ومن أولى بالبال الكاسف ، والغم الطويل ، والأرق الدائم مني ؟ فارقتُ وطني وأهلي وإخواني ومعارفي ، وجميع ما كنت آلفه وأحيا به ، وأشمُّ روحَ العيش منه ، وتجرعتُ مرارةَ بُعدي عنهم ، وصبّرت نفسي على ما نالهم بخروجي من بينهم ، وسلوتي دونهم ، وما نزل بي بعدهم من جفاء الغربة ، ووحشة الوحدة ، وشَظف العيش بالقِلّة ، كل ذلك طمعاً فيما أبرّد به غليلَ قلبي في الدين والمذهب ، وأنفي به الحرج من صدري وأسعد، وأن آخذ من هذا الشيخ ما اهتدي به ، وأسكنُ اليه ، وأجعله عدّةً لآخرتي ، والآن قد حصلتُ بعد الدراسة الطويلة والمنازعة الشديدة ، وبعد البحث والنظر ، والكشف والجدل ، وبعد اعتبار هذا الشيخ في نفسه وسيرته ، وما عليه أصحابه والمقدّمين عنده ، على حالٍ عَشراء ، وغاية عمياء ، وما أراه إلا صاحبَ دنيا ، يعمل للعاجلة ، ولا أرى أصحابَه المطيفين به إلا كذلك ، وإنَّ هذا مما يؤلم القلبَ ، ويفرّق البال ، ويحشدُ الهمَّ ، وينفر الناس ، ويُوقع اليأس ، فلذلك تراني على غير ما عهدتني عليه .

[حديث ابن بنان الورّاق]

وأما ابن بنان الورّاق فاني سمعته يقول: لقد خطب(١) البصريُّ على الاسلام بما لا يقدر عليه الرومُ والترك . قلت : كيف ذاك وأنت لا ترى اليوم ببغداد مجلساً أبهى من مجلسه لما يجتمع فيه من مشايخ العراق ، وشبّان خراسان، وفقهاء كل مِصْر ، وما في هؤلاء أحد إلا وهو يصلح أن يكون داعية صُقْع ، وإمامَ بلَد . فقال لي : صدقت ! فهل تعرف فيهم من إذا ذُكر الله وَجِلَ قلبُه ، واقشعر جلدُه ، واطمأنّ صدرُه ، وإذا سمع موعظةً دمعت عينُه ، وخشعت نفسُه ، أو سمع نشيجُه ، وإذا عرضتْ له منالة عفّت نفسه ، أو إذا هاجته شهوة اتّقى عندها ربّه ، وإذا لزمه انكارُ أمرٍ بذل فيه وسعه . أما ترى اللعب والمزاح والسفَه والقحة والتخلج والفسق والفجور فاشية فيهم ، وغالبة عليهم ، وظاهرة بينهم؟.

أما لك في الرازي أبي الفتح عبرة ؟ أما لك با بن طَرْخان(٢) خبرة ؟ فما زال يقول هذا وأشباهه حتى سددت وقطعت عليه .

[أبو إسحاق النصيبي]

وكان أبو اسحاق النّصيبي من أفسق الفاسقين ، وهو يلقب بقعدة . لا أعلم في الدنيا قاذورة إلا أتاها ، / ولا خساسة إلا أظهرها وجاهر بها . هكذا كان ببغداد ثم بالدّينَورَ عند أبي عمرو كاتب فخر الدولة الأصبهاني . وحديثُه بأصبهان مشهور . وكذلك بالصيْمرة وكيف أكل في نهار شهر رمضان من غير عُذر ، وكيف تهتّك بجماعةٍ من الأحداث ، نعوذ بالله من الخِذلان . [٢١أ]

(١) خطب : أنزل الخطب أي الفساد .

(٢) هو الفيلسوف الاسلامي المشهور أبو نصر الفارابي «ولد سنة ٢٦٠هـ وتوفي سنة ٣٣٩هـ» .

[حديث أبي سليمان السجستاني]

وحدثنا أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني ، وكان بعيداً من التزيد ، شديدَ التوقّي قال: حضرتُ وليمة في قطيعة الربيع ، فلقيني فيها البصري أبو عبد الله فجلس إلى جانبي ، وتصرّف في الحديث معي ، وأرخى عنانه إليّ إلى أن قال لي: يا أبا سليمان هل وجدتم في فلسفتكم شيئاً تسكنون اليه ، وتعتمدون عليه ؟ فأنا من الكلام ومذاهب أهل الجدل على غُرور . قال : فسكتت منه من أجل الموضع وقلتُ :

الناس أخيافٌ[1] وشتّى في الشيم
وكلّهم يجمعه بيت الأدم

فقال: آخرُ ما عندي أن الأدلة تكافأ، وأن المذاهب والآراء والنِّحَل جاريةٌ بين أربابها على قوة السانح وضعفها ، وجودة العبارة ورداءتها . قال : وقلت له : ما بَعْدَ نظرك نظرٌ ، ولا بَعْدَ تحصيلك تحصيل وانتهى.

وأمثل من شاهدناه عندنا ببغداد الواسطي أبو القاسم وكان يبرأ إلى الله من البصري جُعَل ، ويلعنه عند الوليّ والعدو ، تقرباً إلى الله . وكان ابن الثلاّج يقول : حكم الله بيننا وبين ابن عبّاد وفلان ، فانهما سلّطا هذا الانسان في هذا المكان حتى أفسد من أجابه الى المذهب ، ونفّر من أراد أن ينظر في العدل والتوحيد .

[الفرغاني والمعتزلة]

وسمعتُ الفرْغاني يقول : لولا أني لا أعرف في جميع المذاهب أقوى من مذهب المعتزلة لناديتُ على أصحابي بمخازيهم التي يشتملون عليها ، ويُجاهرون

(١) أخياف : أي مختلفون .

بهـــا في الأسواق والشوارع ، بل في المحاضر المشهورة ، والمنابر الرفيعة ، ولكنْ لهم حُرمةُ الدعوى ، وذمامُ النسب الى المقالة،ورجاء في الاقلاع والتوبة. فان اليأس غير غالب ما دامتِ الاستطاعة موجودة ، والنزوع ممكناً ، والتلافي مظنوناً .

[عودة إلى الصاحب]

ذاك حديث ابن عباد ، وهذا حديث شيخه وإمامه ، ومُرشِـــدِه بزعمه ، وهو المرشدُ والهادي لمن أخذ عنه واقتدى به ، يا قوم ! أين يُذهب بكم ، ما هذا العمى الذي قد غَلَب عليكم ، والهوى الذي قد أصمَّ آذانكم وأعمى أبصاركم ؟ وما هذا الأمر الذي قد حال دون العِيان، وطَمَسَ وجهَ الرشد ، وقلب أثر الحِسّ ؟

أليس هذا القائل في مجونه ، وتلعبه بدينه :

من عمَـــلي من عمَــلي	نَيْـكُ الرجال البُزَّلِ (١)
وإنمـــا أنيكهـــم	لأ نـــني معـــتزلي
تلميذ شيخٍ فاضلٍ	ملقـــبٍ بالجُـــمَلِ

أفهكذا يكون من كان عمادَ الدين ، وناصرَ الاسلام والمسلمين؟ الويلُ له ثم الويلُ لمن يتولاه وينصره . قال يوماً لابن قشيشا صاحب مصطبة المكدين بالري :

---

(١) البزل ، مفردها بازل : وهو الرجل الكامل في تجربته ، أصلها البعير الذي فطر نابه أي انشق في السنة التاسعة .

لا تبطئنَّ عن اللذاتِ إن حضَرت
لكنْ تنيّك ولا تحفل بتأنيبِ
ولا تَزُقَّ إذا ما نلت ذاك وبتْ[(١)]
مع شوزرٍ وافرِ الأردافِ محبوبِ
فالصمي[(٢)] والمَتْر[(٣)] من بعد القشام[(٤)] به
طيبُ الحيـــاة فلا تعدل عن الطيبِ
خذ في القُشَام وخذ في الصمي بالكوب
فالدهر يمزج تكسيحاً بتهريبِ[(٥)]

افهذا كلامُ من يدعو إلى الله ويحبُّ أن يُستجابَ له ، ويُجزى على طريقته، ويكون ذريعة بين الله والعبد ؟ هذا عافاك الله بالمنـــة أولى ، وبالبراءة منه ومن أصحابه أحق . ما أقلَّ حياءَ هؤلاء ، وأشدَّ تكاذبهم ومكابرتهم .

[كفاءة الصاحب]

وإذا أضربت عن باب الدين ، ورجعت إلى الكفاية التي زعم أنه بها تكفّى ، وأنه كافي الكفاة، وأنه واحدُ الدنيا! هل كان يعرف من الحساب باباً ، هل عقد جماعة، هل عُقِدت له فتكلم عليها، هل قرأ مؤامرة، هل عرف منها حدّاً ، هل أمكنه ان يحتج على عامل، أو يناظر ناظراً، أو يخاطبَ مشرفاً، أو يرسمَ في العمل رسماً ، أو يجيب

---

(١) زق الطائر فرخه : أطعمه بمنقاره .
(٢) صمى ، يصمي صمياً : الرجل تقلب ووثب وأسرع .
(٣) المتر : الجماع .
(٤) القشام : ما بقي على المائدة مما لا خير فيه . وقشم الطعـــام : أكثر أكله وأكل طيبه .
(٥) هرب الرجل هرباً : هرم .

عن كتاب واحد في العمالة ، وفيما يتعلق بأبواب النظر في العمارة ، هل ناظر خائناً مقتطعاً ، أو استدرك مالاً مختلساً ، هل فصل حكومة بين كاتبيْن ، أو قطع خصومة بين جُنديْن ؟هل رأينا ثمّ إلا الرقاعة والتدفق والجنون والهذيان والتسايل والتمايل ، والبقبقة والطقطقة ، والقرقرة والبربرة ، إلا أنه غلط فيه ، ووثق به ، ووكل اليه الرأي ، ولم يؤذن لأحدٍ في تحريكه بكلمة ، ولا في مصاداته بحرف ، حتى تم له ذلك كله بأسهل وجه مع الجدّ الموآتي ، والأمر المنقاد ، وحبّ أن يعتقد أن ذاك عن كفاية في الصناعة ، وحِذْقٍ في العمل ، وسَعَة علم بالكتابة الديوانية ، والرسوم الخراجية ؟.

[الصاحب والنحو والشعر]

وسئل يوماً عن قول الشاعر (١) :

سقوني النَّسْيَ ثم تكنّفوني
عُداةَ اللهِ من كَذِبٍ وزور

فقال : الخمر تسمى نسياً . فقيل له : ولم ؟ فقال : ليس للأسماء علل.

[٢١ب] / فلمّا خلوتُ بالزّعفرانيّ الشاعر قال لي : أخطأ فإن الأسماء ضربٌ منها مبتدأ ، فالغرض فيه اختصاص العين به ، ليقع التمييز بينه وبين غيره ، وضربٌ آخر يؤخذ من أصل العقل ، وهو الذي يسمى مُشتقاً ليكون فيه دلالتان : دلالة كدلالة الأول في اختصاص العين ، ودلالة على النّعت ، والنّسْيُ في أسماء الخمر من الضرب الثاني ، لأن الخمرة تَنْسأ العقل أي تؤخره.

---

(١) البيت لعروة بن الورد من قصيدة مطلعها :

أرقت وصحبي بمضيق عمق

الديوان طبعة أبي شنب باريز ص ٤٨

[حسد الصاحب للموهوبين]

وقال : هذا قاله بعض العلماء . فقلت له : هلاّ قلت هذا في المجلس ؟ فقال : لو قلتُ هناك لما وجدتني عندك قاعـــداً مطمئناً . قلت : صدقت ، الرجل حسود ، فقال : ولِرَبّهِ كنود (١) ، ولآيانه هنيد ، كأنّه من اليهود ، أو من بقية ثمود . ولقد غضب يوماً من شيء رواه المصري وحجبه أياماً ، وذلك أنه روى : أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فيما رواه عبد الله ابن عمرو بن العاص فقالت : يا سول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاءً ، وحجري له حواءً ، وثديي له سقاء ، وزعم أبوه أنـه ينزعه مني . فقـال رسول الله ﷺ : أنتِ أحقُ به ، مالم تنكحي ، وكان غضبه من الحسد ، لأنـــه روى هذا في عرض حديث ، بفصاحة وتسهُّل ، وله مثل هذا كثير.

[حسد الصاحب للشعراء]

كان لا يستطيع أن يسمع من أحـــد كلاماً منظوماً ، قال لأبي السلم مسلم الأعرابي يوماً : ما خبرُك مع فلان ؟ قال : انقلبت عنه خاسئاً وأنا حسير، قال : لا تنتجع أمثاله ، قال : أيها الصاحب ! ما أعلمني بمظـــانّ الرجاء والخيبة ، ولكني ربما اغتررت بالشك اغتراراً ، وانجررت على الشوك انجراراً، وآخر دعوايَ أن الحمد لله الذي لم يقطع أملي من خيره ، حتى غمرني بأيادي غيره ، وذاك أنت . وكان حسده لغيره على فصل حسن ولفظ حرّ بقدر إعجابه بما يقوله ويكتبه .

---

(١) الكنود : الكافر بالنعمة .

[غرور الصاحب]

كتبَ يوماً إلى إنسان : وأقسم انك لو كتبت بأجنحة الملائكة المقربين على جباهِ الحُور العين ، مستمدّاً من أحداق الولدان المخلدين ، جوازاً على الصراط المستقيم ، إلى جنات النعيم ، لما حسُنَ هذا البخل . فأخذ يُعيدُ هذا ويبدئه ويقول : كيف تـرَوْن ، وكيف تسمعون ، وهل قرأتم شبيهـــه .

[حسده للمجيدين]

وروى في مجلسه يوماً ابن ثابت البغدادي حكاية للخليل فأحسن سياقتهـــا وإمرارها ، فحجبه أياماً ، وأخّر عنه رسمه وقال : تبسّط في مجلسنا واستَنْفر بحضرتنا ، واترك توقيرنا وهيبتنـا ، حتى تشفّع في أمره أبو الحسن الطبيب وغيره،فعاد له على شَنَف[1] . وأنا أسوق الحكاية حتى تكون فائدة في هذا الكلام الذي قد نَشِبْنا [2] فيه .

[الخليل وسليمان بن علي]

قال الخليل : دخلتُ على سليمان بن علي وهو والي البصرة فوجدته يسقط في كلامه [3] ، فجلست حتى انصرف الناس ، فقال : هل من حاجة أبا عبد الرحمن ؟ قلت : أكبر الحوائج ، قال : قُلْ فان مسائلك [4]

---

(١) الشنف : البغض .
(٢) نشب في الأمر : لم يكد ينحل عنه .
(٣) سقط في الكلام : أخطأ .
(٤) في الأصل وسائلك . وما أثبتناه أصح .

مقضية ، ووسائلك قوية ، قلت : أنت سليمان بن علي ، وكان علي في العلم علياً ، وكان عبد الله بن العباس الحَبْرَ والبحر ، وكان العباس بن عبدالمطلب إذا تكلم أخذ سامعَه ما يأخذ النَّشوان على نقر العيدان ، وأراك تسقط في كلامك ، وهذا لا يشبه منصبك ومَحتِدك ، قال فكأنما فُقِئ في وجهه الرمان خجلاً . فقال : لن تسمَعَهُ بعدها، ثم أذن للناس في مجلس عام، فدخلت عليه في لمَّةٍ (١) من الناس فوجدته يُفصح حتى خلتُه معدّ بن عدنان فجلست حتى انصرف الناس . فقال : كيف رأيت أبا عبد الرحمن ؟ قلت : رأيت كل ما سرني للأمير وأنشدته :

لا يكون السريُّ مثل الزريِّ
لا ، ولا ذو الذكاء مثلَ الغبيِّ
لا يكون الألدُّ ذو المِقْوَلِ المُرْ
هفِ عند الخصامِ مثلَ العييِّ
قيمة المرء كل ما يحسن المر
ء قضــاءً من الإمام عليِّ
أي شيء من اللبـاس على ذي الـ
ـسرو أبهى من اللسان السَّريِّ
ينظمُ الحجّةَ الشتيتة في الـ
ـسلك من القول مثل نظم الهديِّ
وترى اللحن في لسان أخي الهـ
ـمةِ مثل الصدا على المَشْرفيِّ

---

(١) اللمة : الجماعة .

فاطلبِ النّحْوَ للقران والشـ
شعر مقيماً والمُسنـــد المرويّ
والخطابُ البليغ عند حجـاج القو
م تزهى بمثـله في النديّ
كلُّ ذى الجَهْل بالفنون يُعاديـ
ـها ويُزْري منهـا بغـير الزريّ

قال : فانصرفتُ فشيّعني غلامه على كتفه بَدْرَةٌ فرددتُها عليه ، وكتبت اليه :

ابلغْ سليمان أني عنه في سَعـةٍ
وفي غنىً غير أني لستُ ذا مالِ
سخا بنفسيَ أني لا أرى أحـداً
يموتُ هَزلاً ولا يبقى على حالِ
والرزقُ عن قَدَرٍ لا العجزُ يدفعهُ
ولا يَزيدُكَ فيه حَوْلُ مُحتـالِ

[مسألة نحوية]

وقال يوماً : فَعْل وأفعال قليل . وزعم أصحابُنا النحويون أنه ماجاء إلا زيدٌ وأزياد ، وفَرْخ وأفراخ ، وفَرْد وأفراد . فقلت : أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كلها فَعْل وأفعال . قال : هات يا مدّعي ! فسردتُ الحروف / ودللت على مواضعهـا من الكتب . ثم قلت : ليس للنحْوي أن يَجْزِمَ مثل هذا الحكم إلا بعد التبحّر والسّماع الواسع ، وليس للتقليد وجهٌ إذا كانت الرواية شـائعة ، والقياس مطّرداً ، وهذا كقولهم فعيل على عشرة [٢٢أ]

أوجه ، وقد وجدتُه أنا على أكثر من عشرين وجهاً ، وما أسهبتُ في التتبع إلى أقصاه . فقال : خروجُك من دعواك في فَعْل يدلنا على قيامك بالحجّة في فَعيل ، ولكنا لا نأذن لك في اقتصاصك ، ولا نَهَبُ آذاننا لكلامك ، ولم يفِ ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا ، وتبسّطتَ بحضرتنا، فهذا كما ترى .

[أبو حامد المرورّوذي]

وسألني عن أبي حامد المرورّوذي ، فوصفت له نباهته ومقدَمه ، وحفظه وبيانَه ، فقال : ماتحفظ عنه ؟ قلت : أشياء مختلفة ، فانه أقام عندنا ببغداد في آخر أيامه سنتين ، ولقد رأيته في مجلس أبي الفرج محمد بن العباس في أيام وزارته بعد أبي الفضل العباس بن الحسين ، وهو يتدفق بالكلام مع ابن طرّارة .

[تعريفات شتى]

فلما انتهى قال له أبو الحسن إسحاق الطبري : ارسم لنا كلاماً خفيفاً في الدليل والحجة ، والبرهان والبيان ، والقياس والعلة والحكم ، والاسم والفعل ، والحرف ، والنص ، والظاهر ، والباطن ، والتأويل ، والتفسير ، والفحوى ، والاستحسان ، والتقليد ، والاقتداء ، والاجماع ، والأصل والفرع ، والوجوب ، والجواز . فاندفع فقال : الدليل ما سلكك إلى المطلوب ، والحجّة ما وثّقك من نفسه ، والبرهان ما أحدث اليقينَ ، والبيان ما انكشف به الملتبَس ، والقياس ما أعارك شبهَه من غيره ، أو استعار شِبْه غيره في نفسه . والعلة ما اقتضى أبداً حكماً باللزوم . والحكم ما وجب بالعلة . والاسم ما صحّت به الإشارة إلى مُشارٍ اليه . والفعل

ما شـــاع في الزمان . والحرف ما ائتلف به اللفظ . والنصُّ ما أغنى بنفسه لاستقلاله . والظاهر ما سبق إلى النفس بلا جالب . والباطن ما غِيضَ عليه بالتفسير . والتأويل الجهة المتباعدة عن المُراد ، ومع ذلك فهي مشمولةٌ تارة بالقَصْد ، وتارة بغير القصــــد . والفحوى الجهة القريبة . والتفسير عبارة عن عَبْارة على طريق الخلافة . والاستحسان القول الأوْلى والأشْبَه في ظاهر الحال . والتقليد قبولٌ بلا بَيان . والاقتداء ســـلوكٌ مع علم سالف . والاجماع اتفاق الآراء الكثيرة . والأصل ما لم ينظر إلى ما قبله لأنه بنفسه قبل غيره . والفرع ما انشعَبَ عن الأول . والوجوبُ ما لم يَسَعْ الاضراب عنه . والجواز ما وقف بين الواجب وبين غير الواجب.

وكادَ لايسكُت ، فقال له أبو الفرج : ما كان أبو محمد المهلّبي يُثني عليك جُزافاً ، ولا يُشْغَف بك على طريق الهوى . فقال لي : كيف حفظت هذا ؟ قلت : كنا جماعة نتمـــاون على ذلك ونرسم في ألواح فقـال : إني لشديد الحسرة على فَوْت لقائه ، ومما يزيدني عجباً به أنه كان على مذهب أصحـــابنا ولو نصَرَ في الأحكام مذهب أبي حنيفة لكان قدوةً لأهل زمانه . وقال له بعض الغرباء : إذا قلت : عَشِيَ الرجل كما يقول عَمِيَ الرجل ، وتقول يعشى كما تقول يعمى . وقلت أعشى كما تقول أعمى ، فهلاَّ قلت امرأة عشيـــاء كما قلت عمياء ، ولك مع ذلك شفة لمياء وماء طَمْيَاء[1] قال : فهكذا أقول . قال له : قد خالفت العلماء لأنهم نصُّوا عشواء ، كما قالوا ناقة عشواء فقال : في هـــذا نظر وأخطأ ، ولي نظر في المسموع .

---

(١) طمى الماء يطمي : علا .

[عبث أبي حامد]

وحدثني محمد بن المرزبان قال : كنا بين يديه ليلة فنعس وأخذ إنسان يقرأ « والصافات » فاتفق أن بعض هؤلاء الأجلاف من أهل ما وراء النهر نعس أيضاً فضرط ضرطة منكرة فانتبه وقال : يا أصحابنا نمنا على «والصافات» وانتبهنا على « والمرسلات » . هذا من مَلاحاته .

وحدثني أيضاً قال : انفلتت ليلة أخرى ضرطة من بعض الحاضرين وهو في الجَدَل فقال على حدّته وجنونه : كانت بيعة أبي بكر خذوا فيما أنتم فيه ، يعني كانت فلتة ، لأنه قيل في بيعة أبي بكر كانت فَلْتَةً ! أفهذا من المجون المستطاب ، أو من جنس ما يجب أن يكون محكياً عن الرؤساء الديانين ، والكبراء المستبصرين والذين يدّعون لأنفسهم الفضلَ والمروءةَ والدماثة واحتقارَ الناس ؟.

وقال له ابن ثابت الجويني يوماً يتملح معه(١): أنا آكل التمر على أنه كان مرة رُطباً أي أميل إلى الحدث وإن بَقَل وجهه (٢) ، لأنه قد كان مرة أمرد فقال له : فكُلِ الخرا على أنه مرة كان هريسة .

وسمعته ينشد في الشاعر الملقب بالمشُوق :

ودَيوثٍ يقـــال له المشــوقُ
له من عِرْسه كسبٌ وسوقُ
فكم خيرٍ يُســاق اليه منهـــا
وكم أيْرٍ إلى حِرِها يَسُوق

---

(١) في الأصل أثبتت هذه العبارة في غير موضعها ولعله خطأ من الناسخ، وتملح: تكلف الملاحة.
(٢) بقل وجه الغلام : خرج شعره .

وكان يُنشد في شيخ كاتب من أهل جرجان :

جزعتُ من أمرٍ فظيعٍ قد حدثْ

ابن تميمٍ وهو شيخ لا حدثْ

قد جلس الأصلع في بيت الحدثْ[1]

[مناظرة بين الخشوعي والصاحب]

ورأيت شيخاً قدم مع الحاج من خراسان يُعرف بالخشوعي من الكرامية أصحاب الرأيين حضر مجلسه وناظره في مسألة الجسم ، وكان يقول: وهو مذهب هشام بن الحكم في المتكلمين المتقدمين لما كان مثبتاً بالعقل دون غيره ، وكنت لا أثبت بالعقل إلا معقولاً ، كما لا أثبت بالسمع إلا مسموعاً ، وكما لا أثبت بالبصر إلا مُبصَراً ، وكان اثبات العقل لمن هو غير جسم في المشاهدة غير معقول وجب أن يكون جسماً لأنه قد دخل في قسمة المعقول ، وإن بطل أن يكون جسماً بَطَلَ أن يكون معقولاً وقد ثبت أنه معقول فإذن قد ثبت أنه جسم فقال ابن عباد : هاتوا مسألة أخرى فسماع الحُكْل [2] أرجع بالفائدة من هذا ، وأخذ في مسألة أخرى .

وحكى قومٌ منهم أبو طاهر الانماطي القطان أنه قد شُدِهَ ولم يحضره في الحال شيء ، وكان الخصمُ ألدَّ ، ذا سلاطةٍ ، قليلَ الاكتراث ، حضر غير طائع ، وتكلم / غير متروّع [3] ، وعاد هـذا الشيخ في مجلس [٢١ب]

---

(١) الحدث : الغائط .

(٢) الحكل : ما لا يسمع له صوت . يقال : تكلم كلام الحكل : أي كلاماً لا يفهم .

(٣) متروع : غير فزع .

آخر فقال له : أتقول إن الله جسم ؟ قال نعم . قال : فاذا كان جسماً جاز أن يكون فوقه شيء ، أو عن يمينه شيء ، أو عن يساره شيء . قال : نعم قال : فما تنكر أن يكونَ معبودك الآن في هـــذا الصندوق ! فجمد الخراساني جمدة ، ثم اشتعل فقـــال : أليس عندك أن اللهَ متكلمٌ بكلام يفعله في الأحوال المختلفة ؟ فقال : بلى . قال : فما تُنكر أن يكون هذا الحمار ينعظ فيحلّ الله كلامه في جرذانه فيقول : أنا ربكم الأعلى ، فسمع ذاك منه فانخزل ابن عباد وقال : خذوا في غير هذا .

والسخفُ والجرأةُ وسوء الأدب وإطلاق اللســـان بما لا يجوز ديناً ومروءة غالبة على أصحـــاب الكلام والتقى والرهبة والوَرَع ، بعيدة من هذه الطبقة .

وحكى يوماً في نوادره الفاترة ما يدل على قلة دين القوم، وسوء استبصارهم ، وشدة استهانتهم بما يقولون محقّين ومُبْطلين ، وأن الدَّيْدَنَ هو الهذيان والرقاعة والتعصب والايهام، وليس لوجه الله في ذلك شيء لا فيما يجدون به، ولا فيما يهوّلون فيه، لا حشمة ولا تقوى ، ولا مراقبة ولا بُقيا [١]، قد جعلوا الله عرضة للخصومات بالوساوس ، ودينه منديلاً لكل يد .

[بين ملحد وموحّد]

سأل ملحد مُوَحّداً فقال : ما الدليل على أن للعالم صانعاً ؟ فقال : الدليلُ على ذلك شِعْرةُ أمك لأنها كلما نتفتها بالدّبق نبتت ! فلو لم يكن هناك مُنْبِتٌ لما نبَتَتْ . فقال الملحد : هـــذا ينقلب عليك لأنه يقال لك : الدليل على أن العالم ليـــس له صانع نواة أمك إذا قطعت مرة لم تنبت بعد ذلك .

---

(١) البقيا كبقية ، وبقية الله : طاعة الله .

[نوادر عن التشبيه]

وحكى يوماً آخر فقال : اجتمع رجلان ، أحدهما يقول بقول هشام ، والآخر يقول بقول الجواليقي فقال صاحب الجواليقي لصاحب هشام : صِف لي ربك الذي تعبُده ، فوصفه فقال في وصفه : هو جسم ، ولكن لايدَ له ، ولا جارحة ، ولا آلة . فقال له الجواليقي : أيسرُّك أن يكونَ لك بهذه الصفة ابن ؟ قال : لا ، قال : أفما تستحي أن تصف ربك بصفة لاترضاها لولدك ! ثم قال صاحبُ هشام : قد سمعت قولنا فصف لي أنت ربَّك فوصف فيما وصف أنه جعد قَطَط (١) ، في أتمّ تمام ، وأحسن حُسن ، وأحلى صورة ، وأعدل هيئة ، وأجمل إشارة ، فقال له صاحب هشام : أفيَسرُّك أن تكونَ لك جارية بهذه الصفة تطأها ؟ قال : نعم . قال : أفما تستحي من عبادة من تحبّ مباضعته ، وذلك أن من أحبّ مباضعة مثله فقد أوقع عليه الشهوة ، تعالى الله عن هذه السخافات والجهالات ، وإن قوماً يلهجون بهذا وأشباهه لفي بُعْدٍ من الهدى والنهى .

وسمعته يسبّ أصحاب الهندسة ويقول : جاءني بعض هؤلاء الحَمْقى ، ورغّبني في الهندسة فابتدأ فقال : إن خمسة في خمسة وعشرون ضرورة ، والآن أنا مجتهد حتى أعلمه بالاستدلالات ، وهذا هو الخسار والدمار ، ولو كان له سهم يسير من العقل ما باح على نفسه بهذا القول ، ولو سمع من غيره لوجب إنكاره ، ولو حقق قول القائل : من جهل شيئاً عاداه ، أتراه سمع كلام ابن ثوابة(٢) في مثل هذا ،وكيف نسب فيه إلى الرقاعة،وكيف رحمه أهلَ الحكمة،

---

(١) شعر قطط : قصير جعد .

(٢) هو أحمد بن محمد بن ثوابة ، من كبار منشيء القرن الرابع ، وكان كاتب ديوان الرسائل لمعز الدولة توفي سنة ٣٤٩ ، انظر ترجمته في معجم الادباء ــلياقوتــ.

وكيف هزيء به قومٌ وجدوا طريقاً إلى ذلك ، وأنا أحكي لك في هذا المكان ذلك الكلام وإن تنفست الرسالة لتعلم أن من شاء حمّق نفسه ، وأن الله إذا شاء خذل عبده ، وأشمتَ به أعاديه .

حدثنا أبو بكر الصَّيْمري قال : حدثنا ابن سمكة قال : حدثنا ابن محارب قال : سمعت أحمد بن الطيب يقول : ان صديقاً لابن ثوابة الكاتب أبي العباس يُكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم : إنك رجل بحمد الله ومنّه،ذو أدب وفصاحة وبراعة وبلاغة فلو أكملتَ فضائلك بأن تضيف اليها معرفة البرهان القياسي ، وعلم الأشكال الدالة على حقائق الأشياء ، وقرأت كتاب إقليدس وتدبرته ، فقال له ابن ثوابة : وما أقليدس ؟ قال له : رجلٌ من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أشكال كثيرة مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبة،يشحذ الذهن ، ويدقق الفهم ، ويلطّف المعرفة ، ويصفّي الحاسة ، ويُثبت الروية ومنه انتج الخط ، وعرفت مقادير حروف المعجم . فقال له أبو العباس ابن ثوابة وكيف ذلك ؟ قال : لا تعلم كيف هو حتى تشاهد الأشكال ، وتعاين البرهان ، قال له : فافعل ما بدالك فأتاه برجل يقال له قويري مشهور فقدم ولم يعد اليه بعد ذلك .

[الهندسة في رسالة الى ابن ثوابة]

قال أحمد بن الطيب : فاستطرفت ذلك وعجبت منه وسألت الخبر عن انصراف قويري أي شيء كان سببه ؟ فأجابني بأن لا أعلم فكتب الى ابن ثوابة رقعة نسختها : بسم الله الرحمن الرحيم . اتصل بي جعلني الله فداك أن رجلاً من إخوانك أشار عليك تكميل فضائلك وتقويتها بمعرفة شيء من القياس البرهاني وطمأنينتك اليه ، وأنك أصغيتَ إلى قوله وأذنت له ، وأنه أحضرك رجلاً

كان غايةً في سوء الأدب ، معدناً من معادن الكفر ، وإماماً من أئمة الشرك ، لاستفزازك / واستغوائك ، فخادعك على عقلك الرصين ، ويُنازلك في [٢٣أ] ثقافة فهمك المتين ، فأبى الله العزيز الا جميلَ عوائده الحسنة قبلك ، ومننه السوابق لديك ، وفضله الدائم عندك بأن أتى على قواعد برهانه من ذروته ، وحطَّ عواليَ أركانه من أقصى معاقد أسّه ، فأحببتُ استعلام ذلك على كنهه من جهتك ليكون شكري لك على ما كان منك حسب لومي لصاحبك على ما كان منه ، ولأتلافى الفارط في ذلك بيد تواسيه إن شاء الله .

[جواب ابن ثوابه]

قـال : فأجابني ابن ثوابة برقعة نسختها : بسم الله الرحمن الرحيم .وصلتْ رقعتك أعزّك الله ، وفهمتُ فحواها ، وتدبرتُ مُضمّنَها ، والخبر كما اتصل بك ، والامر كما بلغك ، وقد لخصته وبيّنته حتى كأنك معنا وشاهدنا ، فأول ما أقول : الحمد لله وليّ النعم والمتوحد بالقسم ، اليه يُرَدُّ علم الساعة ، واليه المصير ، واياه أسأل إيزاعَ الشكر على ذلك ، وعلى ما منحنا من ودّك ، وإتمامه بيننا بمنّه ، ومما أحببتُ إعلامك وتعريفكهُ مما تأدّى اليك أن أبا عبيدة عليه لعنةُ الله تترى بلحسه ودسّه ودحسه اغتالني ليكلَمَ ديني من حيث لا أعلم ، وينقلني عما أعتقده وأراه وأضمره من الإيمان بالله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ فوطد لي الزندقة بتزينه الهندسة ، وأنه يأتيني برجل يفيدني علماً شريفاً يكمل به فضائلي فيما زعم . فقلت : عسى ان أفيده براعة في صناعة ، أو كمالاً في مروءة ، أو نسكاً في دين ، أو فخاراً عند الاكفاء ، فأجبته بأن همّ بـــه فأتاني بشيخ ديراني ، شاخص النظر ، منتشر عصب البصر ، طويل،مشذّب، مخزوم الوسط ، متزمّل في مسكه ، فاستعذتُ بالرحمن إذ نزغني الشيطـان ،

ومجلسي قد غصّ بالاشراف من كل الأطراف ، كلهم يرمقه ، ويتشوف إلى رفعي مجلسه وادنائه ، وتقريبه ، ويعظمونه ويحيونه ، والله محيط بالكافرين، فأخذ مجلسه ، ولوى أشداقه ، وفتح أوساقه(١) ،فتبيّنتُ في مشاهدته النفاق، وفي الفاظه الشقاق فقلت له : بلغني ان عندك معرفة بالهندسة وعلماً وأصلاً إلى فضل يفيد الناظر فيه حكمة وتقدماً في كل صناعة ، فهلمّ أفدنا شيئاً منها ،عسى أن يكون عوناً لنا على دين او دنيا ،وزيناً في مروءة، أو مفاخرة لدى الاكفاء، ومفيداً نسكاً وزهداً فذلك هو الفوز العظيم فَمَنْ زُحْزِحَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما ذلك على الله بعزيز . قال : فأحضرني دواةً وقرطاساً فأحضرتها فأخذ القلم فنكت به نُكتةً نقط منها نقطةً تخيلها بصري ، ولحظها طرفي كأصغر من حبّة الذرّ ، فزمزم عليها بوسواسه ، وتلا عليها من محكم أسفار أباطيله ، ثم أعلن عليها جاهراً بإفكه ، وأقبل عليّ فقال : أيها الرجل: إن هذه النقطة شيء ما لا جزءَ له . فقلت : أضللتني وربّ الكعبة ، وما الذي لا جزء له ؟ فقال : كالبسيط ، فأذهلني وحيّرني ، وكاد يأتي على عقلي وحلمي لولا أن هداني ربي ، لانه أتاني بلغة ما سمعتها والله من عربي ولا عجمي ، وقد أحطت علماً بلغات العرب ، وقمت بها واستثرتها جاهداً ، واختبرتها عامداً ، وصرتُ فيها إلى ما لا أحسب أحداً يتقدمني إلى المعرفة به ، ولا يسبقني إلى دقيقه وجليله . فقلت له : وما الشيء البسيط ؟ فقال : كالله تعالى ، وكالنفس ، فقلت له : إنك من الملحدين ، أتضرب لله أمثالاً ، والله تعالى يقول : « فلا تضربوا لله الأمثال ، إنّ اللهَ يعلمُ وأنتم لا تعلمون (٢) » لعن الله مُرشداً أرشدني اليك ، ودالاً دلّني عليك ، فما ساقك إليّ

---

(١) أوساق مفردها وسق: وهو حمل البعير .
(٢) سورة النحل .

إلا قضاءُ سوء ولا كَسَعَكَ (١) نحوي إلا الحين ، أعوذ بالله من الحين ، وأبرأ اليه منكم ومما تلحدون والله وليُّ المؤمنين ، إني بريءٌ مما تشركون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فلما سمع مقالتي ، كَرِهَ استعاذتي فاستخفَّه الغضب ، فأقبل عليَّ مستبسلاً فقال : إني أرى فصاحة لسانك سبباً لعُجمة فهْمك ، وتذرَعك بقولك آفةً من آفات عقلك ، فلولا من حضر والله المجلس ، واصغاؤهم اليه مستصوبين أباطيله ، مستحسنين أكاذيبه ، وما رأيتُ من استهوائه إياهم بخُدعه ، وما تبيَّنت من توازرهم ، لأمرتُ بسلِّ لسانه الالكع الألكن ، وأمرتُ بإخراجه إلى حرِّ نار الله وسَقَرِهِ وغضبه ولعنته ، فنظرتُ إلى أمارات الغضب في وجوه الحاضرين فقلت : ما غضبُكم لنصراني يُشرك بالله ويتحدّاه من دونه الأنداد ، ويُعلن بالالحاد ، ولولا مكانكم لنَهكتُه (٢) عقوبةً . فقال لي رجُل منهم : إنه إنسان حكيم ، فغاظني قوله فقلت : لعَنَ الله حكمة مشوبة بكُفْر ! فقال لي آخر : إنَّ عندي مسلماً يتقدم أهل هذا العلم ، فزجرتُ مع ذكره الاسلام خيراً فقلتُ : إئتني به ، فأتاني برجل قصير ، دَحْداح (٣) ، مَجْدور ، آدم (٤) ، أخنس العينين (٥) ، أجلح (٦) ، أفطس ، مسيء النظر ، قبيح

---

(١) كسعه : تبعه وكسعه بكذا ؛ إذا جعله تابعاً له.

(٢) نهكه : بالغ في عقوبته .

(٣) الدحداح : القصير .

(٤) آدم : أسمر .

(٥) خنس : تأخر أنفه عن الوجه مع ارتفاع في الأرنبة فهو أخنس. وأخنسه عنه : حبسه وأخره .

(٦) الأجلح : من انحسر شعره عن جانبي رأسه .

الزيّ ، فسلّم فرددت عليه السلام ، ورفعتُ مجلسه وأكرمتُه وقلتُ له: ما اسمُك ؟ فقال : أعرفُ بكنيةٍ قد غلبت عليَّ ، فقلت: أبو مَنْ ؟ فقال : أبو يحيى ، فتفاءلت بملَك الموت عليه السلام وقلت : اللهم إني أعوذ بك من الهندسة فأكفني اللهمَّ شرَّها ، فانه لا يصرفُ السوءَ إلا أنت، وقرأت الحمدَ والمعوِّذتين ، وقُلْ هوَ اللهُ أحد ثلاثا ، وقلتُ له : إنَّ صديقاً لي جاءني بنصراني يتخذ الأنداد ، ويدَّعي أن لله الأولاد ليغوِيَني ويستفزَّني ، ولولا رحمة ربي لكنتُ من المحضرين ، فصرفته أقبحَ صرف ، ثم ذُكرت لي فرجوت بذكر إسلامك خيراً ، فهلمَّ أفدنا شيئاً من هندستك، وأقبسنا / من طرائف حكمتك ما يكون لنا سبباً إلى رحمة الله ، ووسيلة [٢٢أ] إلى غفرانه ، فإنها أربحُ تجارة ، وأعْوَدُ[١] بضاعة. فقال: أحضرني دواةً وقرطاساً ! فقلتُ : أتدعو بالدواة والقرطاس وقد بليتُ فيها ببليةٍ كَلْمُها لا يَنْدَمِلُ عن سُوَيداء قلبي ، قال : وكيف كان ذلك ؟ قلت له : إن النصراني نَقَطَ لي نقطه كأصغر من سمِّ الخِياط وقال لي : إنهامعقولة كربِّك الأعلى ، فوالله ما عدا فرعون في إفكه وكفره ، فقال لي : فاني أعفيك لعن الله قوري ، وما كان يصنع بالنقطة؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلتُ : استجهلني وربِّ الكعبة ، وأنا قد أخذت بأزمّة الكتابة ، ونهضت بأعبائها ، واستقللت بثقلها ، يقول لي : لا تعرف فحوى النقطة ، فنازعتني نفسي في معاجلته بغليظ العقوبة ، ثم استعطفني الحِلم إلى الأخذ بالفضل ، ودعا بغلامه وقال : ائتني بالتخت! فوالله ما رأيت مخلوقاً باسرع احضاراً له من ذلك الغلام. فأتاه فتخيلتُ به هيئة مُنكرة ، ولم أدرِ ماهو وجعلت أصوِّبُ الفكر فيه تارة ، وأصعِّدُ أخرى ، وأحيل الرأي ملياً ، وأطرق طويلاً لأعلم أي

---

(١) أعود : أنفع .

شيء هو، أصندوق هو، ماذا ؟ ليس بصندوق . أتخت هو، ماذا ؟ ليس بتخت، فتخيلته كتابوت لحد فقلت : لحد الملحد يلحد به النائين [١] عن الحق . ثم أخرج من كمه ميلاً عظيما فظننته متطبباً ، وانه لمن سرار المتطببين . فقلت له : إن أمرك لعجب كله، ولم أر في أميال المتطببين كميلك ، أتفقأ به الأعين ؟ فقال : لست متطبباً ، ولكني أخط به الهندسة على هذا التخت ، فقلت له : إنك وإن كنت مباينا للنصراني في دينه ، إنك لموازره في كفره ، أتخط على تخت بميلك لتعدل بي عن وضح الفجر إلى غسق الليل ، وتميل بي إلى الكذب باللوح المحفوظ و كاتبيه الكرام ، أإياي تستهوي أم حسبتني ممن يهتر [٢] لمكايدكم ؟ فقال : لست أذكر لك لوحاً محفوظاً ولا مضيعاً ، ولا كاتباً كريماً ولا لئيماً ، ولكني اخط به الهندسة وأقيم عليها البرهان بالقياس والفلسفة . قلت : اخطط ! وأخذ يخط وقلبي مروع يجب [٣] وجيباً، فقال لي غير مستعظم : إن هذا الخط طول بلا عرض ، فذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له : قاتلك الله ! أتدري ما تقول؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتشبيهك وتبديلك وتحريفك وتضليلك ، إنه لصراط مستقيم ، وإنه لأحد من السيف الباتر ، والحسام القاطع ، وأدق من الشعر ، وأطول مما تمسحون ، وأبعد مما تذرعون ، ومداه بعيد ، وهواه شديد ، أتطمع أن تزحزحني عن صراط ربي ؟ أم حسبتني غمراً غبياً لا أعلم ما في باطن ألفاظك ، ومكنون معانيك ، والله ما خططت الخط ، وأخبرت أنه طول بلا عرض إلا حيلة [٤] بالصراط المستقيم لتزل قدمي عنه، وأن تردني في نار جهنم . أعوذ بالله ، وأبرأ إليه من الهندسة ، ومما تدل عليه ، وترشد إليه ، وإني بريء من المهندسين ، ومما يعلنون ويسرون ، ومما به يعملون،

(١) في الأصل : « وبالنائين » .
(٢) أهتر مجهولاً : أولع بالقول في الشيء .
(٣) وجب : القلب رجف وخفق .
(٤) في الأصل : « حيلة » .

ولبئس ما سوّلتْ لك نفسُك أن تكون من خزَنتها بل من وَقُودها ، وإن لك فيها لأنكالاً (١) وسلاسل وأغلالاً وطعاماً ذا غُصّةٍ وعذاباً أليما ، ثُم إلى لعنة الله وغضبه . فأخذ يتكلم فقلتُ : سدّوا فاه مخافة أن يَبْدُرَ منه مثلُ ما بدر من المضلّل الأول ، وأمرتُ بسحبه فسُحب إلى أليم عذاب الله ونار « وَقُودُها النّاسُ والحجارة(٢) » « عليها ملائكةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٣) » . ثم أخذتُ قرطاساً وكتبتُ بيدي يميناً آليتُ فيها بكل عهدٍ مؤكّدٍ ، وعقدٍ مردّد ، ويمين ليست لها كفّارة أن لا أنظر في الهندسة أبداً ، ولا أطلبها ، ولا أتعلمها من أحد سرّاً ولا جَهْراً ، ولا على وجهٍ من الوجوه ، ولا سبب من الأسباب ، وأكدتُ بمثل ذلك على عقبي وعلى أعقاب أعقابهم أن لا ينظروا فيها، ولا يتعلموها ما قامت السمواتُ والأرضُ إلى أن تقومَ الساعة لميقاتِ يوم معلوم .

فهذا بيانُ ما سألتَ أعزّك الله مما دُفِعْتُ اليه ، وامتُحِنْتُ به ، وليَعْلَمَ ما كان مني ، ولولا وَعكةٌ أنا في عقابيلها لحضرتُك مشافِهاً ، وأخذتَ بحظى المتمني من الأنس بك ، والاستراحة إليك ، فمهّدْ على ذلك عُذري ، فانك غيرُ مباينٍ لفكري والسلام .

رسالة أبي العبّاس أحمد بن يحيى بن محمد بن ثوابة إلى أبي العباس أحمد بن الطيّب ،هذه فيها مُعتبرٌ واسعٌ ، وإشراف على عقلٍ مدخول ، وهي شقيقة

---

(١) مفردها نكل : وهو القيد الشديد من أي شيء كان .

(٢) سورة البقرة .

(٣) سورة التحريم .

قول ابن عبّاد في الحكاية التي جرت قبل هـــذه . وليس ينبغي أن تغترّ بالانسان إذا كان فصيح العبارة ، كثيرَ التشقيق ، مديدَ النَّفَس ، قادراً على السَّجع ، / سَهْلَ الارتجال ، فقد يأتلف هذا كله والعقل ناقص ، وقد يُفْقَدُ هذا كله والعقل راجح . [٢٢ب]

[الكلام المكسَّر]

وقلتُ لأبي سعيد السيرافي ، شيخ الدنيا : قال أبو زيد : يقال : إنه لكثير فضيض الكلام ، أيُراد بهذا مدح المذكور أم الزراية عليه ؟ فقال لي : هو إلى الزّراية أقرب ، لأن الفض كثير ومنه فضضتُ خَتمَ الكتاب ، ومنه ضربه فصار فُضاضاً ، والصحيح خيرٌ من المكسور ، وكأنه يراد بهذا أنه يرمي بالكلام مكسَّراً غيرَ صحيح .

وإنما أتيت بهذا لأني ســـألتُ مرة أبا السَّلم عن ابن عباد فقال : إنه لكثيرُ فضيضِ الكلام . ثم مرّبي لأبي زيد ، وكان ابنُ عباد يقول كثيراً : ما مدحني شاعر فأوجز وأملح [بأجود] من أبيات وافتني من شاعر ينسب لسجستان فانها تدل على قدرة صاحبها ، وغزارة قائلها وحسن تصرفه فيها وهي :

يا مَنْ أعادَ رميمَ الملك منشورا
وضمَّ بالرأي أمراً كان منشُورا
أنتَ الوزيرُ وإن لم تُؤْتَ منشورا
والأمرُ بعدكَ إن لم يُؤتمن شُورى

وقال ابن نُباتة ، والخالع ، وابن الجلبات : ليس في هـــذه الأبيات

ما وجب له هذا الاعجاب كله ، ولكن الرجل ظريفُ المرأى والمَخْبر ، عجيبُ المَنْشَر والمَنْظر ، مَدارُهُ على الهوى كيف ما سنح له جَنَحَ اليه ، وأين مابرح به طرح عليه .

[صورة هزلية]

وكان ابن عبّاد إذا تكلّم في مسألة ، ثم رأى من خصمه فتوراً نَفَشَ لحيته بأصابع يده ، وعبثَ بها ، وفتل رأسه ، ولوّى عُنُقه ، وشنّج أنفه ، وعوّج شدقه ، وقال منشداً :

إذا المشكلاتُ تصــدَّيْنَ لي
كشفتُ حقــائقهـــا بالنَّظرْ
وإن برزت في محلّ الصــوا
ب عمياءُ لا تجتليها الفِكَر
مقنعـــة تختفي بالشـــكوكْ
وضعتُ عليهـــا حُســامَ النَّظر
لســـاناً كشقشقـــة الأرحَبيْ
ي أو كالحســـام اليماني الذكر
ولستُ بذي وَقفـــةٍ في الرجا
ل أسائلُ هذا وذا ما الخبر
ولكني مِدرَهُ الأصغرَيْنِ
أقيـــسُ بما قد مضى ما غَبَر

[عُجب الصاحب]

وكان لا يبعثه على هـذا النمط إلا الذهاب بنفسه والتّيه الذي يحول بينه وبين عقله ، والعَجَب أنه كان يعيب غيره بجزء من هـذا الباب لايتجزأ ويقول : انظروا إلى تيهِ وَصلَفه ومدحهِ لنفسـه واستبدادهِ برأيه ، وعلى هذا حتى إذا صار الى نفسه وحديثه وخواصّ أمره جَهِل وذهل وخرج في مَسْكِ [١] من لم يسمع بشيء من ذلك ، ولم يفطن له ، ولم يأبه لقبحه ، ولم يأنف من شنيعه ، وهذا من الأسرار في الأخلاق ، ولهذا طالَ كلامُ الأولين في الأخلاق ، وجاءت الشريعـةُ واللغـةُ واضعةً كلاً في موضعها ، وناعتةً لمختارها ومرذولها ، وباعثةً على حسنها وجمالها ، وداعيةً إلى رفض قُبحها ومُنْكرها . والكلامُ في هذا طويلُ الذيل ميّاس ، وما أحسنَ ما قال الشـاعر :

لا تلمِ المرءَ على فعلهِ
وأنتَ منسوبٌ إلى مثلهِ
من ذمّ شيئاً وأتى مثلَهُ
فإنمـا يُزري على عقـلهِ

والبيت السائر :

لا تَنْهَ عن خُلُق وتأتيَ مثله
عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

فهذا هذا .

---

(١) المسك: الجلد .

[خلق القرآن]

حدثني العماني قال : قال قومٌ من أهل اصفهان لابن عباد : لو كان القرآن مخلوقاً لجاز أن يموتَ ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان ؟ فقال : لو مات القرآن كان رمضان أيضاً يموت ، ونقول : لا حياة بعدك ، ولا نصلي التراويح ونستريح !

[تفسير آية]

وسأله الدامغاني يوماً عن قوله عزّ وجلّ : « ولقد همّت بهِ وهمّ بها لولا أن رأى بُرهانَ ربّهِ [(١)] » أتقول أن يوسف همّ بالمعصية ؟ فقال : الكلام معطوف بعضه على بعض بالتقديم والتأخير ، فكأنه قال : لولا ما رأى من برهان ربّه ، لقد كان يَهُمُّ بها ولكنه لم يهمّ ، وهذا كقول القائل : إني غرقت لولا أن خلّصني فلان ، فحدثت بهذه الجملة ابن المراغي ببغداد فقال : لو سكت عن هذا كان أحسن به ، هذا تقديرُ لاعبٍ بكتاب الله لا يحل نظم الكلام على تحريفه ، لأن ذلك جرأة . أما سمعت الله يقول: « لا تُقدّموا بين يديِ الله ورسوله[(٢)] » إنما المراد به على سجيّة الكلام ، ولقد همّت به همّها اللائذ[(٣)] وهمّ بها همّ البشير الذي لا بَراءَ له من همّه إلا بتوفيق الله ، والبرهان كان ذلك التوفيق ، وما في الهَمّ ، اللهُ أكرم من أن يؤآخِذَ به ، وإنما ذكر

---

(١) سورة يوسف .
(٢) سورة الحجرات .
(٣) في اصل اللائق ، واللائذ : العائق .

ذلك لنعلم أن النبي صلى الله عليه [وسلم] في نبوّته غير مكتفٍ بها دون أن يَكْنُفَهُ الله بعصمته ، ويتغمده برحمته .

[تفسير آيات]

وسُئِل ابنُ عباد يوماً عن قوله عزّ وجلّ : « يُرْسَلُ عليكما شُوَاظٌ مِنْ نارٍ ونحاسٍ فلا تَنْتَصِرانِ فبأيّ آلاءِ رَبّكما تُكذّبان (١) » ، فقيل : كيف يجوز أن يُعدّ هذا في الآلاء والنعم وهو إحراقٌ بالنار ، ولا ألمَ بعده ، ولا عذابَ فوقه ، فقال : أقول ما قال شيخنا أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله ، فانه قال : إنّ الله جعل جهنمّ سوطاً ساقَ به عباده إلى الجنة ، واللفظ عن الحسن على ما عُنينا بجمع كلامه عن الرواة أن الله خلق جهنّم ليحُوشَ بها الخلق إلى طاعته ، فقال أصحابُنا : فزعُه إلى الحكاية عن الحسن حاكمٌ بأنه مفلس ، وقد قال العلماء في ذلك ، وإنما قول الحسن ترقيق وكلام يدخل في الوعظ ، ولو حُقق لقلق . وسأله الدامغاني يوماً عن قوله تعالى : « ولمّا سَكَتَ عَنْ موسَى الغضبُ (٢) » أيُّ موضعٍ لهذا السكوت ، والسكوت ضد الكلام، كما أن السكون ضد الحركة ؟ فما أحلى ولا أمرّ (٣) ،وتغافل ، إمّا كِبراً ، وإمّا جَهْلاً .

وسمعتُ ابن بابوَيْه يقول في هذا : هو مما حُرّف لأنه نزل : ولما سكن عن موسى الغضب بالنون ، / [٢٣أ] فقلتُ له : وما دَرَكُ(٤) الحرّف في هذا؟

(١) سورة الرحمن .

(٢) سورة الاعراف .

(٣) ما أحلى ولا أمر : أي ما تكلم بمر ولا حلو ولا فعل مراً ولا حلواً .

(٤) الدرك : التبعة .

فقال : هو ما قلت لك ، وقد صحّ عندنا ذلك عن الصادق فأمسكت عنه والجواب أبيَنُ من ذلك .

[حدّ الظلم]

وقال يوماً الخضيري : أيها الصاحبُ ! ما أقولُ لخصمي إذا قال لي : حدُّ الظلم وضعُ الشيء في غير موضعه ؟ قال : قل له : يجب على هذا إذا أخذ الرجل عمامته المكوَّرة فوضعها على ركبته أن يكون ظالماً . قال أبو سليمان : أخطأ ، لأن العمامة قد توضع على الركبة لغرضٍ صحيح ، وحاجةٍ بادية ، في وقت مقتضٍ لذلك ، وزمانٍ يليق به ذلك ، ويكون حسناً عَدلاً ، ويكون ذلك مكانها ، والرأس أيضاً جعل مكانها لغرض معروف ، والأغراض تختلف وتأتلف.

[الرزق والمرزوق]

وقيل له يوماً : ما أنكرتَ أن يكون الرزقُ ما يأكله المرزوق دون غيره ؟ فقال : على هذا لو رزقك الله خفّاً لكنت تأكله ؟ حكيتُ هذا لأبي سليمان فصرّف القول في الرّزق وفي أقسامه ، وعلله وأسبابه وغرائبهِ ، وقد أخّرته لمكان آخر ، فان هذا الكتاب يَضيق عنه ، ويخرُج عن الأمر المتحرّى به .

[صفة المتكبر]

وقال له أبو عاصم البصري يوماً ! أليس المتكبر هو الذي يتعظم زائداً على ما يستحقه ويَتحسّنُ به ، ومن أجل ذلك ذمّوه بهذا الاسم إذا أطلقوه ؟ فقال: بَلَى قال : فما معنى وصف الله نفسه بالتكبر ، ونحن إنما نَفَيْنا عنه التكبر

لقُبحه عندنا ، وعند المعروف به بيننا ، فلو ساغ أن يُنعَتَ بالتكبر ساغ أن يُنعت بالتكذُب ، فاشتطَّ وانتفخَ وتَربَّدَ (١) وجهُهُ ، ودرَّ وريدُه،وكاد يزبد ثم تدفق بكلام كثير ليس من مســألة أبي عاصم في شيء حفظتُ منها قوله :

[معرفة لغة العرب وأقوالهم]

أحدهم لا يعرف اللغة على طرائقها ودقائقها وحقائقها من ناحية مجازها وسَعتها، ولا من جهة سلامتها وصحتها ، ولا يفرِّقُ بين ما يجوز على الله وبين ما لا يجوزُ على الله ، ويقصد إلى المسائل المُشكلة ، والمعاني المُعْضلة ، والأبواب الغامضة، والألفاظ المتعارضة فيسأل عنها ، ويُعجب بها . ليْتَكَ عرفت هذا بعد أن تعرف معنى قول العرب : صابَتْ بقُرٍّ (٢) ، وما المراد بقولهم : عود تعلم الفنج ، وما معنى قولهم : لـكل حامة جوزة ثم تودي ، ومن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ ومتى توفى المبْرَمَان (٣) ؟ وما البديع ؟ وما بديع البديع المخدع؟ ومن صاحب البيت السائر :

وبي مِثْلُ الذي بكِ غير أنِّي
ألامُ على البكاءِ وتُعذرينا

ولو صَدَقَ الأعرابي في قوله : كُن كالضَّبِّ الأعور يعرفُ قــدره، ولا يفارق جحرَهُ . وأصابَ عمر في قوله : لا تحمـلوا النفس على المهجور

---

(١) تربد : تلون بلون أقرب إلى الغبرة وتربد تغير وتعبس .

(٢) أي صارت الشدة في قرارها : يضرب للشدة إذا نزلت (اللسان) .

(٣) لقب أبي بكر الأزدي محمد بن علي بن اسماعيل العسكري المعروف ببرمان من علماء العربية من أهل بغداد ، من كتبه : شرح شواهد سيبويه ، والنحو المجموع على العلل والعيون والتلقين توفي سنة ٣٤٥هـ .

فتركوا المفروض ، ولا تجنبوا المأذون لكم فيه ، فتركبوا المنهيَّ عنه .

يحضرنا قوم لهم ذَفْرٌ [١] كصُنان التُّيوس أعيا على المسك والغالية ، يسألون عما لا يعنيهم ، ولا يليق بقَدَدهم [٢] ، ولو سألتَ واحداً منهم عن كنه أعشى همدان ، أو عن دُعَيْميص الرجل [٣] ، وما اسم النموذج [٤] في كلام العرب وكيف يجمع العِجان [٥] ، وكيف يصرف الهجان [٦] ، وما الأقذ [٧] والمريش [٨] وما الخباء [٩] والعريش [١٠] ، وما المشوق والحريش ، وما المشوف والخريش ، وما الرثية والفريش ، وما الكصيصة [١١] والقصيصة [١٢] والخرمصيصة والهلبسيسة ؟ وما الفرق بين ما أخانا فنكرمك وبين ما أنت أخانا فنهتّيك ، الأول بالنصب والثاني بالرفع . ومن الذي يقول :

---

(١) النتن ورائحة الإبط المنتن .

(٢) طرائقهم .

(٣) دعيميص الرمل : عبد أسود داهية خريت « القاموس » .

(٤) النموذج « بفتح النون » مثال الشيء « القاموس » .

(٥) العجان : الاست وتحت الذقن والقضيب الممدود مابين السبيلين من الرجل والمرأة ، والعنق بلغة أهل اليمن . والجمع عجن وأعجنة .

(٦) هجن ككرم هجنة وهجانة وهجونة : كان هجيناً .

(٧) الأقذ : سهم لا ريش عليه والمستوي البري . ويقال ماله أقذ ولا مريش أي لاشيء له ولا مال .

(٨) المريش من السهام : ما ألصق عليه ريش ليحمله في الهواء كما يحمل الطائر .

(٩) الخباء : ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر للسكن .

(١٠) البيت الذي يستظل به . شبه الخيمة .

(١١) الكصيصة : الجماعة .

(١٢) القصيصة : الطائفة المجتمعة في المكان .

فأرميها بجلمود وترميني بجلمودِ
فأرميها وترميني وكل هالك مودِي

[عمرو بن عبيد]

ولكن صدق عمرو بن عبيْد شيخنا وشيخ الاسلام ، وشيخ العدل والتوحيد حين قال : لن يكون العبدُ مستكملاً لاسم الولاية حتى يسمع الكلمة العَوْراء فيجعلها دَبْر أذُنه ، هذا مع قوله : تقويم الجاهل بما يُنْكر أيسرُ من تعريفه ما يجهل ، ولولا أن عُذري في تقويمك وتأديبك وتهذيبك وتربيتك يغمض على كثير ممن يسمع هذا الحديث لسَلَخْتُ شواتك (١) ، وكسرتُ على رأسك دواتك ، وألزمتُك دُكانك وأداتك ، وأطعمتك بَوْلك وخراءَك ، اذهب فأنت طليقُ الجهل والقلة ، وعتيق الخيبة والذلة .

[أقوال للصاحب]

وكان إذا انتهى كلامُه مع خصم يقول : النظر شِعاري ، والجدل دِثاري ، والحقُّ مناري ، والبيان مداري ، والله جاري .

وقال يوماً للحسين المتكلم : إليَّ يقول هذا ؟ والجدلُ ردائي ، والنظر حذائي ، والتعلُّم وطائي ، والبلاغة غطائي ، والذهب والفضة عطائي !

وقال يوماً آخر لأبي صادق الطبري : أنت يا أبا صادق خفيف الرأس، شديد الإفلاس ، إذا نصرت التّجار هذيت بالوسواس ، وصدعت رؤوس الناس بالتمويه والإلباس .

---

(١) الشواة : جلدة الرأس .

وسمعته يوماً يقول لابن شاذان : يا أبا الحسن توقَّ الرسن ، وانظر إلى المسن ، فما أخوفني انك تسن ، بالقبح لا بالحسن !

فقال له : أيها الصاحب ، كرمُ طبعك أمانٌ لي من بواتق سَجْعك !

وقال يوماً لابن حمزة : الجَدَل من قبلي ، والنظر من حَوْلي ، هل هضبةٌ توفي على جبلي ! فاحفظ نفسك وأعرف خصمك ، وراجع فهمك ، وجرِّب بَخْتك(١) . وكانت له نُبسات(٢) كبيرة ، لكنها كانت تدفن ولا تُذاع،رهبةً ورغبةً .

[تفسير لغوي]

قال يوماً : أطَّلع عليه ، / ولا يجوز اليه ، والمعنى يقتضي عليه لاغير، [٢٣ب] فقال له الضريرُ النحوي : فما تصنع بقوله عزّ وجل : « لعلّي أطّلعُ إلى إلـهِ موسى (٣) » فبرد .

ومن هذا الضرب قال يوماً : جَنَّ عليه الليلُ [أجنّه] كَنَّه الليل لا يجوز غير هذا . فقال له أبو عمران الحسنكي : هذا لعمري في الفصيح ، وإياه ذكر ثعلب واختاره ، ولكن أين نحن من المرّار الفَقْعسي وهو [أفصح] من علم صاحب الفصيح فانه قال :

آليتُ لا أخفي إذا الليلُ جنّني

سنا النارِ عن سارٍ ولا متنوّرِ

---

(١) البخت : الحظ « فارسية معربة » .

(٢) نبسات: مفردها نبسة : وهي مصدر نبس أي تكلم وأكثر ما يستعمل في النفي.

(٣) سورة القصص .

فقال : يا أبا عمران أنت جاهل بالعلم وذلك شوّه الله وجهك ، ووكل المـَقتَ والادبار بك ، وأنشد يوماً لشاعر :

وإذا قلت لهـا جودي لنا

خرجت بالصّمت من لا ونعم

قلت : أصحابُنا كذا يُنشدون ، ويقال فيه تصحيف ، فقال : إسْلَخ على أصحابك ولو كان سأل عن وجه التصحيف لكان أشبه بالفضل ، واخلق بأخلاق ..... (١) وقيل له يوماً : ما القُرحان (٢) ؟ قال : الذي لم يخرج به الجُدرّي ، قيل : ولم قيل ذلك ؟ قال :ليسخن الله به عـين السائل ، ويسخّم(٣) وجهه،ويسحل(٤) عينه [و] يثقل دَينه ، ويدق ظهره،ويسلّط عليه من يسدُّ دبره .

[نوادر للصاحب]

واستؤذن يوماً للورّاق الطرسوسي فقال : الطرُّ(٥) في لحيته ، والسوس في حنطته ، ما أصنع بطلعته؟ وتكلم يوماً الخطيب في قول الرجل: لا مالهُ قليلٌ ولا كثيرٌ ، ولا مال له قليلاً ولا كثيراً فلم يفهم عنه . وقيل له : ما الفرق بين ىا و ىا و ىا في مواضعها المخصوصة فتحيّر ، وكان السائل ابن المراغي . وقيل له : لِمَ جاز أن زيداً منطلق وعمرو ، ولم يجز ليت زيداً منطلقٌ وعمرو، والحرفان متضارعان في إيجاب النصب ؟ فلم يكن عنده جواب.

---

(١) في الأصل كلمة مطموسة .

(٢) القرحان والقرحي : من لم يشهد الحرب ، والقرحان من الناس : الذي مسه القرح .

(٣) سخم وجهه سوده من السخام وهو سواد القدر .

(٤) سحلت العين : بكت .

(٥) طر الشـارب أو النبات : طلع .

[مسائل نحوية وفقهية]

ولقد سهرت معه ليلة في معرفة الفرق بين زيد أفضل اخوته ، وزيد أفضل الاخوة ، وجواز أحدهما وبطلان الآخر ، فكان كالحمار بلادةً ، وقلت: للجيلوهي إنك تنال من عِرض هذا الرجل حداً فقال : قال النبي صلى الله عليه [وسلم] ليُّ الواجد يُحِلُّ عرضه وظهره ، كما قال : مطل الغني ظلم ، قلت له : إنما وَرَدَ هذا في الواجب كالدين والثمن وما أشبههما . فقال : الأمل دين ، والكرم مطلوب ، وما رأس الله أحداً إلا وفرض عليه الإفضالَ والإحسان .

[الحث على الكرم]

وقيل لعَقيل بن عُلّفة : لِمَ تهجو قومَك ؟ فقال : إن الشاةَ إذا وردت الماءَ فلم يُصفّر لها لم تشرب ، أي إذا لم يحرّضوا على المكارم لم يفعلوها . قال : وأنا أستحسن قول الفضل بن يحيى قال: ماحثّني أحدعلى الكرم كرجل أنشدني بيتين وهما :

عُد لي بعادتك التي عودتني
روحي فِداؤك يا أبا العبّاسِ
إن الذخائرَ إن أردت ذخيرةً
مننٌ تقلدُها رقابَ الناسِ

[المدح والهجاء]

قال : وأعجب من ذلك قول جرير فيما رواه الصُولي إذا مدحتم فاختصروا، وإذا هجوتم فأطيلوا فان الناس لا يملّون الشرَّ .

[تساؤل ينبىء عن جهل]

ورأيته يوماً وقد خُزي وانقطع ظهره فانه قال :قولهم: إنها لابلٌ أم شاء معناه بل شاء ، فقال له الحسنكي : فما تصنع بقوله عزّ وجلّ « أمِ اتَّخذَ مِمَّا يَخلُقُ بَنَاتٍ[1] » أتراه أراد به بل اتخذ مما يخلق بناتٍ ، وهذا كفر ، فما دار لسانه بشيء على حدّته وكثرة هذيانه .

[هجاء الصاحب]

وحدّثني العَبسي وقد جرى ذكر ابن عبّاد :

لقد أتانا حديث ما نكذّبه
عن الرسول رويناه بإسنادِ
أن يُطلبَ الخيرُ ممن وجهُه حسنٌ
فكيف نطلبه عند ابن عبّادِ
مشوه الخلق لا دينٌ ولا حسبٌ
كالقردِ ماعنده خيرٌ لمُرتادِ

فقلت : لمن الشعر؟ فانه واقع جداً فقال : هو لادريس بن أبي حفصة . قلت له : ماعنى غير صاحبنا .

[خبث اللسان وطيب القلب]

وقال له يوماً ابن ثابت : روى البخاري في التاريخ أن سعداً مولى

---

(١) سورة الزخرف .

أبي بكر روى أن رجلاً شكى إلى النبي صلى الله عليه [وسلم] صفوان بن[1] المعطّل وقال : إنه هجاني ، فقال : دعوه إنه خبيث اللسان ، طيّب القلب . فما تأويل خبيث اللسان وطيّب القلب ؟ فقال البخاري : حشويّ فشري ليس عليه معوّل ، ولا لقوله متأوّل .

وسئل يوماً عن قول الله عزّ وجلّ : « فإن يَشأ اللهُ يَختِم عَلى قلبِكَ ويمحُ اللهُ الباطل[2] » ، كيف نظمُه وتمامه في المعنى واللفظ ، فصاحَ على السائل وقال : أتسأل عن النّظم وأنت لا تعرف الرّقم[3] ولا العَقم[4] ، ولا الصدم ولا الرّدم ؟

[مسائل]

وأوصلَ اليه الوليدي مسائل من جماعةٍ من أهل نيسابور كان فيها : ما معنى « إنما يَفتري الكَذِبَ الذينَ لا يُؤمنونَ بآياتِ اللهِ وأولئِكَ هُمُ الكاذِبونَ[5] » ؟ قد علمنا أن من كَذَبَ فهو كاذب . وكان فيها : مامعنى قوله: « لا تَتّخِذوا إلهينِ اثنَينِ[6] » ؟ وقد علمنا أن إلهين لا يكونان

---

(١) في الأصل : بزيادة ابن .
(٢) سورة الشورى .
(٣) الرقم : ضرب مخطط من الوشي أو البرود .
(٤) العقم : ضرب من الوشي .
(٥) سورة النحل .
(٦) سورة النحل .

إلا اثنين ، ولا قناعة لنا بقول من قال : هذا توكيد ، فان المطالبة فوق التوكيد ، وأضعف المتكلمين في القرآن من زعم أن شيئاً منه زائد ، وأنّ كذا وكذا لغوٌ ، وأنّ هذا على وجه التوكيد ، ونحن وإن كنا نعلم أن التوكيد مذهب العرب وكذلك الزيادة والحذف والاضمار ، فالحكمة المطلوبة غير ذلك .

وعرض عليّ الوليدي المسائل وكان فيها ما معنى قول الله عزّ وجل: « لا تَجعَلنَا مَعَ القومِ الظالمين[١] »؟ وما وجه قول القائل : لا تجعل ما لا يجعل، أوَ جائز أن يقال للانسان : لاتنظر برجلك ولا تمش بعينك؟ قيل : لا ، لأن هذا لايخاف . قيل: وكذلك ، لايجعل الله أحداً مع القوم الظالمين لأن هذا لا يخاف . وما معنى قوله : « ما تَسبِقُ من أمّةٍ أَجلَها وما يَستَأخِرونَ[٢] » . وقوله : « ثمّ جِئتَ على قَدَرٍ يا موسَى[٣] » . وقوله : « وَأَلقَيتُ عليكَ مَحبّةً مِنّي[٤] » وعن قوله عزّ وجلّ : «وَتِلكَ الأيام نُداوِلها بَينَ النّاس[٥]» . وما معنى قوله : « لَقد كانَ في يوسفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين[٦]» ؟ خبّرنا عن الآيات أكانت في أفعالهم أو في أبدانهم ؟ وما معنى : « وَمَن يُرِدِ الله فِتنَتَه فلَن تَملِكَ لَه مِنَ اللهِ شيئاً أولئِكَ الذينَ لَم يُرِدِ الله أن

(١) سورة الأعراف ..

(٢) سورة الحجر .

(٣) سورة طه .

(٤) سورة طه .

(٥) سورة آل عمران ..

(٦) سورة يوسف ..

يُطهِّرَ قلوبَهم [١] » ؟ وخبرنا عن قوله : « وَمَا مِن / دابَّةٍ في [٢٤أ] الأرضِ إلاَّ عَلى اللهِ رِزقُهـا [٢] » . وعن قوله : « فإنّا قد فتنّا قَومَكَ مِن بَعدِكَ وَأضلَّهُم السّامِرِيُّ [٣] » . وما معنى : « وَلا يَزالونَ مُختَلِفينَ إلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّك ؟ ولذلك خلقهم [٤] »، أللاختلاف أم للرحمة ؟ فان قيل : للرحمة ، قيل : فالمختلفونَ هم الذين خلقهم للرحمة ، فما معنى: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربُّك [٥] »؟ فقدأخرج مَن رَحمَه من الاختلاف وللرحمة خلقهم ، فاذا كان كلهم للرحمة خُلقوا فكلُّهم غير مختلفين ، لأنه نفى عنهم الاختلاف وهم الجميع ، فأين المراد بالآية ؟

وقال : « إنَّ النَّفْسَ لأمّارَةٌ بالسوءِ إلاَّ ما رحمَ ربي [٦] » وقال : « فَريقٌ في الجَنّةِ وَفَريقٌ في السعيرِ ولوْ شاءَ اللهُ لجعلهُمْ أمّةً واحدةً ولكِنْ يُدخِلُ مَنْ يَشاءُ في رحمتِهِ والظالمونَ مالهُمْ مِنْ وليٍّ ولا نَصيرٍ [٧] » أفليس قد أخبر أنه لم يَشأ أن يجمعهم على الهُدى إذ أمرهم ؟

وما معنى قوله كذلك : « لِنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفَحْشاء [٨] »

---

(١) سورة المائدة .

(٢) سورة يونس .

(٣) سورة طه .

(٤) سورة هود .

(٥) سورة هود .

(٦) سورة يوسف .

(٧) سورة فصلت .

(٨) سورة يوسف .

فان كان عمَّ بهذا الكفار والمؤمنين فما فضيلة يوسف ؟ وإن كان خصَّ يوسف فهو قدحٌ في النِّحلة .

وقال : « ولا تَقولَنَّ لِشيءٍ إني فاعِلٌ ذلك غداً إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ [١] » فما شاء الله فعلَه ، فان قيل : فكل ما شاء الله كان ؟ فهذا قولنا ، وإن كان يشاء فلا يكون فما وجهُ إيجاب الأمر بأن « لا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ » ؟ إذ العبادُ يفعلون وإن لم يشأ الله .

وما تأويلُ قوله : « أولئكَ الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وَسَمْعِهِمْ وأبْصارِهم [٢] » وقال : « واتَّبعوا أهواءَهم [٣] » فبدأ بالطَّبع ثم ثنَّى بالاتباع،وهذا يدفع تأويلكم في قوله : « فلمَّا زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهُم [٤] » .

وما تأويل قوله : « والذين اهتَدَوْا زادَهم هُدىً وآتاهم تقْواهم [٥] » وقال : « هذا بيانٌ للنّاسِ وهدىً وموعظةٌ للمتَّقين [٦] » فهو بيانٌ للكفار ، وهدىً وموعظةٌ للمتَّقين دون الكافرين ، فلمَ تُعمّمون ما خصَّ الله ، وتخصُّون ما عمَّ الله ؟

وما تأويل قوله : « وَنُنَزِّلُ من القرآن ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين

---

(١) سورة الكهف .
(٢) سورة النحل .
(٣) سورة محمد .
(٤) سورة الممتحنة .
(٥) سورة محمد .
(٦) سورة آل عمران .

ولا يَزيدُ الظالمينَ إلا خَساراً [١] » . وما تأويل قوله : « وَمَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئكَ هُمُ المُفْلِحون [٢] »؟ وما تأويل قوله : « لا رَيْبَ فيه هُدىً للمتّقين [٣] » ؟ فخصّ بهدايته أهلَ التقوى ، فان قيل : هو هدىً للكافر أيضاً ، فكيف وقد ختم القصّة فقال : « إنّ الذينَ كَفَروا سواءٌ عليهمْ أأنذَرتهم أم لم تُنْذِرهم [٤] » كيف يكون القرآن هدىً لمن كان سواء عليه أأنذر أم لم ينذر ؟ ويقال : قال الله تعالى : « خَتَمَ اللهُ على قلوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ [٥] » فهل ذاك فرض الله بختمه على قلوبهم ؟ فان قالوا : لا ، فقد كلّفوا أن يبصروا الهدى وقد ختم على قلوبهم ، وأزالوا الفرض عمن ختم الله على قلبه ، وعذروه بكفره وجعلوه بمنزلة الصبي والمجنون ، وإن أمر ، أأن يقال : لو شاء الله لم يُعص لأن الله ذمّ الذين قالوا : « لو شاءَ اللهُ ما أشركْنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا [٦] » الآية ؟ . قيل : فما تصنعون بقوله: «وآتينا عيسى بنَ مريمَ البيّناتِ وأيّدناه بروحِ القُدُس [٧] » ولو شاء الله ما اقتتلوا ولقتالهم معصية ، ولو شاء الله ما عصوا! بأن يمنعهم ، إذ خلّى بينهم وبين معصيته .

وما معنى قوله : « ولكنّ اللهَ يفعلُ ما يُريد [٨] » ؟ قال الواسِديّ : وترددتُ شهوراً ليجيب عنه فما فعل .

(١) سورة الإسراء .
(٢) سورة الحشر .
(٣) سورة البقرة .
(٤) سورة البقرة .
(٥) سورة آل عمران .
(٦) سورة الأنعام .
(٧) سورة البقرة .
(٨) سورة البقرة .

وكان في المسائل(١) أيضاً : كيف يُنفى العلم عن الله وقد أثبته لنفسه في مواضع ، والنص لا يحذف ولا يُتأول فان الله تعالى أنزله بعلمه وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعلم (٢) » وقال : « وأضلّه الله على علم (٣) » وقال : « ولقد اخترناهم على علم (٤) » وقال : « ولا تَضَعُ إلاَّ بعلمه » . « وَوَسِعَ كل شيء علماً ٥ » ومن أعرض عن التنزيل فقد خلع ربقة الدين .

[مسائل لغوية ونحوية وشعرية]

وكان إذا رأى كاتباً يقول له : أحكمت الفصح هات ! قذَتَ العين ماذا ؟ وهات : لَحِمَ الرجل وَشحُمَ . وما في بابه .

وإذا رأى صاحبَ لغةٍ قال : ما معنى قول الشاعر :

وأقدَرَ مشرفِ الصَّهوات ساط
كُمَيتٍ لا أحقُّ ولا شئيت(٦)

وإذا رأى نَحوياً يقول : على ماذا تَنصِب « نذيراً للبشر »، فاذا أكثر من هذا وشبهه أنشد :

أرى الناسَ أخلاطاً جميعاً وإنهم
على ذاك شتّى والهوى متفرّقُ

---

(١) أي المسائل التي طرحها جماعة من أهل نيسابور ، أنظر : ص ١٧٧ مسائل .
(٢) سورة الأعراف .
(٣) سورة الجاثية .
(٤) سورة الدخان .
(٥) سورة طه .
(٦) كتاب الخيل ـ لأبي عبيدة ـ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، واللسان « شأت » الشئيت من الخيل : العثور ، الأحق : الذي يضع رجله في موضع يده ، الساطي : الرافع دنبه في عدوه او الراكب رأسه في السير .

ترى المرءَ إن جالستَه ذا صناعةٍ
وسائرُ ما فيه على ذاك أخرقُ
وتلقى أصيل الرأي ليس لسانه
بمخرجِ ما في قلبه حين ينطقُ

ورأيته مرة يسأل الحسنكي : ما الطابة والثابة والعابة والآبة والرابة ؟ وما الناقة القاصية [1] والغاضية [2] والعاطية [3] ؟ وكان سريع الردّ على الانسان ، شديد التعجرف ، وكان ذلك ربما انقلب عليه .

وقال يوماً لبعض العلماء في كلام سمعته منه : أصفيته كذا ، وكذا لايجوز، أما قرأت القرآن « [أ] فأصفاكم ربُّكم بالبنين [4] » إنما يجب أن يقول : أصفيته بكذا وكذا . فقال العالم: هذا صحيح فصيح ، وغيره جائز حسن، أما قرأت في الحماسة قول الشاعر في النسيب :

لئن كنت أوطأتني عشوةً [5]
لقد كنت أصفيتك الودّ حينا

فقال بعجرفته : الشعر موضع ضرورة . وكذب ليس هذا من ذاك .

---

(١) الهرمة أو المنفردة عن القطيع .

(٢) ناقة غاضية : تأكل الغضى .

(٣) الناقة العاطية : المتطاول برأسها إلى الشجر لتتناول منه .

(٤) سورة الاسراء .

(٥) أوطأه العشوة وعشوة : أركبه على غير هدى .

حدثني الثقة قال : قال يوماً المسيني في حديثه : وكان يَخْفَرُ من ذاك ويستحيي فقال له : سخنت عينُك لا يقال للرجل يَخْفَرُ ، الخَفَر للنساء. فقال المسيني : أيها الصاحب ! التؤدة خير من العجلة ، أين نحن من قول الشمردل في أرجوزته ، رواها أبو حاتم :

لا يسبق النائل منه المنكر

فتى شتاء يستحي ويخفر

فقال له : أخذنا في الحماقة ،وقال مرة : ضرَّهُ وأضرَّ به ، وكما لايجوز أضرَّه كذا لا يجوز ضرَّ به ، فقال له رجل / من خراسان : فما تقول [٢٤ب] في قوله عزَّ وجلَّ: « وَمَا هُمْ بِضارِّينَ بِهِ من أحدٍ إلاّ بإذنِ الله[1] »فقال الرجل: إخسأ اهذا من ذاك ؟ وأخجل الرجل في صوابه ، ولم يخجل هو من خطئه لسقوطه وجهله ومكابرته وحسده .

وقال يوماً : النَّكْثُ للعهد ، والخُلْفُ للوعد ، ولا يجوز نَكَثَ الوعدَ ، وكذا لا يجوز أخلفتُ العهدَ . وكان بيت القرآن والرواية حاضراً أبو الحسن بن شاذان فقال : هذا مرفوض بقوله تعالى : « قلْ أتَّخذتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عهدَهُ[2] » فبَرَد ، وكان بارداً لا رحم الله صَداه ، ولا بلَّ ثَرَاه .

[الاقتراف والاعتراف]

وقال في بعض الليالي : الاقتراف لايكون إلا في القبيح ، أما سمعت الكلام الذي هو كالمثل ، الاعتراف يمحو الاقتراف ، فقال له مقرىء قد حضر : التنزيل يأبى هذا الحكم ، وينطق بغيره ، قال : وما ذاك ؟ قال :

---

(١) سورة البقرة .

(٢) سورة البقرة .

قال الله تعالى : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيها حُسْناً (١) »
فخزي وقام .

[الصاحب وأبو الفرج الصوفي]

ورأيته يناظرُ أبا الفرج البغدادي الصوفي ، وكان في أذنه وَقْر (٢) في وساوس الصوفية وخطَراتهم ، فقال له : يا أبا الفرج إذا كانت البَيْنُونة مشعوراً بها في عَرْصةِ الحق حيث لا عبارةَ للخَلْق ، ولا أمانَ للجَلّ (٣) والدّق ، بطَنت وسائلُ المعرفة بحقائق المراد ، واشتبهت أعلام الحال في تثبيت الاشارة ، وبقيت العبارة على إلف الالف وعادة المتألف . فأجابه أبو الفرج : لاثباتَ لمناسب البيْنونة في نهايات الاتحاد لزوال شرائط رسوم الخَلْق عند تصافي الأرواح بحقائق الحق ، قال ابن عبّاد : ما أنكر تلاشي المناسب في نهايات الاتحاد إذا سَطعت أنوار الحقيقةبالاتقاد ، وإنما جرت الكلام إلى غاية تزلق فيه (٤) الأفهامُ ، وتسيخ فيه الأوهام ، ولا يُشرف عليه إلا من خصّه الحق بخصائص التّمام ، ورفع معارفَهُ عن معارف جُملة العَوام ، ولولا الحال التي امتحنني الحقُّ بها ، وسحبني على غرائبها وعجائبها في عُرض صوادقها وكواذبها ممّا هو مردودٌ اليه ،ومتوكلٌ فيه عليه لشققتُ معك جِلْباب صَدرٍ قد حُشي ودائع ، وفتحتُ لك أبواب خزائن قد جُمعت فيها بدائع ، ولكني بما تراني أذبذبُ عليه

---

(١) سورة الشورى .

(٢) وقرت الأذن : ثقلت أو ذهب سمعها .

(٣) جل الشيء : معظمه .

(٤) كذا في الأصل .

مأخوذ ، وبما تسمعني أدندِنُ حوله مجذوذ(١) ، وإلى الله المشتكى فهو الغاية والمنتهى .

ثمَّ قال يا أبا الفَرَج: هل تعرف من أصحابك مَن يقول:

بُليتُ بما لو يُبتلى أحدٌ به
لأصبحَ كالعِهْنِ النَّفيشِ يَطيشُ(٢)

بعشقٍ وإعراضٍ وشوقٍ وغُربةٍ
ومَحْكِ(٣) الذي أهوى فكيفَ أعيشُ؟

وأعجب من ذا أنني متصوِّفٌ
ولكنَّ صوفَ العاشقين حَشيشُ

[أبو السلم والوزيران]

وقلت لأبي السلم نجية بن علي : قد لقيتَ ابن العميد وها أنت تشاهد ابنَ عبّاد ، فصِفْهُما لي ، فانك رجلٌ بدويٌّ ، وتنظر إلى كل شيء بفطرتك ، وتنطِق عن كل شيء بسابق فطنتك . فقال : أما ابن العميد - يعني أبا الفضل - فكان بحرُه لا يُنْزَف ، وبَرُّهُ لا يُنسف ، وغُباره لا يُشَقّ ، ونسيمُه لا يُنشَق ، وحبُّه لا يُفرك ، وأديمُه لا يُعرك ، على بخلٍ كان به أحالَ نهارَه ليلاً ، وألصق به ثبوراً وويلاً . وأما هذا يعني ابنَ عبّاد فليس في استحسانه لاحسانه فضلٌ لاستحسانه لإحسان غيره ، قد غرق في بحر نفسه ، فليس يرفع طَرْفَه إلى أحد من بني جنسه ، وهذا الذي يدل على غاية نقصه .

---

(١) جذ في سيره : أسرع .
(٢) العهن : الصوف أو ما كان منه مصبوغاً .
(٣) محك الرجل : شار ونازع في الكلام وتمادى في اللجاجة عند المساومة.

[رأي الجيلوهي في الصاحب]

وقلت للجيلوهي يوماً : كيف ترى ابن عبّاد ؟ فقال : كما قال الشاعر :

كبرقٍ لاحَ يُعجِبُ من رآه
ولا يَسقي الحوائم من لَماقِ (١)

ونظر اليه يوماً وقد طلعَ في موكبه فتمثل بقول الشاعر:

وأنتم كغيثِ السُّوءِ من يَرَ بَرقه
يَشِمْه ومن يَحلُلْ به فهو جادبه

[شعر الصاحب]

ومن شعر ابن عبّاد وهو يتملح به عند نفسه قوله في رجلٍ تزوجت أمه :

عذلتُ لتزويجه أمّه
فقال فعلتُ حلالاً يجوزْ
فقلت حلال كما قد زعمتَ
ولكن سَمَحْتَ بصدعِ العجوزْ

وقال أيضاً :

زوجت أمّكَ يا أخي
فكسوتني ثوبَ القلقْ
والحر لا يُهدي الحُرَم
إلى الرجال على طَبَقْ

---

(١) رواية اللسان «ولا يشفي» ، واللماق : اليسير من الطعام والشراب .

[كلام الصاحب في الزهد]

وقلت لأبي الفرج الصوفي البغدادي : أنت شيخٌ صوفي ، ولك ذكرٌ جميل ، لِمَ يتعاطى هذا الرجل - أعني ابن عبّاد - الكلامَ في الزهد والدقائق والاضمار والوساوس وتصفية الأعمال ، هذا علم يذاكر به أصحابُ الخُرق، وأرباب الخِرق، فقال: هذا رجلٌ رقيعٌ رفيع ، وله جاهٌ ومالٌ ، وهو مُطاع ، ولست أصِلُ إلى ما في يديه إلا بالرّقاعة ، وأنا ثقيل الظهر بالعِيال ، مُحتاج إلى القوت ، فأحمّقُ [١] له ساعة حتى أنال منه هذا الحُطام، والذي قد تهالك عليه الخاص والعام، وقد قال الأول :

فحـــامقتُه حتى يقالَ سجيّةٌ
ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقِلُهْ

[ابن العميد في نظر الصاحب]

وسمعتُه يقول وقد جرى حديث ابن العميد أبي الفضل فقـال : لم يكن له مع فضله الشـــائع ، وأدبه البارع علمُ الدين ، ولا كان عنده شيء من الشريعة ، وكان لا يعرف القرآنَ وأحكامَه وغريبَه وإعرابه واختـــلاف العلماء فيه بضروب التأويل وغرائب التفسير ، والرئيس إذا عُرِي من هذا السّربال فهو ممقوتٌ عند الله تعالى ، مَقْليّ [٢] عند الناس.

---

(١) أحمقه : وجده أحمق والمقصود هنا تحامق أي تكلف الحماقة .
(٢) قليه : أبغضه .

وكان إذا سمع كلاماً في الدين ثقُل عليه ، وخَنَس [١] عنه ، وقطع على الخائض فيه .

[كلام الصاحب في العلم والحكمة]

وكان إذا احتفلَ في العلم والحكمة ، وما يدل على الخصوصية قال : لِمَ صارتِ الأشياء المتعادية في حياتهـا تتعادى بعد مماتها أيضاً وتتنافر كمعي الذئب، وجلد الشاة، وكيس[٢] السنور، وعظم الفأرة ؟ ولِمَ الصبيُّ إذا وُلد أزرقَ فأرضعته حبشيةٌ عاد أشهل ، فان دامت عليه عادَ أكحل ولم يتفلفل شعره كما اسودّت حدَقته ؟ ولِمَ ينسب الضبّ إلى العقوق ، والهرّة الى البرّ وهما يتشابهان في أكل أولادهما ؟

قال: ويقول في دقيق علمه وغامض حكمته: قيل لسنّورة : لِمَ تأكلين جراكِ على فرط حبك لها ؟ قالت: يخيّل الينا أن أكبادنا أولى بأن تكون فيها من الأماكن التي تحويها .

قال : ومن جملة ذلك أيضـاً لِمَ تموت الشُكْلَة [٣] من الضربة الأولى، وتعيش بالضربة الثانية ؟ ولِمَ صار الفرس لا طِحالَ له ؟ والبعير لا مرارةَ له ؟ والظليمُ لا مخّ لعظمه ؟ ولِمَ ليس في السباع أطيب أفواهـاً من الكلاب ، ولا في الوحش أطيب أفواهـاً من الظباء ؟ وكيف صار الأسد أشدّ الحيوان بَخَراً [٤] ، وكذلك الصقر ؟ / ولم صار الكلب أسبحَ من [٢٥أ]

---

(١) خنس : تأخر وتنحى.

(٢) الكيس : المشيمة وهي محل الولد في البطن .

(٣) الشكلة من الإبل: لون الأشكل منها ، والأشكل ما فيه حمرة وبياض مختلطان. وقيل ما فيه بياض يضرب إلى الحمرة والكدرة .

(٤) البخر : رائحة الفم الكريهة .

سائر السباع ؟ ولِمَ صار حيتان البحر لا أسنةَ لها ولا أدمغة ؟ ولِمَ صار صَفَن (١) البعير لا بيضة فيه ؟ ولِمَ صارتِ السمكة لا رئة لها ؟ ولم صار في فؤاد الثور عظمٌ ؟ ولم صارتِ البراغيث تجتمع على السوط متى دهن بشحم قنفذ أو مُسح بعصران ابن عِرس ؟ ولم صار الزُّنبور يموت في الزيت ويعيش في الخلّ ؟ كما تموت الخُنفساء في الورد وتعيش في الرَّوْث ؟ ولِمَ صار الضبُّ يأكل الجراد ويسالم العقارب وهي أشبه بها من الماء بالماء ؟ في حماقاتٍ كثيرة ، الجهل بها أحمد من العلم بها .

[تشنيع الصاحب على ابن العميد]

هذا من تشنيعه على أبي الفضل ، وكان مع ذلك ربما قال : كان واحدَ الدنيا ؛ وهذا كما ترى وهو يدخل في باب المناقضة . والأمر الذي تشدّد فيه ـ أعني ابن عبّاد ـ وبلغ الحدَّ الأبعدَ منه ، وزادَ على جميع الناس فيه باب المخاطبات ، وأنه كان يطالب أصناف الناس بما ليس في الطاقة ، ولم تجرِ به عادة ، وكان يقول: هذا الذي به أجد طعم ولايتي ، ولولا هذه اللذة والشهوة ما باليت ان أنقلب في مرقّعة خَلَق ، وثوب رثٍ بالٍ أجوب بلاد الله ، وألقى عباد الله ، وآكل رزق الله . ولقد خُدع في هذا عن أموال خطيرة اختلست فتغافل عنها إما عن جهل وجنون وإما عن غيرهما . وأفسد البيان والبلاغة على الناس بهذا السبب لأنه كان يسوم كل من كتب اليه أن يكني عن نفسه بالعبودية ، وعنه بالمولوية ثم يعرض في هاتين الكنايتين وكتابة الحديث والأمر والشأن .

---

(١) الصفن : وعاء الخصية .

ومن الحديث عنه أو له أو فيه ، فربما تشاجرت كتابات ، وتداعت معانيها على الكاتب فلا تخلص إلى تحقيق مراد ، واستبانة وجه ، وهذا الذي أقوله يعرفه من دفع اليه ، ودُهي به .

[تعليل الالقاب]

قال ابن ثابت : قلت له : كيف كان الخليفة يرضى بأن يقال له : أعزّه الله ، وكذلك ولي العهد والوزير ومن قاد الجيش ، وأغنى في الهَبوة (١) ، ومن أمر على شطر الدنيا ؟ وكان ابن الزيات يقال له : يا أبا جعفر ، وابن أبي دؤاد يقال له : يا أبا عبد الله . فقال : كان الناس في ذلك الوقت ضعاف العقول ، صغار الهمم ولم يكن لهم مرائر مغارة ، ولا نفوس فيها غزارة ، هكذا قال . وهذا حفظك الله كلام جاهل لا خبرة له بشيء من أمور الدنيا والدين ، وهو مع ذلك دليل على النّذالة والسقوط .

[تعليل المخاطبات]

وجرى يوماً حديث المخاطبات عند القاضي أبي حامد المرورّوذي (٢) والترتيب فيها ، وامتعاض الناس من التصارف الجاري بين أهلها فقال : سبب هذا كله إحساس الناس بنقصهم القائم بهم ، الراكد عليهم ، الثابت فيهم ، وطلب دفع ذلك بالترتيب ، ونفيه بالخطاب وليس الطريق إلى ذلك هذا ، بل الطريق اليه الأخذ بأخلاق من سلف من الحياء والكرم والدين والمروءة ، وانظر

---

(١) الهبوة : شبه الغبار يرتفع في الجو .

(٢) أبو حامد أحمد بن بشر المروروذي القاضي من كبار علماء عصره وكان أستاذاً للتوحيدي ، وكان هذا يقول : « كان أبو حامد بحراً يتدفق حفظاً للسير ، وقياماً بالأخبار ، واستنباطاً للمعاني ، وثباتاً على الجدل وصبراً في الخصام » وقد بلغ إعجابه باستاذه إلى أن قال : « إنه أنبل من رأيته في عمري » ، توفي سنة ٣٦٢ هـ .

الى السلف الصالح كيف كانوا ، هل خاطبوا رسول الله صلى الله عليه [وسلم] إلا بيارسول الله ؟ وبعد فهل يُخاطب ربنا إلا بالتاء وإلا بالكاف ؟ وهل سمعتَ عبداً لله قد أخلص دينَهُ له قال : إن رأى ربُنا فعل بعبده كذا وكذا ، وهل الخير كله إلا فيما خصّ الله به نبيَّه وأمته وأشاع فيهم حكمته وبركته .

[الصداقة والمصارفة]

ثم قال أبو حامد : وينبغي أن لايكون بينك وبين أصدقائك صَرْف[1] لأن الصداقة فوق ذلك ، بل المصارفة فيها يُقذيها ويُفسدها ، ويحيل نضارتها ، ويبدّل خضارتها ، وقد تستحيل الصداقة بالمصارفة عداوة ، لأن التجني والاستزادة يعتورانها ، والاعتداد والاحتجاج يمحقانها ، فأما النظراء والأكفاء فيكفي معهم أن يكون الجواب كالابتداء ، والآخر كالأول ، وكان أبو محمد النباتي يقول في هذا الباب كلاماً طيباً ، وأنا أحكيه لأنه موضعه ، وإن تنفست الرسالة فالغرض الفائدة ، وإن كان سبب إنشائها الغيظ الذي فاض الصدرُ به ، ومرح اللسان بوصفه . وقد قال ابن الرومي :

وما الحقد إلا قوام الشكر في الفتى

وبعض السجايا ينتسبن إلى بَعْضِ

فحيث ترى حقداً على ذي إساءةٍ

فثم ترى شكراً على حسن العرضِ

إذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارعُ

من البذر فهي ناهيك من أرض

فهذا هذا ،

---

(١) صرفه : رده ودفعه .

[الحماقة والرقاعة والرعونة والجنون]

قال : جميع ما يتقلب الناس فيه من هــذه الأمور الفاسدة والأحوال الرديئة يرجع إلى أصول أربعة وهي : الحماقة والرقاعة والرعونة والجنون .

فأما الحماقة فما عليه الكتّاب من المخاطبات المختلفة التي ليس فيهـا حقيقة ، ولا ترجع إلى صحة ،لا من جهة الديانة ، ولا من جهة رسم الأولين السادة ، وإنما هو شيء يؤدي إلى القال والقيل ، وإلى العداوة والمغالبة ، ويبعث على الوحشة الشديدة بالاستسعار(١) الردي ،والوسواس المردي ، لأن الترتيب إن كان بينك وبين من هو دونك فهو على الدلالة على محلك ، وإن كان إلى نظيرك فهو على غاية المماثلة بينه وبينك ، وإن كان إلى من فوقك فهو على توفية مايستحقه منك . قيل له : ها هنا قسم آخر والداهية كلهـا منه ، قال : وما هو ؟ قيل الذي يدّعي أنه نظيرٌ لك وهو دونك ، والذي هو فوقك وتدّعي أنه في حدّك ، وها هنا يشتد النزاع والقراع ، ويتحطم القنا ، ويتطاير الشرر، ويجد الشيطــان مدخلاً منه وتسويلاً به . فقال هذا من فَقْد التعاطف في الأصل ، وإلا فالحال مُفضيــةٌ في التحقيق إلى الكلام الأول . ثم قال :

وأما الرّقاعة فانتفاش القضـاة والشهود ، ألا تراهم كيف يوسعون أكمامهم ، ويعرّضون جيوبهم ، ويرخون أطواقهم ، وينظرون إلى الأرض تعظمـاً على من يكلمهم ، وتبرؤاً ممن يخالفهم ، ألا ترى إلى دنياتهم

---

(١) من السعر : الجنون .

[٢٢٥ وقرامصتهم (١) / وقلانسهم وعمائمهم وتحنبلهم وتفتُّلهم ، فهم كما قال الشاعر :

وأنتَ بالليل ذئبٌ لا حَريم لَهُ
وبالنهار على سَمْتِ ابن سيرين(٢)

وإذا تكلم خفض صوته ، وقطع حروفه ، وسبّح في خلال ذلك وقال : عافاك الله اسمع ، ويا هذا أصلحك الله ، ويا عبد الله الصالح قل خيراً ولا [ ] (٣) قلبك من الله ، ويا فلان اتّقِ ربك الذي اليه مَعادُك ، أما عليك حَفظة من قبل الله ؟ أما للاسلام عندك حُرمة ؟ أما تؤمن بالله ؟ أما تؤمن بيوم الحساب؟ . قال : وأما الرُعونة فما عليه الشطّار من هؤلاء الشباب الجلد الذين يرفعون الحجر ، ويدّعُون الفتوة ، ويكثرون ذكرها ، ويحلفون بها ويسمونها الجوامرديّة ، ترى أحدهم يضيّق الأكمام ، ويَحُلُّ الأزرار ، ويَفتِلُ السّبال(٤) ، ويمشي مُتحاملاً ويتكلم مُتصاولاً . قال :

وأما الجُنون فما نجد عليه هؤلاء الذين يتنازعون بينهم قولهم : أبو بكر خيرٌ من عليّ ، وعليٌّ خيرٌ من أبي بكر ، وإذا حلفوا قالوا : وقدرِ عليّ ، وحقّ الصدّيق ، ويقولون : بغدادُ أطيبُ من البصرة ، وباديةُ البصرة أجفُّ من بادية الكوفة ، والرازقي خير من البارقي(٥) ، والسنوماني أحلى من الكرْخي(٦)، وسامراء فوق إرم ذات العماد ، وفلان فَصْلي ،

(١) كذا في الأصل .
(٢) محمد بن سيرين البصري التابعي المشهور بالتقى والورع (٣٣ــ١١٠هـ) .
(٣) يعتقد أن في الأصل نقصاً .
(٤) جمع سبلة : وهي ما على الشارب من شعر ، وهي أيضاً مقدم اللحية.
(٥) و (٦) أنواع من العنب.

وفلان فرعوشي ، وترى لهم في هذا الطريق اهتماماً ،واتفاقاً ، وقوة ، ومغالبة، ومشاغبة ،ومحاكمة، وملاطمة . وهكذا إذا جرى حديث الشاعر. والشاعر كالعوني،والناشيء،والنافح، والقاصّ كالبربهاري،والقنبري،وقد صدق هذا الشيخ فقد سمعنا من هذا ما لا يطمع في إحصائه .

[الصاحب واحتقار الناس]

وقال لي الزعفراني الشاعر : كيف يكون هذا الرجل — يعني ابن عبّاد — ديّاناً ،ومتألهاً، وهو يبتذلُ العلوية والأشراف، ويُهينهم وهم يَعْدُونَ بين يديه فلا يُنكر ذلك منهم .

ولقد قال يوماً ـوهو يريد الركوبـ لبعض حجّابه: نظّف الطريق من هـذه الخنافس والجِعْلان[1] والحرابيّ والغِربان . فقلتُ لبعض من كان إلى جانبي : مَنْ يَعْني ؟ قال : يَعْني هؤلاء الواردين من الحجاز لسواد ألوانهم ، وتفلفل شعورهم ، ودمامة وجوههم ، وانحطاط قدودهم ، وقلّة دماثتهم ، واختلاف حركاتهم وشمائلهم . قال : أفهذا من التشيّع والولاء وما يجبُ لهذا البيت . ثم يدّعي أنه زيدي ، فاذا قرض قصيدة غلا وزاد على العوني والناشيء[2] .

[بذاءة لسان الصاحب]

وأما أنا فما رأيت أحداً من خَلْق الله في حدّته وسَفَهِ لسانه . خرج يوماً من دار مؤيّد الدولة من بابٍ غامض هرباً من قوم كانوا يرقبونه

---

(١) مفردها جعل : ضرب من الخنافس .

(٢) شاعران مغموران زمن التوحيدي .

على الباب المشهور من السحر الأعلى ، وهو وحده بين يديه ركابي ، فعرفته عجوز فقامت في وجهه ، ودعت له ، ومدّت يدها بقصة معها . فقال : ما تريدين يا بَظراء ، يا بَخراء ، يا عَفلاء ، يا قَفْهاء[١]! على هذا إلى أن تباعد، فبقيت العجوز مبهوتة وقالت : مسكين هذا الرجل قد جُنّ ، فقلت لبعض أصحابه : ما هذا النذل والفحش والخفة والطيش ؟ فقال: هذا دأبه إذا جاع ! فقلت : أجاع الله كبدَه وسلبه نعمته .

وحدثني العتّابي : قال : الرجل لا دينَ له ، سمعته يقول في الخَلْوة ، وقد جرى حديث المذهب ، كيف أنزل عن هذا المذهب — يعني الاعتزال — وقد نصرته وشهرت به نفسي ، وعاديتُ الصغير والكبير عليه ،وانقضى عُمري فيه . قلت للعتّابي : ومن أين وقع في هذا الالحاد ؟ فقال :لم يزل مترجحاً ، قليل الطمأنينة ، سيىء اليقين ، ولكن أهلكه مقعَده[٢] الذي يقال له النصيبي أبو إسحاق ، وصدق هذا الشيخ .

[أبو إسحاق النصيبي]

كان أبو إسحاق شاكّاً في النبوّات ، وكان يصادق بها من صافاهُ ووثقَ به ، وهو الذي قال بنكده وخُبْثه : لو ظَفِر يومَ الجمل طلحةُ والزبيرُ وعائشةُ بعلي بن أبي طالب دار الخلاف بينهما ، وكان لا يُعوّل[٣] أحدهما في الاستظهار على صاحبه إلا بأن يتزوج عائشة ثم يكافح صاحبَه بها وبشيعتها الذين فتّوا بعرَ جملها ، وتشافوا به، وتحاثوا عليه ، وكنا نحن نكوّر عمائمنا، ونزيع

---

(١) بظراء : طويلة البظر . بخراء : كريهة رائحة الفم . عفلاء : من العفل وهو شيء يخرج من قبل النساء . قفهاء : مؤنث أقفم وهو من تقدمت ثناياه العليا فلا تقع على السفلى.

(٢) خادمه .

(٣) عول على فلان وبه : استعان واتكل واعتمد عليه .

طيالسنا ، ونسرّح لحانا ، ونكتحل ، ونحتفل ثم نجلس في المساجد والجوامع ونحتج لذلك التزويج ونتناول كلّ قول ، ونخرّج كل خبر ، ونبلغ كل غاية بكل حيلة (١) .

[الصاحب والتاجر المصري]

وحديث التاجر المصري من الطرائف : قدم شيخٌ له هيئة ، ومعه ثيابُ مصر فدعا به ،واشترى منه ،وتقدم باكرامه ، ورفع الحجاب عنه وقال له:أهل مصرَ أيُّ شيء يغلب عليهم من فنون العلم ؟ ورسائل مَنْ يَشْغَفون (٢) ؟ فقال التاجر : لهم حرص على كلّ علم ، ونصيب من كل أدب ، وأماالرسائل فانهم لا يؤثرون على ما لابن عبدِكان الكاتب أبي جعفر (٣) شيئاً ، وكان نجاح الخادم قائماً ، فأومأ إلى المصري بأن قل: رسائلك هي العزيبة (٤) والمطلوبة، وهي المشتهاة والمستعملة ، وكان إيماؤه باليد والاصبع والحاجب والشفة ، وهذا كله لا يُفصح عن حرف ، فلم يكن يفهم التاجر لشقائه معنى الاشارة ، وانقبض عنه ابن عبّاد ، ولم يحاوره وقام ذاك على حالة قد ناله فيها فتور لا يدري ما سببه . فلما كان بعد أيام حضر أيضاً وأعاد القول على الوجه ، فأعاد المصري الجواب المتقدم ونجاح الخادم على رَسْمه قائم يشير بمثل ما أشار اليه في المجلس الأول وهذا لا يفطن، وفي أهل مصر سلامة صدر شبيهة بغباوة طبع،فالتفت

---

(١) كتب على الهامش : قاتل الله المتكلم في حق أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها.

(٢) شغفه ، وشغف به شغفاً : غشى قلبه حبه .

(٣) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مودود من كتاب الدولة الطولونية، توفي سنة ٢٧٠هـ،راجع:الوافي بالوفيات:٣/٣١٥ ، النثر الفني لزكي مبارك. La prose Arabe P:241.

(٤) العزيبة : من الإبل والشاة التي تعزب عن أهلها في المرعى أي تبعد .

ابن عباد إلى الخادم وقال : إذا كان صاحبك سخين العين ، قطيع الظهر ، ابن بظراء ، إيش يمكنك أن تعمل ! وطردَ المصري .

[٢٦أ] أفهل هذا إلا رقاعة تحتها جنون صرف ، وسرطان / في الدماغ ، وعلّة في العقل ، وفساد في المزاج !

[الصاحب واليهودي]

واسمع ما هو أعجب من هذا . ناظر باريّ اليهودي راس الجالوت في إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودي فيه طويلاً وثابته قليلا ، وتنكّد عليه حتى احتدّ وكاد يتّقد ، فلما علم أنه قد سَجَرَ [١] تنوره ، واسعط [٢] أنفهُ ، احتال طلباً لمصاداته ، ورفقاً به في مخاتلته، فقال : أيها الصاحب ولِمَ تتقد وتشتطّ ، ولِمَ تلتهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة على النبوة، ومعجزة عن جهة نظمه وتأليفه وإن كان النظم والتأليف بديعين غريبين ، وكان البلغاء فيما تدّعي عنه عاجزين ، وله مذعنين ، وها أنا أصدق عن نفسي وأقول عندي: إن رسائلك وكلامك وفِقَرك ، وما تؤلفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك ، أو قريب منه ، وعلى كل حالٍ فليس يظهر لي أنه دونه، وأن ذلك يستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام ، أو بمرتبة من مراتب البلاغة.

فلمّا سمع ابن عباد هذا فترَ وخمد وسكنَ عن حركته وانخمَص [٣] ورمُه به وقال : ولا هكذا أيضاً يا شيخ ، فكلامنا حسن وبليغ ، وقد أخذ من

---

(١) سجر التنور : ملأه وقوداً وأحماه والمعنى أخذ في الاستعداد للجدل .

(٢) سعطه وسعطه وأسعطه : الدواء أدخله في أنفه .

(٣) خمص الجرح وانخمص : سكن ورمه .

الجرأة حظّاً وافراً ، ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له المزيّة التي لا تجهل ، والشرف الذي لا يُختمَل ، وأين ما خلقه الله تعالى على أتم حُسن وبهاء مما يَختلقه العبيد بتطلّب وتكلّف [١]، هذا كله بقوله وقد خبا حميُه، وتراجع مزاجُه ، وصارت نارُه رماداً مع إعجابٍ شديد قد شاع في أعطافه ، وفرحٍ غالبٍ قد دبّ في أساريرِ وجهه ، لأنه رأى كلامه شُبْهَةً على اليهودي، وعلى عالمِهم وحبْرهم[٢] مع سعة حيَلهم ، وشدة جـــدالهم ، وطول نظرهم، وثباتهم لخصومهم ، فكيف لا يكون شبهة على النصارى وهم أليَنُ من اليهود عريكةً ، وأطفأ ثائرة ، وأقلهم مِراء ، وأكثرهم تسليماً ، وإنه إن جاز هذا على اليهود والنصـــارى وهم دَهماء الناس ، فما ظنك بالمجوس ونصيبهُم من الجدل أقل ، وهم عن النظر أعجز ، وعادتهم في المحـاجّة أفسد،وهكذا الصابئون.

أنظر ـ أكرمك الله ـ إلى هـذا الرجل العظيم الطاق،الفسيح الرواق، الذي لا يرضي أحداً ، كم ينخدع ، وكم يذوب مرة للشاذباشي ، ومرة لليهودي ، ومرة للتاجر المصري، ومرة للخراساني ، ومرة للبغدادي ، فهل هـــذا إلا البَوْق[٣] ، والركاكة ، وضعف النَّحيزة[٤] ، وسوء التحيُّل ، وقرب الغَوْر ، وقلة العقل .

---

(١) على هامش المخطوط : نعوذ بالله من هذا الاعتقاد الفاسد .

(٢) الحبر : رئيس الكهنة عند اليهود .

(٣) باق الشيء : فسد .

(٤) الطبيعة .

[سعادة الصاحب ونحسه]

قال أبو سليمان المنطقي وعنده يومئذ أبو زكريا الصيمري وقد قرأت عليه هذه الأحاديث : هذا رجل قد سَعِدَ في الدنيا سعادةً عجيبة مذ ولد إلى الغاية، وهي سَقْيُه عُمرَه وآخر أمره ، لم يُشَكْ بشوكة ، ولم ينكب بنكبة ، ولم يسمع من أحدٍ كلمةً عوراء ، ولم يُدفع في حالة إلى أبَدِهِ [1] ، وقد بلغ في حياته ما شاء . فقال أبو زكريا : النحس الذي لحقه في عقله حتى صار لذلك رقيعاً ، أهوج ، سيءَ الأدب ، حديداً ، كثيرَ الكذب ، شديدَ التلوُّن، عسيرَ المأتى ، ممقوتَ العجب ، عظيمَ الكبر ، طويلَ الخصومة ، دائم المِراء ، وقّاعة في أهل الفضل ، حاسداً لذوي الأدب ، مغتاظاً على ذوي المروءات ، منّاناً بالقليل ، معظّماً للتافه النزْر وذويّ الدين ، مقروفاً بالأَبن [2] ، هو أعظم من جميع ما أعطيه من المال الكثير ، والمرتبة العالية ، ومن الخيل المسوّمة [3] ، ومن الدُور والقصُور وما فيها من العِين الحوُر ، والخزائن والذخائر ، والفضة والذهب والجواهر ، والخدم والعبيد ، لأن العقل إذا صحّ فهو المنيحة التي لا يُوازيها شيء ، وإذا اختلّ فهو البلوى التي لا يتلافاها شيء ، ولو كان مع هذا العقل عارياً من جميع ما عددناه لعَلاهُ بعضُ العامة بكيْسه ولطفه ، ولبَرَزَ عليه بعضُ أصحاب

---

(١) أبد كفرح : غضب وتوحش .

(٢) الأبن : العيب والحقد . ومقروفاً : متهماً .

(٣) الخيل المسومة : المرعية ، المرسلة مطلقة .

الخُلْقان (١) بمروءته وظرفه ، ولكن الغنى ربّ غفور ، ولهذا أحسن الذي يقول (٢) :

ذَريني للغنى أسْعَى فإني
رأيتُ النـاسَ شرُّهمُ الفقيرُ
وأبعدُهُم وأهونُهُم عليهِم
وإن أمسى لَهُ كرم وخِيرُ (٣)
ويُقصيهِ النّديُّ وَتَزْدريهِ
حليلتُه وَيَنْهَرُهُ الصـغيرُ
وتَلْقَى ذا الغِنى وله جَلالٌ
يكادُ فؤادُ صـاحِبِه يَطيرُ
قليلٌ ذنبُه والذنبُ جَمٌّ
ولكنَّ الغنى رَبٌّ غَفُورُ (٤)

وله مع الغنى أمرٌ ، ونهيٌ ، وقوة ، وسلطانٌ ، وَجدٌ (٥) ، ودولةٌ ، فكلُّ عَيْبه مستورٌ ، وكلُّ فضلِهِ منشور .

[الانسان والأجرام السماوية]

قال له أبو سليمان : صدقت ، وهذا لأن الانسـان لا يكون في هذا

---

(١) ثوب خلقان : بال .
(٢) الأبيات لعروة بن الورد راجع : الديوان ١٩٨
(٣) رواية الديوان : ياعنده .
(٤) رواية الديوان : عيبه .
(٥) حظ .

العالم مالكاً للتمام ، جامعاً لأدوات الكمال ، وسببه أنه نتيجــة الكواكب العالية ، والأجرام الشريفة من المواد المختلفة ، والعناصر الصافية والكدرة ، فمتى نالته سعـادةٌ بالمشتري وصل اليه نَحْسٌ من زُحَل ، وكذلك الزُهَرة والمرّيخ ، والعلماء المتقدّمون يقولون : المشــتري والزُهرة سعدا الفلك ، والزُهَرة مخصوصةٌ بالسعادة العاجلة ، والمُشتري مخصوص بالسعادة الآجلة .

قال : وهذا وإن كان في الجملة كما قالوا فلالتباس الدنيـا بالآخرة مما يستفاد من المشتري كثير من حظوظ الدنيا ، ويُستفـاد من الزهرة كثير من حُظوظ الآخرة ، ومن أسرار الزهرة أنها ربما هيأت الوحي ، ومن أسرار المشتري أنه ربما هيأ اللهو . ومرَّ له في هذا الفن كلامٌ كثيرٌ مفيدٌ نَدَّ عني ، ولم يَصحب ذهني إلا ما تسمع .

[سوء طالع ابن العميد]

قال : ولهذا كان نَحْسُ ابن العميد في بدنه ، لأنه فقد الصحة في وسط عمره ، وحين الحالُ حُوَيْل ، والمـالُ مُوَيْل ، والعِلم نزرٌ ، والفهم ناقص ، والبلاغة خلَق ، والكتابة شمطـاء ، فلما أخذت أحواله تتسق ، وأسباب فضله تستوسق ضُرب في بدنه بالعلل الشديدة ، والأمراض المختلفة ، وسُلب لذة المطعمِ والمشرب ، وبقيت حسرةُ النعمة في نفسه إلى أن عطب ، وقلّةُ حظّه منها هو الذي كان يعثه على قلّة / الانعام منها . قال ولهذا تجدُ [٣٦ب] آخَرَ جيدَ العقل ، صحيحَ البدن ، محمودَ البيـان ، ولكنك تجده مع ذلك شديدَ الفقر ، سَيِّءِ الحال ، مرحومَ الجُملة ، وعلى هـذه

الجديلة (١) كل من اعتبرتَ حاله ، وعرفتَ ما سُلِبَهُ مِمَّا وُهب له ، وما أعطيه مِمَّا حُرِمَه ، وهذا ليكون العبدُ أبداً في منزلةٍ من النقص ، وحالٍ من العجز يكون بهما ضارعاً إلى خالقه ، طالباً لفائته من مالكه، وليكونَ بين العَبْد المعجون من الطين ، وبين الله مدبّر الخلق فَرْق . وذهب في هـذا الفصل كلَّ مذهب ، وشفى كلَّ غليل ، وأبكى كلَّ عَيْن ، وكان ذا قوةٍ عجيبة في هـذه الطريقة ، وذا اطلاع على أسرار الخافية .

[التوحيدي والصاحب]

فأما حديثي معه ، فاني حين وصلتُ قال لي : أبو مَن ؟ قلت : أبو حيَّان ؛قال : بلغني أنك تتأدب ؛ قلت :تأدُّبَ أهل الزمان ، قال : فقل لي أبو حيَّان ينصرف أو لا ؟ قلت : إن قبله مولانا لا ينصرف ، فلما سمع هذا تنمَّر ، وكأنه لم يُعجبه وأقبل على واحدٍ إلى جانبه فقال له بالفارسية سَفهاً على ما فُسِّر لي ، ثم قال لي : الزم دارنا ، وانسخ لنا هـذا الكتاب فقلت : أنا سامعٌ مطيع ، ثمَّ قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً: إنما توجهتُ من العراق إلى هذا البـاب ، وزاحمتُ منتجعي هـذا الربيع لأتخلصَ من حرفة الشؤم ، فان الوِراقة لم تكن ببغداد كاسدة ، فنُميَ اليه هـذا أو بعضُه أو على غير وجهه فزاده تنكراً ، وكان الرجل خفيفَ الدماغ ، لا يعرف الحلم إلا بالاسم ، والسؤدد لا يكون ولا يكمل

---

(١) الجديلة : الشـاكلة .

ولا يتمّ إلا بعد أن يُنسى جميع ما يُسمَعُ ، ويتأول ما يُكره ، وتوخد(١) بالأسدّ فالأسدّ .

وقال أبو سعيد السيرافي : الحِلم مشارك لمعنى الحُلم ، فصاحب الحِلم هو الذي يُعرض عمّا يرى ويسمع كالحالم ، واللفظ إذا واخى اللفظ كان معناه قريباً من معناه ، وهكذا الخَلق والخُلق ، والعدل والعُدل ،ويست الرجل وبئست المرأة .

وقال لي يوماً آخر - أعني ابن عبّاد - : يا أبا حيّان من كناك أبا حيّان ؟ قلت : أجلُّ الناس في زمانه ، وأكبرُهم في وقته، قال: من هو ويلك ؟ قلت : أنت! قال : ومتى كان ذلك ؟ قلتُ : حين قلت لي يا أبا حيّان ، فأضرب عن الحديث وأخذ في غيره على كَرَاهة ظهرت عليه .

[بعض من سمي أبا حيان]

وقال لي يوماً آخر وهو قائم في صحن داره والجماعةُ قيام منهم الزّعفراني ، وكان شيخاً كبير الفضل ، جيّد الشعر ، مُمتع الحديث ، والتميمي المعروفُ بسَطل ، وكان من مصر ، والأقطع ، وصالح الورّاق ، وابن ثابت وغيرُهم من الكتّاب والندماء : يا أبا حيّان هل تعرف فيمن تقدّم من يُكنى بهذه الكُنية ؟ قلت : نعم من أقرب ذلك أبو حيّان الدارمي . حدثنا أبو بكر القاضي محمد بن محمد الدقّاق قال : حدّثنا ابن الأنباري قال : حدثنا

---

(١) وخد وخداً : اتسعت خطواته .

ابنُ ناصح قال: دخل أبو الهذيل العلاّف على الواثق ، فقال له الواثق: لمن تعرف هذا الشعر :

سَباكَ من هاشم سَليلُ
ليس إلى وَصلِهِ سبيلُ
مَنْ يتعاطى الصفاتِ فيه
فالقولُ في وصفِهِ فُضولُ
للحُسنِ في وجهِهِ هِلالٌ
لأعينِ الخلقِ ما يزولُ
وَطُرَّةٌ لا يَزالُ فيها
لنورِ بدرِ الدُّجى مَقيلُ
ما اختالَ في صحن قصر أوْسٍ
إلاّ تسجَّى له قتيلُ
فان يَقِفْ فالعيون نُصبٌ
وإن تولى فهُنَّ حُولُ

فقال أبو الهُذيل : يا أمير المؤمنين هذا الرجل من أهل البصرة يُعرف بأبي حيّان الدارمي ، وكان يقول بإمامة المفضول وله من كلمة يقول فيها :

أفضله واللهُ قدّمه على
صحابتِه بعد النبيّ المكرَّمِ
بلا بِغضةٍ واللهِ مني لغيرهِ
ولكنه أولاهمُ بالتقدُّمِ

وجماعة من أصحابنا قالوا : أنشدنا أبو قلامة عبد الملك بن محمد الرقاشي لأبي حيّان البصري :

يا صاحبيّ دَعَا الملام وأقصِرا
تَرْكُ الهوى يا صاحبيّ خَسَارهْ

كم لمتُ قلبي كي يُفيق فقال لي :
لَجتْ يمينُ ما لها كفّارهْ

ألاّ أفيقَ ولا أفتّرَ لحظة
إن أنت لم تَعْشَق فأنت حجاره

الحبُّ أولُ ما يكون بنظرةٍ
وكذا الحريق بداؤه بشراره

يا من أحبّ ولا أسمي باسمها
إياكِ أعني واسمعي يا جارهْ

فلما رويت الأسناد ، وأنشدت الشعر ، وريقي بليل ، ولساني طلق ، ووجهي متهلّل ، وقد تكلفت ذلك وأنا في بقية من غرر الشباب . وبعض رَيْعانه ، فملأت الدار صياحاً بالرواية والقافية ، فحين انتهيتُ انكرتُ طَرْفه ، وعلمت سوءَ موقع ما رويت عنده . قال : ومن تعرف أيضاً ؟ قلت : سمعت الجنابي الحافظ يقول : أبو حيّان رجل صدقٍ ، وهو يروي عن التابعين ، قال : ومن تعرف أيضاً ؟ قلت : روي الصولي فيما حدثنا عنه المرزباني أن معاوية لما حُضِرَ أنشد يزيد عند رأسه متمثلاً :

لو أن حيّاً نجا لفات أبو
حيّانَ لا عاجزٌ ولا وَكِلُ

الحوّل القلّبُ الأريبُ وهل
تدفع صَرْف المنيّة الحِيَل

قال الصُولي : هذا من المعمّرين المقلين ، وانتهى الحديث من غير هشاشة منه عليه ، ولا هزّة ، ولا أريحيـــة بل على اكفهرار الوجه ، ونُبُوّ الطّرف ، وقلة التقبُّل .

[مفارقة التوحيدي للصاحب]

وجرت أشياء أخر ، وكان عُقباها أنني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام ، بغير زادٍ ولا راحلة ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحد ، فاحمل هذا على ما أردت ، ولما نالني منه هذا الحرمان الذي قصدني به ، وأحْفظني عليه ، وجعلني من جميع غاشية ورده فرداً ، أخذت أملاً في ذلك بصدق القول عنه في سوء الثناء عليه ، والبادىء أظلم ، وللأمور أسبابٌ ،وللأسباب أسرار ، والغيب لا يُطّلع عليه ، ولا قارعٌ لبابه .

[الصاحب والتفسير]

وسألت العماري عنه فقال : الرجل ذو خلة ، ولقد سأله ليلةً شيخ من أهل خراسان في الموسم عن قوله عزّ وجل : « وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين (١) » ما مرتبة الصلاح المذكور في الثاني من النبوة الثابتة في الدنيا؟ وأضرب عن المسألة ودافع بصدرها ولم يحر كلمة فيها.

---

(١) سورة البقرة .

وسأله هذا الشيخ ليلة أخرى عن قوله عز وجل : « وَوَاعَدْنا موسى ثلاثِينَ لَيْلَةً وأتْمَمناها بِعَشْرٍ (١) » وعن الفرق بين هذا الاقتصاص وبين قوله : « وَواعدنا موسى أربعين ليلة » فما أعاد ولا أبدأ .

[الصاحب وأعلام عصره]

ولمّا عاد من همذان قيل له : كيف رأيت أبا الوفاء ؟ قال : سراباً بقيعةٍ ، قيل : فكيف وجدتَ / عبد العزيز بن يوسف ؟ قال : نكداً وخديعة . [٢٧أ] قيل فكيف وجدتَ المجوسي : قال : تمثالاً في كنيسة أو بيعة . قيل : فابن سَعْدان ؟ قال : ضخم الدَّسيعه (٢) له من نفسه جَرِيٌ (٣) وشيعة .

فهذا حديثه في دينه ورأيه وعلمه وعقله ومروءته وصناعته ومذهبه ، وقد طال وكثر ، ولعلَّ التقصّي لو وقع لازداد طولاً فانه تنفّست أيامه، وترددت أحاديثه .

سألت ابن الجلبات الشاعر عنه فقال : ما أدري ما أقول في رجل من قرنه إلى قدمه عيبٌ وخزيٌ ونذالة ورقاعة ، على أن الطبع النكد أملك له، والعادة القبيحة أغلب عليه ، والاقلاع عن المنشأ المان بالطباع صعبٌ وعسير ، ولعله ممتنع .

وسألت الحاتمي عنه فقال : رأيت رجلاً مدخولاً في جميع الفضائل ، مردوداً على كل التأويلات ، لتيهِ ، وإعجابه ، وحسده، ولوثته، وقلة مصافاته،

---

(١) سورة الأعراف .

(٢) الدسيعة : العطية الجزيلة والجفنة الكبيرة ، والقوة .

(٣) الجري : الضامن والجمع أجرياء ويقال : هو جري له أي ضامن .

ونبو رعايته ، وفساد دخلته ، ووقاحة وجهه ، وشدة تعبـــيره ، وفشو أبنته [١] وقبح سيرته في مذهبه ، ونصرته لما لا يعتقد بقلبه . وسألتُ البديهي عنه فقال : خُذ حديثه بما تسمع مني وقس عليه : رأيت يوماً على بابه شيخاً من أهل الكتابة والأدب ذكر أنه ورد من مصر ، وأنه أقام بها زمناً ، وأن أصله من بلاد العجم ، فلمّا خرج اليه رفع قصـــة قد كتب على رأسها عبّاد بن أحمد فأخذ ونظر ثم قال : من سمّاك عباداً باسم الأمين رضي الله عنه ؟ ومن يقول إن هذا اسمك الذي اختير لك عند الولادة ؟ وما هـــذا التقرب بالتكذّب وما بينكم وبين أسماء السادة الذين بانوا بها كالسماء بكواكبها ، والأفلاك بعجائبها ، أما كان لك بغير هذا الاسم الذي ادّعيته دَرك [١] ، ولا كان لك دون التكثر به سبب ، ما أحوجك إلى ثِقاف [٢] يوجع يافوخك ، ونتاف يقلع شاموخك .

وسألتُ الصابيء أبا إسحاق عنه فقال : إن صدقتُ في وصفه ساء قوماً، وإن كذبتُ في وصفه ساءَني ، ولأن أنفرد بالمســـاءة أحب إليّ . وبعد فنحن معه كما قال الشاعر :

وتعتبُ أحياناً عليه ولو مضى
لكنّا على الباقي من النّاس أعتبا

وقلت للضبعي ؟ كيف ترى هذا الرجل وقد خبرته ؟ قال: أمّا جدُّهُ

---

(١) الأبنة : العيب والحقد والعداوة .

(٢) الدرك : إدراك الحاجة واللحاق .

(٣) ثقاف : آلة من خشب تسوى بها الرماح .

فيريني أنه واحد الدنيا، وأما جِدُّه فينطق بأنه أنذل من في هذا الورى، وبعد:

نِعمةُ الله لا تعـاب ولكن

ربمـا استقبحت على أقوام

وقلت للمأموني: أصدقني عن هذا الرجل فقـد عرفت ليلَه ونهارَهُ، والليلُ أصدق عن خبايا الانسان من النهار، فقال: في الجملة الرجلُ بلا دين لفسقه في العمل، وارتيابه في العلم.

وسألت أبا صادق الطبري عنه فقال: سَل عن البخت والله ما له سَمتٌ يتوجه اليه منه، ولا بابٌ يُعتمد منه عليه، بَينا هو لك، إذ صار لعدوك، حاله أحوال، وشأنه شؤون، وكل ذلك جارٍ على الجنون!

وقلت لابن المراغي: كيف تَراه؟ قال: والله ما يَشفي الغليل منـه هجوٌ ولا مَلام، ولا ما هو معروف به بين الخاص والعام، إلا أن يسقط من ذروته فيرى في حال سقطته متردداً بين خبطته وورطته.

وقلت للشيخ العالم: أما أنت من بين الناس فقد حظيتَ عنده، ونلتَ منه. فقال: لو عرفت ما يتَّقِدُ على فؤادي من الغيظ عليه لرحمتني في بلائي بأكثر مما تحسدني عليه في ظاهر أمري. قلت وما تنكر منه؟ قال: لست أنكر منه شيئاً واحداً، وإنما أنكره كله!

وقلت لأبي جعفر الورّاق: ما أراك تخرج من حضرة هـذا الرجل إلا وأنت ساهم الوجه، مغيظ النفس، كأنك لست تخرج من عند مَن كلُّ أحد يتمنى أن يصل اليه، وأن ينطق بين يديه وأن يصنع به حاله، فقال: والله لولا التحرج لوصفته بكلام فيه برد حرارة صدري، ولكن التحرج مانعٌ من ذلك، هذا والخوف أيضاً عامل، وآخر ما أقول: إنه ساقط من عين الله عزَّ وجل، والويل له من الله يوم التجازي والقصاص.

وقلت لأبي الفضل الهرَوي : كيف ترى هذا الرجل ؟ قال: أراه والله عقوبة من الله نازلةً بأهل الفضل والتكرُّم ، وليتنا علمنا بأيِّ ذنبٍ عوقبنا به فكنا ننتهي عنه ولا نُصِرُّ عليه ، فما عندي أن الله يبتلي عبداً من عباده بخدمته والتعلق به إلاَّ بعد أن ينزع عنه العصمة ، ويُوكّل به النقمة ، ويحرّم عليه الرحمة .

وقلت للزّعفراني الشاعر : بالله صف لي هذا الرجل ، فقال : لو أمكنني الوصف بالنظم كان أعجب إليّ ، فاني رجل شاعر ، ولكن الخوف من ذلك حائل .

وقلتُ للتميمي : أما أصحابُك فقد عرفت عقائد قلوبهم في هذا الرجل ، فأين أنت منه ؟ فقال : أجدى اعتقادي فيه أنه خنزير قد أعطي قوة أسد ، فهو يفترس يَمْنَةً وشامة ، وكنتُ أرى فيما مضى أن الشر مكسوب بالقصْد حتى شاهدت هذا فتحولت عن الرأي الأول وقلت : بل الشر في بعض الناس لاحقٌ بالطبع .

وقلت لأبي سعيد الأبهري : بيّن لي أمر هذا الرجل فني نفسي أن أعمل كتاباً في أخلاقه ؛ فقال لي : لقد حاولت عسيراً ، أتستطيع أن تصف إبليس بجميع ما هو فيه ؟ قلت : لا والله إنما أعوذ بالله منه فقط . قال : فَعُذْ بالله من هذا ، قبل أن تعوذ بالله من إبليس ، فان إبليس وإن كان شريراً فهو عاقل ، وهذا يزيد عليه لأنه شرير وهو أحمق .

وقلت لأبي طاهر الأغاطي : كل أحدٍ له على هذا الرجل كلام ، وفي نفسه مَوْجدة سواك ، فانك واصلٌ اليه إذا أردت ، ونائل من ماله وجاهه

إذا أحببت ، فما قولك فيه ؟ فقال : صبري على رقاعته قد نغّصَ علي جميع ما أنا عليه معه ، على أنّ رقاعته موشّحة بجنون ، وجنونَه صادرٌ عن قدره ، فالرهبة منه قد كدّرت عين الرغبة فيه ، والغيظ عليه قد منع من الاستمتاع به .

وسألت ابن زُرْعة الفقيه فقلت : ما أحوجني إلى فُتْياك في هذا الرجل؟! فقال : قد والله جبتُ الآفاق ، ولقيت أصناف الناس في الشرق / والغرب فما رأيت رجلاً في جنونه أعقلَ منه ، ولا في عقله أجنّ منه ، وإنه لأعجوبة ، عدوُّه هالكٌ لسلطانه ، ووليُّه خائف من كثرة ألوانه ، لا عهدٌ له ولا وفاء ، ولا صدقٌ ولا لطف ، كلُّه هزل ، وجميعُه جهل .

[٢٧ب]

وقلت لابن فارس صاحب اللغة : بِمَ تحكم على هذا الانسان ؟ فقال بأنه لله عدوّ ، وللأحرار مُهين ، ولأهل الفضل حاسد ، وللعامة محب ، وللخاصة مُبغض . فأما عداوته لله فلقلّة دينه ، وأما إهانتُه للأحرار فهي شهيرة كهذا النهار ، وأما حسده لأهل الفضل فجرب ذلك بكلمة تبديها ، وأما حبُّه للعامة فبمناظرته لهم وإقباله عليهم ، وأما بغضُه للخاصة فلاذلاله لهم ، وإقصائه إيام .

[أبو الفضل بن العميد]

فأما ابن العميد أبو الفضل فانه كان ثأياً [١] آخر ، وطامة أخرى ، وكان فَضْلُه من جنس ليس لابن عبّاد فيه نصيب ، ونقصُه من ضَرْبٍ لم يكن

---

(١) الثأي : الفساد .

له فيه ضريب(١) ، كان يظهر علماً تحته سَفَهٌ ، ويدّعي علماً هو به جاهل ، ويرى أنه شجاع وهو أجبَنُ من المنزوفِ ضَرطاً(٢) ، وكان يدّعي المنطق وهو لا يفي بشيء منه ، ولم يقرأ حرفاً على أحد ، ويتشبّع بالهندسة وهو منها بعيد ، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصلُ وهو الحساب ، وكان أجهلَ الناس بالدخل والخرج ، ولقد بقي ما بقي في أيامه فما قعد يوماً في الديوان ناظراً في عمل ، أو فاصلاً لحكم ، أو مخلّصاً لمشكل، وكان قد وضع في نفس صاحبه بالحيل الدقيقة والأسباب الخافية أنه واحد الدنيا ، وأن ملوك الارض يحسدونه عليه ، وأنه لسانُ الزمان ، وخطيبُ الدهر ، وأن قلمه فوق السيف ، وتدبيره فوق الجيش ، ونظره في الدولة والمملكة وأحوال الأولياء وذوي النصيحة كالوحي والنبوّة ، وكان معوّله في الأعمال على أبي علي البيع ، وكان مع هذا سيىء السيرة ، قليلَ الرحمة ، شديدَ القسوة ، وارمَ الأنف ، عظيمَ التيه ، شديدَ الحسد لمن نَطَقَ ببيان ، أو أفصح بالعربية ، وسيُبين بعض هذا بما أذكره لك بشاهد عدل ، وراوٍ ثقة .

[ابن العميد وأبو طالب الجراحي]

ورد أبو طالب الجراحي الكاتب بالريّ من العراق ، ولم يكن في عصره أنطق منه لساناً وقلماً ، وهو من بيت علي بن عيسى الوزير فعرض

---

(١) ضريب : مثيل .

(٢) المنزوف : من نزف دمه . وفي المثل : أجبن من المنزوف ضرطاً ، والمنزوف ضرطاً دابة بالبادية إذا صيح بها لم تزل تضرط حتى تموت وفيه أقوال عديدة .

نفسه عليه . فلمّا رأى بَسطته ولسانه وخطّه وطلاقته ولطافته وليونته وصناعته حسده واغتاظ منه ، وضاقت الدنيا به وعمل على أن يَسُمَّهُ ، ففطن أبو طالب ، وكان فطِناً ، فطوى الأرض ، ووقع إلى أذربيجان ، وصار إلى ملك الديلم المرزبان بن محمد ، فعرف قدره ، وبسط يده ، وأعلى كعبه، ونوّه باسمه ، واستطـــال على ملوك النواحي بمكانه ، ثم انظر إلى ما جرَّ أبو طالب عليه لخِسّته ولؤمه ونقصه وسقوطه ، وهكذا يفعل من انصرف من بابِ عزيزٍ ذليلاً ، ومن فناءِ موسرٍ مذموماً ، وقد كان يمكنه اصطناعه وتقديمه وإكرامه واستخدامه بأسهل غرامة ، وأيسر مؤونة وأهون مرزئة، ولكنه حسده وأبعده ، وليته مع ذلك زوّده بما يُوجب شـــكراً ، ويكون بلاغاً ، ويبقى حديثاً مأثوراً ، وذكراً جميلا .

ولقد كتب اليه أبو طالب بعد هـــذا الحديث كتاباً قرأتُ فصلاً منه يقول فيه : حدثني بأيّ شيء تحتج إذا طولبت بشرائط الرئاســـة التي انتحلتهـــا ، وأكرهت النـاس على تسميتك بها ، أتدري ما الرئاسة ؟ الرئاسة أن يكون بابُ الرئيس مفتوحاً ، ومجلسُه مغشيّاً ، وخيرُه مُدركاً، وإحسانه فائضاً ، ووجهه مبسوطاً ، وكَنَفُه مزُوراً ، وخادمه مؤدّباً ، وحاجبه كريماً ، وبوّابه رفيقـــاً ، ودرهمه مبذولاً ، وخبزه مأكولاً ، وجاهه معرضاً ، وتذكرته مسوّدة بالصلات والجوائز وعلامات قضـــاء الحوائج ، وأنت فبابُك مقفل ، ومجلسُك خالٍ ، وخيرُك مقنوط منه ، وإحسانُك منصرَفٌ عنه ، ووجهُك عابسٌ ، وبنانك يابس، وكنفك حرج ، وخادمُك مذموم ، وحاجبُك هرّار ، وبوّابُك كلب ، ودرهمك في العيوق، ورغيفك في منقطع التراب ، وجاهك موفور عليك، وتذكرتك محشوة بالقبض

على فلان ، وباستئصال فلان ، وبنفي فلان ، وبسُمّ فلان ، وبالدسّ على فلان ، وبحط مرتبة فلان .

هل عندك أيها الرجل المدعي للعقل ، المفتخر بالمال ، والمتعاطي للحكمة إلا الحسد والنذالة ، وإلا الجهالة والضلالة ؟ ، تزعم أنك من شيعة أفلاطون وسقراط وأرسطوطاليس . أوَ كان هؤلاء يضعون الدرهم على الدرهم ، والدينار على الدينار ، أو أشاروا في كتبهم بالجمع والمَنع ، ومطالبة الضعيف والأرملة بالعسف والظلم ، فيا مسكين ! استحي فانك لا مع الشريعة ولا مع الفلسفة وقد خسرت الدنيا والآخرة ، هذا عقلُك الذي يخاطب الناس برفعك التراب على رأسك ، والسُخام[١] في وجهك ، أمن كرمك وحزمك أن يَفِدَ عليك مثلي رجل من آل الجراح ، بيت الوزارة والسؤدد ، ينبري لمعروفك ، ويخطب الخدمة بين يديك ، والقيام بأمرك ونهيك ، بحظٍّ ميسور ، ونائلٍ منزور ، فتحسده وتبعده وتخمله وتهمله وتواطيء على سمّه وقتله ، يا ويلك ! فمتى كنت أنت وآباؤك يستحقون خدمة رجل من آل الجراح ، كأن بيتك بِقُم ما سألنا عنه ، ولا وقفنا عليه ، أليس أبوك كان قوّاداً ، وأبوه كان نخّالاً ، ها أنا قد انقلبت عنك خائباً ، أفضعتُ وبُرْتُ وكسدتُ ؟ لا والله ، بل قيّض الله لي ملكاً من ملوك الدنيا حتى اشتمل عليّ ، ونظر بعين الكفاية إليّ ، وأهّلني لمحلٍّ زائدٍ على محلك ، ورتّبني في حالٍ هي أشرف من رتبتك ، والله أكرمُ من أن يضيّع مثلي أو يحوجني إلى مثلك ، فبؤ

---

(١) السخام : سواد القدر .

الآن بخساستك ، والصق بالدَّقْعاء (١) ندماً على فعلك ، وثق بأن لساني وقلمي لا يزالان يبريان عرضك ، ويخطبان بذمك ، ويلهجان بهتْك سترك ، ويبعثان الناس على معرفة خِزْيك وسقوطك . أتظن يا جاهل أنه إذا ركب قدّامك حاجب ، وسار معك راكب ، وقال / الناسُ : أيها الرئيس [٢٨أ] إنك قد ملكت الكمال ، واستحققت خدمة الرجال من غير إسعافٍ ، ولا إفضالٍ ، هيهات ! المجد أخشنُ مَسّاً من ذاك ، وسأشق النظم والنثر في أكناف الأرض بما ينكشف به للصغير والكبير نقصُك ، وتزول الشبهة عن القلوب في أمرك إن شاء الله . هذا أفادنيه جُريج ، وكان شاعراً من أذربيجان، فهذا هذا .

[صبر ابن العميد على ابن ثابت]

قلت للخليلي : لِمَ كان يصبر أبو الفضل على ابن ثابت الكاتب الهمداني وهو [ابه (٢)] ونكالٌ ، لا خط ، ولا معرفة ، ولا أدب ، ولا صناعة ، فقال : لأنه علم أن غيره لا يصبر على ذلك الرزق الموتح (٣) ، والجدوى القليلة ومن أجل ذلك قال مِسْكويه :

يقولونَ إنَّ ابن العميدِ محمداً
يَؤُولُ إلى رأيٍ وثيقِ المَنَابتِ

فقلتُ : دعوه قد عرفتُ مكانَهُ
بطلعةِ منصورٍ وخطِّ ابن ثابتِ

---

(١) الدقعاء : التراب والأرض لا نبات فيها.
(٢) كذا في الأصل .
(٣) وتح بتح عطاءه : قلله .

ومنصور هذا خادمٌ رأيته ، كان من أقبح الناس وجهاً ، كثير الهذر ، سيّىء الأدب ، وكان من ُقم من الأحرار ، ولما ذمّه صاحبه وولي نعمته بسبب هذا الخادم للشهرة الفاضحة ، والتهتك الشائع قال أبو الفضل بحكمته: ما أصنع؟ والله ما وجدتُ في هذه المدة لأيري غلافاً مثله ، ولا بدّ لي منه ، فليَلُم من شاء ، والهوى لا يحلو إلا مع العَذْل .

انظر بالله ربك إلى هذا الحكيم بزعمه ، واسمع قوله وهو يزعم مع هذا أن أرسطاطاليس لو رآه لرجع عن آراء كثيرة ببيانه ، ولغيّر كثيراً من كتبه بمشورته ، وكان يقول بقحته ، وقلة اكتراثه وتهاونه بمن حوله : أما الموسيقى فانه يموت بموتي ، ويُفقد بفقدي ، هذا وهو لم يقرأ حرفاً منه على أحد من خلق الله ، وما أوحي اليه به ، ولا يجوز أن ينفتح ُمغلقه جزافاً عليه أو على غيره ، وإنما كان يستجيز هذا القول في الموسيقى خاصة لأنه لم يبق منذ دهرٍ مَنْ يدلّ من هذه الصناعة على حرف بتحقيق، أو يأتي فيها بوصف تام لذهابه ودروسه[1] ، والعلم كلّه أبقاك الله قد دخله الضيم ، وغلب عليه الذهاب لقلة الراغبين ، وفقد الطالبين ، وإعراض الناس عنه أجمعين ، والموسيقى من بين أجزاء الفلسفة فُقِدَ ُجملةً ، لأنه لا يوجد علمُه إلاّ بعمل ، ولا يكمل عمله إلا بعلم ، والعلم والعمل في صناعة واحدة قلّما يجتمعان على التناسب الصحيح .

وكان يعمل كتاباً سمّاه الخَلق والخُلُق فمات سنة ستين وهو في المسوّدة ، وقد رأيت ورقاتٍ منه ، ونقلتُ إلى البصائر حروفاً كانت فيه أفادنيها أبو طاهر الورّاق ، ولم يكن الكتاب بذاك ولكن جمص الرؤساء خبيص[2] ،

---

(١) درس الرسم دروساً : أي عفا .
(٢) الحلواء المخبوصة المعروفة بالخبيصة .

وصنان الأغنياء نَدٌّ (١) ، وخنفساء أصحاب الدولة رامُسْتُه .

[حديث الغويري عن الصاحب]

وقلت للغويري : حدثني عن ابن عبّاد فانك قد عرفت ليله ونهاره ، وخافيه وباديه ، وعن ابن العميد فقد اختبطت (٢) ورقه ،وانتجعتَ صَوْبه(٣) فقال : في ابن عبّاد قحة مأبون ، ولوثة مأفون ، وهو ابن وقته معك ، ونتيجة ساعته لك ، لا يعرفك إلا عند امتلاء العين بك ، ولا يُعطيك إلا إذا أخذ أكثر منه منك ، يشتري عِرضك ولا يُوليك حقك ، ويبلغ بلسانه ما لا يسمح لك بعشره من فعله ، ثم الويلُ لك إن أصبت في كلامك ، والويل لك إن أخطأت ، على أن الخطأ يَعْطِفُهُ عليك بالرحمة ، والصواب يحمله في معاملتك على الحسد والانتقام ، يريد منك ألاّ تذكر فاضلاً عنده ، وإن ذكرته فضّلته عليه ، وإن ذكر الشعر فقل : أين مسلم بن الوليد منك ، وإن ذكر النحو فقل : وصلت إلى ما لم يصل اليه سيبويه ، وإن ذُكر البيان فقُل : فيك أعراق متواشجة من قس بن ساعدة . ولعله كان في قس عرق من آبائك الفُرس ، وإن ذكر الكلام فقل : لو رآك النظام للزمَ بابك، وحمد غاشيتك ، وإن ذُكر الفقه فقل : أين أبو حنيفة عن هذا التحقيق والتدقيق ، وأين صاحباه محمد وأبو يوسف عن هذا التطبيق والتعميق ، فأما الجاحظ فما وزنه عند مثقالك ، وأين شراره من نارك ، وهل يسبح في بحرك ، وهل

---

(١) الند : عود يتبخر به وقيل العنبر .

(٢) اختبط الشجرة : شدها ثم نفض ورقها .

(٣) الصوب : الغمام والسحاب والعطاء على التشبيه .

يتطاول إلى سمائك ، لو رآك لرشاك ، ولو شاهدك لم ينتسب إلا اليك . وأما ابراهيم بن العباس الصولي فأحسن ما نختارُ له أن يكون من المختلفين اليك ، ومن الحاذين على مثالك ، والآخذين عنك ، وأما الدواوين فالكلواذي يسلمها لك ، ويتبرأ من الأعمال بسببك ، ويطرح الرسوم القديمة معك ، ويأخذ فيما تبتدعه وتضعه لأنه إن نازعك افتضح على يدك ، والعاقل لا يلقي بيده إلى التهلكة ، ولو وثق أنك تقبل مُصانعته لصانعك ، ولو علم أنك تبقي عليه لخدمك ، وأما الخطّ فابن مُقْلة ، وابن أبي خالد، والبربري ومن تقدّم وتأخر أعطوك الضمّة فيه ، وأظهروا لك الانقياد له .

[طباع الوزيرين]

قال : ومن مناقبه في مثالبه أنه يقنع منك في مدحك بالنفاق ، وفي ثنائك عليه بالرياء ، وفي نصرة سيرته بالحيلة ، ويرضى في هذا كله بعفوك دون جهدك ، وبما يخفّ دون ما يثقل ، وليس كذلك ابن العميد فانه لا يحب أن تمدحه إلا بأكرم الخصال ، وأشرف الفعال ، وأن يكون قولك عن عقد ، ووصفك عن يقين ، وإخبارك عن تعجب ، وتعجبك عن استبصار ، واستبصارُك عن مُعاينة ، وفيه مع ذلك كياد مخنّث مجفو ، وسَفَهُ ضرّة رعناء ونميمة كَنَّة سليطة .

[ابن العميد والشاعر]

وحدثنا القاضي ابن عبد الرحيم ، وكان خصيصاً به وقهرمان داره ، ومشرفاً على غوامض / أمره . قال قصده شاعر في بعض الأيام ، ووصل اليه ، [٢٨ب] وأنشده ، وأصغى اليه ، وانصرف بأملٍ وتردّد على ذلك فلم يرَ ما يحب وتعلق

بي ، فقلتُ له صاحبه روبين أغلبُ الناس عليه ، وأوجههم عنده ، فلو لذت به رجوت لك ، فلزمه وسأله الكلام في أمره ، فوعده بذلك قال روبين : فقلتُ له ـ يعني ابن العميد ـ : هذا الشاعر البائس قد سمعت منه شعره ، وأسمنتَ أمله ، وهو على ذلك يغدو ويروح ، ويشكو وينوح ، فلو أمرتَ له بشيء كان أقطع لشغبه ، وأجلب لشكره ، وأدعى إلى السلامة من عتْبه ، وهؤلاء بُرُدُ الآفاق ، ولُهم الالحاح ، والطلب ، والتذرع باللسان ، والتوصل إلى كل حال بكل حيلة . فقـال : وما يريد ؟ إن شاء أجبتُه عن قصيدته في رويها بعدد أبياته وعَروضه وأعيان معانيه وأزيد ، وإذا رددت شعراً بشعر ، فليس عليَّ بعد ذلك لوم ، ولا أنا مقصِّر ولا ظالم . قال : فقلت له : هذا سمج شنيع ، والناسُ لا يقارّون عليـــه ، ولا يرضون به ولو ذهبت أرواحُهم ، وتلفت أنفسهم ، فقال : يا هذا ! هوّن عليك ، وأقلل من حديثك ، فقد ضيَّعنا في هذا مالاً ، وأنا بعد في لذع الحسرة على ذلك لأن الشباب له عُرام ، ولم يكن لي في تلك الحال تجربة ولا يَقظَة ولا معرفةٌ بحق المال ، والقيام بحفظه إذا حصل ، والشغل بجمعه إذا انتقل ، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور . المال عافاك الله عديل الروح ، وكمال الحيـــاة ، وقوام الظهر وسرورُ القلب ، وزينة العيش ، ومجنُّ الحوادث ، وحَبْلُ اللذات ، ومُتعة الانسان ومادة البقاء ، ومن لا مال له لا عقل له ، ومن لا عقل له فلا حياة له ، ومن لا حياة له فلا لذة له ، ومن لا لذة له فهو في قبيل المعدوم . قال روبين : فعلمت أنه بعد هذه الخطبة لا يسمح بدرهم واحد ، فوصلت الرجل من مالي

بشيء ، واعتذرت اليـــه ، وبلغني أنّ ذلك الشاعر مزّق عرضه ، وهتك ستره .

[حادث محزن]

ولقد شاهدت في مجلسه شاعراً من الكرخ يعرف بحمّويه [١] ، وكان جيد اللسان يقول له : أيها الرئيس ! قد لزمت فِناءك لزوم الظل ، وذللتُ لك ذلّ النعل ، وخدمتُ أملي فيك خدمةَ ناصحٍ لنفسي فيما التمستُ من الصلة والجائزة ، ولك فيما أوفدتُ عليك من الثناء والمدحة ،وما بي والله ألم الحرمان، ولكن شماتة قوم صدقوني فاتهمتهم ، ونصحوني فأغششتهم ، بأيّ وجه ألقاهم، وبأية حجةٍ أدافِعهم وهل حصلتُ من مديح بعد مديح ، ومن نظم بعد نثر ، ومن رواحٍ بعد بكور،ومن غسيل أطهار،وإخلاق سربال إلا على ندمٍ مؤلم [٢] ويأسٍ مَسقم ، ومن تأفف لازم وضجر دائم ، فان كان للنجاح علامة فما هي؟ وأين هي ؟ قد والله طالت غيبتي عن أهلي ، وعن السائلين عن حالي في هـــذه المعاملة التي عاقبتُهـــا الخيبة بعد المَطْل ، والحرمان بعد الإطماع ، والتحسر بعد الوعد ، وقد بسط الله كفك ، وجعل الخير والجود والكرم جارية في أسرارهـا ، ونابعة من جوانبها ، فَفِضْ أيها الرئيس ! فإنما أنت بحر ، واسكب فانما أنت سَحـــاب ، واطلع فإنما أنت شمس ، واتّقد فانما أنت نجم ، ومُرْ فانما أنت مُطاع ، وهَبْ فانما أنت واجد ، واهتز فانما أنت

---

(١) في وفيات الأعيان ٥٨/٢ ان بطل الحادثة هو أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي، وفي مكان آخر هو ابن موتة .

(٢) في هامش الأصل : مؤسف .

ماجد ، وصِلْ فانك جواد ، والله ما بقعد بك خَوَرٌ في الطباع ، ولا نَغَلٌ في العِرق ، ولا قدح في الأصل ، المخ قصيد ، والحبل حصيدٌ ، والزند وارٍ ، والفروة خضراء ، والعود مُورق ، والمال جمّ ، والأمر أجم ، والسلك دقيق والنسيج صفيق ، والطراز أنيق ، وما هو إلا أن تقول حتى يُسمع ، وما هو إلا أن تأمر حتى يُمتثل ، لأن أمرك على الفور ، وحكمك ماضٍ بالعدل والجور ، فما الذي يثني عزمك عن الكرم ، ويفلّ حدّك في الجود ، ويقصّر باعك عن المجد ، ويسدّ أذنك عن أحاديث غد ، إن الذين تكره لهم ماهُجوا به كانوا مثلك ، وإن الذين تحسدهم على ما مُدِحوا به كانوا من طينتك ، فزاحم بمنكبك أضخمهم سَنَاماً ، وزِد على من كان أكبرهم كاهلاً ، وأعلاهم يفاعاً ، وأسطعهم شعاعاً ، وأزهرهم (١) ناراً ، وأكثرهم زوّاراً . فلمّا بهره هـذا الكلام الشهي ، في ذلك المجلس البهيّ شُدِهَ (٢) وعَلِهَ (٣) ولم يَدرِ ما يقول ، وأطرق هنيهة ثم قال : هـذا وقتُ يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة ، وعن الإطالة مني في المعذرة ، فاذا تواهبنا في الحال ما دُفعنا اليه ، استأنفنا في الثاني ما نتحامد عليه .

فقال الشاعر : أيها الرئيس هذه نُفاثةُ صدر قد جَوِيَ (٤) منذ سنة ، وفضلةُ لسان قد فَدِمَ منذ زمان ، وقد تقدم العمل ، والجزاء

---

(١) زهرت النار : سطعت .

(٢) شده : دهش وشغل وحير .

(٣) عله : تحير ودهش .

(٤) جوي : أصابته حرقة وشدة وجد من عشق أو حزن .

موقوف ، والرجاء عليك ، والأمل غادرٌ ، والحال بعرض سوء ، والشامت قد شمَّر للتأنيب ، ولا صبر لمُقِل على ُمدلّ إلا على وجهٍ يحتمل ، فان رأيت قدَّمت المتأخر ، وقرَّبت الشاسع ، وجعلت إجزال العطية في تعجيلها ، وإكرام طالبها في تسهيلها ، فلا مانع إن لم يكن ذلك من شدة جد ، أو تقاعس َجد . فقال : يا هذا قد كررتَ العَتْب ، واجتررتَ الملام ، وما استوجب هذا من أحدٍ من خلق الله ، ولقد نافرتُ العميد بدون هذا حتى ثار من ذلك عجاج قاتم ، وانتهينا منه إلى قِرىً عاتم (١) ، ولست وليَّ نعمتي فأحتمِلَك ، ولا صنيعتي فأغضي عليك ، وإن بعض ما قررته في أذني (٢) لمَّا ينقض مِرَّةَ الحِلم (٣) ، ويبدد شمل الصبر ، ولستُ ممن يطيش لأدنى صائح ، ويتطير لأول بارح ، والله ما دعوتك / إليَّ ، ولا أغريتُك بي ، ولا سألتُك تقريظي ، ولا اتعبتُك في قصدي ، [٢٩أ] وإن الظلم منك ، وكذلك العتبُ منك ، وأنا على كل حال مالىء ، فلا تجمع بين الظلم والتظلم ، والجناية والتجني ، وخذ نفسَك بالنزاهة والعَفاف ، فانهما لا يقفانك هذا الموقف ، ولا يَعرضانك على هذا المجلس ، ورزقُ الله ُمنتاب وغادٍ ، واطلب الغنى منك فانه عندك أكثر منه عند من تظلمه وهو لم يَظلم ، وتعاقبه وهو لم ُيجْرم .

---

(١) في وفيات الأعيان : دفعنا إلى قرا عاتم ، ولجاج قاتم . وقرى عاتم ومعتم : بطيء ممس . قال الشاعر :

فلما رأينا أنه عاتم القرى
بخيل ذكرنا ليلة الهضم كردما
« اللسان »

(٢) في وفيات الأعيان : مسامعي .

(٣) في وفيات الأعيان : مرة الحليم .

فقـال الرجل : ما كررتُ العتب حتى أكلت النوى المُحرق في انتظار صلتك ، ولا اجتررتُ الملام حتى خانني صبري في توقع جائزتك ، والغنيُّ إذا مطل ظلم (١) ، والواجدُ إذا لوى أثم ، والجوادُ إذا منع أيتم ، ولعمري ما دعوتني اليـــك ، ولا أغريتني بك بكتابٍ خصصتني وزبنتني (٢) فيه ، ولا سألتني تقريظَك ، ولا أتعبتني في قصدك برسولٍ أرسلته إليَّ ، ولكن لما جلست في صدر هذا الايوان بأبّهتك ، وعظمتك ، وكبريائك ، وجبروتك وقلتَ : لا يخاطبني أحدٌ إلا بالرئاســـة ، ولا ينازعني أحد في حقوق السياسة (٣) ، فاني كاتب ركن الدولة ، وزعيم الأولياء بالحضرة ، والقيّم بمصالح المملكة ، فقد أهبتَ الناس إلى بابك ، وأغريتهم بخدمتك ، وأطمعتهم في مالك ، وكأنك قد خاطبتهم بلسان الحال ، وإن لم تكن خاطبتهم بلسان المقال ، فأنا ذلك السـامع برئاستك ، والشـاهد بفضلك ، والراغب في خدمتك ، والراجي لخيرك ، سمعتُ فأجبت ، وحضرتُ فمدحت ، ووقفت فأثنيت ، وأصغيتُ فسمعت ، وأدّيت فاستحسنت ، ولم يبق بعد هـــذا كله إلا أن يكون َعطاؤك حرماناً ، ووعدُك لياناً ، ولا جودك انتحالاً ، ولا فتوتك اقتتالاً ، ولا ماؤك سراباً ، ولا جودك ضباباً ، ولا خدمتك َمندمة ، ولا الحاصل من معـاملتك َمظلمة ، وإن الرجل الحرّ متى علم أن صاحبه لئيمُ الطباع ، خسيس الخلق ، مرقعُ المنصب ، ملبوس المَحتِدَ ، وأن الله تعالى لم يجعله من معادن الرزق ، ولا من أبواب النجـــاح ، فانه لا يطمع فيه ، ولا يتواضع له ، ولا يعدُّه فيمن يُعَد ، ولا يشغل لسانه

---

(١) في وفيات الأعيان : لئيم .

(٢) زبن : دفع .

(٣) في وفيات الأعيان : خلق في أحكام السياسة .

بمدحه ، ولا يعقُّ أمله بقصده ، ولا يضيّع قوله في وصفه ، بل يرى أن اقتحام الجمر ، وسفّ التراب ، ونزع الروح ، أهون من ذاك وأعز ، ولعن الله الأدب إذا كان بائعه مُذيلاً [1] ، ومشتريه مُهيناً لقدره، وبما كسا فيه.
وتقوض المجلس وقام [2] الناس ، وانصرف الشاعر ، فحدثني شمسويه أنه طلبه بعد ذلك ليصله فرجع اليه أنه ذهب بين سمع الأرض وبصرها .

[مفاضلة بين الوزيرين]

وسألت الجرجاني عن ابن عبّاد وابن العميد فقال : ما يبينان بكرم كبير ، وفعالٍ مشهور ! ولا فائدة في نشر لؤمهما ، وخساسة طباعهما . بلغ من فلسفة هذا أنه أمر بقطع لسان رجل شتم بلد قُم غضباً لبلده ، وتهماً بوطنه ، وشدّ آخر في داره إلى شجرة وما زال يُضرب إلى أن مات وطرحه في جَوْبَةٍ [3] حتى أكلته الكلاب . فقال صاحبه : انظروا إلى هذا الذي قلنا إنه أعقل الناس . حدثني بهذا الهَرَوي ثم قال : وكان ابن عبّاد كما قال أصحابنا : هو ليّن شجب [4] ليس عنده إلا القال والقيل ،والكبر والتخييل، يحبُّ العامة ، ويرفع نفسه عنها ، ويحسد الخاصة ويجعل نفسه منها ، ويستطيل بالعلم وهو قريب القعر منه ، ويدّعي الردّ على الأوائل وهو لا يعرف حرفاً من علمهم ، ويتحلى بالعدل والتوحيد قولاً ، ويتحلى بالجور فعلاً ، ويتشبع بالأدب وهو سيء الأدب ، يتهكم بلسانه مستطيلاً ، ويقتحم الجرائم مستهيناً ،

---

(١) مذيلا : مهيناً .
(٢) في وفيات الأعيان : ماج .
(٣) الجوبة : الحفرة .
(٤) كذا في الأصل.

لو وقع عليه الخصم لجرّده للناس ، وأظهره للصغار والكبار ، ولكنه في خفارة جَدّه ، وحصن دولته ، على إن الجهـــابذة قد نقدوه وبهرجوه وتركوا التعامل به ، وإنما هو وميض برق ، وهبوب ريح ، وخفق راية ، فاذا قرّت الأمور قرارها ، وعطفت الفروع على أصولها ألفيْتَه مطـّرحاً مع نظـائره ، خامل الذكر ، وضيعَ القدر ، قصيرَ الشبْهَ ، مهتوك الستر .

[أدب ابن العميد]

قال : وجملة الأمر أن ابن العميد كان حسن الكتابة ، غزير الإنشاء ، جيد الحفظ ، ولم يكن له في كتابته حسابٌ ولا تحصيل لوجوه الأموال ، ولا معرفة بالدواوين ولكنه كان يفضل الكيس يتأتى له ويتلطف .

قال : وله شعر صالح في الغزل والمعاتبة ، ولأنه مشهور لا طـــائل في روايته ومن ذلك قوله :

قلبيَ دامٍ به ندوبُ
يكادُ ممـــا به يـــذوبُ
قد كنت أخفي الوشاة جهدي
فنمَّ مـني بـــه الوجيبُ
فهـــل سمعتم بمستهـــامٍ
عليه من قلبـــه رقيبُ
يعمـــد ما ساءني ضراراً
ما هكذا تفعل القلوبُ
يعتـادني للصبا غـــريرٌ
كأنـــه شادنٌ ربيبُ

جرى مع الدهر في عنانٍ
فهـو لأحكامـه نسيبُ
فكل محبوبـه بعيدٌ
وكلُّ مكروهـه قريبُ
وكيف يُرجى بقاءُ حبٍّ
ناكـده الدهر والحبيبُ

[أبو الفتح ابن العميد والعامري]

وكان ابنه أبو الفتح أشعر منه وأحسن خطّاً ، واستفادبدخول بغداد أشياء فاتت والده ، وكان لذلك يغمز على البغداديين ويتعنتهم ، وكان نَزْرَ العطاء ، شديدَ المنع ، لا يقبل صنفاً من الناس وإنما غرم شيئاً يسيراً على العامري ، لأن العامري خدعه وضلّله،وصبّغه(١) ودخل من باب غامض عليه وقال : لقد قصدتُك من خراسان لأقرأ عليك علم الحيل ، وجرّ الثقيل ، ومراكز الأثقال وهو في أواخر علم الهندسة ، بهذه الدعوى وبخلابته أيضاً ويعصر عينيه عند/ سماع كلامه وكان يقول له : ضاع عمري ، ولم أوفق [٢٩ب] لرشدي في أول أمري ، ولو وُفقتُ لوقعتُ إلى كنز علمك ، وروضة بيانك قبل هذه السنين ، ولما رآه أبو الفتح(٢) على هذا قال: لست في قراءتك جرّ الثقيل عليّ بأحوج مني في قراءة الالهيات عليك ، فانكّ في هذا الفن بَحْرٌ لا يُتَغَلْغَلُ إلى قعره ، وجبل لا يُتَوقّلُ إلى مَصاده ، وكان هذا تساخراً منها ، وتكاذباً بينها لأنها كانا لا يعرفان من هذين العلمين لا قليلاً ولا كثيراً ، وما ينقضي عجبي من تكاذب العقلاء ، ومن تجاذب الجهّال ، وخبءُ هذا الانسان خَبءٌ فائت ، والاحاطة به ممتنعة .

---

(١) أي كذب ولون الحديث.
(٢) في الأصل : أبو الفضل ، ولعله سهو من الناسخ .

[ابن العميد وأعلام عصره وحاشيته]

وأما الهروي فانه ارتبطه بأمر ركن الدولة ، وكان يُمِده من ماله ، لأنه حُمِدَ في طبه الذي كان يتكثر به بعد هندسته التي كان فيها أبدع ، وبها أعرف.

وأما مِسْكَوَيْه فانه اتخذه خازناً لكتبه ، وأراد أيضاً أن يقدح ابنه به . ولم يكن من الصنائع المقصودة ، والمهمّات اللازمة ، وكان أيضاً ما يقيم عليه شيئاً نَزْراً لا يقنع به إلاّ من لا نفس له ولا همّة ، وكان يحتمل ذلك لبعض العزازة بظلّه ، والتظاهر بجاهه . وأما ما تكلفه لأبي جعفر الخازن فانه كان لأسباب طويلة منها : أن ركن الدولة أعظمَهُ ، فلزمه أن يقتديَ به ، ومنها أنه طمع في اقتباس علمه ، ومنها أن العيون كانت تنظر إليه في أمره ، والناس يحسبون ما يأتيه في بابه ، لأنه وقع إلى الريّ مع صاحبه الصّاغاني أبي علي حين طلب الأمان ، والحديث معروف . فأما ابن فارس فانه استخدمه ليُعَلّم ولده .

وأما ابن أبي الثياب البغدادي(١) فانه قرّبه ليسترق منه المنطق، فلما علم بذلك أبو محمد نَفِسَ(٢) بما معه وتكاسل ، وقيل له : كيف تغاضيت ؟ فقال : كان سيّيء الابتعاث في هذه الفنون ، وكان شديد التشبّع بها ، يحبّ أن يختلسَ الحكمة ، ويمتهن أربابها بفضل المقدُرَة ، وأنشدني في هذه القصة :

إلى الله أشكو ريب دهرٍ كأنما
يرى كلّ ما يجري بمكروهنا فرضا

---

(١) من شعراء اليتيمة : ١٢٦/٤

(٢) نفس بالشيء : ضن به .

يؤمّل مني أن أذلّ لموسرٍ
لئيمٍ ونفسُ الحرّ بالذلّ لا ترضى

قلتُ : لمن الشعر ؟ قال : أنشدني ابن البغل لنفسه .

وأراغه أبو الفضل على المنادمة فأنف ، وما زال يترصد وقتاً ينفلت فيه حتى كان من أمر ابن العميد ما كان من خروجه إلى أرّجان ، فطوى فِجاجَ الأرض ، وجاب البلاد إلى بخارى ووليَ بها البريد إلى أن قضى .

وأما أبو طاهر الورّاق فانه رتّبه في النسخ ، وكان قوي الخط ، كثيرَ الصبر على النّقل ، ولم يكن من الصنائع ، ولا من حملة النعمة ، ولا ممن يطالب بالحمد ويبعث على الشكر .

وأمّا ابن بَنْدار[1]، فانه كان فَدْماً غليظاً ، غليظ الكلام ، جافياً ، جاسياً ، مقيتاً ، وكان وُزّر باذربيجان لجستان ، فأحبّ أن يرى من نفسه أنه على مائدته من وزّر ، فأين الصنائع والمُدّاح وأين المتجمون والزائرون وأين من مرّ به محتاجاً إلى زادٍ ونفقة ، فطلبه وقرّبه ، وأعطاه ووصله ، وأضافه وأكرمه ، وتصفح ما معه ، واقتبس مما عنده .

[افساد الصاحب للعطاء]

سقى الله ابن عبّاد فانه وقف نفسه على الغرباء ، وطلبهم بأكثر مما تعرّضوا له ، وسأل عنهم بأكثر مما رجوه فيه ، ولولا أنه كان يفسد هذه الأفعال بالرقاعة والتخيل والعجب والتطاول وذكر الطعام والمائدة ، وما يُعطي ويهب لكان قليلُه أكثرَ من كثير ذاك ، وصغيرُه أكبرَ

(١) هو أحمد بن بندار من شعراء اليتيمة : ٣/٤١٨

من كبيره ، ولكنْ لكل حسَن مقبّح ، ولكلّ عزيزٍ مذلّل ، ولكل جديد مُبْلٍ .

[بخل ابن العميد]

وحدثني ابن عبد الرحيم القاضي قال : قال يوماً لصاحب طعامه : حدثني عن هذا الخبز المكسّر على الطبق والملُوث[1]،وما تتجافى عنه الأيدي ، وما يُصيبه اللحم والمَرَق والثّريد ما تصنعون به ، وابتدأ هذا القول وهو في جوف خركاه وظنّ أنْ لا إذن هناك ، فقال له الرجل في جوابه بعد أن تكرر قوله ، وقد حال عن مزاجه لغيظه من سؤاله : ندُسّه في حِرِ امرأة من يسأل عنه ! قال : وهذا بالفارسية قاله وهذا تفسيره ، قال : فانكسر وانخذل ، وعلم أنه قد باء بخِزْيٍ ، وغاص على سواده ، وان الخطأ منه في المسألة أفحش من الخطأ عليه في الجواب فقال له : أنت مجنون ! اخرج لا بارك الله فيك ، وهذا كما تسمع ، والموت بهذا الرئيس على الخشبة صلباً أحسنُ من هذا الحديث ، وكان الرجل من فرط كيسه لا يقع إلا مكبوباً ، ولا يذكر إلا مَسبوباً ، ولقد بلغ من لؤمه وشؤمه أنه قتل من أكل عنده ، وذلك أن أبا المحاوش ورد الريّ ، وكان بدوياً أو من هذه المزالف[2] ، متبادياً ، وشُهِر بشدة الضّرس ، وكثرة الأكل ، وتكرّر حديثه عنده ، وما وُصف به من طيب كلامه ، وحسن وصفه للقدر والطبيخ والألوان ، فدعا به ، وتقدّم باحضار شيء كثير من الخبز والحلواء فاكتسحه كلّه ، وطلب الزيادة ، وكشّر أبو الفضل في وجهه ،

---

(١) الملوث : الممرغ بالاهالة أي الدهن أو الشحم المذاب .

(٢) مفردها مزلفة وهي كل قرية تكون بين البر والريف .

وأظهر استملاحه على تفقؤ فؤاده ، ونار صدره ، ثم وهب له دُرَيهماتٍ وخُرَيقات وشَمْلة وقال له : أكثر عندنا ، واقترح مافي نفسك على صاحبنا المطبخي،فكان المسكين يحضُر في الفَرْط[١] فيطلب شيئاً ، ويأكل وينصرف، فطال ذلك على أبي الفضل ، واغتاظ منه ، وغلب طباعَه ، فقال لصاحب مطبخه : اجمع هذا الذي يقال له : لالكات[٢] التي قد اخلقت وتقطعت ، وقطعها صغاراً كالبنادق وقدّمها إليه في عجّةٍ وافرة ببيض كبير ، وسمن وافر حتى ينظرَ إلى أكله ، وهل يفطن ، وإنما كان كيداً ، ففعل وأحضر وأقبل أبو المحاوش عليها ، وتدرّع في أكلها ، وأعظم اللقمة ، ودارك الرفع والوضع ، ووجدها / وطية ناعمة ، فلما أقلع عنها وانصرف وشرب الماء ، وجاء وقت الثَلْط[٣] ، انّقد بطنُه فخرج فيه نفسُه ، فهذا لما تكرّم بالإطعام ، وحثّ على الأكل ، ورغّب في الرغيف ، وهذا الفعل يجمع إلى النّذالة قلّة الدين ، وإلى اللؤم سخفَ العقل ، فالويلُ له ثم الويل له .

[٣٠أ]

وكان إذا رأى ابن بندار يقول : جاءكم أسد الغَريف على الرغيف ، والريُ جادةُ الدنيا ، ومنهجُ المشرق والمغرب ، والجوّالين في الآفاق ، فكان يكثر أهل الانتجاع من كل صقع ، فلم يكن لأحدٍ منهم عنده مقيلُ ساعة ، ولا مبيتُ ليلة ، ولا زادَ مرحلة ، ولا هَشاشة ، ولا بشاشة .

وقد اجتاز به أبو اسحق الفارسي ، وكان من غلمان أبي سعيد السيرافي،

---

(١) الفرط : الحين تقول : آتيك بعد فرط أي بعد حين .

(٢) اللك اللحم ، لك اللحم : فصله عن عظامه ، واللك الصلب المكتز لحماً .

(٣) الثلط : السلح .

وكان فهماً بالكتاب وقرض الشعر ، وصنّف وأملى ، وشرح ، وتكلم في العروض ، والقوافي ، والمعمّى ، وناقض المتنبي ، وحفظ الطمّ والرّم ، فما زوّده درهماً ، ولا افتقده برغيف بعد أن أذن له حتى حَضَرَهُ وسمع كلامه ، وعرف فضله ، واستبان سعته .

[أبو الفضل ابن العميد وأبوه]

قال الخليلي : وكيف يُرجى خيرُه ، أو يؤمّل رشدُه ، أو يُساق طمعٌ اليه ، أو يوفر ثناءٌ عليه ، أو يشام له بَرْق ، أو يُقطع دونَهُ خرق ، وقد عقّ أباه ، وسعى به في أول أيامه حتى تبرأ منه ذلك الشيخ وهرب إلى خراسان ، واستُكتب هناك ، ولُقب بالعميد ، وكتب إلى قاضي اصفهان كتاباً برىء منه فيه ، وأنا أروي قصته في هذا المكان ليكون أذهب في العجب ، وكان عقوقه من وجه غريب ، جاء إلى ذخيرات في مواضع ووضع يده عليها ، وعرّف صاحبه مكانها ، وخطّ خطوه عليها ، وزوى ذلك كلّه عن شيخه وعن جميع من كان له فيه نصيب ، إمّا بحق الارث ، أو بحق الهبة حتى قامت قيامةُ ذلك الشيخ ، فدعا عليه ، وفضحه عند الناس ، وبرىء منه ، وقدح في ولادته ، والرسالة :

[رسالته إلى قاضي أصفهان بالتبرؤ من ولده]

بسم الله الرحمن الرحيم : القاضي أطال اللهُ بقاه وأدام نعماه ، أحلّ محلّ مَنْ مواهبُ الله فيه ، وعوائده عنده في الدين والدنيا ، والعصمة والخير ، والفضيلة وحسن التأتي في كل فصيلة ، وجميل اللفظ في جميع الحكومة ، ولي في الشكوى اليه ، ومباثّته ، وذمّ الزمان عنده ،

والاستعداء عليه لديه استراحة وتخفيف للثقل ، وتفرج من حرج الصدر ، وأنا المتمسك به تمسكي كان بالوالد والعم ، وأثق بأن نصيبي من شفقته تام ، ومن مشـــاركته وافر ، والله لا يعدمنيه ، ويحفظني بمواصلة النّعم عنده إليه بقدرته .

والكُلوم أدام الله عزّ القاضي ضروب ، والنُدوب فنون ، وأعسرها بُرءاً ، وأصعبُها داءً ، وأعزُّها دواءً ، ما جرحته يدُ القريب ، وجلبته أفعالُ الأهل ، فانّ ذلك يصل إلى حبّة القلب ، وصميم الفؤاد ، وتصير قذىً في إنسان العين ، وشجىً معترضاً في الحلق ، وتتراكم على الأيام ، وتتكاثف على الدهر ، فيكون نكء القرح بالقرح أوجع ، ومتى َنفَسَ المنوءُ (١) ، وشكى المملوءُ غيظـــاً وحنقاً اجتمع اليه من عشيرته وأسرته شيخ ضعيف ، أو طفل صغير ، أو امرأة باكية ، أو عورة بادية ، أو ذو قرابة فاستغفر هذا ، واستصفح ، وسأل ، وتشفع .

ثم رُويت أخبار في قطيعة الرحم ، وعُدّت آثار في صلة القربى ، فضاق النَفَس ، واشتدّ الخَنَق ، وتجرّع هذا المظلوم الغيظ ، وصَبَرَ وأنِف ، واحتمل واحتسب ، وعفا وغفر ، والشر عتيد ، والبلاء يزيد ، والطبع أغلب ، والعـادة لا تنزع ، والجاهلُ لا يقلع ، فهل دواء هذا إذا اتصل وطـال ، وامتدّ ، وتتابع ، وزاد ، وتضاعف ، إلا الصريمة والاعراض ، والقطيعة والانقباض ، فدواءُ ما لا تشتهيه النفس تعجيلُ الفراق ، وأنا جعلني الله فداء القاضي ذلك الملآنُ المغتـاظ الذي قد عيل َصبْرُه ، وضـاع حلمُه ، وضاقت َنفْسُه ، وقُرح قلبُه ، ونضجت كبدُه . وقلّت حيلتُه ، وعظمت

---

(١) المنو : صاحب الأمنية .

بليتهُ ، وهذا الجاهل ابني ، وما هو بابني من انتهى بي إلى هذه الشكوى ، وقصدني بهذه البلوى ، وعقّني وخالفني ، وبغى عليّ ، وباغضني ، وارتكب معي ما لا يحل ، بعد أن ربيته صغيراً ، وأعززته كبيراً ، وأوليته جميلاً ، وأبليته جسيماً ، وصُنْتُه شديداً ، وحُطْتُه دهراً طويلاً ، وخُضتُ دونه الأهوال ، وقاسيت في حمايته الأغوال ، أجمُّه وأتعب ، وأقلّه وأتعطّل ، وأعزه وأذلّ ، وأغترب ليقيم ، وأنعمه وأشقى ، وأتحمل عنه ليرضى ، فما يعرف لي حقاً ، ولا يتأتى ، ولا يرعى ذماماً ، ولا يهدي ، وبتهيأ متعرضاً مستخفاً بي ، ولو أمنتُ مَلالَ القاضي أدام الله أيامه لعددتُ مقابحه ، وذكرتُ مساوئه ، ووصفتُ ما يرتكبه من عظائمَ هي به متصلة ، وإليّ منسوبة ، وأنا أفزع من يسيرها ، وأجزع من قليلها ، ولا أحبُّ أن أراها وأعاينها في جارٍ أو قريب ، وقد زجرتُ ووعظتُ ، وقلتُ وأرسلتُ ، وكاتبتُ وشافهتُ ، وعاينْتُ وخاطبتُ ، وسددتُ وهولتُ ، ورغبتُ وأوجعتُ ، وضربتُ الأمثال ، وذكرتُ السير ، وخوّفتُ وحذّرتُ ، فما انتفعتُ ، وجرائمه تكثر ، وجرائره تغلظ ، ولا فضل فيّ ، ولا احتمال معي ، ولا بقيّة للاغضاء عندي ، وغرضي في هذه المخاطبة ، ومغزايَ من هذه الشكوى والمباثة ، أن يشهد القاضي أني بريء منه ، قاطع له ، عادلٌ عنه ، غيرُ راضٍ بقوله ، ولا فعله ، نازعٌ ما ألبسته من بُنوّة ، مطّرح له دُنيا وديناً ، ليس مني ولا إليّ ، قد تبرأتُ منه ، وصرمتُه ، ووكلته إلى اختياره ، ورفعتُ عنه يدي ، وأسلمته إلى الله ليأخذه بحقي ، ويقبل به دعائي ، ولا يحفظ عليه ما لم يحفظه عليّ . اللهم ! اسمع واشهد ، وكن حسيبَ الظالم ، واحكم بيني وبينه يا خير حاكم !

وهذه شهادة لي عند القاضي يحفظها ، كما يحفظ اليه من حقوق

عمله ، فاني مطالبُه بها يوم يقوم الأشهاد ، / وكفى بالله العليّ شهيداً . [٣٠ب]

وهذه أبقاك الله رسالة تدل على قرحـــة دامية ، وعين باكية هامية ، ونفس ٍ قد ولِهَت عما حلّ بها ، وإن غلاماً يُحْوِجُ أباه إلى مثل هـــذه البراءة والشكوى منه والتألم ، لَغلام سوء ، والله أكرم من أن يجبره في الدنيا ، وأن يسعده في الآخرة ، وكل هذا دليل على أنه عارٍ من الديانة ، سليب المروءة ، وقد رضي بظاهر حاله وإن لم تدم له ، ولهى عن عاقبة أمره وإن لم يَنْجُ منه .

وحدثني أبو الفادي الصوفي قال : كنت عند العميد ببخارى وقد جرى ذكر ابنه أبي الفضل فقال : كنت أشك في ولادته قبل هذا ، والآن فقد تحقق عندي ما كان يريبني منه ، فإن الاناءَ رشّاحٌ بما فيه .

[جواب القاضي على الرسالة]

ثم أفادنا حمزة المصنّف جواب القاضي للعميد وذاك أنه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم . وصل كتابُ العميد أعزّ الله جلالته ، ووفر عليه كرامته ، وأدام له نعمته وحياطته ، وأنس وصوله ، وأوحش محصوله ، ويعزُّ عليّ أن أقرأ كتابه بعد عهدٍ دارس ، ودهرٍ متقادم مُنبئاً عن قرائح صدره ، وجرائح فؤاده ، وقد والله زاد عجبي من هذا الحديث كله ، وشركته في جميعه ، وسألت الله اللطيف فَيْئةَ هذا الغلام إلى حظه ، ونظراً إلى قلب قد أضرم فيه نار العقوق ، وأفرج عن لوازم الحقوق ، فانه إذا وفق لذاك كان فيـه صلاحُ معاشه الذي هو عاجلتُه وسلامة مَعاده الذي هو آجلته ، هذا مع الذكر الجميل الذي ينشر له ، وبركة دعاء شيخه إذاعادت عليه ، وقد كتبت إلى الفتى أكرمه الله بما ان هُدي لرشده ، ووفق لحظه ، غُبط واغتبط ، وإن كثر منـــه

اللجاج والمحك خُبط واختبط ، والله يفتح بصره ، ويأخذ بيده فيعلم ما في البراءة من البنوّة ، والتعري من الأبوة من الهُجنة الشنيعة ، والفضيحة الفظيعة ، ولم أقنع بالكتاب ، وبما تصرفت فيه من لواذع العتاب ، حتى كتبت إلى أبي الحريش وسألته إحضاره ومناظرته ، واستخراج ما عنده مع التهجين الشديد ، وشوب ذلك بالوعد والوعيد . وغالب ظني أن تلك القسوة تحول رقة ، وتلك الفظاظة تعود ليناً ، ولو كنت في مقرّه ، أو كان في صُقعي لكان لي في هذه القصة جد وانكماش يحمدني عليها العميد ، ولكني منه بعيد ، وانٍ ، وعائذ بالله ، تقاعس وَعْظي عنه ، ونبا نصحي دونه بعد التلطف والاجتهاد ، فالأسى والأسف أعزّ من أن يُرسلا وراءه ، أو يُقاما إزاءه ، والولد قد يموت باراً ، ويفوت عاقاً ، فليطب قلب العميد عنه فائتاً ، كما تسلو النفس عن العزيز مائتاً ، ولعل العتب يُسْفِرُ عنه بما يسر منه ، فللزمان في تقلبه غرائب ، وللدهر في تصرفه عجائب ، وأنا أسأل الله أن لا يخليني من العميد عُمدة ، ولا يريني فيه ومنه سوءاً وغمّة ، ورأيه في مواصلتي بكتبه المحملة برّه ، وتفضله بمثابتي وتصريفي على تكاليفه متوقع مشكور ، وأنا عليه حامد شكور .

[الأصل والفرع]

ثم قال الخليلي : وجده مع هذا ساقط يلقب « بكَلْمَه » وهو كناية عن شيء قبيح على زعمه ، كان نخّالا في سوق الخياطين أو حمّالا أو منقّياً ، وكان يحرس السوق أيضاً بالليل ، والعِرق لا ينام ، ولا بدّ للأصل من أمارة في الفرع ، كما لا بدّ في الفرع من إشارة إلى الأصل ، والأصل والفرع متشابهان ، إلا أن هذا الخافي ينطق عنه ذلك البادي ، وذلك البادي يشهد له

هذا الخافي ، ولهذا قالت العرب : لكل إناء رشح ، ولكل سقاء نضح ، ولكل شجرة سوس ، ولكل دوحة عيص [١] ، وكنت إذا نظرت إلى أبي الفضل تجده غضبان من غير مغضب، سبج الأنف ، متخازر [٢] الطرف ، كالح الوجه ، كأنما وجهه بالخل منضوح [٣] ، كأنه يعافك أن تنظر اليه ، أو يتقزز منك إذا كلمك ، يتجعد عليك قبل أن تلاطفه ، ويردك قبل أن تسأله، ويؤيسك قبل أن ترجوه ، ويحرمك قبل أن تمتري [٤] معروفه ، ويسفك دمك إن أكلت خبزه ، والويل لمن أعرب عنده واستمر في كلامه ، أو تخيّر لفظة له ، أو نشر أدبه ، وكان يقول لمن يراه بارع اللفظ ، خفيف الروح ، لذيذ الحديث ، خفيف اللسان : يا قس بن ساعدة ! هاتِ حديثك . ياسُحْبان وائل ! مر في هزارك ، يا سعيد بن حميد ! لا تحفل بنظّاراتك . كل هذا بهزء وسخرية وتهافت ، وكشر عن ناب أقلح [٥] ، ومضغ للكلام ، وليّ الشّفة والشّدق ، كأنه ثلج جامد ، أو شيء تارز [٦] ، ولهذا قال ابن أبي الثياب :

أبا الفضل لا في الحرا أنت ولا الأنس
وطبعك طبع الموت يورد في اليَبْس

فهذا هذا !

---

(١) العيص : الشجر الكثير الملتف أو منبت خيار الشجر وهو أيضاً الأصل . يقال : هو من عيص كريم أي من أصل كريم .

(٢) تخازر : أي ضيق جفنه ومنه متخازر .

(٣) عبارة للجاحظ في البخلاء .

(٤) امترى : استدر واستخرج .

(٥) القلح : صفرة تعلو الأسنان .

(٦) التارز : كل قوي صلب ، وهو أيضاً اليابس لا روح فيه ، والميت لأنه يابس .

[الشيخ الطبري]

وحضرت مجلسه ذات عشية في شهر رمضان مع الفقهاء والزعيم ابن شاذان وهو على القضاء ، فلما كادت الشمس تَجِبُ (١) وهي حيّة بعد ، وقف حاجب له حيال الجماعة وأشار بالقيام والانصراف فقطعوا مَتْنَ مسألة كانوا فيها ، وتركوها بتراء ، وتبادروا إلى الخروج من الباب ، وقعد عنهم شيخ طبري في كساء عليه ، خلق ، فقال له الحاجب : قم يا شيخ والحق بأصحابك ،ما تأخرك عنهم ، ولماذا أنت لازم مكانك من بعدهم ؟ فقال الطبري : هذا فضل من الكلام ، أنا رجل غريب ، قدمت اليوم من بلدي ، ومحلي من العلم قد بان في هذا المشهد ، العظيم الشرف ، الكبير الفائدة ، وهذا هو المساء وأنا صائم ، وإن خرجت أعجز عن مصلحتي في هذه العشية ، والغريب أعمى ، ولست أعدم ها هنا إن شاء الله ما يمسكني إلى غد ، ثم أغدو لشأني وما لا بدَّ منه لغريب مثلي في بلد الغربة . فقال له الحاجب: أنت طبري وليس في قلنسوتك حشو ولا قطن ، والكلام معك يصدع ، وأقبل بغضب ، وجذب يده بعنف حتى أخرجه من المجلس بعد أن شتمه / وخبث القول له ، ووكل به من ألقاه وراء [٣١أ] الباب ، مدفوعاً في ظهره ، مدقوقاً في قفاه ، مشتوماً في وجهه ، وكل ذلك بعين الرئيس الخسيس وسَمْعِه ، لأنه كان بهيبته في صدر مجلسه على حَشِيَّة قد استلقى وهو يَسْمَعُ ويَرَى فما قال في ذلك كلمة سوداء ولا بيضاء ، فلو شاهدت الطبري البائس على الباب ، وقد احتوشه (٢) المارة يقولون له : ياشيخ !

---

(١) وجبت الشمس : غابت .

(٢) احتوش القوم الرجل وعليه : أحدقوا به وجعلوه وسطهم .

ما جنايتُك ؟ ما الذي دَهاك ؟ قال : يا قوم ذنبي أني طمعت في عشائهم ، ورغبت في المبيت عندهم ، وأن أكون ضيفاً نازلاً بهم . فقال له رجل منهم : أنت مجنون ، لقد تخلصت بدعاء والدتك الصالحة ، وسلمت سلامةً عجيبة ، أتطمع في طعام الاستاذ الرئيس ؟ وابليسُ لايحدّث نفسه بهذا ، والشياطين لا يقدرون على ذلك .

[أبو الفتح وابنه]

ولقد أراد أن يطيّر ابنه من رأس الجوسق ، لأنه طلب زيادة رغيف في وظيفته ، وصبّ على هامة أبي الفضل في تلك العشيّة من نوادر العامة وسخافات الحشويّة ومن ضروب الكذب والصدق ما لا يحصل . وللرازيين[1] جرأة على الكلام ، وتحرك في النوادر ، ومن ذا الذي ردّ أفواه الغوغاء الأوباش ولو افتدى من هذا كلّه برغيفين ، وفلذة لحم لكان الربح معه ، ولكنّ الشقيّ بكل حبلٍ يختنق . قال الخليلي مرة : لا تنظر إلى نقاء الثوب ، وحمرة الوجه ، وفراهة الموكب ، وإلى الصفف[2] والحشد ، والخيل المسوّمة العِتاق ، ولكن انظر إلى عِرْض الرجل كيف هو ، وإلى الشكر له كيف هو ، وإلى درهمه من أين وجهه ، وإلى أين توجهُه ، واجهد أن تسلّ من تحت مصلّى الرئيس أو مخدته ، أو دواته تذكرته وانظر فيها ، فإن كان قد كتب بخطه يتفقد فلان بكذا ، أو يسأل عن فلان لينظر في مصلحته، ويُحمل إلى فلان شيء من الحنطة وشيء من الثياب ، وشيء من الذهب والفضة ، ويوفد فلان على فلان ليصيب خيراً ، ويولي جميلا ، ويقلّد

---

(١) الرازيون : مفردها رازي نسبة إلى الري .

(٢) الصفف : ما يلبس تحت الدروع .

فلان لينجبر قليلاً ، ويُعفى عن فلان وإن كان عظيم الجرم ، ويُستصلح أمر فلان وإن كان قد تنبّذ (١) طريق ذلك ، وتكلم الأمير في باب فلان حتى يجدّد الرضا عنه ، فإن كانت التذكرةُ مشتملةً على هذه وأشباهها فاعلم أن الله قد استخلفَ صاحبها على عباده ، وجعله مناراً للمحتاجين في بلاده ، وإن كان على غير ذلك فاغسل يدك منه بالأشنان البارقي ، ولا تحجه بأملك ولا تقدّسهُ بثنائك ، ولا تَعصِ ربك بحسن ظنّك فيه ، وعدّه في الموتى ، وما أجود ما قال القائل :

من ضنَّ بمعروفٍ
عددناه من الموتى
فكانت راحةٌ منه
ومن سوف ومن حتى

[عود إلى بخل ابن العميد]

فهل يكون أبقاك الله فعل ابن العميد بالشيخ الطبري إلا فعل من خَذَله الله وأسلمه من يديه ، ولم يؤهله لخيرٍ يجزي به ، ويكون هو سبباً لتمامه ، وهل هو إلا فعل مَنْ في أصله خبث ، وفي منشئه دَخَل ، وفي طباعه خِسّة ولؤم ، مع قحة الوجه ، ونذالة النفس ، وقلة الاكتراث ، والطُغيان الذي هو باب الكفر الذي هو خسران العاجلة والآجلة ، وقد كان يمكن أن يدبّر ذلك الشيخ البائس بأقرب شيءٍ وأسهله ، ولعله كان عند الله أبرّ منه وأزكى ، وكان يتقي أن يثنى عنه مثل هذا الحديث الذي

---

(١) أنبذ وانتبذ ونبذ : جلس ناحية ، ومنه الانتباذ : التنحي .

مسموعُه يغيظ ، فكيف مشهودُه ، وانَّ طينة تكون مبلولةً بهذا الماء ، موضوعةً في هذا الهواء ، مذكورة بهذه الأفعال والأسماء ، أعتقد أن للكلب والقرد والخنزير مزيةً عليه ، هذا وهو صاحب المال المجموع ، والدخر الكبير ، والضياع الفاشية ، والصامت الواسع ، مع الاقتطاع والاحتجاز ، والسرقة والنهب ، كان رزقه في السنة ألف ألف درهم يردها في الخراج . وكان ارتفاعه يزلُّ عن الحساب ويفوت التحصيل وفيه قال ابن عبدان الاصفهاني :

الاستاذون في الدنيا كثيرٌ
وما فيهم سوى نذلٍ خسيسِ
وكلّهمُ أراهم عن قريبٍ
فدى الأستاذ سيدِنا الرئيسِ
وسيّدُنا الرئيس فداء كلبٍ
فما هو بالرئيس ولا النفيسِ

[ابن العميد والفلسفة اليونانية]

والعجب من بخل هذا الرجل ونذالته مع تفلسفه وتكثره بذكر أفلاطون وسقراط وأرسطوطاليس ومحبتهِ لهم مع علمه بأن القوم قد تكلموا في الأخلاق وحدودها ، وأوضحوا خفاياها ، وميزوا رذائلها ، وبينوا فضلها ، وحثّوا على التخلّق بها ، وساقوا ذلك كلّه على الزهد في الدنيا ، والقناعة باليسير من حطامها ، وبذل الفضول منها للمحتاجين اليها ، والمُنتجعين بسببها ، والاقتصار على ما تماسك به الرّمق من جميع زخارفها ، وتحصيل

السعادة العظمى برفض الشهوات القليلة والكثيرة فيها ، والإحسان إلى الناس وغير الناس بغير امتنان ولا اعتداد ، ولا طلب جزاء ولا استحماد ، كأنه لم يسمع بما قال عبد الملك بن مروان أو سمع،ولكن حمق عبد الملك عليه[1] ، ولم يعلم أن الصواب فيما قال ، والحزم مع ما اختار .

[السمعة الطيبة]

حكى العتبي قال : قال عبد الملك بن مروان لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد : مالك وللحرثان حيث يقول فيك :

إذا هتف العصفور طار فؤادُهُ

وليثٌ حديدُ النابِ عندَ الثرائدِ

قال : يا أمير المؤمنين وجب عليه حدٌّ فأقمته ، قال : فهلاّ درأته بالشبهات ؟ قال : كان الحدُّ أبيَنَ ، وكان رَغمُه أهون . قال عبد الملك : يا بني أميَّة أحسابكم أنسابكم لا تعرضُوهـا للجهال ، فان كلامهم باقٍ ما بقي الدهر ، والله ما يَسُرُّني أني هجيتُ بمثل هذا البيت ، وأنَّ لي ما طلَعت عليه / الشمس : [٣١ب]

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم

وجاراتكم غرثى يبتْنَ خمائصا[2]

ثم قال : وما على من مُدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرهما وهما لزهير :

---

(١) العبارة غير واضحة ويبدو أن في الاصل نقصاً .

(٢) البيت للأعشى .

هنالك إن يُستَخبَلوا المال يُخبِلوا

وأن يُسألوا يُعطُوا وإن يَيسِروا يُغلُوا[١]

على مُكثريهم حقٌ من يَعتَريهمُ

وعنـد المُقلّين السماحةُ والبذلُ[٢]

قال الأندلسي : استفدنا من رواية هـذا الشيخ أن هذا الخليفة روى تستخبـلوا المال تخبلوا ، فانه كان عندنا يستخولوا يخولوا ، ولكلٍ وجهٌ .

ولكن الأنس بهذه الرواية أكبر ، وصـدق عبد الملك في مناقلته[٣] لحرثان ، ودلّ على الكرم المنافس عليه ، ونهى عن متابعة الهوى ، وقلة المبالاة ، وسوء النظر في العاقبة ، وأن بعض الفتيان إذا قال : والله لأتعرضنّ لجناية أضرب عليها ألف سوط فيصحّ عند الفتيان صبري لأعذرُ عند الناس ممن يتعرض لحرمان مُختبطٍ[٤] لمعروف ، ومنعٍ لمنتجعِ خير ، وإساءة

---

(١) الاستخبال : أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً فيشرب ألبانهـا وينتفع بأوبارها .

يسروا : من الميسر .

يغلوا : يأخذون سمان الجزر ولا ينحرون إلا غالية .

والمعنى : أنهم إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر فيقامرون عليهـا ولا ينحرون إلا الغاليةمنها.

(الديوان طبعة دار الكتب ١٩٤٤ ص ١١٢) .

(٢) المقل : القليل المال ضد المكثر . المعنى أن مياسـيرهم يقومون بحق فقرائهم كما أن فقراءهم يسمحون ويبذلون بمقدار جهدهم وطاقتهم . (ديوان زهير ص ١١٤)

(٣) المناقلة في الـكلام أن تحدثه ويحدثك .

(٤) المختبط : السـائل للمعروف من غير آصرة . خبطه زيد بخير : أعطاه .

قِرى طارق ، وتكليح وجه في وجه سائل ، وما أسهلَ قولَ الانسان : دَع الشاعر فليقل ما شاء ، ودع الزائر فليفرِ فَرِيَه كيف أحب ، ولكنه إذا زلَّ القولَ ، وطار الحديث ، وتمَّت النادرة ، فأين المتداركُ ، وأين المعتذِر ، وأين المتلافي ، هيهات ! والعرب تسمي رجلين مُخْلِداً (١) ، أحدهما من تأخر شيبه فيقول : هذا مخلد ، والآخر هو الذي يُمدح بعد موته .

[حب الثناء]

ومن لم يرغب في الثناء فقد رغب عن ملة ابراهيم خليل الرحمن ، لأن الله تعالى أخبر أنه سأله ذلك ، وما سأله إلا بعد أن أذن له ، وما أذن له إلا بعد أن علم أنه الخُلُق الأسنى ، والاختيار الأعلى ، والطريقة المثلى فقال : « واجْعَلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ (٢) » وقال : « وبارَكْنا عَلَيْهِ في الآخِرين » ثم وضع الله من أقدار قوم وأبقى ذمّهم في الغابرين فقال : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كلَّ مُمَزَّقٍ (٣) » فرأى ذلك نهايةً في تهجينهم ، والغضّ من أخطارهم وأن يتحدث عنهم بما يبعث على الاعتبار بمن أساء لنفسه النظر والاختيار . قال الشاعر :

ثمن المعروف شكرُ
ويدُ الاحسان ذُخْرُ

---

(١) خلد : دام وبقي وأبطأ عنه الشيب .
(٢) سورة الشعراء .
(٣) سورة سبأ .

وثناء الحيّ للاموا
تِ في الأحياء عُمرُ

[هجاء الصاحب]

وقال أبو هفّان في ابن عباد :

لله درُّك قد أكملت أربعةً
ما هنّ في أحدٍ من سائر البشر
العِرضُ ممتهنٌ والنفسُ ساقطةٌ
والوجهُ من سَفَنٍ (١) والعينُ من حَجَرِ

وأنشد بعضهم في ابن عبّاد وذم سجعه وعقله وخطّه وقال :

متلقّبٌ كافي الكفاة وإنما
هو في الحقيقة كافرُ الكفّار
السجعُ سجعُ مهوّسٍ والخطُّ خطْ
طُ مُنَقْرِسٍ ، والعقلُ عقلُ حمارِ

وقلت للثقيف المتكلم : أرى ابن عباد كثير الخلوة بهؤلاء العفاريت الذين تجاوزوا حدّ الغلوميّة ، أترى ذلك لفحشاءٍ وتهمة ؟ فقال : أما سمعت قول الشاعر :

كم حربة في القوم صارت جَعْبَةً
فاستر عليه فالحديث يطولُ

(١) السفن : جلد أخشن وحجر ينحت به .

وإذا الفتى حامى على ذي لحيـــة

جبناً له فوراءه عاقولُ (١)

وكان قليل التحاشي من القاذورات ، وهو الذي ألصق به الريبـــة ، وسوّغ فيه الغيبة ، وصار الانسان إذا ذكر مساوئه لا يخاف مأثماً ، لا يرتقب لائماً ، على أن مساوئه تفوت الحصر ، وتندُّ عن التحصيل .

[غضب الصاحب]

قال ابن عباد لندمائه : ما أوّل قول الشاعر :

وإنّ غداً للناظرين قريب

فقال الخوارزمي : أوله :

ألم ترَ أن اليوم أسرعُ ذاهب

وقال ابن الاعرابي : تمامها لنصيح بن منظور الفقعسي وهو :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقلْ

خلوتُ ولكن قلْ : عليّ رقيبُ

فـــلا تحسبنّ اللهَ يغفُلُ ساعة

ولا أن ما يَخفى عليـــه يَغيبُ

فأحسِنْ وأجمِلْ ما استطعت فإنمـا

بقرضك تُجزى والقروض ضروبُ

---

(١) العاقول : ما التبس من الأمر والأرض لا يهتدى بها .

فــلا تكُ مغروراً تعلّلُ بالمُنى
وقل إنّما أُدعى غداً فأُجيبُ
ألم ترَ أن اليوم أسرعُ ذاهب
وأنّ غــداً للنــاظرين قريبُ
وأن المنــايا تحت كل ثنيّــة
لهنّ سِهامٌ ما تزال تُصيبُ
ذهَبْنَ باخوان الصفـــاء فأصبحت
لهنّ علينــا نوبةٌ ستَنوبُ

فأقبل عليه بوجه كالح أربد وقال : أعرفك نذلاً ، جاهــلاً ، مأبوناً ، باطلاً ، إنما ترينا من نفسك أنك تحفظ ، ويحسن التراب في فيــك يا كلب ، ومتى نبَتَّ ، ومَنْ أبوكَ ، وعمّن أخذت ، وإلى مَنْ اختلفتَ ؟ بلى اختلفتْ عليك أمور ، وأنفقت في دبرك أيور ، أنت بمخازيها مشهور ، فتوّادك بَعْدُ ما مات ، وجذرك بعد ما نبي ، مثلك يجترىء في مجلسنا أو يقابل بوجهه وجهنا ، والله لولا رعايتنا التي جرت بها عادتنا لعرفتنا وعرّفت نفسك بنــا ، وعلى هذا وما كاد يسكت . وكان جنونه غريباً في أنواع الجنون .

[الجنون والحمق والسيادة]

لأن الجنون إذا زاحمه العقل ، والعقل إذا طلاه الحمق لم يكمل الانسان ، وأنت إذا قسمت هذا إلى العاقل وإلى الأحمق ، وإلى العاقل الذي يعتريه الحمق ، وإلى الأحمق الذي يعتريه العقل ، فهذا كما ترى ، ومن تحلّى بالسيادة ، وسام الناس الانقياد له بالطاعة يحتاج إلى خصال كثيرة يكون مطبوعاً عليهــا سوى

خصال أُخَر يكون مشغوفاً بها وباكتسابها من أصحابها بالمجالسة والسماع والقراءة والتقبل . وما أحسن ما قال عديُّ بن حاتم في صفة السيد حين سئل: من السيد ؟ فقال : السيد هو الأخرق في ماله ، الذليل في عِرْضه ، المطَّرِحُ لحقده ، المعنيُّ بأمر جماعته . وهذا جماع الكرم ، ونظام المجد .

[العقل والبخل والحمق]

وكان ذو الكفايتين يقول : خرج بن عباد من عندنا في الري متوجهاً إلى أصفهان / ومنزلة ورامين فجاوزهــا إلى قرية عامرة على ماء ملحٍ لا لشيء إلا ليكتبَ الينا : كتابي من النوبهار يوم السبت نصف النهار : يا قومُ هل هذا إلا الرقاعة ، واعلم حاطك الله أن الكمال عزيز ، فإن ما ربحه أبو الفضل بالعقل خسره بالبخل ، وكلما زاد ابن عباد بالسخاء نقص بالحمق ، على أن العقـــل لا يكون تاماً ، وهناك خساسةٌ . والسخاء لا يكون محموداً ، وهناك حماقة، والبخل في الجملة غالبٌ على المتفلسفين ، كما أن الحماقة غالبةٌ في الجملة على المنشئين .

[٣٢أ]

[غلبة البخل على المتفلسفين]

وسمعت عليّ بن المنجّم يقول وكان مُحَدِّثاً ، حلوَ الحديث ، وقد سئل: لِمَ غلبَ البخل على كل متفلسف فقـال : وجدنا الغالب على الناظرين في حقائق الأمور ، والبــاحثين عن أسرار الدهور ، وهم الموسومونَ بطلب الحكمة التي هي الفلسفة ، التمسّكُ بكل عَرَضٍ يملكونه حتى أنهم لا يُفرجون عن شيء إلا بمشقة شــديدة ، ولا يجدون ألم الشُّح والبخل ، ولا يأنفون من

عارها ، وطلبنا العلّة في ذلك مع ما يقتضيه مَذْهَبُهُم من الزهد والبذل والإيثار والتكرم فوجدناها في آثار النجوم والنظر في دلالتها ، وذلك أن الذي يدلّ على علم الحقائق والغوص فيها واستيفاء الفكر فيهـا زُحل مع عُطارد بالاشتراك ، وزُحل توجب مع شهادته الأولى الحصر والحسد والضيق والبخل ، لأن البخل يكون من جهة الخوف من الفقر ، وزحل توجبُ عجزَ النفس وخضوعاً عند الحاجات ، وإشفاقاً على الفائت لعسر آثار زحل ، وكثرة تغيّر أحوال عطارد ، قال : وهذه الدلالة موافقة لما في الطبيعيات ، وذاك أن البرد واليَبَس من آثار زحل يوجبان عوارض السوداء ، وأخلاق النفس تابعة بالنظر الأول لمزاج البدن ، فلذلك يستحيل اليه ، وكذلك حال عُطارد في خصوصيته باليَبَس ، ولأن الحرارة معدومة في زحل وعطـارد، والسخاء من جنس الشجاعة المشاكلة لقوة الحرارة ، والبخل من جنس الجبن المشاكل لقوة اليَبَس الذي يوجب العجز وضيق الصدر ، والخوف في الحاجات . قال : ولأن الزُهَرة لها من الأمور الالـهية ، والدلالة على الوحي وطهـارة الأخلاق ، مع ما توجبه من الشهوة ، والنعمة ، والبذل ، والقوة الانفعالية بسبب الرطوبة الغالبة عليها ، فهي إذا أعطت الحقائق بغير تكلّف بل على سبيل الوحي ، وتميل النفسُ إلى طهارة الأخلاق ، والتهاونِ بالمـال للمباينة الواقعة بين الأمور الالـهية والأمور الطبيعية التي بها يُطلب المال ويُتمسـك به ، فالذي يُشرك في تدبيره بين العلوم والخلق الزُهَرة ويكون صاحبها مصادقاً للحقائق عفواً ، مُبْغِضاً للمال طَبْعاً ، والذي يغلب على تدبيره في العلم والخلق زُحل وعُطـارد يتكلف العلم ويحبُّ المال ويكون مغلوباً بالبخل .

وكان جريج المُقَل إذا جرى حديث أبي الفضل قال :

صبورٌ على سوء الثناء وقاح .

وأنشد فيه :

ولا يستوي عند كشف الأمو
ر باذلُ معروفهِ والبخيلُ

ولا تعجب من اطلاق مثل هذا في ذوي الرئاسة فانه مسبوق اليه في القديم والحديث .

هذا محمد بن الجراح عمّ علي بن عيسى الوزير ساق في كتابه في أخبار الوزراء فقال : كان آل بَرْمَك أندى من السَّحاب ، وآل وهب أخَسُّ من الكلاب ، وأنشد جريج المُقَل في أبي الفضل :

لنا فيلسوفٌ عالمٌ بالطبائعِ
يخبّرنا من طبّه بالبدائعِ
رأى البخلَ حِذْقاً فهو يحمي ويحتمي
فلستَ ترى في داره غيرَ جائعِ
ويزعمُ أن الفقرَ في الجود والندى
وأنْ ليس حظٌ في اكتساب الصنائعِ
ستعلمُ بعد الموت أنك نادمٌ
وأنَّ الذي خلّفتَ ليس بنافعِ
لقد أمِنَ الدُّنيا ولم يخشَ صرفها
ولم يدرِ أن المرء رهنُ الفجائعِ

وقال : كان يدّعي له العقل ، وهو لا يرجع إلى دين ، وكلّ من فسد دينُه فسد عقلُه ، قد أعجبته فلسفته التي لا يحظى منها بطائل ، ولا يبين بين

أهلها بحقيقة ، أمن العقل أن يُنشد كلَّ شعرٍ ملحد ، ويردد كل لفظ غثّ ، ومعنىً ثقيل .

أنشد يوماً قول النضر بن الحرث :

يخبّرنا ابنُ كبشةَ أن سنحيا
وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ
أتقتلني إذا ما كنتُ حيّاً
وتحييني إذا رَمّت عظامي

وأنشد لآخر :

أصبحت جمّ بلابل الصدر
وأبيتُ منطوياً على غمرِ
إن بحتُ طُلّ دمي وإن أسكُتْ
[عنكم] يَضِقْ بذاكمُ صدري

وقال هذا لصالح بن عبد القدوس ، العاقل المجيد : أما سمعت له قوله الآخر :

باحَ لساني بمُضْمَرِ السِّرِّ
وذاك أني أقولُ بالدهرِ
وليسَ بعد المماتِ مُنْقَلَبٌ
وإنما الموتُ بَيْضَةُ العُقْرِ[1]

وهذه أمورٌ قبيحة من سِفلة الناس ، فكيف من عِلْيتهم ، وإذا سكت الناس عنهم في حياتهم خوفاً منهم نطقوا بعد موتهم تقرباً إلى الله

---

(١) بيضة العقر : أول بيضة للدجاج والعقر أيضاً الذي لا ولد له .

تعالى بالصدق عنهم ، فلا يَهيدنَّك (١) ما تسمع فان الله تعالى لا يُقيّضُ للمحسن إلا المحسن ، كما لا يُلجئ المسيء إلا إلى المسيء .

[ابن العميد وجريح المقل]

ورأيتُ المسجدي يقول لجريح المُقل : كيف وجدتَ هذا الرجل - يَعني أبا الفضل - فقال : يا بس العُود ، ذميم المعهود ، سيّيء الظن بالمعبود ، ومثله لا يَمْجُد ولا يَسُود ، فقال له : أفلا ترى هذه الأبَّهة ، والصيت ، والغاشية ، والموكب ؟ فقال : هذا وإن كان من الدولة فهي غير السُّؤْدد ، والسلطان غير الكرم ، والجَدّ غير المجد ، أين الزوّارُ والمنتجعون ، وأين الآملون الشاكرون ، وأين المُثْنون الحامدون ، وأين الواصفون الصادقون ، وأين المُنصرفون الراضون ، / وأين دارُ الضيافة والخدم الراتبون المُرتبون للخدمة ؟ هيهات لا يجيء بالطقطقة والزقزقة ، أما تسمع الشعر : [٣٢ب]

أبا جعفرٍ ليس فضلُ الفتى
إذا راحَ في فرطِ إعجابهِ
ولا في فَراهةِ بِرْذَوْنِهِ
ولا في نظافةِ أثوابهِ
ولكنّه في الفَعال الجميـ
ـلِ والحسبِ الأشرفِ الثّابهِ

---

(١) هاده يهيده هيداً وهاداً : أفزعه وكربه .

[ابن العميد والبحتري]

وكان أبو الفضل يُطري البحتري ، ويعجب من غزله وتشبيبه ، ويستسهل في الجملة طريقتَه ، ورَجُلٌ حاضرٌ يخالفه في ذلك ، فقال أبو الفضل :

البحتريُّ يروم غايةَ شعرهِ
مَنْ لا يُقيم لنفسهِ مِصراعَا
أنّى يرومُ مِثاله ولو ابتغَى
تقويمَ قافيةٍ له ما اسطاعَا
جذب العلاء بِضَبْعه (١) فأحلّه
بين المجرّة والسِّماك رباعَا

قال : فخزيَ الرجل وسكت .

[موعظة أبي الفضل الكيمائي لابن العميد]

وحدّثني أبو الفضل الكيمائي (٢) قال : قلتُ لأبي الفضل بعد أن سمّ الحاجب النيسابوري ، وبعد أن خطب على حمد ، ودسّ إلى ابن هِندو وغيرهم من أهل الكتابة والمروءة والنعمة : لو كففتَ ، فقد أسرفتَ ، فقال : يا أبا الطيّب أنا مُضطرّ ، فقلت : أيُّ اضطرار ها هنا ، والله إن مخادعتنا لأنفسنا في نفعنا وضرّنا لأعجبُ من مُكابرة غيرنا لنا في خيرنا وشرّنا ،

---

(١) الضبع : وسط العضد ، العضد كلها .
(٢) راجع معجم الأدباء ٢١١/١٤

وهذا والله رَيْنُ[1] القلب ، وصدأ العقل ، وفساد الاختيار ، وكدرُ النفس ، وسوءُ العادة ، وعدم التوفيق ، فقال : يا أبا الطيّب أنت تتكلم بالظاهر ، وأنا أحترق في الباطن . فقلت : إن كان عذرُك في هذه السيرة المخالفة لأهل الديانة ، وأصحابِ الحكمة قد بلغ بك هذا الوضوح والجلاء ، فانك معذورٌ عندنا ، ولعلك أيضاً مأجورٌ عند الله مالكِ الجزاء ، وإن كنتَ تعلم في حقيقته غيرَ ما تراجعني عليه القول ، وتناقلني فيه الحِجاج فانك من الخاسرين الذين قد باؤوا بغضبٍ من الله على مذاهب الناس أجمعين ، فبكى ، فقلت : البكاءُ لا ينفع إن كان الاقلاعُ ممكناً ، والندمُ لا يجدي متى كان الإصرار قائماً . هذا كلّه بسبب ابنك أبي الفتح ، والله إن أيام ابنك لا تطول ، وان عيشه لا يصفو ، وإن حاله لا يستقيم ، وله أعداء لا يتخلص منهم ، وقد دلّ مولدُه على ذلك ، وانك لا تدفع عنه قضاء الله ، وهو لا يغني عنك من الله شيئاً ، فعليك بخُوَيْصة[2] نفسك . وهذا موضوعٌ يروى عنه بعض ما هو فائدة من الأدب والحكمة ، وإن كان استيعاب ذلك شاقاً ، فان الرجل كان كثير المحفوظ ، جيّد الاقتضاب.

[اللغة والكناية]

حدثني ابن فارس : جرى بين يديه أسماء الفَرْج وكثرتها ، فقال بعض الحاضرين : ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع قبحها ؟ فقال : لما رأوا الشيء قبيحاً جعلوا يكنّون عنه ، وكانت الكناية عند فشوّها تصير إلى حدّ الاسم

---

(١) الرين : الدنس .

(٢) في الأصل خويصية : وخويصة الانسان : ما يختص بخدمته .

الأول ، فينتقلون إلى كناية أخرى ، فاذا اتَّسعت أيضاً رأوا فيها من القبيح مثل ما كنّوا عنه من أجله ، وعلى هــذا فكثُرت الكنايات ، وليس غرضهم تكثيرَها .

[تفسير بيتين]

وحدثني الهرَوي قال : سألت يوماً ابنه أبا القاسم ـ وكان أخاً لذي الكفائتين مات قبله ـ عن قول الشاعر:

فما لكم طلْس الثيــاب كأنـكم
ذئاب الغضَـا والذئبُ بالليل أطلسُ

فقال ولده : هو ظاهر إلا أن يكون تحته معنى . فقلت مهازحاً له : أهو ظاهرٌ لك ، أو ظاهرٌ عنك ، أي غائب ، ومعنى ظاهر عنك أي مجانبٌ لك ، بارزٌ عنك ، ومنه قول الهُذَلي :

وعيَّرها الواشونَ أني أحبُّهــا
وتلكَ شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

وفسّر البيت فقال : يقول مالكم مُجاهرين لي بالعداوة ، ولا تجاملونني في حال ، فالذئب أصلحُ منكم ، لأنه بالليل أطلسُ أي مجاهرُ بالليل فقط ، ومداجٍ بالنهـــار ، فهو مجاهرٌ في وقت ، ومداجٍ في وقت ، وأنتم مُصرّون على المداوة .

[فِقَر لابن المعتز]

وكان يحفظ فقراً كثيرة لابن المُعتز ويرويها في مجلســـه في الوقت بعد الوقت ، وكان يُوهم مَنْ حضر أنه من اقتضابه منها قوله : إنّ في الحِكم

أنّ المتواضع من طلاب العلم والحكم أكبرُهم حظاً ، كما أن المكان المُتطأمِن(١) من أكثر البقاع ماء . وأنسُ الأمن يَذْهب بوحشة الوحدة ، ووحدة الخوف تذهب بأنس الجماعة ، ومنعُ الحافظ خير من عطاء المضيّع . وإذا طِرْتَ فقَعْ قريباً . والرجال يفيدون المال ، والمال يُفيد الرجال . إذا أبصرتِ العينُ الشهوةَ عَمِيَ القلب عن الاختيار . من رأى الموتَ بعينِ أمَلِه رآه بعيداً ، ومن رآه بعين عقلِه رآه قريباً . العقلُ صفاء النفس ، والجهل كدَرُها . لا تلبّسِ(٢) السلطان في وقت اضطراب الأمور عليه ، فان البحرَ لا يكاد راكبه يسلم في حال سكونه ، فكيف مع اختلاف رياحه ، واضطراب أمواجه . وإن الله تعالى أضاف إلى كل مخلوقٍ ضِدَّه ليدلّ على أن الوحدة له وحده . كرم الله لا ينقض حكمته ولذلك لم تقع الاجابة لكل دعوة . للطالبِ المُنجح لذة الادراك ، وللطالب المحروم لذة اليأس . ومن صحب السلطان فليصبر على قسوته كصبر الغوّاص على ملوحة ماء البحر . والعالم يعرف الجاهل لأنه كان مرة جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن مرةً عالماً . ومن جعل الحمد خاتماً للنعمة جعله الله مفتاحاً للمزيد . لو تميّزتِ الاشياء لكان الكذبُ مع الجُبن ، [٣٣٣أ] / والصدقُ مع الشجاعة ، والراحة مع اليأس ، والتعب مع الطمع ، والحرمانُ مع الحرص ، والذلُّ مع الدَّيْن ، ومال الميت يُعزّي ورثته عنه . كيف تريد من صديقك خُلُقاً واحداً وهو ذو أربع طبائع . ترقع خِرَق الدنيا وتتسع ، وتشعبها(٣) وتتصدع ، وتجمع منها ما لا يجتمع .

وكان مليئاً بهذا النمط ، ويفرغ في قالبه ، ولكن لم يكن له منه

---

(١) تطأمن : انخفض .
(٢) تلبس : خالط .
(٣) الشعب الجمع والتفرق ، من الاضداد .

إلا لَعْقَة [١] اللسان ، وصَدَى الصوت ، وتقطيع اللفظ . فأما التخلّي [٢] والعمل فكان منهما على بُعدٍ ، والعقلُ متى لم يُثمر كرماً فهو وَبَال ، والحكمة متى لم تورِث عملاً فهو خَبال [٣] ، والكرم ما قاله الأعرابي حين سُئل عنه فانه قال : أما الكرم في اللقاء فالبَشَاشةُ ، وأما في العشرة فالهَشاشة ، وأما في الأخلاق فالسَّماحة ، وأما في الأفعال فالنَّصاحة ، وأما في الغنى فالمشاركة ، وأما في الفقر فالمواساة .

[الوزيران بين الحب والبغض]

قلت لأبي السلم نجية بن علي : أ إبنُ عبّاد أحبُّ إليك أم ابن العميد ؟ قال : مافيهما حبيبٌ ، على أني برقاعة هذا أشدُّ انتفاعاً مني بعقل ذاك ، هذا يغضب إذا ترفعت عن عطائه ، وقبضت يدك عن قبول برّه ، ومشيت ناكباً عن بابه وقصده ، وذاك كان يحقد إذا رجوتَه وتعرضتَ له ، ويغضب إذا أثنيتَ عليه ، وطمعت فيه ، وهذا يكذب متماجناً ، وذاك لا يصدق مع الدماثة ، ويَقْنط [٤] ، وهذا يفعل الخير وإن قاله ، وأفشاه ، ويَبجح [٥] به ، وسحب ذيله عليه ، وذاك كان لا يُقلع عن الشر ، وإن قُرع في وجهه باللائمة ، وكُشِطَ عِرضُه بالمذمّة ، وَهَمُّ هذا في الأخذ والإعطاء ،

---

(١) لعق : لحس وتناول بلسانه أو إصبعه عسلاً أو نحوه .

(٢) التخلي : التفرغ للشيء .

(٣) الخبال : الفساد والنقصان والهلاك .

(٤) القنط : المنع .

(٥) يبجح به : فرح .

والإبعاد والإدناء ، وكان دأبُ ذاك الجمعَ والمنع والتفلسف ليقعَ اليأس منه ، ويتلذذ بالخيبة عليه ، وهذا يقولُ ويفعل بعض ما يقول متجلّداً،وكان ذاك لا يُهِمّ ولا يَنوي ، ولا يظنّ ولا يحلم ، فضلاً عن القول المُطمع ، والعمل النافع ، وعيب هذا أنه يذوبُ حتى لا يحصل لك منه شيء ، وكان عيبُ ذاك أنه يجمد حتى لا ينتفع منه بشيء .

[الصاحب في نظر الناس]

وقلت لأبي السلم يوماً وقد خرج من دار ابن عبّاد : كيف ترى الناس ؟ فقال : رأيت الداخل ساقطاً ، والخارج ساخطاً . وأخذه من قول شبيب فانه خرج من دار المهلبي وقال : تركت الداخل راجياً ، والخارج راضياً .

[كلام أبي السلم]

وكان أبو السلم من فصحاء الناس سمعته يقول : الكسير يعثم[1]،والحسير يؤثم . وقال أيضاً : ما أحسن منقادَ هذا الطائر بالدال . وقال للبديعي لما رأى تعسفه في العربية : يا هذا ، الكلام لا يواتيك قسراً ، ولا يطيعك كارهاً تكلم على سجيّة النفس ، وعفو الطباع ، واطرح البقية جانباً ، وجانب التكلف ، واتبع المعنى يتبعك اللفظ ، والحظ العقل فانه نورُك ، والزم الجادة فهي مسلكك ، ولا تذلنّ فتجزى ، ولا تعزّن فتقضى ، وتحكّم وأنت مُبق ، وخُذْ كأنك مُعْطٍ ، وكسّر لهـاتك بتصاريف الكلام مشقِقاً لا متشدقاً تبلغ إرادتك ، وتملك عادتك .

---

(١) عثم العظم المكسور : انجبر على غير استواء .

[أبو السلم يهجو ويمدح]

قلت له : كيف كان حديث ابن العميد ؟ قـــال :

ألذُّ من السلوى إذا ما تشورها

وحديث ابن عبّاد أنتن من الصُنان ، وأثقل من الصـــدام ، وأبغض من القَضَض (١) في الطعام ، وأوحش من أضغاث الأحلام ، يتشاجى كأنه صبيٌّ مُترعرع ، يظن أن الأرض لم تُقِلّ غيره وأن السماء لم تُظِلّ سواه ، أما سمعتَهُ يشتم في هذه الأيام إنساناً فقال : لعن الله هـــذا الأهوج الأعوج ، الأفلج الأفحج الخفلج ، الذي إذا قام لجلج ، وإذا مشى تفحّج ، وإن تكلم تلجلج ، وإن تنفّس تمجمج ، وإن مشى ترجرج ، وإن عدا تفجفج !

قال : فهل سمعت بكلام أنبـا عن القلب وأسمج من هذا ، نعوذ بالله من العجمة المخلوطة بالتعريب ، ومن العربية المخلوطة بالتعجيم ، ولو أن هذا النقص لم يدل إلا على اللفظ الذي معدنه اللسان ، لكان العذر أقرب ، ولكنه كاشف لعَوْرَةِ العقل ، هاتكٌ لستر المعرفة ، ومن استدرجه الله إلى هذه الحال فقد خذَله وإن ظنّ أنه منصور ، وأفقره وإن حسب أنه مُثْر .

[غضب الصاحب]

وسمعته يقول لكاتب بين يديه وقد كتب : من اسماعيل بن عبّاد ، وكانت العين من اسماعيل قد تطلست ، ولم يكن لها بياض المشقين (٢) بتعجْرُفِ (٣) الكاتب والقلم . فقال : يا هذا عيني هكذا ينبغي أن تكتب ؟ بالله أنت أعمى ! أما ترى عيني ! أنظر اليها حسناً ، أهي مطموسة ؟ أهي مخلوسة ؟ أهي ممْلوسة ؟

---

(١) القضض : صغار الحصى .
(٢) مشق الخط : مده ، وقيل أسرع فيه .
(٣) تعجرف : من العجرفة أي قلة المبالاة بالعمل .

أهي مَطلوسة ؟ أهي مَمْروسة ؟ أهي مَمْسوحة ؟ أهي مَمْزوحة ؟ أهي مَسْطوحة ، وما كاد يسكت ، وهل هذا إلا رقاعة وجهل وكلام رقعاء المعلمين والمخنثين .

[أشياء لا حقيقة لها]

وقال يوماً : ها هنا أشياء لا حقيقة لها منها : إمام الرافضة ، والاستطاعة مع الفعل ، والبذل للبخار والهيولى ، فقال الحسين المتكلم : والحال لأبي هاشم فقال : مما يوضح عندي معنى الحال أن مثلك لا يفهمه ، وكان هذا الكلام بسبب تنكُّر له شديد . فقلت : أنشدني الأندلسي أبو محمد لبعض شعراء المغرب بيتاً ذكر فيه أشياء زعم أنه لا حقيقة لها فقال : وما ذاك البيت فأنشدته :

الجودُ والغولُ والعنقاءُ ثالثةٌ
أسماء أشياءَ لم تخلق ولم تكنِ

نصب ثالثةٌ على الحال ، وقال :الرفع غالب .

[شعر الصاحب ونثره]

قال : وفي المغاربة من له هذا النمط ، قلت : قد سألته عن هذا فقال لي : في المغرب من يُقدّم نثره على نثر ابراهيم ابن العباس الصولي ، ويقدّم نظمه على نظم أبي تمام .

[محفوظات الصاحب]

[٣٣ب] فقال : فهل روى لك غير هذا / ؟ قلت : نعم أنشدني لشاعر لهم يُعرف بأبي بكر محمد بن فَرْح في طُفيلي يعرف بابن الامام :

أفديكَ من مُتوجِّدٍ غضبانِ
حتى يلوحَ له ضبابُ دخانِ
يقتادُهُ شمُّ القُتارِ بأنفهِ (١)
مثلَ اقتيادِ النَّجمِ للحَيْرانِ
وعلى الدخانِ بشتٌّ طولهُ مرِيّاً
يبدي كمين مطامع الاخوان
وبحانة الملهين جاسوسٌ له
ينبئه أين تناكح الزوجانِ
صَبٌّ إلى الطوفانِ مرتاحٌ إلى الجـ
ـجَوَلانِ مضطغِنٌ على الخلانِ
فترى الاماميين حولَ ركابهِ
كالخيل صايعةً ليوم رهانِ (٢)
لو يسمعون بأكلةٍ أو شَربَةٍ
بعُمانَ أصبحَ جمعُهم بعُمانِ
زار الفتى القرشيُّ لا لتعهدٍ
منه ولا شوقٍ إلى لقيانِ
حتى إذا وُضِع الخِوانُ تساقطوا
نَهماً عليه تساقُطَ الذُّبانِ

---

(١) القتار : الدخان من المطبوخ ورائحة اللحم والشواء .

(٢) صاع يصيع صيعاً : الغنم فرقها . وتصيع الماء : اضطرب وماج .

ورأيتَـــه من بينهم متخمطاً
في لقمه كتخمُّطِ السكران (١)

لم ينصرف إلاّ وفي أكمامه
حَمَـلٌ وفي أعفاجهِ حملانِ (٢)

وأخو ثقيفٍ فرّ منه قاصداً
جَيَّانَ لو أغنت قرى جَيَّان (٣)

لو حلّ في نجرانَ لم يَبْعُد على
عَزَمات بيته مـــدى نجرانِ

كالموت يُسعى في التخلّصِ جاهداً
منه وتلقـاه بكلّ مكانِ

فعجب من الأبيات وقال : ماذا قال لك في تفسير شتّ طولة ؟ فقلت : زعم أنها بليدة . قال فما جيّان . قلت : زعم أنه مكانٌ يعرف هكذا . قال : أكتب الأبيات وارفعها إليّ بنجاح — وكان خازن كتبه — ثم قال : ماأنشدك شيئاً في الغزل ؟ قلت : بلى أنشدني لأبي عمرو الأندلسي :

مهلاً فما دينُ الهوى كفرٌ ولا
اعتـــدُّ عذلك لي من التنزيلِ

مَنْ حاكمٌ بيني وبين عذولي
الشّجوُ شجوي والعويلُ عويلي

---

(١) خمط الخمر : تغير ريحه . وتخمط : تكبر وغضب وهو المقصود .

(٢) جمع عفج وهو ما ينتقل اليه الطعام بعد المعدة .

(٣) جيان : كورة من أعمال اشبيلية .

فبأيّ جارحة أصونُ معذّبي
سلمتْ من التعذيبِ والتنكيلِ
إن قلتُ في عيني فثمّ مدامعي
أو قلتُ في كبدي فثمّ غليلي

وأنشدني لهذا الشاعر بعينه أيضاً :

وأحورَ إن كلمْتُه فهْوَ شاعرٌ
بياناً وإن لاحظتُه فهو ساحرُ
على خدّه للياسمينِ غلائلٌ
عليها من الورد النّضيرِ ظهائرُ[1]
حسامٌ بعينيه ونِطعٌ بخدّه
وصبغ دم العشاق في النّطعِ ظاهرُ[2]

ولابن رشيق أيضاً[3] :

ولم أدخلِ الحمّام ساعةَ بينهم
طِلابَ نعيمٍ قد رضيتُ ببؤسي
ولكن لتجريَ دمعتي مستهلةً
فأبكي ولا يَدْري بذاك جليسي

فقال : كنت أحب أن أرى أبا محمد هذا ، ولو انتجعنا لبلغْنا له

(١) ظهائر : مفردها ظهير وهو حد انتصاف النهار .

(٢) النطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس .

(٣) الحسن بن رشيق القيرواني النقاد الأندلسي المشهور (٣٩٠—٤٦٣) له مؤلفات كثيرة أهمها : العمدة في صناعة الشعر ونقده .

مُرادَه ، وأعدتُ هذه الكلمة على أبي محمد سنة سبعين فقال : والله ما أحب أن أسمع حديثه فكيف أوثر أن أبتلي برقاعته.

[الصاحب وحسين المتكلم]

وله مع حسين المتكلم جوابٌ آخر . تناظرا في مسألة فلما حَمي الوطيس ، والتحمتِ الحرب قال لحسين المتكلم : هذا كلام مَنْ لا يعرف الكلام . فقال : أيها الصاحب رفقاً فاني أعرفُ بحسين المتكلم ، ولا يجوز أن أشتهر بشيء لا أكون رأساً فيه . فقال : وما في هذا ؟ إبراهيم المسلم طبيب المارستان يُعرف بالمسلم ، وهو بعيدٌ مما يعرف به ، قريبٌ مما يُقرف به .

[تعصب الصاحب للسيرافي]

وجرى ليلة حديث أبي سعيد السيرافي ، وكان ابن عبّاد يتعصب له ، ويقدّمهُ على أهل زمانه ، ويزعم أنه حضر مجلســه ، وأبانَ عن نفسه فيه ، وصادفَ من أبي سعيــد طَوْدَ حلم ، وبحرَ علم . فقال أبو موسى المـعلّم – شيخ يعرف بالحسنكي – :إلا أنه لم يعمل في شرح كتاب سيبويه شيئاً ، فنظر اليه ابن عبّاد متنمراً ولم يَقل حرفاً ، فعجبنا من ذلك ، ثم إني توصلت ببعض أصحـابه حتى ســأله عن حلمه عن أبي موسى مع ذَبّه عن أبي سعيد فسأله فقال : والله لقد ملكني الغيظ على ذلك الجاهل حتى عَزَبَ[1] عني رأيي ، ولم أجد في الحال شيئاً يَشفي غُلّتي منه ، فصــار ذلك سبباً لسكوتي عنه فشابهتِ الحال الحلمَ وما كان ذاك حلماً ، ولكن طلباً لنوع

---

(١) عزب : بعد وغاب وخفي.

من الاستخفاف لائقٍ به ، فوالله ما يدري ذاك الكلب ، ولا أحدٌ ممّن خرج من قريته ورقةً من ذلك الكتاب ، وهل سبق أحد إلى مثله من أول الكتاب إلى آخره ، مع كثرة فنونه ، وخوافي أسراره؟.

وكان أبو موسى هذا من طبرستان ، َفعُدَّ هذا التعصب من مناقب ابن عبّاد ، وحجب أبو موسى بعد .

[تعلل الصاحب بالحجّاب]

وكان ابن عبّاد يتطلب العلل للحجّاب ، ويتعلق بالريح ، وكان له تلذذ به ، وقد حكيت ذلك آنفاً . وما سمعت في تلافي المحجوب كلاماً ألطف من كلامٍ حدثني به الخوارزمي عن السِلامي صاحب تاريخ خراسان . قال السِلامي : عاتبتُ أبا الفضل البلعمي وزير عبد الملك بن نوح بأبياتٍ على حجابٍ نالني منه فقال لي : لك عندنا بما استعتبتَ العُتبى ، وعلى ما استعديت العدوى ، أما نهارُنا فمقسومٌ بين / حوائج الناس ، وإنما نفزع [٣٤أ] بالليل للاستئناس بوجوه الأولياء والخواص ، فاحضُر النهار مباسطاً ومخالطاً ، وبالليل مؤانساً ومجالساً .

وكان ابنُ عبّاد ضدٌّ هذا ، لأنه كان يُشتكى إليه فيقول : الشكوى إليَّ من الحجّاب إغراءٌ ، والصبرُ عليه يعطِفُني إلى بعض ما يُلتمس مني .

[الصاحب والامامية]

وسمعتُه يقول : لله عندي أيادٍ مُتضاعفة ، ونِعَمٌ مُتكاثفة ، ومن أجلها أنه لم يغمسني في مذاهب الامامية ، ومع هذا كان إذا عمل قصيدة في

أهل البيت غلا وتجاوز وغضّ من الصـــدر الأول ، وادعى على الشيخين البُهتان ، وعرّض وصرّح ، وهذا من فعلاته الذميمة وجهالاته المشهورة .

[شعر في الحجّاب]

وأنشـــد ثعلبُ في الحجّاب أبياتاً وقال : ما سمعت بمثلها ، هكذا سمعناه فيما قرىء على ابن مقسم العطار النحوي :

ظننتُ به إحـــدى ثلاثٍ وربما
نزعتُ بظنٍّ واقعٍ بصـــوابهِ
فقلت : به مسٌّ من العيّ حاضرٌ
وفي أذنه للنـاس إظهـارُ ما بهِ
فان لم يكن عيُّ اللســـان فعارضٌ
من البُخل يحْمي ما لهُ عن طلابهِ
وإن لم يكن هـــذا وذاك فرتبةٌ
يُصِرُّ عليهـــا عند إغلاق بابهِ

وحدثني المرزباني قال : لقد أجاد البصير في قوله :

رُبَّ فتىً تحمـــد أخلاقه
وتسكُنُ الأحرار في ذِمتّـــه
قد كثّر الحاجبُ أعـــداءه
وسلّط الذمّ على نعمتـــه

[استطراد]

ومن طريف ما حدثنا به ابن عبّاد في الوقت الذي تلاقت فيه العساكر بقصر الجص قال: كنت في مقيلي فأتاني آت قال:

اسقني قهوةً بفرط اختياري

خرج الملكُ عن يدي مُختيار

[أبو الفتح بن العميد وشعره]

وأما أبو الفتح ذو الكفايتين فانه كان شاباً ، ذكياً ، متحركاً ، حسن الشعر ، مليح الكتابة ، كثير المحاسن ، ولم يظهر منه كلُّ ما كان في قوته لقِصَر أيامه ، واشتمال دولته ، وطفوئها بسرعة . ومن شعره :

إني متى أهزُز قناتي تنتثر

أوصالُها أنبوبةً أنبوبا

أدعو بعاليها العلى فتجيبني

وأقي بحدِّ سنانها المرهوبا

ومن شعره:

نهضت تثنّى في الكواعب

كالبدر هادته الكواكبْ

فتبرّجت سُدَفُ الدجى

وتبلّجت ظُلَمُ الغياهبْ

لله أنتِ وهُنَّ إذ

يُجْتَلْنَ من كرم صواحب

متلألئات كاللآ

لىء ضمَّها عقد الترائبْ

إني أعيذك أن تردْ

دي مقلتي بمُنًى كواذب

وتسوّدي وجه الرجا

ء وتغلقي فتح المذاهب

أوَ ما تَرَيْن مدامعي

سحّاً سحائبُها سواكب

جادت ديارُكِ أين كا

نت مثلها دُرر السحائبْ

موصولةَ الأكناف حيـ

ث الودق صائبة المَسَاربْ

محلولة الأرماق فصـ

ـماءَ العُرى وُطفَ الهيادبْ

وعدتك داهية الليا

لي والحوادث والنوائب

لا زِلْنَ منك بحيث أنـ

ت من الشوائب والمعائب

إني إذا أعزى إليـ

كِ من الأقارب أو أقارب

لا تقطعي حبل القريـ

ب وتكفري حق المناسب

فتفارقي خلق الكريـ

مِ وتضربي مثلاً لضارب

إن الأقارب كالعقا

رب بل أضرُّ من العقارب

لا تبخلي إن الكريـ

ـمة من مواهبها مناهب

كفتي السيوف عن الحتو
ف وإنْ أطاعتها المضارب
لا ترغبي عن ماجدٍ
سَمْح الخلائق والضرائب
يُعْزى لآباء غطا
رفة وأمَّاتٍ نجائبْ
إني من النفر الكرا
م السادة الشمّ الذوائب
يقظٌ إذا كَرِيَ اللئا
مُ عن العلى ككرى الأرانب
أسدٌ إذا وَنَتِ القرو
مُ عن الوغى وَنْيَ الثعالب
عفٌ أطيل ظميئتي
حتى أرى صفو المشارب
وأذلُ نفسي في الكريـ
ـهة أو أرى كرم المناسب
وإذا نُسِيء عصابةٌ
عممتُها شرٌ العصائب
كم من عدوٍ كاشحٍ
يرنو إليَّ بطرفٍ عاتب
يُبدي لنا وجه المشا
جرِ دونه صدرُ المحارب

متقلّصُ الاحشاء من
حسدٍ دُوَيْنَ الصدر راتب
لو شئت أحرقَ أهله
من نهضتي نارُ الحباحب
سلمته ليد الحوا
دثِ والأمور إلى عواقب
إن لم تكن فوق الأكفـ
ـف يدي فكانت للمغالب
أو لم تكن فوق الذُرى
قدمي فأعيتها المذاهب

وله كلام كثير ، نظم ونثر في وصف الصديق (١) ما يوفي على كل منظوم، ولو أبقته الأيام لظهر منه فضلٌ كبير .

[تفقده لأعلام زمانه]

ودخل بغداد فتكلف واحتفل وعقد مجالس مختلفة للفقهاء يوماً ، وللأدباء يوماً ، وللمتكلمين يوماً وللمتفلسفين يوماً ، وفرّق أموالاً خطيرة ، وتفقد أبا سعيد السيرافي ، وعلي بن / عيسى الرمّاني وغيرهما وعرض عليهما المسير [٣٤ب] معه إلى الريّ ، ووعدهم ومنّاهم ، وأظهر المباهاة بهم ، وكذلك خاطب أبا الحسن الأنصاري وابن كعب ، وأبا سليمان السجستاني المنطقي ، وابن البقال الشاعر ، وابن الأعرج النمري وغيرهم .

---

(١) في الأصل مطموسة .

[مجالس ابن العميد]

ودخل شهر رمضان فاحتشد وبالغ ، ووصل ووهب وجرت في هذه المجالس غرائب العلم ، وبدائع الحكمة ، وخاصة ما جرى للمتفلسفين مع أبي الحسين العامري ، ولولا طول الرسالة لرسمت ذلك كله في هذا المكان . فمن طريف ما جرى ، وفي سماعه فائدة واعتبار ، ما أحكيه لك هاهنا . انعقد المجلس في جمادى الآخرة سنة أربع وستين وثلثمائة ، وغصّ بأهله ، فرأيت العامري وقد انتدب فسأل أبا سعيد السيرافي فقال : ما طبيعة الباء من «بسم الله الرحمن الرحيم» ؟ فعجب الناس من هذه المطالبة ، ونزل بأبي سعيد ما كاد يُشدِهُ به ، فأنطقه الله بالسحر الحلال ، وذاك أنه قال : ما أحسنَ ما أدَّبنا به بعض الموفقين من المتقدمين فانه قال :

وإذا خَطَبْتَ على الرجال فلا تكنْ
خَطِلَ الكلام تقوله مُختالا
واعلم بأنَّ من السكوت لَبَابَةً[1]
ومن التكلُّف ما يكون محالا

والله يا شيخ ، لعينُك أكبر من فرارك[2] ، ولمرآك أوفى من دُخلتك ، ولمنشورك أبْيَنُ من مَطويك ، فما هذا الذى طوَّعتْ له نفسك ، وسدَّدَ عليه رأيك ، إني أظن أن السلامةَ بالسكوت تعافك ، والغنيمة بالقول ترغب

---

(١) اللبابة من اللب وهو العقل .

(٢) الفرار : مصدر فر . وفر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ماسنها ، ومنها المثل المشهور « إن الجواد عينه فرارة » يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه ومنظره يغني عن أن تفر أسنانه .

عنك ، والله المستعان ، فقال ابن العميد وقد أعجب بما قال أبو سعيد :

فتىً كان يعلو مَفرق الحق قولُه
إذا الخطباء الصِّيد عضّك قيلها (١)

جَهيرٌ وممتدُّ العنانِ مناقلٌ
بصيرٌ بعوْرات الكلام خبيرها

وقال :

والقائل القول الرفيع الذي
يُمْرِعُ منه البلد الماحِلُ (٢)

ثم التفت إلى العامري وأنشد :

وإن لساناً لم تُعِنْهُ لَبابةٌ
كحاطب ليل يجمع الرذلَ حاطبُهْ

* * *

وذي خَطَلٍ في القول يحسب أنه
مصيبٌ فما يلمم به فهو قائلُه

* * *

وفي الصَّمْتِ سترٌ للغبيّ وإنما
صحيفةُ لبّ المرءِ أن يتكلما

* * *

وفي الصَّمْتِ ستر وهو أبهى بذي الحِجا
إذا لم يكن للنُّطق وجهٌ ومذهبُ

---

(١) الصيد : مفردها أصيد وهو الرجل الذي يرفع رأسه كبراً .

(٢) أمرع المكان والوادي : أكلأ وأخصب بكثرة الكلأ .

هاتوا حديثاً آخر فقد يئسنا من هذا ، ثم أقبل على ابن فارس معلّمه فقال :
يئسنا من كلام أصحابك في الفُرْضة والشط [١] ، فلما خرجنا قلت لأبي سعيد السيرافي : أيها الشيخ رأيت ما كان من هذا الرجل ، الخطير عندنا ، الكبير في أنفسنا، فقال : ما دُهيتُ قط بمثل ما دُهيتُ به اليوم ، ولقد جرت بيني وبين أبي بشر متى [٢] صاحب شرح كتب المنطق سنة عشرين وثلثمائة في مجلس أبي الفتح جعفر بن الفرات مُلحة [٣] كانت هذه أشوس وأشرس منها . ولولا هربي من الإطالة ، وثقل النسخ ، وادخالي حديثاً في حديث لحكيت المناظرة التي أوحى اليها هـــذا الشيخ الذي كان إمامَ زمانه ، وعلمَ عصره ، لأنه حدثني بها بِزَوْبَرِها [٤] وكانت في الفرق بين النحو والمنطق وَرَيْم [٥] أحدهما على الآخر ، وإحصاء الفوائد لكل واحد منها .

[رأي ابن العميد في الصابىء]

وحضرت المجلس يوماً آخَرَ مع أبي سعيد ، وقد غصَّ بأعلام الدنيـــا ، وبنود الآفاق فجرى حديث أبي إسحاق الصـــابىء فقال ذو الكفايتين : ذاك

(١) الفرضة : من النهر ثلمة يستقى منها ، ومن البحر محط السفن.
الشط : الشاطىء
(٢) متى بن يونس القنائي نسبة إلى دير قني بالعراق عالم نصراني بالمنطق نزل بغداد بعـــد ٣٢٠ هـ وتوفي سنة ٣٢٨ هـ « تاريخ الحكماء للقفطي ٣٢٣ والفهرست ٣٦٨ ».
(٣) راجع المناظرة في الامتاع والمؤانسة ١/١٠٨-١٢٨
(٤) أخذه بزوبره وزأبره : بأجمه .
(٥) ريم : فضل .

رجلٌ له في كل طراز نسج ، وفي كل فضاء رَهج(١) ، وفي كلّ فلاة ركْبٌ ، ومن كل غمامة سَكْبٌ ، الكتابةُ تدّعيه بأكثرَ مما يدّعيها ، والبلاغة تتحلّى به بأكثرَ مما يتحلى هو بها ، وما أحلى قوله :

حمراءُ مصفرّةُ الأحشـاءِ باعثةٌ
طِيباً تخالُ به في البيت عطّارا
كأنّ في وسْطهـا تِبراً يخلّصهُ
قَيْنٌ (٢) يضرّمُ في أوراقه النّارا

وقوله :

ما زِلتُ في سُكْري ألمّعُ كفّهـا (٣)
وذراعَهـا بالقَرْصِ والآثارِ
حتى تركتُ أديمهـا وكأنما
غُرز البنفسج منه في الجُمّارِ(٤)

[رأي الصابىء في ابن العميد]

وبلغ المجلس أبا اسحاق فحضَر وشكَرَ ، وطوى ونشَر ، وأورد وأصدر ، وكان كاتبَ زمانه ، لساناً ، وقلماً ، وشمائل ، وكان له مع ذلك يدٌ طويلة في العلم الرياضي . وسمعت أبا اسحاق يقول : هو ابنُ أبيه ، لله دَرُّه ، ثم أخذ في تعظيم أبيه وقال : وكان من أمانيّ الكبيرة لقاؤه ،

---

(١) الرهج « كفلس » والرهج « بالتحريك » الغبار أو ما أثير منه .
(٢) القين : الصانع والحداد .
(٣) لمع : لونه ألواناً شتى .
(٤) الجمار : شحم النخلة وقلبها وهو أبيض . وفي ياقوت : غرس البنفسج .

وإني لكثير الاعجاب بكلامه ، لأني أجد فيه من العقل أكثر مما أجدُ فيه من اللفظ ، وإني لأظنُّ أن عقلَ كلّ أحد كان ممزوجاً ، وكان عقلُه قَراحاً .

[نموذج من رسائل ابن العميد]

قال : ولقد قرأتُ له فصلاً من كتابٍ له إلى أبي عبد الله المكّي العلوي نديمِ عضد الدولة يستحق أن يكتب بالذهب وهو : لأن تُرجى من بعيدٍ مرّات خيرٌ من أن تُقْضَى من قريبٍ مرة ، وليكن كلامُك جواباً يُتحرز فيه ، ولا تَعْجبنّ بياني كلمة محمودة ، فيلجّ بك الاطناب توقعاً لمثلها ، فربما عثرت بما يهدم ما بَنَتْهُ الأولى ثم لا تعلم (١) من تمثل صاحبك بقولهم : ربَّ رَمْيةٍ من غير رام ، وبضاعتُك في النثر قليلة ، مُزْجاة (٢)، وبالعقل يُزَمُّ(٣) اللسان ، ويلزم السداد ، فلا يستفزنَّك طربُه الكريم(٤) على ما يُفْتيك عقلُك ، والشفاعة لا تعترضنَّ لها فانها مَخْلَقَةٌ للجاه ، وإن اضطررت إليها فلا تَهجُم عليها حتى تعرف وقتها ، وتحصّل وزنها ، / ويتقدمك مَن يتكلمُ فيها ، فان وجدتَ النفسَ بالاجابة سمحةً ، وإلى الاسعاف هشّةً ، فأظهر ما في نفسك غيرَ محقق ، ولا موهم أن في الرد عليك ما يُوحشك ، وفي المنع [ما] يقبضك ، وليكن انطلاقُ وجهك إذا دُفِعتَ عن حاجتك أكثر منه عند نجاحهـا على يدك ، ليخفَّ كلامُك ، ولا يثقلَ على مستمعه منك .

[١٣٥أ]

---

(١) في الأصل تعتلم ولعلها تعلم كما أثبتنا .

(٢) مزجاة : قليلة وقيل ردية .

(٣) يزم : أي يشد .

(٤) كذا في الأصل والعبارة غير مستقيمة .

أنا أقولُ ما أقولُ غيرَ واعظٍ ، ولا مُرشد ، فقد كمَّل اللهُ خصالك، وحسَّن خلالك ، إذ فضَّلك في كل حالك ، ولكني أنبِّه تنبيهَ المُشارك ، وأعلم أن للذكرى موقعاً ونفعاً .

قلت له: قد استحسنتُ له حسناً ، وله أبلغُ منه . فقال : كذاك هو . قلت : فانه مع هذا قد أخطأ في العربية في موضع ، فدللته عليه . فقال : للهِ أبوك ، ولم أذكر الموضع أيدك الله بالقلم لتكون أنت قارئه ، أعني انك تقرأ حرفاً حرفاً حتى تُصيبه ، فليس الخطأ المستدرك بالتتبع ، كالمعثور عليه بالهجوم .

[كلام لابن العميد يرويه الصاحب]

وكان ابن عباد يروي لأبي الفضل كلاماً في رقعةٍ اليه حين استكتبه ليومه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم : مولاي وإن كان سيداً بهرتنا نفاسته ، وابن صاحبٍ تقدّمت علينا رياسته ، فانه يعدُّني سنداً ووالداً ، كما أعدُّه ولداً وواحداً ، ومن حق هذا أن يعضُد رأيي رأيَه حتى يزدادا إحكاماً وانتظاماً ، ويتظاهرا قوة وإبراماً .

وحضرتُ اليوم المجلس المعمور فكان من مولانا كلامٌ كثير ، وخطاب طويل فقلت : إنه لم يَزِدْ على الاباء والاستعفاء ، بعد التقصّي والاستيفاء ، فأومأ إلى إجبارٍ كالمسألة ، وإكراهٍ كالطِلْبة ، وأقول بعد أن أقدم مقدمة : إن مولايَ وإن كان يستغني عن جزاء الأحمق بتصوُّنه ، وظلفه ، وعزوف نفسه عن التكثر بالمال ، وتحصيله ، فان الأمر مفتقرٌ إلى كفالته ، ومحتاج إلى كِفايته ، وما أقولُ ما أقوله وغرضي إنشاء كتاب ، أو عقد حساب ، أو تفريق مال وجمع ، أو تقديم عطاء ومنع ، لأن ذلك وإن

كان مقصوداً ، وفي آلات الوزارة معدوداً ، فان في كتّابه مَن يَفي به ويستوفيه ، ويوفي عليه بأيسر مســاعيه ، لكن مولانا يريده لوليّ عهده ، ومن يرجوه ليومه وغده ، ولا بدّ وإن كان السِنْخ [١] قوياً ، والمَحتِدُ كريماً ، والفضلُ عمياً ، والمجدُ صمياً ، ومركبُ العقل سليماً ، لتهذيب من هو ممن يعرف ما السياسة ، وكيف الرياسة ، يدير العامة والخاصة ، ومن أين يجلب الأصالة والاصابة ، وكيف تعقد المَهابة ، وكيف تُرتّبُ المراتب ، وتُعالج الخطب ، وكيف تردُّ الخطوب إذا ضـاقت المذاهب ، وتُعصى الشهوة لتحرس الحشمة ، وتُهجر اللذّة لتحصن الإِمْرَة [٢] ، ولا غنىً عمن يقومُ في وجه صـاحبه فيراده إذا بدر منه الرأيُ المتقلب ، وراجعه إذا جمح به اللّجاجُ المرتكب ، ويعارضه إذا ألحّ عليه الغضبُ الملتهب ، فما السببُ في أن هَلَكت ممالكُ جمّة ، وفسدت بلدانٌ عدّة إلا بأن خُفضت أقدارُ الوزارة ، وانقبضت أطراف الإمارة ، وليس يفسد بقية ما في الأرض ومَن عليها على ما أرى إلا إذا استُعين بالأذناب على هــذا الأمر ، فلا يخلنْ مولاي بفضل معرفته على ولي نعمته ، بمن هو بالدولة حريٌ بما فضله وفضل الأمين من قبله ، وإن كان مسموعاً كلامي ، وموثوقاً به لاهتمامي ، فلا يقعن انقباضٌ عني ، ولا إعراض عما تبيّن بحضوري ، ومولاي محكم بعد الاجابة إلى العمل فيما يشـترطه ، وغيرُ مراجَع فيما يقترحه ، وهذا حظّي منه ، وهو عن وليّ النعمة حجة لا تثبت معهـا حجة ، وسنصل المكاتبة بالمشافهة ، إما بالحضور لديه ، أو بتجشمه إلى هذا

---

(١) السنخ الاصل.

(٢) الامرة : الولاية .

العليل الذي قد ألحّ النّقْرِس[1] عليه والسلام .

وكان ابن عبّاد يحفظ هذه النسخة ويرويها ويفتخر بها .

وقال لي أصحابنا بالريّ منهم أبو غالب الكاتب الأعرج : إنّ هذه المخاطبة من كلام ابن عبّاد عن ابن العميد إلى نفسه تشيعاً بها ، ونفاقاً بذكرها .

[أبو الفرج الكاتب وابن العميد]

وحدثني ابن خارجة قال : [وكان] حمد بن محمد أبو الفرج الكاتب مكيناً عند ركن الدولة . وكان أبو الفضل لا يوفّيه حقّه ، ولا يحسب له تلك المكانة ، فعاتبه حمد مراراً مصرّحاً وكانياً ، ثم كتب اليه رقعةً طواها على أبيات وهي :

مالك موفور فما باله
أكسبكَ التيهَ على المُعْدِمِ
ولِمْ إذا جئتَ نهضنا وإنْ
جئنا تطاولتَ ولم تُتْمِمِ
وإن خرجنا لم تقلْ مثل ما
تقولُ : قدّم طرفةَ قدّمِ
إن كنتَ ذا علم فمن ذا الذي
مثلُ الذي تعلمُ لمْ يَعْلَمِ

---

(١) النقرس : داء المفاصل أو الروماتيزم .

أو كنتَ في العلم من دولةٍ

فلست من دونك في المنسم [١]

وقد وُلينا وعزِلْنـا كما

أنت فلم نَصْغُرْ ولم تَعْظُمِ

تكافأتْ أحوالُنا كلُّها

فصل على الانصاف أو فاحرمِ

قلت لابن خارجةَ : أترى الأبيات لحمد ؟ قال : نعم . قلت : أفقاد له إلى محبوبه ؟ قال : كانَ حروناً، إذا أبى لا تأتّيَ له،وإذا جمح لا حيلةفيه. « أكسبك » في البيت الأول مردود ، غير أن ابن الأعرابي أجازه .

[٣٥ب] تصفح أيدك الله هذه الفقر ، واعرف تعبي بها ، وافادتي / منها ، واشتفائي بذكرها والسلام .

[رسالة ابن أبي السباب الى ابن العميد]

فأما أبو محمد بن أبي السباب [٢] وهو عبد الرزاق بن الحسين البغدادي فانه كان ذا فضل واسعٍ ، وشعرٍ بارع ، وعلم بكل شيء كالمنطق وغريب اللغة ، وله رسالة من خراسان لما استقرت به الدار بيخارى كتبها إلى أبي الفضل ،ولا بأس بسردها هاهنا لتعلم أن الحرّ إذا ذاق الهوانَ ممن يستحق الكرامة عليـه،

---

(١) دواية ابن خلكان ٢/٥٩

ولست في الغارب من دولة

ونحن من دونك في المنسـم

(٢) راجع : وفيات الاعيان ٢/٥٩

شقّ جَيْبَهُ مستغيثاً ، وأدرك طائلته مكافحاً ومُنيباً . كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . أيها الرجل الذي اختار لنفسه الوصف بالرياسة ، فطالب الصغارَ والكبارَ في المكاتبة والمخاطبة ، ما يَسرُّني حسنُ ما أنت فيه ، بقبح ما أنت عليه ، ولا يعجبني ظاهرُ ما تدّعيه بباطن ما تنقضه ، به ألزمُ فناءَك هذه السنين على مقاساة كبرك ، وتجعد بنانك ، وقلة النائل منك ، مع تسيير فنون القريض فيك ، ونثر أصناف البديع عليك ، ومع التضاؤل لك ، وإراقة ماء الوجه بين يديك ، والصبر على مللك وصلَفك وتلوّن أخلاقك ، ومع فتحي عليك أبوابَ المنطق ، وهدايتي إيّاكَ الى ضروبٍ ما اقتبستُه من من أهل المغرب والمشرق ، ثم يكون آخر أمرك في نظرك لي ، وإحسانك اليّ أن تقرنني بغلام غِرٍّ جاهل ، ونكدٍ عارم ، يزيـــد عليك في البخل ، وينقصُ عنك في الحِلم ، وتكلفني الصبر معه ، والرضا بالخَسْفِ منه ، ومن ذا الذي علم أن رزق الله مَيدانٌ لمرتادٍ وغادٍ ، والمرء فيه بين سائق وحادٍ ، غمس نفسه في حياض الذل ، وفارقَ حسن التوكل على الله الذي بيده ملكوت كل شيء ، والله ما اتخذتُ الليل جملاً هارباً من صَقعك ، زاهداً في ضرّك ونفعك الا لقولك في إنشائك لأصحابك : ان أبا السباب لازقٌ بنا لزوقَ اللحم بالعظم ، وجارٍ معنا جريَ الدم في اللحم ، ولو طردناه ما برحَ ، ولو فازَ بغيرنا ما فرح ، وأين يجد جَناباً أمرَعَ من جنابنا ، وفِناء أخصب من فِنائنا ، أغركم أنه يتلوّى علينا ، وينحني لدينا ، ذاك كله ريح ، وهو مُثبَتٌ في اللوح ، ان توجّه الى خراسان فما بها من ينقعُ ظمأتهُ ، وان عاد الى بغداد فهي التي عرفها وعرفته ، وان تطاول الى الشام ومصر فما بها من يَجتلي غرّته ، أو يقتبس حكمته ، أو يصبر على جشعه الفاضح ، وسؤاله المُلح . فها أنا قد شخصت الى المشرق ، وحظيت عند ملكه ، ووليت البريد له ، وغلبت على

مجلسه بالمؤانسة ، وحولي الغاشية والضفف(١)،بعد ما كنت أعانيه عنـدك من الشَّظف والجعف (٢) ، وما كان كلامك ذاك فيَّ إلا إغراء لي بطلب السعادة العاجلة ، ونيلها في سهولة مع التخلص من الغيظ الذي كنت أجرَّعه عندك صباح مساء ، والكذب الذي كنت أتحققه فيك في الجد والهزل ، والخساسة التي كنت أسترها عليك في الصحو والسُّكر ، والتلوُّن الذي كنت احتمله منك في الغضب والرضـا . هذا والمنالةُ منك دون ما يُمسِك الرَّمَق ، والمبذول عليها فوق ما يجب لك بالحق،ولولا أني — مع ما اوردته (٣) من العتب عليك — أرجع الى حِفاظٍ لا تعرف منه الا الاسم ، لـكان لي في جلدك حزٌّ ونهشٌ وعلى عِرضك جَمْزٌ ووَقْص (٤) ، وما الذي يرجى منك أكثر مما كان ، وولادتك مشهورة ، ومنشؤك ظاهر ، ومبادي حالك في ارتفاعك محصَّلة ، والألسنة بحقائقها دائرة ، والأسماع الى عجائبها صاغية ، والقلوب من فضائحها متعجبة، ولك في براءة والدك منك كاف ، وفي حديث والدتك ممـا هو غير خـاف ، ومما يدل على طلبي البقيا أني اقتصرت في مكاتبتك على لفظٍ منثور ولو نظمت ذلك لـكان تفتّقكَ منه يجرعك مضض الندم على تقصيرك معي ومع نظرائي فيما تقدم .

فاذكر هذه اليد لي عندك في عرض ما تقرأه من هذه الرقعة اليك ، وقد شفيت بها فؤاداً كان يتلظىٌّ أسفاً على خدمة ضاعت عندك ، وحرمة بارت لديك ، ولعلي قد أطرتك على كثير ممن يلزم فناءك طامعاً في خيرك ، أو يشقى بمعرفتك ظاناً لدرك المطلوب منك ، ثم ينقلب عنك بقلبٍ أوقدَ من قلبي عليك ، ولسان أذربَ من لسـاني في عرضك :

---

(١) الضفف : يقال : هو من لفيفنا وضفيفنا ، أي ممن نلفه بنا ونضفه إلينا .

(٢) الجعف : القوت الذي لا فضل فيه .

(٣) في الاصل اردمله .

(٤) حز : لذع . وقص : كسر .

عليك سلامٌ لا تواصل بعده

فلا القلبُ محزونٌ ولا الدمع سافحُ

والله لا حاق الشر الا بأهله ، ولا لصق العارُ إلا بكاسبه ، ولا قيل في الخسيس النذل الا دون مايستحق، ذق عقق فقد فاتك من سبق .

أفادني هذه الرسالة أبو جعفر الخطيب النيسابوري وقال لي : أما أوصلت الكتاب الى أبي الفضل مختوماً بعد ما نسخته قال : وعدت اليه أطالبه بالجواب. فقال لي : قد كتبت الجواب قبلك ، وكان ذلك تحاجزاً منه لأنه كان قد انتشوى بها حين قرأها .

[قصيدة ابن أبي السباب في ابن العميد]

[١٣٦أ] ولقد أنشدني ابن أبي السباب قصيدة في أبي الفضل / وأنا أرويها هنا لتعلم أنه كان مظلوماً فيها وفي أخواتها ، أو لتقف على طريقته الحلوة ، ومعانيه السهلة ، ولفظه الحلوب وقال لنا : كانت جائزتي عليها بعد نظارٍ تقدمتها جائزة لا أستجيز ذكرها لأنها إن كانت تضع من صاحبها إنها تضع مني أيضاً ، القصيدة :

بَرْحُ اشتياقٍ وادّكارِ

ولهيبُ أنفاسٍ حِرارِ

ومدامِعٌ عَبَراتُها

ترفضُّ عن نومٍ مُطارِ

لله قلبي ما يجنْـ

ـنُ من الهمومِ وما يُواري[1]

---

(١) أجن : أخفى وستر .

لقد انقضى سُكر الشّبا … بِ وما انقضى وصب الخُمار(١)

وكبرت عن وصلِ الصغا … رِ وما سلوت عن الصغارِ

سُقياً لتغليسي إلى … باب الرُّصافة وابتكاري(٢)

أيامَ أخطُر في الصبا … نشوانَ مسحوبَ الإزار

حجّي إلى حجر الصّرا … ة وفي حدائقها اعتماري(٣)

ومواطن اللذّاتِ أو … طاني ودار الروم داري

كم رضْت فيها من نفارٍ … محرّم حلق النّفارِ

ورعيت من قطربّلٍ … روض الشقائق والبَهارِ

وزففتها مسكيّةً … في رَيطَتَي خزٍّ وقارِ(٤)

يُعطي النديمَ بزالها … ما شئت من نورٍ ونارِ(٥)

كيف اعتدال معذّلٍ … صَحِبَ الغواة بلا عِذارِ

يستنُّ في طرق الصبا … ويعيث في سبل الخسارِ

فيصيد غزلان الكِناس … ويذّري بَقَر الصِوارِ

من كل عطشان الوشاح … مميّلٍ شرق السِوار

---

(١) الوصب : المرض والوجع الدائم وقد يطلق على التعب والفتور في البدن . الخمار : صداع الخمر وأذاها وبقية السكر .

(٢) التغليس : السير في آخر الليل ، والغلس ظلمة آخر الليل .

(٣) الاعتمار : من العمرة وهي الحج الاصغر .

(٤) ريطة : ملاءة ليست ذات لفقين أي قطعتين متضامتين كلها نسج واحد وقطعة واحدة وهي أيضاً كل ثوب لين رقيق . الخز : الحرير . القار : شيء أسود تطلى به السفن والإبل وقيل هو الزفت .

(٥) البزال : موضع ثقب الإناء ، والبزال (بالكسر) حديدة يفتح بها الدن .

بيضٌ غريراتٌ يُطبعْـ ... نَ من الدلال على غرار

وعقـــائلٌ تضفو وحا ... فُ شعورهن على المَدارِ

هِيفٌ يصلن من الروا ... دف بالزنانير القصـــارِ

وتعلق من طــاعةِ الا ... ستاذِ بالحبْل المُغارِ

لقد اجتلبتُ مُنى النفو ... سِ من ابيضاضٍ واحمرارِ

ولحظتُ ما فتر اللواحظ ... من فتورٍ واحورار

يوم استقـــلوا والدمو ... عُ تجودُ روضَ الجلنارِ

لهفي على صبح الجبـــا ... هِ يشي به ليلُ الطِرارِ

وتواضـــع الخد الاسيـ ... ـلِ لعطفة الصُّدغ المُدارِ

خـــذ في هزارك يا غلا ... مُ فقد غنيتَ عن الهزار

حسبي بألحانٍ قَمَرْ ... تُ بهنَّ تغريدَ القَماري[1]

لم يبق لي عيش يلذْ ... ذ سوى معاقرة العُقارِ[2]

وإذا استهلَّ ابن العميـ ... ـدِ تضاءلت ديمُ القِطارِ[3]

خرقٌ صفت أخلاقُهُ ... صفوَ السبيك من النُّضارِ[4]

فكأنما رُفِـــدت موا ... هبُهُ بأمواج البحـــارِ

وكأنَّ نشرَ حديثهِ ... نشرُ الخُزامى والعَرارِ

وكأنمـــا مما تفرْ ... رقُ راحتاه في نثارِ

متثبِّتٌ يُغْـــني بمحـ ... مودِ الأناةِ عن البدارِ

---

(١) قمره : غلبه في القمار .

(٢) معاقرة : ملازمة . العقار : الخمر وسميت بذلك لمعاقرتها أي لملازمتها الدن .

(٣) القطار : السحـــاب العظيم القطر .

(٤) النضـــار : الذهب .

كلِفٌ بطيِّ السرِّ تحـ ... ـسِبُ صدرَهُ ليلَ السِّرار[١]

يأوي إلى حلمٍ يُعا ... ذُ به ورأيٍ مُسْتَشارِ

ومرحَّبٍ يَلقى الحوا ... دثَ باحتمالٍ واصطبارِ

يَرْبَا به عزُّ الفخا ... رِ عن التعرُّض للفخارِ

وتصُونُ مسمعَهُ المها ... بَةُ عن مماراة المهاري

ويغولُ أيسرُ سعيهِ ... جهدَ المنافس والمُباري

كم يسترُ الباغي علا ... هُ وما لهنَّ من استتارِ

هيهاتَ لا يخفى على ... لحظِ العيونِ سَنا النهارِ

قُلْ للمُخيَّبِ وشمكيرَ ... هدمت مجد بني زيارِ

خرَّبتَ دور محمدٍ ... فأبى جوارَكَ للديارِ

وقرَيْتَها ناراً فخصْ ... صَ صميمُ قلبك بالأوارِ

جلبَ الجيادَ إلى قرا ... رك فاحتميتَ من القرارِ

زجَّ النسور من الصفا ... شُعْث المسوك من الخبارِ

تَرْدي كغزلان الفلا ... ة بمثل جِنّانِ القِفارِ

ككواسر العقبانِ طِرْ ... نَ اليكَ بالأسدِ الضواري

لمّا طلَعْنَ علمتَ أنْ ... نَكَ من جموعك في اغترارِ

وفلَلْتَ من ذات اليميـ ... ـنِ لشدّةٍ ذاتَ اليسارِ

بالخيل صانَ صدورَها ... في « البقتين » من الصدارِ

ومغاورٌ يغريهمُ ... من لا يملُّ من الغِوارِ

---

(١) السرار : آخر ليلة من الشهر .

لَيثٌ يثورُ فيستثيـ ـرُ قساطلَ النَّقع المُثارِ (١)
فكأنّما هبواتُهـــا خَرقٌ من العيُوق هارِ (٢)
في وقعةٍ قسمت كُماتَكَ للمنيَّة والإسار
وفررتَ فيمن لا يُعِدُّ لمثلها غير الفرارِ
متسربلاً من لؤم فِعـلِك حُلَّتَيْ خِزيٍ وعارِ
هذي النكايةُ لا النكايةُ في البنيَّةِ والجدارِ
إن الكبارَ من الأمورِ تُنالُ بالهمم الكِبار
وإلى أبي الفضل انْبَعَـتْ هواجسَ الهمم السوار
ولقد تخيَّرت الرجالَ فما دفعتُ عن الخِيار
حتى سكنتُ ظِلالَه بعد ابتــلاءٍ واختبـارِ
يغدو على حُرِّ البلادِ غدُوَّ مطلوبٍ بثـار
فتزيلُـــه فتكاتُه وتذيقُهُ طعمَ الصَّغارِ
فتراه في العسرِ المضرِّ يجودُ جودَ أولي اليَسار
متهـــللاً للزائريـنَ مرحِّباً بالمستزارِ
إني اغتنمتُ بيُمنـه فوفيتُ أسبابَ العِثـارِ
يا من له طيبُ الأرومِ ومن له طيبُ النجارِ
يا من له نور البُدورِ ومن له شرفُ الدراري
يا مَنْ به مرض الحياءِ ومن به حَصرُ الوقار

---

(١) القسطل : الغبار الساطع وفي فقه الثعالبي هو خاص بغبار الحرب.

(٢) خرق : ثقب . الهبوات : مفردها هبوة وهي الغبرة . العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة .

يا مَنْ لديه حَيا العفا ةِ ومن لديه حِمَى الذمارِ
أنت الذي وَهبَ الجرا زَ عن علوٍّ واقتدارِ
أنت الذي ضمن الوفا ءَ لجاره كرمُ الجوار
أنت الذي حاز الخطا رَ مضاؤه يوم الخِطارِ
فحويت مضمار العــلا وجريتَ فيـه بلا مُجار
يفديك من ظنٌّ المكا رم في اقتصادٍ واقتصار
فعداهُ عن طلق الجيا دِ سقوطُه دون العِثار
خذهـا ثمار علاك لا عَرِيَتْ علاك من الثمارِ
عذراء يخجلُ حُسنُها ما فيَّ من خلع العِذارِ

/ وحدثني جَريحُ المُقَل الشاعر قال : لما قال أبو محمد : [٣٦ب]

تغدوا على حر البــلا د غُدوٌّ مطلوب بثار

قلت : ما أكذبك لحاك الله ! فقال : الذي نقل هــذا في نفسه أكذبُ مني .

[رأي جريح المقل في ابن العميد]

وقال لي جريح المقل : قد جبتُ الآفاق ، وسبرت أصنــاف الخلق في الأخلاق فما رأيت أخسَّ من هذا الرجل ، يَعنى أبا الفضل !

[حديث أبي غالب الاصبهاني]

وحدثني أبو غالب الكاتب الأصبهاني قال : كان أبو الفضل يحاجي بكلامٍ له مَنْ رآه وهو : سألت عمّن شفنْي وَجْـــدي به ، وشغفني حبّي له

وزعمت أني لو شيت لذهلت عقله ، ولو أردت لاغتصبت منه ، زعماً لَعَمْرُ أبيك ليس بزعمٍ كيف أسلو عنه وأنا أراه ، أو أنساه وهو لي تجاه . هيهات هو أغلبُ عليّ ، وأقرب إليّ من أن يرخي له عذاري ، أو يخليني واختياري ، بعد اختلاطي بملكه ، وانخراطي في سلكه . وبعد أن ناط حبه بقلبي نائط ، وساطه[١] بدمي سائط ، فهو جارٍ مني مجرى الروح في الأعضاء ، ومتنسّم معي روح الهواء ، إن ذهبتُ عنه رجعت إليه ، وإن هربت منه وقفت عليــه ، ما أحبّ السلو عنه مع هَنَاته ، وما أوثر الخلو منه على علاّته . هذا على أنه إن أقبل لم يهنئني إقباله ، وإن أعرض لم يطرقني خياله ، يبعــد عليّ مناله ، ويقرب من غيري نواله ، ويردُ عيني خاسئة ، ويَثني يدي خالية ، وقــد بسط مسافات النفس المتقاربة ، وصدق مراميَ الظنون الكاذبة ، وصــله يُنذر بضدّه ، وقربه يُؤذن ببعده ، يدنو عدلَ ما يَبرح ، ويأسو مثل ما يجرح ، فحاله أحوال ، وخلّته خِلال ، وحربه سجال ، الحسن من عوائده ، والجمال من منائحه ، والبهاء من فضوله وصفاته ، والسّناء من نعوته وسماته ، اسمه طِبْق لمعناه ، وفحواه وَفْق لنجواه ، تتشابه حالاه ، ويتضارع قطراه ، من حيث تلقاه يستنير ، ومن حيث تغشاه يستطير ، كالبدر بين سعوده قد وسطها وحفّت به ، يقدمه النسران ، ويتلوه نطاق الجوزاء ، هكذا ، ولو قلت أن الواسطة الغميصاء[٢] لها هادٍ وتابع ، إن فرقتها اتفقا ، وإن ألفتها تفرقا ، يقبل بشوك السيال[٣] ، ويُدبر بسفى البُهمى[٤] ، ويعترض بسود قصار سواسية كأسنان الحمار ، لصدقت . فأين لي ما قلتــه ، فهو تعريض كالتصريح ، وتمريض كالتصحيح والسلام .

---

(١) ساط الشيء سوطاً : خلطه .

(٢) الغميصاء : إحدى الشعريين من منازل القمر .

(٣) السيال : مفردها سيالة وهي نبات له شوك أبيض طويل .

(٤) البهمى : ضرب من النبات ، وسفى البهمى : شوكه .

[كتاب ابن العميد لأبي دلف الخزرجي]

وحدثني أبو غالب الكاتب قال : كتب أبو الفضل إلى أبي دلف الخزرجي في أوائل علته التي نهكته وخالقته بُعاتبه ويُعابثه فقال : الآن علمت أيها الشيخ أنك لي مكايد ، وإلي جميع ما أنهاك عنه مخالف ، وعلى دَيْدنك المعروف ثابت ، وبفُضلة لسانك مسحور ، وبشائع حلمي عنك مغرور ، وليت ثقتك بذلك لاتخونك ، وتطوُّلي عليك لا يتطاول بك ، واغترارَك بغيري لا يزِلُّك ، وليتك إذ قد ضللت سواء السبيل في حظك شاورتني فكنت لا أبخل عليك بالهداية ، يا هذا ! شكوت اليك أوائل هذه العلّة التي قد تحوّبتني (١) ونهكتني ، وكان التلاقي سهلاً ، وباب العافيه مفتوحاً ، فوعدتَ بالقيام عليها ، وبذل النصيحة في تدبرها ، وكنت لشكرى لك على ذلك حائزاً ، وبمقترحك مني فائزاً ، فتقاعست عني بلا عذر ، ووقفتني بين وصل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ، وعلى ماذا أعاتبك ، لأني يئست من نجوع العتاب فيك ومن إحاكة الخطاب في قلبك ، لأنك مشهورٌ بقحةٍ ، ومذكور بسلاطة ، ومعتادٌ للبُهْت ، وجار على الكذب ، وأول ذلك أنك تدعي بُنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمداً وما خلف بنتاً ، ولا ولدت بنت لم يكن له ابناً ، ولو كانت له بنت وولدت ابناً لم يكن أنت ذاك للغوائل المجموعة فيك ، والعيوب المتناثرة عليك ، ولم تكن العلة التي رجعت اليك في تدبيرها

---

(١) تحوب : توجع وتحزن .

صرعاً ولا صِداماً[١] ، ولا جنوناً ، ولا جذاماً ، ولا صمماً،ولا بكماً ، ولا فالجاً ، ولا لَقْوةً [٢] ، ولا سكتة ، ولا زمانة [٣] ، ولا شللا ، ولا أُدْرَةً[٤] ، ولا علة لا يقوم ببرئها إلا المسيح الذي هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم بنت عمران التي أحصنت فَرْجها ، ولم تحتج في مداواتي إلى الرُّقى والعزائم ، ولا إلى النفق في الأرض ، أو إلى الطيران في السكاك [٥] ، ولا الى يدٍ بيضاء كيد موسى بن عمران ، ولا الى عصى موسى ، ولا الى قميص يوسف ، ولا الى عرش بلقيس ، ولا الى لوح من سفينـــة نوح ، ولا الى فلذة من كَبْش إبراهيم الذي فدى الله به ابنه اسماعيل كما قال تعـــالى : « وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظيم » [٦] ولا الى الصَّدَفة التي كانت فيها الدرة اليتيمة ، ولا الى شطية [٧] من سنام ناقة صالح ، ولا الى زُبْرةٍ من [٨] زُبَرِ الحديد الذي جعل ردماً[٩] ليأجوج ومأجوج،ولا الى عُسٍّ [١٠] من لبن بقرة بني اسرائيل التي ذبحوها « وَما كادُوا يَفْعلون [١١] » ، ولا الى أدمغة الطير الأبابيل / التي رمت بحجارة من سجّيل ، ولا تربـــة من « إرَمَ ذاتِ العِمادِ التي لم يُخْلَقْ

[١٣٧أ]

(١) الصدام : داء في رؤوس الدواب .

(٢) اللقوة : داء يصيب الوجه يعوج منه الشدق إلى أحد جانبي العنق.

(٣) الزمانة : العاهة وعدم بعض الاعضاء وتعطيل القوى .

(٤) الأدرة : نفخة في الخصية .

(٥) السكاك : الهواء في أعالي الجو .

(٦) سورة الصافات .

(٧) الشطية : القطعة من سنام البعير والجمع شطائب .

(٨) الزبرة : القطعة الضخمة من الحديد والجمع زبر بفتح الباء وضمها .

(٩) الردم : السد بين يأجوج ومأجوج .

(١٠) العس : القدح أو الإناء الكبير.

(١١) سورة البقرة.

مِثْلُها في البلاد (١) » ، ولا إلى قطعة من السحاب المسخَّر بين السماء والأرض ، ولا إلى لمعة من البرق الذي يخطف الأبصار ، ولا إلى مثقال من صوت الرعد الذي يسبّح بحمده تعالى ، ولا إلى ذرّة من الشمس التي جعلت ضياءً للعالمين ، ولا إلى فيضة من القمر الذي جعل نوراً لأهل الخافقين ، ولا إلى صبغ من الأصباغ الذي يظهر في قوس قزح غب الأنداء المتصلة ، ولا إلى مثقال من التراب الذي « يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً (٢) » . ولا إلى شيء من شحم الذئب الذي لم يأكل يوسفَ ، ولا إلى ناب الكلب الذي كان « باسِطٌ ذِراعَيْهِ بالوَصيد (٣) » الذي لو اطَّلَعْتَ عليه لولَّيْتَ منه فِراراً ، ولَمُلِئْتَ منه رُعْباً ، ولا إلى الكبريت الأحمر ، ولا إلى المومياني الأبيض الذي لا يوجد ، ولا إلى حيلة بلنياس ، ولا إلى قطرات من ماء الحيوان تُعجن به هذه الأدوية ، ولا إلى مُنخُل يُنخل من شعر ذنب حمار عُزَيْر الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه فتنخل به العقاقير ، ولا إلى مرارة العَنْقاء المُغْرِب التي لم تُرَ قط ، ولا إلى مخ البعوض ، ولا إلى بيض الأنوق .

ولم يَحتج في تدبير علّتي ، وجميع أدويتي إلى نهارٍ لا ليلَ بعده ولا إلى ليل لا نهارَ بعده ، ولا إلى نهارٍ مُولَج في ليل ، ولا إلى ليل مُولج في نهار ، ولا إلى زمان يخرج من أن يكون ربيعاً ، أو صيفاً ، أو شتاء ، أو خريفاً ، ولو ظننت أن هذه كلها أو بعضها تَلزمك أو تدخل في تكلفك لآثرت الموت على العافية ، فان في الموت خلاصاً منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أندبُ إلا حسنَ ظني بك ، ومباهاتي أهل مجلسي بفضلك ، وقولي : أبو دُلَف ! وما

(١) سورة الفجر .
(٢) سورة النور .
(٣) سورة الكهف .
والوصيد : العتبة وفناء الدار والكهف . والوصيدة بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة في الجبال.

أدراك ما أبو دُلف ، لا تنظروا إلى هزله فان وراء ذلك جِدّاً ، وإن أردتم حقيقة ما أقول فافزعوا إليه في حوائجكم فانكم تجدونه في قضائها قبل إنهائها ، وهو المرء الذي قد جمع الله له بين المنظر والمَخْبَر ، وبين الدعوى والبيّنة ، وبين القول والحجّة ، وبين الضّمان والوفاء ، وبين الصداقة والشفقة ، فما زلتُ أقولُ هذا وشبهَهُ ، وأصحابي يشيعون قولي بمثله في الظاهر ، ويخالفونني بعلمهم في الباطن حتى كان الفَلَج (٢) لهم ساعة هذه ، لأني احتجت إلى علمك فخيبتَ عهدي ، وأقبلت عليك فأعرضت عني ، ووهبتُ لك كلي فبخلت ببعضك عليّ :

فيـــارُبَّ مظنون به الخير يُخلف

ولقد استفدتُ بمعرفتك تجنّب مثلك ، ويقال : لم يَهلك مِن مالك ما وعظك ، ومَن أطلعك على خبيئة من خيره وشره فقد أراحك من طويل الفكر فيه ، وكفاك خطرَ التجربة له والسلام .

قلت لأبي دُلف : ما أجبته عن هذا الكلام ؟ قال : عملت في المسوَّدة شيئاً لم أجسُر على إظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشرّه وغائلته ، ومما قد حدث في رؤساءِ زمانك ، إنهم يحقدون على الأتباع ، ولا يعرفون حقهم في الخدمة والطاعة .

[وصف بغداد]

وكنا يوماً عند ذي الكفايتين بمدينة السلام ، فجرى حديث بغداد ، فقال ذو الكفايتين : لما رجع ابن عبّاد من بغداد قال له الاستاذ الرئيس — نضّر الله وجهه — كيف رأيت بغداد ؟ قال : رأيت بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد !.

---

(١) الفلج : الظفر .

[نكتة]

وحكى أيضاً في هذا اليوم عن أبيه قال : لما انصرف أهل خراسان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة أمام الغزاة من الري بعد الحادثة التي جرت ، ودفع الله حدّها وأعاذ من ضارمها [1] أخذ الرئيس يبني حول دار ركن الدولة حائطاً عظيماً، فقال له علي بن القاسم العارض : هذا كما يقال : الشدّ بعد الضّرط ، فقال : هذا أيضاً جيد لئلا تنفلت أخرى .

[الفرق بين المتشابهين]

ورأيت أبا الفتح ذا الكفايتين يسأل أبا الحسن العامري [2] : لِمَ طلبتِ النفس الفرق بين المتشابهيْن ؟ فقال العامري : لأنها في جوهرها وما هو لائق بها تأبى الكثرة وَتَنْفُرُ منها وهي تحنُّ إلى الوحدة بسوسها [3]، وتنزع نحوها وتتقبل كلّ ما أعانها على ذلك ويذلّل الطريق لهـــا ، والفرق يوضح سبيل الوحدة ، وكلما كان الاشتباه أشدّ كان الفرق ألطف ، وكلما كان الفرق ألطف كانت أشدّ بحثاً عنه ، وألهج بطلبه ، لأن ظفرها به يكون أعزّ ، ونَيْلُها مطلوبَها يكون أجلى .

[الكلام بين الجد والهزل]

وقال أبو الفتح يوماً آخر لابن فارس المعلم : لِمَ قال الجاحظ : فإن الكلام

---

(١) في الأصل « وأعاذ بصارمها ».

(٢) أبو الحسن محمد بن يوسف العامري أحد فلاسفة الاسلام ذكره التوحيدي في المقابسات فقال : « كان من أعلام عصره » وكان العامري معنياً بكتب الأوائل وكتب أرسطو وله عليها شروح وتعليقات ، يقال بأنه نشأ في خراسان وقصد بغداد وأقام بها ثم اتصل بابن العميد فأكرمه وقرأا معاً عدة كتب توفي سنة ٣٨١ هـ .

(٣) السوس : الطبيعة والأصل .

قد يكون في لفظ الجد ، ومعناه الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه الجد؟ فلم يقل شيئاً ! فقال أبو الفتح : قد صدق أبو عثمان، هذه خاصة مذاهب العرب ، ولكن لِمَ عرض هذا في اختيارها ؟ وأدنى ما فيه أنه يدلُّ على وضع الشيء في غير موضعه ، فلم يحر أحدٌ شيئاً . فقال : هو أن إفراز / الجدّ من الهزل ، [٣٧ب] وتمييزَ الهزل من الجد حتى لا يؤتى بهذا في هذا ، ولا بهذا في هذا النوع من الخطر على المتكلم البليغ ، والقائل البيّن . ولو جرى على ذلك كان الاقتدار يُبْطل الجد الملزوم ، والسعة تضيّق الغاية المبلوغة . ولما كان البيان لا يكون بياناً ، والبلاغة لا تصير بلاغةً إلاّ بأن يكون المتكلم آخذاً في كل واد، قادحاً بكل زناد ، مستظهراً بكل عتاد وجب أن يدخل الهزل في الجد إمتاعاً واستمتاعاً، ويدخل الجدّ امتداداً واتساعاً . قال ابن فارس : وأيُّ خصوصية يكون في هذا ، ونحن بالفارسية نرى هذا المذهب ، ولعلّ سائر اللغات على ذلك ؟ فقال: القول كما قلت ، ولكن أين مزية بيان العرب على جميع ما لأصناف العجم ؟ ثم قال : إن الغرض الأول في الكلام الإفادة ، وجلُّ الأمم على هذا ، والثاني تحسين الإفادة ، ثم التحسين تارة يكون بمعاني التوكيد ، وتارة بمعاني الحذف، وتارة يكون بوزن اللفظ ، وبتعديل الوزن ، وبتسهيل المطـــالع وتبديل المقاطع ، وهذه الأنواع وغيرها مما يطول إحصاؤه وحصره ، وهو للعرب خاصة ولباقي الأمم عامة ، ثم قال : وقد اشتمل القرآن على هذا كله ، وعلى ضروب أخر لم تكن في عادة القوم فاشية ولا كثيرة ، ولكن كالشيء البديع ، ألا ترى أنك لا تجد شوافع هذه المعاني التي في الكتاب غريبة في منثور كلامهم ولا في منظومه ، وأنت تعلم أنهم كانوا لا يسكتون .

[ولوع العرب بالكلام]

وكان ولوعهم بالكلام أشد من ولوعهم بكل شيء ، وكل ولوعٍ كان لهم

بعد الكلام فانما كان بالكلام ، فهل تجد معنى قوله تعالى في الإبانة عن التوحيد: « ما اتَّخذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ [١] » ، « وما كان معه مِنْ إلَـهٍ إذاً لَذَهبَ كلُّ إلَـهٍ بما خلَقَ [٢] » « ولَعَلَا بعضُهُم على بعْض [٣] » في شيء من كلام؟. وكذلك أيضاً لا تجد ما يشبه قوله عزَّ وجل « قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كما يَقولونَ إذاً لابْتَغوا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً » [٤] وكذلك أيضاً لا تجد ما يقارب قوله : « لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا [٥] » ، وكذلك لا تجد ما يداني قوله : « وَمَا نُنَزِّلُه إلا بِقَدَرٍ مَعْلوم [٦] » ، أو قوله : « وأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ [٧] » ، ثم تدبَّر قولَهُ : « ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ شَقّاً [٨] » وقال : « إنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً [٩] » ، وقال : « فَسالَتْ أوْدِيَةٌ بِقَدَرِها [١٠] » ، وقال : « إنَّ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والفُلْكِ التي تَجْري في البَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاس [١١] » وقال : « وفي خَلْقِكُم وما

---

(١) سورة المؤمنون .
(٢) « الأحزاب .
(٣) « المؤمنون .
(٤) « الإسراء .
(٥) « الأنبياء .
(٦) « الحجر .
(٧) « المؤمنون .
(٨) « عبس .
(٩) « «
(١٠) « الرعد .
(١١) « البقرة .

يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يوقِنون[1]» وقال: «وضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيها الذي أنشأها أوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليم[2]» وقال: «الذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ ناراً فإذا أنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ[3]» وقال: «يا أيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُم وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغوا أشُدَّكُم ومِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً، وتَرَى الأرْضَ هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيج[4]» وقال: «ومِنْ آياتِه أنكَ تَرَى الأرْضَ خاشِعَةً فإذا أنزَلْنا عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[5]» وقال: «إنَّ الذي أحْياها لَمُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ على كلِّ شيْءٍ قَديرٌ[6]» ثمَّ قال: وهذا سبكٌ بديع، وأسلوبٌ معجز، ولو كانت العرب تَمِمَّت بهذه المعاني بعبارات دون

---

(١) سورة الجاثية ..
(٢) « يس .
(٣) « «
(٤) « الحج ..
(٥) « فصلت ..
(٦) « «

عباراتها ، أو حلمت بهذه العبارات بمعان دون معانيها لكنّا نقف ونترجح ، ونرتابُ ونضطرب فأما وشيء لا يصابُ لهم لا على وجـــه التشبيه ، ولا على التحقيق فماذا يبقى ؟ ثم هَبْ أنهم كانوا مصروفين عنها في الأول وهم لا يأبهون لها هلاّ تصرّفوا فيها في الثاني وقد تحدّوا بها ! إن هذا لواضح .

[نبوغ ابن العميد]

وكان مع شبابه ، وكثرة اشغاله مليئاً بهذا الفن ، ولَقّنَ أكثره من معلمه ابن فارس، فإنه كان قد ذلّل هذا وأشباهه ، وكان ينتصبُ للناس في جامع الريّ ويفسّر القرآن ، ويتكلم على وجوهه ونظائره وتأويلاته ، وزاد هو أيضاً -أعني أبا الفتح- بقوته كشفاً لغامضها، وإبانة لما خَفِيَ منها ، وكان على كلّ حالٍ أمثل طريقةً من والده أبي الفضل الذى سُمِعَ يُنشد هازئاً :

ومدّعٍ يدّعى بالسيف حجّةً
ما حجّةُ السيف إلا حجّة البَطَلِ

وينشد :

لَعَنَ اللهُ ذا العصا فلقد كا
نت لقفلِ الناموس كالمفتـــاحِ

/ وهذا كله دليل على سوءِ الضمير ، وخبث العقيدة ، وشدّة المجاهرة. [٣٨أ]

[النفس والذاكرة]

قال أبو الفتح يوماً لأبي سليمان : قال أبو عثمان في رسالته في التربيع والتدوير إلى ابن عبد الوهاب : لِمَ صرنا نتذكر الشيءَ المهم فلا نقدرُ عليه حتى نَدَعهُ

بأساً منه أجمع ما نكون نفساً ، وأحسن ما يكون تدبراً [١] ، ثم يعارضنا ويخطر على بالنا في حال شغل [٢] أو حال نوم وأسهى [٣] ما نكون عنه ، وأقلّ ما نكون احتفالاً به ، وأنا أحبُّ أن أسمع من الشيخ فيه قولاً .

فقال أبو سليمان : ليست النفس على قدر إرادة الإنسان منها ، بل الإنسان على قدر مراد النفس منه ، لأنّ النّفس هي مالكته ومدبّرته ومقومته ومتممتُه ومحرّكتُه ، فلو كان الإنسان إذا أراد إذكارها ذكرها ، وإذا أراد إنساءها أنساها ، كانت النفس تحت ملكة الإنسان وجارية على إرادته ، ومتصرفة بتصريفه ، وإرادته إنما هي منها ، ويقوم هو بها ، وكماله من جهتها ، وتمامه من معونتها ، فلهذه الحال قد يتذكر الشيء فلا يجد من النفس إجابة له في ذكر ذلك الشيء ، وقد يَسْهو عن ذلك الشيء فيلقى عليه أغفلَ ما يكون عنه ، لأنه موجود عندها عتيد[٤] قبلها. وإنما يكون هذا منها في الفَيْنة بعد الفينة ولو لم يتذكر الإنسان شيئاً جملةً لكانت نفسه الناطقة مغمورة ، ولو تذكر كما شاء لكان قد صفا كل الصفاء . فلما وقف من هاتين المنزلتين يذكر مرة فذكر وسها مرة فحضر .

وطال كلامه في حديث النفس ، واتسع في فنونٍ منه ، فلما انتهى قال له أبو الفتح : عين الله عليك أيها الشيخ أنت كما قال الأحْوَص [٥] :

---

(١) في التربيع والتدوير طبعة شارل بلات C. Pellat ص ٧٩ : تذكراً .

(٢) » » » » » ص ٧٩ : سهو .

(٣) » » » » » ص ٧٩ : أغنى .

(٤) عتيد : أي مهيأ .

(٥) عبد الله بن محمد بن عبد الله الأحوص الأنصاري شاعر أموي هجاء وكان معاصراً لجرير والفرزدق توفي سنة ١٠٥ هـ . راجع أخباره في الأغاني ٤/٢٢٤–٢٦٨

إني إذا خَفِيَ الرجالُ وجدتَني
كالشمس لا تَخْفى بكل مكانِ (١)
إني على ما قــد علمت محسّدٌ
أنمى على البَغضاءِ والشنآنِ
ما تعتريني من خطوبٍ ملمّةٍ
إلا تشرفني وترفع شاني (٢)
فإذا تزول تزول عن متخمّطٍ (٣)
تُخْشى بوادرُه لدى الأقرانِ (٤)

فلله درُّك ودرُّ زمان أنت من أهله .

[السجستاني وابن العميد]

فقال أبو سليمان : سعادة ذي الكفايتين هي التي تغشتني عنده ، وهيأت وصفي على لسانه ، وزودتني فخراً بخدمته ، وأبقت ذكري منوّهاً بذكره ، ولقد كنت غضيض الطرف حتى رأيته ، كليلَ اللسان حتى وصفته ، منحوس الحظ حتى عرفته ، خاملَ الذكر حتى خدمته ، وإن فسحَ الله في المدة فسأستقبل خَلَقَ العيش جديداً ، وألحقُ مفقودَ المنى موجوداً .

---

(١) رواية الأغاني : خفي اللئام رأيتني .
(٢) رواية الحماسة تعظم شاني .
(٣) متخمط : متكبر .
(٤) رواية الأغاني : وتزول حين تزول ، على الأقران .

[بخل ابي الفتح ابن العميد]

وحدثني الخليلي قال : أول ما عِبْتُ على هذا الفتى أنه بعد موت أبيه أبي الفضل أمر بأن ينقل المطبخ إلى دار النساء فقال الناس : الحمد لله صار الطعام حِراً ، والخبز عورة ، والقِدْرُ والغَضار [١] حُرْمة ، والله ما أراد بهذا إلا أن يُصان الخبزُ كما تصانُ ذوات الخُمُر وصواحب المقانع ، وأن هذه لغَيْرةٌ وضعت في غير موضعها ثم أنشد لدِعبل [٢] قوله [٣] :

قد كان يُحزنني إذ قال مجتهداً
إي والرغيفِ فهذا البرُّ من قسمهْ

---

(١) الغضار : الصحفة المصنوعة من الطين اللازب الحر .

(٢) هو أبو علي دعبل بن علي بن رزين الخزاعي الشاعر المشهور ، عرف بهجائه المقذع ولسانه السليط ، ولد في الكوفة سنة ١٤٨ هـ وتوفي سنة ٢٤٦ بالطيب بين واسط والأهواز قال عنه ابن خلكان « كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس وطال عمره فكان يقول : لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد ! » ابن خلكان : ١٧٨/١

(٣) وردت هذه الأبيات في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١٨٥/١ منسوبة لأبي تمام وهذا نصها :

صدق أليته إن قال مجتهداً
لا والرغيف فذاك البر من قسمه
وإن هممت به فافتك بخبزته
فان موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبني لو أن غيرته
على جرادقة كانت على حرمه

أليته : قسمه .

وإنْ هممتَ به فافتكْ بخُبزته

فإنَّ موقعها من لحمهِ ودمهْ

ما كان أحسنه لو أنَّ غيرته

على جرادقةٍ كانت على حُرَمِهْ

قال الخليلي : كنت واقفاً في صحن داره خلفَ شجرة كبيرة والزمان قيظ ، والهاجرةُ [١] محتدِمة ، وهو أيضاً واقف تجاه تلك الشجرة لا يلحقني طرفه . فقال لخادم بين يديه : قد جُعْتُ ، أصلحوا الطعام ، وصيحوا بهؤلاء الأكلة الطُّغام ! قال : فنَزَّت في نفسي أنَفَةٌ سدَّت ما بيني وبين السماء ، فرجعت القهقرى ألقط قدمي حتى صرتُ إلى الباب وفتُّ إلى المنزل ، وطُلبتُ فاحتجبت ، ثم طُلبت فاحتجبت وقلت : سقطت من عالي السطح وانكسرت ساقي وبقيتُ على هذه التعلّة حتى فرّج الله بالقبض عليه .

قال : هذا عِرقٌ كان ينبض فيه من أبيه ، فإنَّ أباه كان عالياً في هذا الخُلُق ، وكان يكابد من سرّ هذا الداء على نفسه أمراً عسيراً .

ولقد حضر ابن بُندار يوماً وكان يأكل معه فنظر إلى غضارةٍ [٢] قد ملئت ثريداً وأنشد :

ثريدٌ كأنَّ السَّمنَ في حُجُراته

نجوم الثريّا أو عيون الضّياونِ [٣]

فقال : أفٍّ ! لعن الله قائله . فقال ابن بندار : قائله حسّان بن ثابت ،

---

(١) الهاجرة : وقت الظهر وشدة الحر .

(٢) الغضارة : القصعة الكبيرة والجمع غضائر « وهي فارسية » .

(٣) الضياون : مفردها ضيون وهو السنور الذكر .

والنبي عليه السلام لا يرضى بلعن من يقول له حاضّاً على جواب المشركين : قل ومعك روح القُدُس. فسكت خزيان .

وكان ينجم من قلبه في الوقت بعد الوقت بغضُ العرب والأكَلَة . أنشد يوماً بيتاً وقال : أحبُّ أن أعلم ما يريد الأعرابي بقوله :

ترى وَدَكَ السَّديف على لحاهم
كلون الزاذ لبَّده الصقيعُ[١]

[ابن بندار وأبو الفضل]

قال : وما انتصف منه أحد كأبي العباس بن بُندار فانه جرى ليلةً حديثُ العرب والقبائل والأنساب فقال أبو الفضل أسد[٢] / [٣٨ب] عِرْقُ وشيج، وخارك[٣] ونشيج[٤]، وطرازُ نسيج . فقال ابن بُندار :

إذا أسـديٌّ جاع يوماً ببلدةٍ
وكان سميناً كلبُه فهو آكِلُه

فتغافلَ أبو الفضل كأنه لم يسمع ، وكان حليماً ، حمولاً ، لئيماً ، ذلولاً !

---

(١) الزاذ : نوع من التمر والودك : الدسم من اللحم والشحم وما يتحلب من ذلك. السديف : شحم السنام .

(٢) أسد : أي قبيلة أسد .

(٣) خرك كعلم : لج .

(٤) نشج : غص بالبكاء .

[أبو الفضل والطبيب]

وقال : أحدثك من حلمه بأعجب من هـــذا ، كنا بأذربيجان لمّا افتتحناها لابراهيم بن المرزُبان وقررناها في يده ، اتفق أنّا ظفرنا هناك بطبيب نصراني بَغدادي ، حسنِ الحِذْق ، بارعِ الصناعة ، مشهودٍ له بصواب الرأي ، وجودةِ التدبير ، فأدناه أبو الفضل ، ورضي هديَهُ ، وحمد قولهُ ورأيهُ ، وكان يخصه بالبرّ والتُحفة . فكان من أمره أن أبا الفضل شرب غداتئذٍ قدحاً من شراب الرُمّان وبقي في أسفل القدح قليلاً ومدّ يده إلى الطبيب يناوله تكرمةً له ويقول له : اشرب هذه البقية ! فقال له الطبيب : نهى نبيُّكم عن سؤر الكلب[1] وأمسك عن القدح فاصفرّ وجهُ أبي الفضل ولم ينطِقْ بكلمة ، ولا أساءَ اليه ، ولا اعتذرَ ذاك من فرْطته .

[اعتذار]

ولتدافع الحديث ما أخرج من ذكر هذا إلى شأن ذاك ، ولهذا اضطرب عليّ نسخ الرسالة على مذهب المصنفين ، ولكن عذري بيّنٌ ، لأني نقلتُ ما نقلتُ في وقتٍ صعبٍ ، وحالٍ عوْراء .

[الصاحب والشراب]

سأل العتّابي شيخــاً من أهل أصفهان ، وكان صحب ابن عبّاد في أيام

---

(١) السؤر : البقية .

الحداثة عن ترك ابن عبّاد الشراب فقال : والله ! ما تَرَكَ ما تَرَكَ لله ، ولكن تركه لأنه كان إذا سكر افتضح ودعا إلى الفجور .

ولما فشا هـــذا ، وفُتحتِ القالة ، هجره وأظهر ذلك لتقوى الله أو لوجه الله تعالى.

[حرج الصدر والنفس]

ورأيتُ ابن عبّاد يوماً يقول لابن أبي هشـــام : لا تَقُلْ حَرجت نفسُهُ ، إنما الحرج للصدر . قال الله تعالى « فلا يَكُنْ في صَدرِكَ حَرَجٌ مِنه[1] » فقال له : فأين أنت عن قول الله تعـــالى : « ثمَّ لا يَجِدوا في أنفُسِهم حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ[2] » فعرق جبينُه خجلاً ، وكان ذاك سبب إعراضه عن هذا الشيخ وانقلابه عنه بالحرمان .

[شيطان صغير]

وقال لي العتّابي : كان هذا - يعني ابن عبّاد - يقال له في المكتب « ديوجه » وتفسيره شيطان صغير !

[الطلاقة والانطلاق]

وقال لي ابنُ الرازي : كلمتُه في شيء يوماً ، وقلت في عرض الكلام : وكان ذاك لانطلاق لسانه ، فقال له : إخسأ ، الانطلاق في الشيء ، والطلاقة

---

(١) سورة الأعراف .

(٢) سورة النساء .

في اللسان . قال : فقلت له : فما تصنع بقول الأول وهو زيد بن الصَّعِق يخاطب النابغة الذبياني :

وأيُّ الناس أعذرُ من شآمٍ
له صُرَدان منطلقا اللسانِ[1]

قال : فخَمَدَ وحقد . هكذا قال بفتح القاف وكان فصيحاً .

[حقد الصاحب على التوحيدي]

وقال يوماً في المجلس وهو يحدّث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله :

لا بدَّ من شيءٍ يُعينُ على الدهرِ

ثم قال : قد سألتُ جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندها ذاك. فقلت: أنا أحفظُ ذاك ، فنظر بغضب وقال : فما هو ؟ قلت : قد نسيته ، قال : ما أسرع ذكرَكَ من نسيانك ! قلتُ : ذكرته والحال سليمة ، فلما حالت عن سلامتها نسيتُ ، قال : وما حيلولتها ؟ قلت : نظر الصاحب بغضب فوجب في حسن الأدب أن لا يقالَ ما يثيرُ الغضب . فقال : ومن تكون حتى نغضبَ عليك ! دَع هذا وهات ، قلت : قال الشاعر :

ألامُ على أخذِ القليلِ وإنما
أصادفُ أقواماً أقلَّ من الذرّ
فإن أنا لم آخذ قليلاً حرمتُه
ولا بدَّ من شيءٍ يعينُ على الدهرِ

فسكت !

---

(١) الصردان : عرقان أخضران يستبطنان اللسان . اللسان (صرد) .

[الصاحب ومسكويه]

وكان ابن عبّاد وَرَدَ الريّ سنة ثمان وخمسين مع مؤيد الدولة ، وحضر مجلس ابن العميد أبي الفضل وجرى بينه وبين مِسكويه كلامٌ ، ووقع تجاذبٌ . فقال مسكويه : فدعني حتى أتكلم ، ليس هذا نَصفَة ، إذا أردت أن لا أتكلم فدعْ على فمي مخدّة ! فقال له : أنا لا أدع على فمك مخدّة ، ولكن أدع فمك على المخدّة . وطارت النادرة ، ولصقت ، وشاعت ، وبقيت .

[الصاحب وأبي عبد الله الحصيري]

فأما حديث ابن عبّاد مع أبي عبد الله الحصيري فمن الطرائف . كان هذا الحصيري من أسقط الناس وأنذلهم . فلما ورد ابن عبّاد الريّ تقرّب اليه ، وعرض نفسه عليه ، وسأل أن يلقنه المذهب ، فحقره ابن عبّاد ، وكان لا يهشّ له ، فجعل الحصيري يقف في الأسواق ، والشوارع العظام ، والمربعات الكبار ، وينادي بصوت جهير ويقول : أدعوا الله للصاحب الخليل اسماعيل ، الذي ليس له في الدنيا عديل . ثم يقول بالفارسية : فانه قد بسط العدل ، وأحيا العلم ، وبثّ المكارم ، وآوى الغرباء ، لا يشرب الخمر ، ولا يفجع الغلمان ، ولا يخلو بالمُردان ، ولا يتقحّب بالنساء ، ولا يأخذ الرُّشا ، ولا يقبل المصانعات ، نهارُه في الملك ، وليلُه في دراسة العلم ، وأشباه هذا الكلام الشنيع ، وكان المنظر عجباً ، والمسمع أعجب .

وكان أهل الريّ يقفون ، ويسمعون ، ويضحكون ، ويسخرون ، والبلد يغلب على أهله النوادر والعيارة[1] ، فلما توالى ذلك منه نُمي إلى ابن عبّاد ، وشنع

---

(١) العيار : الرجل الذي يتردد ويكثر التطواف مخلياً نفسه وهواها لا يزجرها.

به علي الحصري ، واستؤذن منه لينهى عنه ويُزجر ، فقال : لا تفعلوا فان باله ينكسر ، ونشـاطه يذهب ، دعوه على شدة المذهب ، وحدّته على أهل الكذب .

[دعاة الصاحب]

/ وكان له آخر يلقنه المذهب بالفارسية ، ويقال له : اجلس في الأسواق [٣٩أ] عند الباقلاني ، وعند الصيدلاني ، وعند المرّاق[١] ، وعند الهرّاس ، واطرح له حسن العدل والتوحيد ، وادعه إلى المذهب ، ولك مشاهرة تدر عليك ، وبرٌّ في كل وقت يصل اليك ، ولك الجاه العريض في الوصول إليّ ، والخلوة معي ، وكان يقال لهذا الرجل الفقاعي .

ورأيت آخر يقال له أبو علي الإسكاف ، وكان أشفّ من الفقاعي على هذا ، وكان يقال لهؤلاء دُعاة الصاحب ، وخاصة الصاحب .

[تبشير الصاحب]

واجتهد بالحسين المتكلم الكُلابي أن ينتقل إلى مذهبه ، فتلطف حسين وقال: أيها الصاحب ! دعني حتى أكون مشحذاً لك ، فما بقي غيري ، وإن دخلت في المذهب لم يبق بين يديك من تنثو[٢] عليه قُبحه ، وتُبدي للناس عُواره . فضحك من كلامه وقال : قد أعفيناك يا أبا عبد الله ، وبعدُ فما نبخلُ عليك بنار جهنّم ، أصْلَ بها كيف شئت . قال لنا حسـين بعد ذلك : ياقوم ! أتراني أصلى بنار جهنّم ، وعقيدتي وسيرتي معروفتـان ، ويتبوأ هو الجنة

---

(١) المراق : بائع المرق .

(٢) نثا الحديث : حدث به وأشاعه .

مع قتل الأنفُس المحرَّمة ، وركوبِ المحظورات العظيمة ، إنَّ ظنَّه بنفسه لعَجَب والله ! لو كان من المرجئة لكان مخوفاً عليه ، فكيف وهو يدَّعي الوعيد ، ويخوِّف بالتخليد ، لحا الله الوقاح .

[صدر بيت]

وقال يوماً : ما صدرُ قول الشاعرِ :

والمشـــربُ العَذْبُ كثيرُ الزّحام

فسكت الجماعة . فقال : قد والله فشا النقصُ ، وذهب الحفظُ ، ومات الأدب . فقال ابن الرازي : صدرُهُ :

يزدحمُ النـاسُ على بَابِهِ

فأقبل عليه بغيظٍ ، وقال : ما عرفتُك إلا متعجرفاً ، جاهلاً ، أما كان لك بالجماعة أسوَة .

[إعجاب أبي الفضل بالغزل]

وسمعتُه يقول : كان أبو الفضل مطبوعاً على معرفة الشعر ، وكان لا يَخفى عليه جيِّدُه من رديِّه ، وكان يعجب بقول الشاعر:

وجاءت إلى بابٍ من السجف بيننـــا
مجافٍ وقـــد قامتْ عليـــه الولائدُ

لتسمع شعري وهو يقرع قلبهـــا
بوحيٍ تؤديه اليهـــا القصـــائدُ

إذا سمعتْ معنىً لطيفـــاً تنفّسـتْ
له نفســـاً تنقدُّ منه القـــلائدُ

ثمّ قال : هذا والله القول . وأنا أعجب بقول الآخر حين يقول :

ما زلتُ أهواكَ سؤلَ قلبي
ما دمتُ بين الأنام حيّا
وكيف يسلو هواكِ قلبٌ
سقيتِهِ من هواك ريّا
أولى لك الله ثم أولى
أما خشيتِ العقابَ فيّا
جئت إلينا بغير وعدِ
يا حبَّ من زارنا بديّا
حتى إذا ما ملكتِ قلبي
وازددتِ حسناً نعم وزيّا
نَفَرْتِ نَفْرَ الظباء عنا
فصار مِن دونك الثُريّا

[التجربة والاعتبار]

وسنوسع هذه الرسالة بعد هذا التطويل ببعض ما يكون حجةً أو عذراً ، وإن اعترض حديث سقناه على غيره ، وعرضناه على حلوه ومُرّه . ولولا أنّ الفائدة – أبقاك الله – في سماع هذه الأشياء ، ومعرفة هذه الأحوال أضعاف الفائدة في الاضراب عنها لكان السكوت ممكناً ، والإمساك مستطاعاً ، والسلم واقعاً ، والاعفاء سهلاً ، ولكن الخيرة لا تقع ، واليقظة لا تحدث ،والتجربة لا تستحكم ، والطبع لا يرتاض حتى تتصفح الأمور ، وتتعقب الدهور وتأخذ

نصيبك من الاعتبار ، وتبعث همتك على محمود الاختيار . والشاعر يقول :

وَمَنْ يَطُلْ عيشُه لا تلقه غمراً
وفي الحوادث والأيام تحريث (١)

وقال آخر :

أخــــو خمسين مجتمعٌ أشُدّي
ونجذّني مداورةُ الشؤون (٢)

وقال الآخر :

ألمْ تَرَ ما لاقيت والدهرُ أعصر
ومن يتملَّ العيش يرأ ويسمع

[عواقب الطعن بالوزيرين]

وقال لي بعض أصحابنا حين وقف على جُرامة[٣] هذا الكلام: قد كَشَفْتَ طائفتين كبيرتين وحملتهما على عداوتك والارصاد لك يعني المتكلمين والمتفلسفين ، فان هذه لا تصبر لك على ثلبك ابن عبّاد ، وهذه لا تسكت عنك في نَيْلكَ من ابن العميد ، فقلت له : متى كان الخَصْمُ منصفاً ، وكان مدِلاً بالحق متوقفاً فان القول معه يسهل ، والجدال يخفّ ، والحديث يفيد ، وهل أنا إلا كمن قال لرسول الله ﷺ في حديث : يارسول الله رضيت فقلت أحسن ما عرفت ، وغضبتُ فقلت أقبحَ ما عرفت ، فلم ينكر ذلك رسول الله ﷺ . وأنا أروي لك القصة لتكون الفائدة أظهر ، والحجّة أنْوَر .

---

(١) دروس وعظات .

(٢) من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحي ، نجذني : حنكني . منجذ : محنك . مداورة معالجة ، الأصمعيات ص ٦ .

(٣) الجرامة : ما بقي من الزرع بعد الحصد ، ولعله يريد : ماوقف عليه من بقايا الكلام.

[بين الغضب والرضى]

قال عمرو بن الأهتم للزبرقان حين ثار له النبي عليه السلام : ما علمك فيه؟ قال : أعلم أنه قد تجمّت له مروءة ، وأنه مُطاع في قومه ، وأنه مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان : أما والله لقد ترك ما هو أفضل من هذا ، فقال عمرو : أما إذ قال ما قال فهو ما علمتُ أحمق الأب ، لئيم الخال ، زَمِرَ(١) المروءة ، حديث الغنى ، ولقد صدقت في الأولى ، وما كذبت في الأخرى ، وضحك رسول الله ﷺ فقال عمرو : يا رسول الله لقد غضبت فقلت أقبحَ ما عرفت ، ورضيت فقلت أحسنَ ما عرفت . فقال النبي ﷺ : إنّ من البيان لسِحْرا ، فهذا هذا على ما رواه ابن الأعرابي ، ومن أظلم ممن طلب من الساخط ما لا يوجد إلا عند الراضي ، وطلب من الراضي ما لا يُصابُ إلا عند الساخط ، ومن كان كذلك فقد ردّ الأمور على أعقابها ، وأتى المطالب من غير أبوابها ، ولكل واحد من الراضي والساخط شاكلةٌ يعمل عليها / ، وشيمة يَظْهَرُ بها . [٣٩ب]

[موقف التوحيدي من المتكلمين والمتفلسفين]

على أني ما بَهْرَجْتُ(٢) مذهب المتكلمين ، ولا زَيّفتُ مقالة المتفلسفين ، وإنما قلت في أولئك أنهم ادّعوا العدل ، وعملوا بالجَوْر ، وأمروا بالمعروف وركبوا المُنكر ، ودعوا الناس إلى الله بالقول ، ونفروا عنه بالفعل ، ولم

---

(١) الزمر : القليل المروءة .

(٢) بهرجه : أظهر ما فيه من رداءة .

يرجعوا فيما نصروه وذبّوا عنه إلى ورع ظاهر ، وتحرّج معروف ، ويقين لا خلاج [1] فيه كما كان عليه سلفهم وأعلامهم واصل [2] ، وعمرو [3] ، والحسن [4] ومن جرى مجراهم ، وهذا ما لا أحتاجُ إلى الاعتذار منه،فإني قد سمعت الديّانين منهم يقولون هذا فيهم ، ويرونه من الداء الذي قد أعْضَلَ عليهم، ثم اني ما رأيت أحداً سكت عن أحد من سفهائهم تغافلاً عنه ، أو حَصَراً [5] له إلا ورأيته يقول ويُطنب في ابن عبّاد غير خاشٍ ولا متحاشٍ ، لعظم الآفة به على المذهب ، وتفاقم الأمر بمكانه على أهله . وما قولي هذا فيهم إلا كقولك يوم اجتماعنا في مقبرة معروف الكَرْخي لبعض الشيعة : لو كنت ذائباً بحب آل الرسول ، معتقداً بشرف العترة [6] ، راجعاً إلى صحة السريرة والعقيدة لظهر ذلك في عفتك وورعك وصلاتك وصيامك وحجّك وجهادك وعبادتك واجتهادك وصدقتك ومواساتك مع إحياء الليل وإظماء النهار، واقتداء بالذين ، إياهم تُحبّ ، وعنهم تذبّ ، ولم تكن تقنع من جميع محاسن المذهب بسبّ السلف ، وتضليل الأمة ، وثلب الصالحين ، وتكفير السابقين ، وتدنيس الطاهرين ، فقولك لهذا الرجل الشيعي هو قولي للمتكلم إذا كان دعياً، ولم يكن في مذهبه برّاً تقياً . وأما ابن العميد فمن هذا الذي يتفلسف على

---

(١) خالج قلبه أمر : نازعه منه فكر . والخلاج : الشك.

(٢) واصل بن عطاء من رؤساء المعتزلة « ٨٠–١٨١هـ ».

(٣) عمرو بن عبيد البصري شيخ المعتزلة « ٨٠–١٤٤ هـ » .

(٤) الحسن البصري إمام أهل البصرة ورأس علمائها الفقهاء « ٢١–١١٠هـ».

(٥) الحصر : العي في النطق .

(٦) العترة : ولد الرجل وذريته أو عشيرته ممن مضى .

بصيرة ومعرفة ، وهو يرضى سيرته ، ويحمد هَدْيَه ، ويراه قدوةً ، ويعدُّه سعيداً ، كأن الفلسفة إنما تكون بالدعوى باللسان من غير عمل ومعاناة ورياضة وقمع الشهوة إذا غلبت ، وردع النفس إذا طغت ، واستصلاح الأمور بالعدل المؤثر فيها ، وطلب السعادة والفوز في العاقبة على ما رسمه علماؤها، وحققه حكماؤها ، هيهات ! ظنٌّ لا تسافر فيه العين ، وقولٌ لا يصبر على لَفْحِ [١] الكير [٢] ، فليت شعري بعد هذا ، من الخصم الذي يركب البُهْت ، ويدفع العِيان ، ويسحرُ العقول ، ويطرحُ الأذهان ويقول : ليس القول بالعدل والتوحيد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إلا ما هو عليه ابن عبّاد ، ولا الفلسفة إلا ما كان يختاره ابن العميد ، هذا ما لا يقوله أحدٌ ممن له عقل ونهيٌ،ولا يجترىء عليه من له حِجر [٣] وحجى خاصة إن كان ممن يذبّ مروءته بالحق ، ويصون كلمته عن الكذب ، ويغار على عقـــله من تعنيف معنف ، ويأنف لنفسه من لومةِ لائم .

[بين التزكية والتجريح]

سمعت القاضي أبا حامد المروروذي يقول، وكان سيد الفقهاء في وقته ، وإمام أصحابه في عصره ، وعجيب الفضل في جميع أموره: لو أن رجلين طاهرين زكّيا رجلاً عند الحاكم ثم سأل الحاكم آخرين مرضيين عن ذلك المزكي بعينه فجرّحاه لكان الحاكم لا يقف ، ولا يتحيَّر ، ولا يَعْيا ، ولا يحْصِر ولكنه يقدم الجرح على التزكية ، ويعمل بها دونها ويصير إليها تاركاً لها .قال : فان قلت : ما الحكمة في هذا ؟ قيل لك:ان اللذيْن زكيا قالا بالظاهر ، وربما يكثر مثله ، ويغلب

---

(١) لفحت النار فلاناً : أصابت وجهه وأحرقته .

(٢) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

(٣) الحجر : العقل لحجره صاحبه عما لا ينبغي .

شبيهه ، وربما يتكلف نظيره بالرياء والسُّمعة والنفاق والخديعة والختْل والحيلة، فلو لم يكن هذا لأمضيت التزكية على ظاهرها ، وعملت بها وسكنت اليها . فأما إذا استظهرت فسألت آخرين مرضيين عن المزكي فجرّحاه فكأنما علما من باطن أمره ، وخافي حاله ، وكُنْهِ عيبه ومَطْويّ شأنه ما توارى عن عرفان من زكّاه ، وخفي على بحث من عدّله ، وكان هذا عندي بالقبول أولى ،والعمل به أحْرى .

هذا ما قاله هذا الرجل العالم وهلك سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

[مواضع الهجاء والثناء]

وابنُ عبّاد حفظك الله ليس بصغير القَدْر ، وابن العميد لم يكن خامل الذكر ، وما فيهما إلا من هو غُرّةُ زمانه ، وتاريخ دهره ، لنباهته ، وصيته ، وطول أيامه ، وامتداد دولته ، ومواتاة مُراده ، وطاعة الناس له وتوجه الأطماع اليه ، فكيف يَجْزُفُ [١] الحديث عنهما مُجزِف ، ويلزق الكذب بهما مُلزق ، أو يدّعي الباطلَ عليهما مدّعٍ ، هـــذا ما لا يطمع فيه حَصيفٌ ، ولا يعمل عليه عاقل ، ولكن حديث الدين ، والكرم ، والعقل ، والمجد ، والسيرة ، والهدى ، والجود ، والبذل ، ليس من حديث الجَدّ والفَتْح ، والخيال ، والإنفاق ، والدولة ، والسناء ، والمرتبة في شيء . اللهم إلا أن يكون الفصلُ كلُّه عند هـــذا المخالف في كتاب يُنشأ ومعنىً يُقْتضب ، وقصيدة تُنشد ، ورسالة تُحبَّر ، ومســـألة تُتَداول بالعي

---

(١) جزف الشيء : باعه واشتراه بغير وزن ولا كيل وعلى التخمين .

والبيـان ، ودعوى تتناقل بالشبهة ، وغريبة تشقـّق تشقيقاً ، وكلمة تزوّق تزويقاً ، وباطل ينصر لحاجة تدعو اليه ، وحق يرفض لأمر يحمل عليه ، وخصم مفحم بما غثّ وسمن ، وشبهة تركّبت بما ظهر وبطن ، أو يكون الفصل عنده ، والتمام لديه / في الأمر والنهي ، والعزل والولاية ، والقبض [٤٠أ] والمصادرة ، والكيد والغيلة ، والاستخراج والحيلة ، والغاشية والحاشية والخدم ، والدور والقصور ، والمراكب والمواكب ، فيكون كلُّ ما يدّعيه الخصم مقبولاً ، وكل ما يأباه مرذولاً . فأما أن يكون الفصـــلُ باجماع الأولين والآخرين ، والماضين ، والغـابرين في الدينونة ، والتألّه والعفاف ، والتحرّج والتكرم ، والطهـارة والتّقزز ، والنزاهة ، والرقة والرحمة ، والجود والعطية ، والحلم والعفو ، والإبقاء والإغضـاء ، والوفاء والإرضاء ، والتغافل والتسمّح [1] ، والبرّ والتعهـد ، والبِشْر والطّلاقة ، والدماثة والشجاعة ، وطلب الذكر الجميل من كل أحد ، إما للساعة وإما للأبد ، فينبغي على هذا أن لا يكونَ لكلام الخصم سامع ، ولا لدعواه مصدّق ، ولا لحكمه مجير .

[الصاحب كما يراه أبو الوفاء المهندس]

قلت لأبي الوفاء المهندس ، وكان قد رجع من عند ابن عبّاد لقيه بجرجان مؤدياً اليه رسالة من بغـداد ، لقيته بالمرج في ليلة عمياء بالمطر ، والبرد ، والثلج ، والسيل العرم ، كيف شـاهدتَ ابن عبّاد فانك صيرفيُّ الناس

(١) سمح : ساهل ولان .

في الناس ؟ فقال : يقال لمثله عندنا بنيسابور طَبْل هرثمي ، ويقال لمثله عند إخواننا ببغداد : مادحُ نفسه بقرنك السلام ، وهو مع هذا عند أصحابه رقيع طيّب ، وعند الكتّاب أحمق غليظ ، وعند سِفْلة المعتزلة واحد الدنيا ، وعند الفلاسفة طائر ظريف ، وعند الصالحين ظلوم قاسٍ ، وعند الله فاسقٌ عاص ، وعند أهل بلده أفاك أثيم ، وعند الجمهور شيطان رجيم .

[أبو السلم الشاعر والوزيران]

وقلت لأبي السلم نجية بن علي الشاعر القحطاني : أين ابن عبّاد من ابن العميد فقد زُرْتَهما منتجعاً ، ورُزْتَهما[1] جميعاً ، فقال : كان ابنُ العميد أعقلَ ، وكان يدّعي الكرم ، وابنُ عبّاد أكرمَ وهو يدّعي العقل ، وهما في دعوتيهما كاذبان ، وعلى سجيتيهما جاريان . أنشدت يوماً على باب دار ذاك قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىءٍ[2]
جمالٌ ولا مالٌ تمنّى انتقالَها
وما ذاك من بغضٍ لها غير أنه
يؤمّلُ أخرى وهو يَرجُو زَوَالَها

---

(١) راز يروز روزاً : الحجر وزنه ليعرف ثقله . وراز الرجل جرب ما عنده وخبره .

(٢) في ياقوت ٦/٢٢٧ : في ظل دولة .

فرُفِـعَ اليه إنشادي فأخذني وأوعدني وقال: انجُ بنفسك فاني إن رأيتك بعد هذا أو لَغَتْ (١) الـكلاب دَمَك !

وكنت قاعداً على باب هــذا منذ أيام فأنشدت البيتين على سهو فرُفع اليه الحديث فدعاني ووهب لي دُرَيهات وخُرَيقات وقال : لا تتمنَّ انتقال دولتنا بعد هذا .

وأبو السلم هذا من أغزر الناس في الشعر ، يحفظ الطَّمَّ ، والرَّمَّ (٢)، وكان طيِّب الإنشاد ، رخيم النغمة ، أنشدني لابن حسَّان :

إنَّ الجديدين في طول اختلافهما
لا يَفسُدان ولكن يَفسُد النـاسُ

لا تطمعا طمعــاً يُدني إلى طبعٍ
إن المطـامعَ فقرٌ والغنى الياسُ

للنـاس مالٌ ولي مالانِ مالَهُما
إذا تحارس أهــل المال حُرّاسُ

مالي الرضا بالذي أصبحتُ أملكهُ
وما لِيَ اليأسُ مما يملكُ النـاسُ

---

(١) ولغ يلغ : الـكلب الإناء وفي الإناء : شرب ما فيه بأطراف لسـانه أو أدخل فيه لسانه وحركه .

(٢) الطم : الشيء الكثير والبحر .
الرم : الثرى .

[كلمات غريبة]

وقال لي الخليلي : الرجل مجنون ـ يعني ابن عبّاد ـ وفي طباع المعلمين . وهو يقول للتميمي الشاعر : كيف تقول الشعر ، وإن قلته كيف تجيدُه ، وإن أجدتَ كيف تغزُرُ فيه ، وإن غزَرْتَ فكيف تروم غاية وأنت لا تعرف ما الزِهْلِق (١) ، وما الهَبلَع (٢) ، وما العُثْلُط (٣) ، وما الجَلَعْلَع (٤)، وما القَهْقَب (٥) ، وما الطُرْطُب (٦) ، وما القَهْبَلِس (٧) ، وما الخَيْسفوج (٨)، وما الخزَعْبلة (٩)، وما القَذَعمِلة (١٠) ، وما العرومط (١١)

---

(١) الزهلق : الأملس والسريع الخفيف من الناس .

(٢) الهبلع كعملس : الأكول ، العظيم اللقم ، الواسع الحنجور .

(٣) العثلط : اللبن الخاثر .

(٤) الجلعلع ، كسفرجل : من الأبل الحديد النفس والقنفذ والخنفساء .

(٥) القهقب ، كجعفر : الضخم المسن ، والطويل الرغيب ، والباذنجان.

(٦) الطرطب ، كقنفذ : الثدي الضخم المسترخي ، والواحد طرطبى .

(٧) القهبلس ، كجحمرش: الزب أو العظيم الغليظ والقملة .والصغيرة ،والمرأة الضخمة ، والأبيض تعلوه كدرة .

(٨) الخيسفوج : حب القطن ، والخشب البالي .

(٩) الخزعبلة ، الخزعبل كشمردل : الأحاديث المستظرفة والباطل والخزعبلة العجب .

(١٠) القذعملة : المرأة القصيرة الخسيسة .

(١١) العرومط : لم نعثر على معناها في المظان التي بين أيدينا .

وما الشَّـــروَمط (١) ، وما الدودريُّ (٢) ، وما المكري (٣) ، وما العَفْشليل (٤) ، وما القَفْشَليل (٥) ، وما الجَلَعبَى (٦) ، وما القِرشَبُّ (٧) ، وما الصقَعْل (٨) ، وما الجِردَحل (٩) ، وما الدرديس (١٠) ، وما الطرطبيس (١١) ، وما العلطميس (١٢) ، وما الخُزَعْبيل (١٣) ، وما الخنعبيل (١٤) ، وما العباريد (١٥) ، وما العَبابيد (١٦) ، وما العَباديد (١٧) ، وما النقّاب (١٨) ،

---

(١) الشرومط : الجمل الطويل « اللسان » .

(٢) الدودري : الذي يذهب ويجيء في غير حاجة .

(٣) المكري : لم نعثر على معناها .

(٤) العفشليل : الرجل الجافي الثقيل ، والعجوز المسترخية اللحم ، والكساء الكثير الوبر .

(٥) القفشليل : المغرفة .

(٦) الجلعبى ، والجلعباء : الجافي الشرير .

(٧) القرشب ، كأردب : المسن ، والسيء الحال ، والأكول ، والضخم الطويل .

(٨) الصقعل : التمر اليابس ينقع في اللبن الحليب .

(٩) الجردحل : الوادي ، والضخم من الإبل .

(١٠) الدرديس : الداهية ، والشيخ ، والعجوز الفانية .

(١١) الطرطبيس : الماء الكثير ، والعجوز المسترخية ، والناقة الخوارة عند الحلب .

(١٢) العلطميس: الأملس البراق.

(١٣) الخزعبيل : الباطل.

(١٤) الخنعبيل : لعلها من الخنعب وهو الطويل من الشعر أو من الخنعبة وهي الهنة المتدلية وسط الشفة العليا .

(١٥) العباريد : العبارد من الجواري البيضاء الناعمة .

(١٦) و (١٧) العبايد، العباديد : بلا واحد من لفظهما : الفرق من الناس ، والخيل الذاهبون في كل وجه ، والأكارم ، والطرق البعيدة .

(١٨) النقاب: النافذ الأمور .

وما الجِرْفاس [١]، وما اللَّؤوس [٢] ، وما التَّقيل [٣] ، وما الطِرْبَال [٤]، وما معنى انه لظريف ولا تباعه ، وما الفرق بين العَذْم [٥] والرَّذْم [٦] ، والجذم [٧] والخذم [٨] ، والخضم [٩] والقضم [١٠] ، والنَّضح [١١] والرَّضخ [١٢]، والقصم [١٣] والفصم [١٤] ، والفَصع [١٥] والقصع [١٦] ، وما العُنَيْقَس [١٧]

---

(١) الجرفاس ، والجرافس : الرجل الضخم الشديد ، والجمل العظيم، والأسد الهصور.

(٢) اللؤوس ، واللواس والألوس : الذواقة للطعام من لاس : ذاق .

(٣) التقيل : الغريب .

(٤) الطربال : علم يبنى وكل بناء عال وكل قطعة من جبل أو حائط .

(٥) العذم : اللوم .

(٦) الرذم : السيل .

(٧) الجذم : القطع .

(٨) الخذم : القطع وضرب الصقر بمخلبه .

(٩) الخضم : القطع ، وأكل الطعام ، وأكل الشيء الرطب .

(١٠) القضم : الأكل بأطراف الفم ومنه المثل « يبلغ الخضم بالقضم » .

(١١) النضح : رش الماء .

(١٢) الرضخ : خبر تسمعه ولا تستيقنه ، والعطاء ليس بالكثير.

(١٣) القصم : الكسر مع بينونة .

(١٤) الفصم : الكسر من غير بينونة .

(١٥) الفصع : العصر بالأصبعين ، والدلك ، والعطاء ، والعطاء ، وحسر العمامة.

(١٦) القصع : ابتلاع جرع الماء ، ولزوم البيت ، وقتل القملة .

(١٧) العنيقس : تصغير العنقس وهو الداهي الخبيث .

والفُلَيقس (١) ، وما الوكواك (٢) والزَّونَك (٣) ، وما الخيتمور (٤) ، وما الشَّيتعور (٥) ، والإِستَعُور (٦) ، وما الحِرْذَون (٧) ، وما الحَلزون (٨) ، وما القصدر (٩) ، وما الجُعليل (١٠) .

قال الشاعر :

جاءت تمشّى وهي قدام الإبل   جاءت بخفٍّ وحنين ورحل
مشيَ الجُمَعليلة بالحرف النقِل (١١)

قال : ورأيت بعض الجهّالِ باللغة يصحّف في هذا ويقول :

بخفٍّ وحنين ورَخَلْ (١٢)

قال الخليلي : من عُني بهذا ؟ قال : ابن فارس معلم ابن العميد أبي الفتح .

---

(١) الفليقس : تصغير الفلقس ، وهو البخيل الرديء .

(٢) الوكواك : المتدحرج في مشيه ، والفار من الحرب .

(٣) الزونك : الرافع نفسه فوق قدرها .

(٤) الخيتعور : السيئة الخلق والسراب ، وقال الأزهري : الناقة الهرمة ، وكل ما يضمحل ، والذئب .

(٥) الشيتعور : الشعير وقيل الشيتغور .

(٦) اليستعور : موضع ويقال شجر (اللسان) .

(٧) الحرذون : ذكر الضب أو دويبة أخرى .

(٨) الحلزون : دويبة .

(٩) القصدر : لم نقف على معناها .

(١٠) الجعليل : الضبع أو الناقة .

(١١) وفي رواية « الجرف » ، والحرف : طرف الجبل أو مسيل الماء ، والنقل : ككتف ، مكان ذو حجارة .

(١٢) الرخل والرجل : الأنثى من أولاد الضأن .

قال الخليلي : أفهذا الضرب من الكلام مما يجب أن يفتخر به، ويتدفق به ؟ إنك يا أبا حيّان لو رأيته يميس وهو يهذي بهذا وشبهِهِ ، ويتفيهق فيـه ، ويلوي شدقه عليه ، ويقذف بالبزاق على أهل المجلس لحمدت الله تعالى على العافية مما بُلِيَ به هذا الرجل .

[الفرق بين اللفظ الثقيل والشعر]

وبَعْدُ فما بين الشاعر وبين هذا الضرب ، الشاعر يطلب لفظـاً حرّاً ، ومعنى بديعاً ، ونظماً حلواً ، / وكلمة رشيقة ، ومثالاً سهلاً ، ووزناً مقبولاً. [٤٠ب]

[انقضاء أيام الخير]

قلت للخليلي : فما بالُ الناس مع علمهم برقاعته وجنونه ، قد لزموا فناءه ، وتزاحموا على بابه ؟ فقال لي : يا هذا خلَتِ الدنيـا من الكرم والكرام ، واصطلح الناس على قلة المباهاة بالفضائل ، وكان هذا منوطاً بالخلافة فانقضت أيام الصدر الأول بالدين الخالص ، وأيام بني مروان بالرياء والسمعـة ، وأيام بني العباس بالمروءات والتوسع في الشهوات ولم يبق بعد هذا شيء . ولا بدَّ للناس من الانتجاع ، أخصبت البلاد أم أجدبت ، والحِرَف لا تسع الخلق، والمرتبة الواحدة لا تحفظ النظام ، ولا بدَّ للناس من التقسيم بين الرفعة والضعة ، وعلى ما بينهما من الأحوال . على أن الكرم والعطاء والبذل وحب الثنـاء والهزَّة والأريحية أمور قد فُقدت منذ زمان وقامت عليها النوادب في كل مكان ،

[أثر العطاء]

هذا تمامه : المتكلم يحكي بلسانه وهو صاحب المأمون . قال : دخـل النوشجاني على المأمون فقال : يا أمير المؤمنين! ما في بيت مال الصدقات درهم، وقد

كثر القارمون ، فقال المأمون : وكيف لا يكثرون وثلاثة أرغفة بدرهم ، وها هنا أناس لا حرفة لهم ، ولا افضال من موسريهم على معسريهم ، أما والله لقد شهدت أيام الرشيد والخراج أقل وأرذل ، وأن فيها لأكثر من مائة يد بالخير طويلة ، وبالعطايا سائلة ، وللمعروف باذلة ، وللأرحام واصلة .

[كرم البرامكة]

ويروى عن سابق بني هاشم في هذا أعجب كلام قال : والله لو علم اللهُ أن غنى فقرائكم في أكثر من زكوات أغنيائكم لفرض ذلك لهم . فتبارك الله ربّ العالمين، أين أولئك البرامكة ، وأين منهم اليوم ، كان معروفهم يسع الصغير والكبير ، ويعمّ الغنيّ والفقير ، مرة يغرف ومرة ينزف ، مالهم همّ إلا تثميره ، ومن أولئك زبيدة بنت جعفر وابنها ، إني والله لأحسبهما فرّقا من المال فيمن لجأ إليهما ، وطلب معروفهما أكثر من ألف ألف دينار ، ولقد كان لمن ذكرت بطانة ، وللبطانة بطانة ، وكان لهم من المعروف والبذل في الجار والحميم والسائل وابن السبيل ما لو أحصي لطال ذكره ، وعظم قدره ، فما بالعراق اليوم من يجود بدرهم ولا رغيف ، أوليس من انقلاب الزمان أن صار عبد الله بن بشير أحد أجواده ، وأحد أبواب المعروف ، فما ظنكم بنا وقد حشرنا في زمرة واحدة ، ثم ميّزَ أهل كل زمان ، فاذا نظر إلى أهل زماننا لم يقم في المباهاة إلا عبد الله ومالك بن شاهي ، إنا لله وإنا اليه راجعون.

اكتب لهم إلى البلدان ، وانظر من كان منهم محتملاً فارم به إلى الأطراف وأجنحة الثغور ، ومن قلّ ماله ، ورثّ حاله ، وقعَدَ به العُدم عن الحركة الشاسعة فلا تجاوزْ به الموصل والبصرة ، وفرّق فيهم ألف ألف درهم وعجّل سراحهم الأول فالأول .

[بين الماضي والحاضر]

ثم قال لي الخليلي : حصّل الآن زمانك من زمان المأمون حين قال هـذا القول، وميّزْ هذا التمييز، وداوِ بهذا الدواء ، والله إن هذا لعجب حصلنا في حديث ابن العميد على أن يقال : حمّشك[١] عميدي،وفي حديث ابن عبّاد على أن يقال : هذا ركاب صاحبي ، إني لأجد في صدري غليلاً لا يبرّده شيء من ذهاب الكرم ، وفقد الكرام ، وقلة المبالي بذلك .

[أسلوبا الوزيرين في الكرم]

قلت للخليلي أيضاً : ومع هذا كله أين ابن عبّاد من ابن العميد ، فقد خبرت ذلك بملازمتك ، وعرفت هذا بتعرضك فقال لي : أماذاك ،فكان لا يعطيك ، ولكنه كان لا يطمعك ، وأما هذا فانه يطمعك حتى يستفرغك ثم يرميك بالحرمان ، أو بعطاء شبيه بالحرمان ، وتفسير هـذا عندك يا أبا حيّان . قلت : كيف كان علم ذلك من علم هذا ؟ قال : كان ذاك يدعي الفلسفة دعوى شديدة ، ولكن لا ينادي عليها في الأسواق ، وهذا يدعي علم الدين وهو يعرضه فيمن يريد ، قلت له : كيف كان ابن العميد في أمر الطعام ؟ قال: كان ملثوث[٢] الأنفاس عند اختلاف الأضراس ، كدر الإحساس عند دوران الكاس ، وهذا مما يخالف ما عليه كرام الناس .

[الصاحب وأهل العلم]

قلت : فكيف كان ابن عبّاد لأهل العلم قال : إن كذّبوه وخدعوه وموّهوا عليه ، ونافقوه ، وتملقوه قرّبهم وأدناهم ، وأكرمهم ،وأعطاهم،

---

(١) حمش : أي هيج وأغضب .

(٢) في الأصل غير واضحة ، ولعل الصحيح ما أثبتناه ، والملثوث: من ألث أي ألح، ولعلها (مكبوث) من كبث اللحم إذا أروح .

وإن صَدَقوه، وماتنوه[١] وثبتوا له أبعدهم وأقصاهم، وحرمهم، وأخزاهم فما ذنبي - أكرمك الله - إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه جميعاً بما جمعت لك في هذا المكان، على أني قد سترت كثيراً من مخازيه إما هرباً من الإطالة أو صيانة للقلم من رسم الفواحش، ونثّ العضلة[٢]، وذكر ما يسمج مسموعه، ويُكره التحدث به، هذا سوى ما فاتني من حديثه.

[مفارقة التوحيدي للصاحب]

فاني فارقته سنة سبعين وثلاثمائة، وما ذنبي إن ذكرت عنه ما جرّعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملني عليه من الإخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة، والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأني خُصِصْتُ بخساسته وحدي، أو وجب أن أعامل به دون غيري.

[حادث النسخ]

قدّم إليّ نجاح الخادم، وكان ينظر في خزانة كتبه، ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولاي: انسخْ هذه فانه قد طلب من خراسان، فقلت بعد ارتياع: هذا طويل، ولكن لو أذن لخرّجتُ منه فِقَراً كالغرر، وشذوراً تدور في المجالس كالشمّامات والدستبويات[٣]، لو رُقِيَ بها مجنونٌ لأفاق، ولو نُفِثَ على ذي عاهةٍ لبرأ، / لا تُمَلّ، ولا تُستَغَثّ، ولا تُعاب، ولا تُستَرَثّ. فرفع ذلك اليه على وجهٍ مكروه، وأنا لا أعلم. فقال: طعن في [٤١أ] رسائلي وعابها، ورغب عن نسخها، وأزرى بها، والله لينكرنّ مني ما عرف، وليعرفنّ حظّه إذا انصرف، كأني طعنتُ في القرآن، أو رميتُ الكعبة بخرق الحيض، أو عقرت ناقة صالح، أو سلحتُ في زمزم، أو

---

(١) ماتن: عارض.

(٢) نث العضلة: نشر القبح وإذاعته.

(٣) الدستبويات: واحدتها دستبوية، وهي بطيخ أصفر صغير مستطيل.

قلت كان النظّام مأبونا ، أو كان العلاّف ديصانياً (١) ، أو كان الجبّائي (٢) جبرياً ، أو مات أبو هاشم في بيت خمّار ، أو كان عبّادُ معلم الصبيان . وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة ، ومن هذا الذي يستحسن هذا التكليف حتى أعذّره في لومي على الامتناع ؟ أيُّ انسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو بعده أن يمتّعه الله ببصره أو ينفعه بيده ؟ ثم ما ذنبي إذا قال لي : من أين لك هذا الكلام المفوّف المشوف (٣) الذي تكتب إليّ به في الوقت بعد الوقت؟ فقلت : وكيف لا يكون كما يوصف وأنا أقطف من ثمار رسائله ، وأستقي من قليب (٤) علمه ، وأشيمُ (٥) بارقة أدبه ، وأردُ ساحل بحره، واستوكف قَطْرَ مُزنه ! فيقول : كذبت وفجرت لا أمَّ لك ، ومن أين في كلامي الكُدْيَة (٦) والشحذ والضرع والاسترحام ! كلامي في السماء ، وكلامك في السّماد !...

هذا أيّدك الله ، وإن كان دليلاً على سوء جدّي ، فإنه دليل أيضاً على

---

(١) الديصانية : أتباع ديصان وهم فرقة من المجوس يشبه مذهبهم مذهب ماني ، ويقول ابن النديم : « وإنما بينهم خلف في اختلاف النور بالظلمة » ، راجع: الملل والنحل للشهرستاني ٢/٨٨-٨٩ ، الفهرست : ٤٧٤ ، الجاحظ : الحيوان ٥/٤٦

(٢) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي من رؤساء المعتزلة وعلماء الكلام في عصره واليه تنسب طائفة الجبائية ، ولد سنة ٢٣٥ هـ وتوفي سنة ٣٠٣ هـ .

(٣) المفوف : ثوب رقيق وقيل فيه خطوط بيض على الطول . المشوف : المجلو وشوف: زين .

(٤) القليب : البئر .

(٥) شام البرق : نظر اليه أين يقصد وأين يمطر .

(٦) الكدية : التسول .

انحلاله وتخرقه وتسرعه ولؤمه ، والطرائف تستحيل معي عن مذهبه الذي هو عِرقه النابض ، وسوسُه الثابت ، ودَيْدنه المألوف ، وهذا أجراني مجرى التاجر المصري والشاذباشي ، وفلان وفلان .

[حسد الصاحب لابن العميد]

أو ما ذنبي إذا قال لي : هل وصلت إلى ابن العميد أبي الفتح ببغداد ؟فأقول: نعم ، رأيته وحضرتُ مجلسه وشاهدتُ ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا ، وفيما كني فيه كذا وكذا ، وفيما تكلف من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا وكذا ، ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا ، فيزوي وجهه ويتكره حديثه وينجذب إلى شيء آخر ليس مما شرع فيه ، ولا مما حرّك له . ثم يقول : اعلم انك إنما انتجعته من العراق فاقرأ عليّ رسالتك التي توسلت اليه بها ، وأسهبتَ مقرّظاً له فيها ، فأتمانع فيأمر ويشدّد ، فأقرؤها فينغر[1]، ويَدْهَل وأنا أكتبه لك ها هنا ليكون زيادة في الفائدة .

[رسالة التوحيدي لابن العميد يستعطفه]

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهمّ هيّىء لي من أمري رشداً ، ووفقني لمرضاتك أبداً ، ولا تجعل الحرمان عليّ رصدا ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وأجلب النفع[2] ما تعلّق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن إتقان ، وخير الإتقان ما صَدَرَ عن توفيق ، لما رأيت شبابي هَرِماً بالفقر ،

---

(١) نغر : كفرح وضرب غضب وغلى جوفه حنقاً .

(٢) يا قوت : وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ... الخ.

وفقري غنياً بالقناعة ، وقناعتي عَجْزاً عند التحصيل (١) ، عدلتُ إلى الزمان أطلب اليه مكاني فيه ، وموضعي منه ، فرأيت طرفه عني نابياً ، وعنانه عن رضاي مثنياً ، وجانبه في مرادي خشناً ، وإنفاقي في أسبابه سَيِّياً (٢) ، والشامت بي على الحدثان متمادياً ، طمعتُ في السكوت تجلُّداً ، وانتحلت القناعة رياضة ، وتألفت شاردَ حرصي متوقفاً ، وطويت منشور أمري متنزّهاً ، وجمعتُ شتيتَ رجائي سالياً ، وادّرعتْ (٣) الصبر مستمراً ، ولبستُ العفاف محموداً (٤) ، واتخذت الانقباض صناعة ، وقمت بالعلاء مجتهداً ، هذا بعد أن تصفحت الناس ، فوجدتهم عند كل قريب وبعيد أحد رجلين : رجل (٥) إن نطق نطق عن غيظٍ ودِمْنة (٦) ، وإن سكت سكت على ضغن وإحْنة (٧) ، ورجل إن بذل كدّر بامتنانه بَذْلَه ، وإن منع حسن باختياله (٨) بُخله ، فلم يَطُل دهري في أثنـــائه متبرماً بطول الغربة ، وشظف العيش ، وكَلَب الزمان ، وعَجَف المال ، وجفاء الأهل ، وسوء الحال ، وعادِيَة العدوّ ، وكسوف البال ، متحرّقاً من الحَنَق على لئيم ،

---

(١) يا قوت : أهل التحصيل .

(٢) يا قوت : وارتقائي في أسبابه نائياً .

والسي : اللبن يكون في أطراف الأخلاف وينزل قبل الدرة.

(٣) يا قوت : وادعيت .

(٤) يا قوت : ضناً .

(٥) في الأصل رجلا .

(٦) الدمنة : الحقد القديم أو الحقد الثابت للأبد .

(٧) الإحنة : العداوة والحقد .

(٨) يا قوت : حسن باحتياله .

لا أجد منصرفاً [١] عنه ، منقطعاً من الشوق إلى كريم ، لا أجد سبيلاً اليه،
حتى لاحَتْ لي غرَّة الاستاذ ، فقلت : حلَّ بي الويْل ، وسال بي السيل،
أين أنا عن ملِك الدنيا ، والفلك الدائر بالنُّعمى ، أين أنـا عن مشرق
الخير ، ومغرب الجميل ، أين أنا عن بدر البدور ، وسعد السعود ، أين أنا
عمن يرى البخل كفراً صريحاً ، ويرى الافضال ديناً صحيحاً ، أين أنا عن
سماء لا تفترُ عن الهَطَلان ، وعن بحرٍ لا يقذف إلا باللؤلؤ والمرجان ، أين
أنا عن فضاءٍ لا يُشقُّ غبارُه ، وعن حَرَمٍ لا يضام جواره ، أين أنا
عن منهلٍ لا صدر لفُرَّاطِه ، ولا منع لوُرَّاده ، أين أنـا عن ذَوْبٍ
لا شوبَ فيه ، وعن صدَدٍ لا حدَدَ [٢] دونه ، بلى [٣] ، أين أنا عمَّن قد
أتى بنبوَّة الكرم ، وإمامة الإفضال ، / وشريعة الجود ، وخلافة البذل ، [٤١ب]
وسياسة المجد ،نسيمُهُ مشيمةُ [٤] البوارق ، ونفسه [٥] نفيسة الخلائق ، أين
أنا عن الباع الطويل ، والأنف الأشمّ . والمشرب العـذب ، والطريق
الأمم [٦] ، لِمَ لا أقصدُ بلادَه ، لِمَ لا أقتدح زنادَه ، لِمَ لا أنتجع جنابه،
وأرعى مَرادَه [٧] ، لِمَ لا أسكن رَبْعَه ، واستدعي نفعه ، لِمَ لا أخطب
جودَه ، وأعتصر [٨] عوده ، لِمَ لا أستمطر سحابَهُ ، وأستسقى ربابه ، لِمَ

---

(١) يا قوت : مصرفاً .

(٢) يا قوت : عن صوب لا جدد .

(٣) يا قوت : بل .

(٤) يا قوت : بشيمة مشيمة .

(٥) يا قوت : ونفس .

(٦) الأمم : البين الواضح من الأمر .

(٧) يا قوت : مزاده .

(٨) يا قوت : اهتصر.

لا أستميح نيْلَهُ وأستسحب ذَيْله ، لِمَ لا أحجُّ كعبتَه ، واستَلِمُ رُكْنه ، لِمَ لا أصلي إلى مقامه مؤتمّاً به ، لِمَ لا أسبّحُ بِبَنـــانه [1] متقدساً ، لِمَ لا أحكِّم في حالي :

فتىً صيغَ من ماءِ البشاشةِ وجهُهُ
فألفاظهُ جودٌ وأنفاسه مجـــد

لِمَ لا أقصد فتيً بانَ للناس في كفه من الجود [2] عينان نضّاختان [3] ، لِمَ لا أمتري [4] معروفَ :

فتىً لا يبالي أن يكون بجسمهِ
إذا نال خَلّاتِ الكرامِ شحوبُ

لِمَ لا أمدحُ :

فتىً يَشْتري حسن الثناء [5] بروحهِ
ويعلم أعقـــاب الحديث تدومُ [6]

نعم ، لِمَ لا أنتهي في تقريظ فتىً لو كان من الملائكة لكان من المقرّبين ، ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين ولو كان من الخلفاء لكان نعتُه اللائذ بالله ، أو المُنْصِف في الله ، أو المعتضد بالله ، أو المنتصب لله ، أو الغاضب لله ، أو

---

(١) ياقوت : ببنانه .

(٢) ياقوت : في كفه من البحر .

(٣) عين نضاحة : فوارة غزيرة.

(٤) امترى : استخرج ، وامترى الريح السحاب : استدرته .

(٥) ياقوت : المقال .

(٦) ياقوت : في غد .

الغالب بالله ، أو المرضيّ لله ، أو الكافي بالله ، أو الطالب بحقّ الله ، أو المُحيي لدين الله ، أيها المنتجع قرن كلئه [١] ، المختبط ورق نعمته ، ارع عريضَ البِطان ، متفيئاً بظله ، وكلْ خَضْماً ناعم البال ، متعوذاً بعزّه ، وعِشْ رخيَّ اللبب [٢] معتصماً بحبله ، ولُذْ بذراه [٣] آمن السّرْب ، وامحض ودّه بآنية القلب ، وقِ نفسك من سطوته بحسن الحفاظ ، وتخيّر له ألطف المدح تفزْ منه بأيمن القِدح ، ولا تحرمْ نفسك بقولك : إني غريب المثوى ، نازح الدار ، بعيدُ النسب ، منسيُّ المكان فانّك قريبُ الدار بالأملِ ، داني النُّجح بالقصد ، رحيبُ الساحة بالمُنى ، ملحوظ الحال بالحسد [٤] ، مشهور الحديث بالدَّرَك ، واعلم علماً يلتحم باليقين ، وتدرأ من الشك أنه معروف الفخر بالمفاخر ، مأثور الأثر بالمآثر ، قد أصبح واحد الأنام ، تاريخ الأيام ، أسدَ الغياض يوم الوغى ، نورَ الرياض يوم الرضا ، إن حُرّك عند مكرمةٍ حُرّك غصناً تحت بارح ، وإن دُعيَ إلى اللقاء دُعيَ ليثاً فوق سابح ، وقلْ إذا أتيْتَهُ بلسان التحكُّم : أصلحْ أديمي فقد حَلِمَ [٥] ، وجدّد شبابي فقد هَرِم ، وأنطِقْ لساني بمدحك فقد حصر ، وافتح بصري بنعمتك فقد سَدِر [٦] ، واتلُ سورة الإخلاص في اصطناعي فقد سردتُ صحائف النجح عند انتجاعي ، وقل : رِشْ عظمي فقد بَراهُ الزمان ، واكس جلدي فقد أعراه الحِدْثان ، وإياك

---

(١) قرن الكلأ : خيره .

(٢) يا قوت : الحال . اللبب : الرخاء والحال الواسعة.

(٣) يا قوت : بداره .

(٤) يا قوت : الجد .

(٥) حلم الجلد : فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب .

(٦) سدر : تحير ، وسدر البعير : تحير بصره من شدة الحر فلم يكد يبصر.

أن تقول : يا مالك الدنيا جُدْ لي ببعض الدنيا فانه يحرمُك ، ولكن قل : يا ملك الدنيا هَبْ لي الدنيا . اللهمّ فأحيِ به بلادك ، وانعِشْ برحمته عبادك، وبلّغْهُ مرضاتك ، وأسكِنْهُ فِرْدَوْسَك ، وأدِمْ له العزّ النـامي ، والكعب العالي ، والمجد التليد ، والجَد السعيد ، والحق الموروث ، والخير المبثوث ، والوليّ المنصور ، والشانىء المبتور ، والدعوة الشاملة ، والسجيّة الفاضلة ، والسرب المحروس ، والربع المأنوس ، والجناب الخصيب ، والعـدو الحريب (١) ، والمنهل القريب ، واجعل أولياءه باذلين لطاعته ، ناصرين لأعزته ذابّين عن حُرَمه ، مرفرفين على حَوْبائه (٢) .

أيها الشمس المضيئة بالكرم ، والقمرُ المنيرُ بالجمال ، والنجمُ الثـاقب بالعلم ، والكوكب الوقاد بالجود ، والبحر الفيّاض بالمواهب ، قـد سقَطَ العَشاءُ بعبدك على سَرْحِكَ فاقرِهِ من نعمتك بما يُضاهي قدرَك ، وزوّج هيئته ترِبها من الغنى .

[لوم التوحيدي على مدحه ابن العميد]

[٤٢أ] / ثم يقال لي من بعد : جنيت على نفسك حين ذكرت عدوّه عنده بخير ، وبيّنتَ عنه وجعلته سيد الناس ، فأقول : كرهت أن يراني مُندرئاً على عرض رجل عظيم الخطر ، غير مكترث للقمةِ فيه ، والإنحاء عليه وقد كان يجوز أن أشعث من ذلك شيئاً ، وأبريَ من أثلته جانباً ، وأطير إلى جنبه شرارةً ، فيقال أيضاً : جنَيْتَ على نفسك ، وتركت الاحتياط في أمرك ، فانه مَقتَك

(١) حرب : كلب واشتـد غضبـه .

(٢) الحوباء : النفـس .

وعافك ، ورأى أنك في قولك َعدَوْتَ طورَك ، وجهلت قـــدركَ ، ونسيت وزنك ، وليس مثلك من هجم على ثَلْب من بلغ رتبة ذلك الرجل ، وأنك متى جسرت على هذا درِبت (١) به ، وجعلت غـــيره في قرنه ، فاذا كانت هذه الحالات مُلتبسة ، وهذه العواقب مجهولة ، فهل يدور العمل بعدها إلا على الإحسان الذي هو علّة المحبة ، والمحبة التي هي علة الحمد ، والإساءة التي هي علة البغض ، والبغض الذي هو علة الذمّ ؟ فهذا هذا .

[حسد الصاحب لأهل البيان]

وكان ابن عبّاد شديد الحسد لمن أحسن القول ، وأجاد اللفظ ، وكان الصواب غالباً عليه ، وله رِفْقٌ في سرد حديث ، ونيقَةٌ (٢) في رواية خبر، وله شمائل مخلوطة بالدّماثة ، بيّن الاشارة والعبارة ، وهذا شيء عام في البغداديين وكالخاص في غيرهم .

[غيظ الصاحب من التوحيدي]

حدثته ليلة بحديث فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاده ، ثم قيل لي بعد: انه كان يقول قاتل الله أبا حيّان ! فانه نكدٌ ، وإنه وإنه ، وأكره أن أروي ذمّي بقلمي ، وكان ذلك كله حسداً محضاً ، وغيظاً بحتاً .

[حديث أبي الحسن الجراحي]

وأروي لك الحديث فانه في نهاية الطيب ، وفيه فكاهةٌ ظاهرةٌ وعِيٌ

---

(١) دربت به : أولعت به.

(٢) النيقة : اسم من التنوق وهو التجويد في الملبس والمطعم وبقية الأمور.

عجيب ، في معرض بلاغة طريفة في مَلبَس فباهة . حدّثني القاضي أبو الحسن الجراحي قال : لحقتني مرة علّةٌ صعبةٌ ، فمن طريف ما مرّ على رأسي فيها أنه دخل عليّ في جملة من عادني شيخ الشونيزية (١) ، ودوّارة الحمار ، والتوثة ، وفقيهها أبو الجعد الأنباري وكان من كبار أصحاب البربهاري(٢) فقال أول ماقعد: يقع لي فيها لا يقع إلا لغيري أو لمثلي فيمن كان كأنه مني ، أو كأنه كان على سني، أو كان معروفاً بما لا يُعرف به ، إلا أني أنك لا تحتمي إلا حمية فوق ما يجب ، ودون ما لا يجب ، وبين فوق ما لا يجب ، وبين دون ما لا يجب فرْقٌ . الله يعلمُ أنه لا يعلمه أحدٌ ممن يعلم ، أو لا يعلم ، الطب كله أن يحتمي حمية بين حميتين ، حمية كلاحمية ، ولا حمية كحمية . وهذا هو الاعتدال ، والتعديل ، والتعادل والمعادلة . قال الله تعالى « وَكانَ بَيْنَ ذلكَ قَواماً (٣) » وقال النبي ﷺ « خيرُ الأمور أوساطها ، وشرُّها أطرافُها » والعلة في الجملة والتفصيل إذا أقبلت لم تَدْبر ، وإذا أدبرتْ لم تُقبل ، وأنت من إقبالها في خوف ، ومن إدبارها في التعجب .

وما تصنع بهذا كله ، لا تنظر إلى اضطراب الحمية عليك ، ولكن انظر إلى جهل هؤلاء الأطباء الألباء الذين يشققون الشعر شقاً ، ويدُقّون البعر دقاً ، ويقولون ما يدرون وما لا يدرون زَرَفاً (٤) وحُمْقاً ، وإلى قلة نصحهم مع جهلهم ولو لم يجهلوا ، إذا لم ينصحوا كان أحسن عند الله والملائكة ، ولو نصحوا

---

(١) الشونيزية « مقبرة مشهورة ببغداد بها قبور جماعة من المشايخ رضي الله عنهم بالجانب الغربي » ابن خلكان ١/١١٧

(٢) البربهاري: هو أبو محمد الحسن بن علي الفقيه شيخ الحنابلة بالعراق توفي سنة ٣٢٩ هـ العبر : للذهبي ٢/٢١٦

(٣) سورة الفرقان .

(٤) في الأصل ذرفاً وهو تصحيف ، وزرف في الكلام : زاد فيه وكذب .

إذا جهلوا كان أولى عند النـــاس وأشباه الناس ، والله المستعان .

أنت في عافيةٍ ، ولكنّ عدوّك ينظر اليك بعين الاست ، يقول: وجه وَجْهُ من قد رجع من القبر بعد غدوٍ على حال ، فالرجوع من القبر خيرٌ من الرجوع إلى القبر ، لعن الله القبر ، لابزّاز ولا خبّاز ولا درّاز ولا تِجْواز (١) ، إنا لله وإنا اليه راجعون عن قريب إن شاء الله ، « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ (٢) » «وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بِأهْلِهِ ٣» « وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٤) » « وَمِنَ الجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ٥ ». تأمر بني السنّة في العبادة خاصة عبادة الكبار والسادة التخفيف والتطفيف وقلة الكلام . إنا إن شاء الله عندك بالعشي ، والحقّ الحق ، وأقوم بما يجبُ على مثلك لمثلي ، وإن كان ليس لك شغل ، ولا لمثلي أيضاً مثل ، هكذا إلى باب الشام ، وإلى قنطرة الشوك ، وإلى المزرفة . أقول : لك المثوى ، أنا وأنت اليوم كمثل كمثراتين إذا عفنتا على رأس شجرة ، وكدلوين إذا خلِقتا على رأس بئر ، ودَعْ ذا القارورة اليوم ، لا إلَهَ إلا الله ، وأمس كان سبحان الله ، وغداً يكون شيئاً آخر ، وبعد غدٍ نرى من ربّك العجب ، والموت والحياة بعون الله ، ليس هذا مما يباع في السوق ، أو يوجد مطروحاً على الطريق ، ولكن الانسان ولا قوة إلاّ بالله طريف أعمى كأنه ما صحّ له

---

(١) التجواز : برد موشى والجمع تجاويز .

(٢) سورة لقمان .

(٣) « فاطر .

(٤) « الشورى .

(٥) « فاطر .

منامٌ قط ، ولا خرج من السمارية إلى الشط ، وكأنه ما رأى قدرة الله في البط إذا لقط كيف يتقطقط .

والكلام في الانسان وعمى قلبه ، وسخنة عينه كثير ، لا يحمله تلّ عقرقوف ، ولا يسلم في هذه الدار إلا من عصر نفسه عُصرة ينشقّ منها فيموت كأنه شهيد وهذا صعبٌ لا يكون إلا بتوفيق الله وبعض خذلانه الغريب .

على الله توكلنا، واليه التفتنا ورضينا، وبه استخرنا وإن شاء خرّانا وإن شاء الله أطعمنا.

قال القاضي : فكدتُ أموت من الضحك على ضعفي ، وما زال كلامه لهوي إلى أن خرجت إلى الناس ، وكان مع هذا لا يَعيا ولا يكلُ ولا يقف ، وكان من عجائب الزمان .

[مسائل لغوية]

وقال لي ابن عبّاد : حدثني عن بعض لياليه ببغداد ، يعني ذا الكفايتين ، وعن مذا كرة الجماعة عنده ، ومشاركته لها . قلت : نعم ، حضرتُ ليلةً في شهر رمضان سنة أربع وستين وثلاثمائة فسأل عن الغنى أيُقصرُ أم يُمدُّ ؟ قال ابن فارس : الغنى مقصور وهو اليَسارُ والترفّه . والغناءُ بالمد ما يُسمَعُ على الطريق المعروفة ، إلا أن الفرّاء قد حكى ان المدّ في هذا المقصور ، وهو حجّةٌ ولا سبيل إلى ردّ قوله . فقال أبو الفتح : هكذا هو ، وما أصحّ حكايتك ، ولكنّ قلبي لا يطمئن إلى مدّ هذا الاسم ، لأنه لم يأتِ في كلامهم ممدوداً ، فقال ابن فارس قد أنشدَ الفرّاء قول الشاعر :

سيُغنيني الذي أغناكِ عنّي

فلا فقرٌ يدومُ ولا غناءُ

فقلت : عندي في هذا شيء وما ذخرته إلا لمثل هذه الحال ، وقد حان وقته . فقال : هاتِ ، بارك الله عليك ، إنه لحبّاً بالفائدة ما علمت . قلت : الشعر على غير هذا الوجه ، والبيت الذي يتلوه يشهد له وهو :

سيُغنيني الذي أغناكِ عنّي
فلا فقري يدومُ ولا غناكِ

تجنّيتِ الذنوب لتصرميني
دعي العلّات واتّبعي هواكِ

فقال لي : أحسنتَ وأجدتَ ! من أنشدك هذا ؟ قلت : أبو الليل العلوي بالمدينة في مجلس أميرها أبي أحمد العلوي العقيقي . قال فحدّثنا عن أبي الليل هذا وعن غيره بشيء . قلت : سمعتُ شيخاً عنده من بني حرب قد أنشد أبياتاً لم أعلق منها إلا بيتاً واحداً وهو :

فتىً خُلِقَت أرواحُه مستقيمة
له نَفَحاتٌ ريحُهنّ جَنوبُ

وكان معنا إذ ذاك أبو صالح الرازي الصوفي ، وكان مفوّهاً ، جَدِلاً فقال له : ماذا أراد بقوله : أرواحُهُ مستقيمة ؟ قال : أراد / أن أخلاقه [٤٢ب] لا تحول عن الخير ، وعادته لا تَزيغ إلى القبيح ، وأنه على دَيْدَنه في الكرم ، وخصّ الجَنوب لاستدرارها السحاب ، وجعل نفحاتها منافع لهذا الذي مُدح به.

فقال : زِدْنا من حديث هؤلاء المدنيين ، قلت : وسمعته - أعني الحربي - يقول للأمير أبي أحمد في حديث طويل : أيها الأمير !

لِي وَلِيَّة(١) تُمرِع جنابي فإنني
لِمَا نلتُ من وَسْمِيِّ نُعماك شاكرُ

قلتُ: أعد عليَّ بنسخ قافيتك. قال: أما تقفته ؟ قلتُ: ما أدري ماتقول. قال: لعلك من هذه الفرقة الطافية. قلت: لعلّه.

وسمعت هذا الحربي يقول، وكان يُكنى أبا الخصيب، لسيد حيّه، وهمابالعقيق على ضفّة الوادي وقد مدّ(٢) وهما ينطقان بما أحصّلُ ولا أحصّلُ حتى قال أبو الخصيب لصاحبه: يا هذا! اسلُ عن طارفك وتالدك تَسُدْ بين صاحبك ووافدك، أما سمعتَ في هذه القوافي الأول:

ولو كنتَ تُعطي حين تُسألُ سامَحَتْ
لك النفس واحلولاكَ كلُّ خليلِ

فرددت القافية وقلت: واستحلاكَ كلُّ خليل، فقالي لي منكراً: ما هكذا لغتي. فقال ذو الكفايتين: كيف كان إدراكهم لما يقع بالإعراب؟ قلت: سألت أبا الخصيب: هل أقول: إن قربي جعفراً؟ قال: نعم، فما تبغي؟ قلت: أفأقول: إن بعدي جعفراً؟ قال: لا، فما تبغي؟ قلت: فما الذي يمنع من جوازهما؟ قال: بينها مُسَيْفة لا تُسلك، ورُمَيْلة لا تُعلى، وما أعلم الغيب، وإني على بيّنةٍ مما قلت، وعلى ريب مما سألت. فسمع ابن عبّاد هذا كلـــه على تغيظ ما قصدتُ إثارته عليه، ولا علمتُ أن لي متقصّى(٣) من نيلي منه، وكان ذلك كله سبب الحرمان.

[رسالة ابن طرخان الى ابن العميد]

ولقد ظهر لذي الكفايتين بمدينة السلام فضل كبير على أنه لم يشخص إلا

---

(١) أي أمطرني معروفاً بعد معروف. والولي: المطر يسقط بعد المطر، أو المطر بعدالوسمي.
(٢) مد: أي سال. (٣) المتقصى: مبلغ الغاية.

مَعْتُوباً عليه ، ولقد كتب اليه ابن طُرخان [١] الورّاق رسالة طويلة أطلعني على فصل منها يقول فيه : وإنك أيها السيد الهُمام ، دخلت هذا البلد إما غِرّاً بما تُري وتَرى ، وإما على أن تبيّن فضلك لأهله ، وإما لأن تستفيد منهم ما ليس عندك ، فإن كان دخولك على غرارة فما هذا بمشاكلٍ لمرتبتك في هذه الدولة التي غرّتها مجلوّة بيدك ، وجُمّتها [٢] مفروقة بمِدْرَى [٣] تدبيرك ، وأذاها مماطٌ بذبّك ، ودواؤها مأمونٌ بطبّك ، وعدوُّها مكبوت بصولتك ودولتك ، ووليُّها قرير العين بحسن إيالتك [٤] وكفالتك ، وأما أن تبين فضلك فاعلم أنهم لا يعترفون بفضلك إلا موصولاً بأفضالك ، ولا يسلمون لك مرادك فيهم إلا بأن يدركوا أملهم منك ، كان ذلك طوعاً أو كَرْهاً ، سلماً أو حرباً . وأما لأن تستفيد منهم ما ليس عندك ، فهذا لا يكون مع إذالة [٥] القاصدين ، والاحتجاب عن الطامعين ، والتكبر على الحاضرين ، ولو حَسُنَ التكبّر بأحد لحَسُنَ بك لأبوّتك الشريفة ، ولغرّتك الصبيحة ، ولكفايتك الطاهرة ، ولفضائلك الكبيرة ، ولكن زراية التكبّر على صاحبه أطرَدُ لمحاسنه من تداركه بتكبره من غيره ما يزيد تجلده ، والناس لا يرضون إلا بالغاية ، والغاية أن يظلّ الرئيسُ نفسه تكرماً على زائره ، وتجرّعَ الغيظ من كلِّ مَنْ قرَعَ بابه ، ولمس ركابه . وأنا — أعلى الله كعبك — أحصي أشياء جعلَتها أصحابنا جوالب للعتب عليك ، والكلام من ورائك ، وليس لي فيما أقول إلا الفوز بجمال النُّصح ، وإلا

---

(١) أبو الحسن علي بن حسن يقول عنه ابن النديم « حسن المذهب في الغناء وله بضاعة في الأدب » الفهرست ٢٢٢

(٢) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٣) المدرى : المشط .

(٤) الإيالة : السياسة .

(٥) أذاله : أهانه .

التلذذ بالتنبيه على الكرم ، وإلا إيثار سلامة عرضك على قوم همُّهم الحك في كل حال ، وإلا التعرّض لذكرك لهم بالجميل بعد الرحيل من هذه الرباع .
فمن تلك الأشياء سهوك الذي وقع قد أكد عليك في قبول من تقبل ، وإيصال من توصل ، وإبعاد من تبعد ، وتفضيل من تفضّل بقول من حولك ، وحكم من أطافَ بك استرسالاً مع الأنس بهم ، وثقة بما سَلَفَ لهم . وذهب عليك ـ أكرمك الله ـ أن هؤلاء الذين تنظر بأعينهم ، وتقبل وتردُّ بأهوائهم ماخلوا من حَسَدٍ / لمن يخِفُّ على قلبك ، ويحلى بعينك ، ويلتاطُ بنفسك(١)، [٤٣أ] والعامةُ تقول : القاصُ لا يحبُّ القاصّ ، ولو كان قلبك لكلّ من اسمُه عندك لصيته البعيد ، وسؤالك لمن لا شهرة له قبلك بحسن التأتي في التقريب، لكان حدُك حينئذ مقبولاً بما يظهر لك من الزيادة والنقص ، وكانت الحجة تقوم بينك وبين من قد ضرّى على مالك ، أو وضع في نفسه أن ينالَ مُراده منك بالخدع . على أن التغافل في هذا الباب أدلُّ على الكرم ، كما أن الاستقصاء فيه أجلبُ للنكد ، فهذا هذا .

وشيءٌ آخر ، وهو أصعبُ مما تقدّم ، وذلك أن حجاّبك قد بدّد شمل الزوّار عنك، وقسم ظنونهم بك ، وطرح في قلوبهم اليأس منك ، ولست بأهل لذلك منهم ، كما أنهم ليسوا بأهل لشدة الحجاب منك ، وقلّة رافعي أخبارهم اليك.

وشيء آخر ، وهو أصعَبُ مما تقدّم ، والسهو فيه لاحقٌ بالظلم . لِمَ يجبُ ـ أدام الله دولتك ـ أن لا يصل بِرُّكَ إلا إلى الفاضل ، وإلا إلى الكامل ، وإلا إلى الذي هو في الشعر مُفلق ، وفي الكتابة بارع ، وفي الفلسفة غاية ، وفي الكلام نهاية ، وفي الفقه آية ، وفي النحو مذكور ، وفي الطبّ مشهور . وهذا ظلم لأن الله تعالى جعل لكل شيء قدراً ، وأظهر له خطراً ، وكلُّ متاع وثمنَه ، وكلُّ بدنٍ وسِمَنَه ، والمتناهي كان في

---

(١) التاط بنفسك : لصق بنفسك وأحبه .

الأول مبتدئاً، ثم في الثاني متوسطاً، ثم في الثالث الذي لا رابع له، وقاصدوك بفضائلهم كالعارضين عليك بأمتعتهم، وأنت تشتري كلَّ متاعٍ بقيمته، وتعدله بِبَدَله، فهكذا ينبغي أن تفعل بأبناء الأمل، وأصحاب العمل، فليس يَجْمُلُ أن يحظى بصلتك وبرّك وجائزتك ونظرك أبو سعيد السيرافي، وأبو سليمان السجستاني، وعليّ بن عيسى الرمّاني، وأصحاب القلانس ويُحْرَمَ بعضَ ذلك فلان وفلان، ممن ليس لهم سِمْعٌ[1] هؤلاء ولا حالُهم، على أنك قادرٌ على إلحاق الصّغار بالكبار بالاصطناع والتفضُّل، فان الرجال هكذا يتلاحقون، وفي حَلْبَة الرؤساء يتسابقون، فكُن سبباً للساكت حتى ينطق، وعلةً للساكن حتى يتحرّك، وباباً للنائم حتى يستيقظ، وطريقاً للخامل حتى ينتبه، وجَدّاً سعيداً للميت حتى يحيا. فأما من عدا هذه الطبقة فقد سلف له بغيرك ما هو له أشكر، وبه أبصر، وله أنصر، على أنك إذا عَمَمْتَ الجميع بالخير كنت أشدَّ اقتداء بالله، وأجنَحَهُم إلى هُدى أولياء الله، وآخذهم بعادة خلفاء الله.

وشيء آخر ترجحت بفكري في طيّه ونشره، فرأيتُ طيَّه خَمْشاً لوجه النصيحة، وذكرُه بالإطالة فتحاً لباب الفضيحة، فذكرته مختصراً، فقد يُفْهَمُ من الكلام القصير المعنى، العريض الطويل، وهو حديث المائدة والطبق، وما يحصر الأكل ويُجمع عليه الرفيعُ والوضيعُ والنَّزِهُ والجشع، فجدِّدِ الاهتمام بذلك فان القالة فيه طائرة، والحال فيه دائرة، والحاجة إلى التحزّم فيه ماسّة، والتغافل عنه مجلبة للذم. وقد رأينا

---

(١) السمع: الذكر الجميل وحسن السمعة.

قوماً كراماً تهاونوا في هذا الباب ، إمّا رفعاً لأنفسهم عنه ، وإما شغلاً بمهمات أُخَر دونه ، فأكلتهم الألسنة ، وأعلقتهم الملامة ، وأحوجتهم إلى الاعتذار الطويل بالاحتجاج الكثير . والكرم والمجد لا يثبتان بالدعوى ، ولا يسلُبان بالحجـــة ، ولكن يشيمان بالفعل الذي نطقُه كالوحي في الحال التي تنتصب للعين ، ولا يؤفنُ من ضَعَةِ الأكلَة ، فان لؤم الأكلة دليلٌ ناصعٌ على كرم المُطعِم ، وهذا بابٌ يزلّ فيه الرئيس ، ويُظلَم فيه الخدم ، فان الرئيس لا يقدر على أن يتولى كلّ ذلك بنفسه ، ويراعيه بلحظِه ولفظه ، إلا أنه متى أحكم الأساسَ فقد أمن البأس،وأرضى جمهور الناس .

وشيء آخر لا بدّ من الإفاضـــة فيه على وجه الذكرى ، أنّ لقاءك الناس بالبشر يأسرهم لك ويرضيهم عنك ، فتكلف ذلك إن لم يكن التهلّلُ سجيّة ، وبالمزاج المُستعد ، / وما أكثرَ ما يلحق المتخلق بذي الخلق . [٤٣ب]

وبعدُ فبَيْنَ عبوسِ وجهك ، وقد ظهرتَ للناس لتركب ، وبين عبوسه وقد رجعتَ إلى دارك لتنزل فرقٌ ، أعني أنك ربما عُذِرتَ في العبُوس في الثـاني لأن النهــار قد نَصَفَ ، ولأنك قد تجشّمت إلى ذلك الوقت مصـــاعب الدولة بالأمر والنهي ، والقبض والبسط ، ولستَ تُعْذَرُ في غُرّة نهارك ، وأنت جامٌ [١] ومتوجّهٌ ومنتصب للتدبير في الأمور .

وشيء آخر قد يسبق إلى عينك إزدراءُ من عليــــه مرقّعةٌ ، أو عليه

---

(١) جام : مستريح .

بَذَاذَةٌ (١) وقد اعتراهُ عيٌّ إما للهيبة ، وإما لسوء العادة . فلا تصدّق العين، فانها تكذب أحياناً ، واعمل على أنك تعتقده بفضلك ، فإن كان من أهل الفضل فهو شقيقك بالطبيعة ، وإن كان من أهل النقص فهو مستحقٌ منك الرحمة ، والإحسان إلى مثله شكرٌ منك لله على ما خصّك به من دونه .

[رسالة أخرى، لابن طرخان]

هذا ماحصل لي من ذلك الفصل ، ثم إني سنة سبعين وجدت هذه الرسالة في مسوّدة ابن طُرخان فيما يباع من ميراثه فكان في أولها :

السعادة أيها الاستاذ الجليل ضَرْبان ، والسعيد رجلان ، وإحدى السعادتين للدنيا ، والثانية للآخرة ، وأحد السعيدين من هو سعيدٌ في هذا المكان ، والثاني هو السعيد في مكان آخر ، ومن كمال فضيلة أحد السعيدين أن يُعايش الناس بالمعروف ، ومن تمام إحدى السعادتين أن تتصل بالأخرى ، ولما رأيتك أيها الأستاذ سعيداً في هذه العاجلة بالمال والولاية والعز والمرتبة ، آثرت أن تكون سعيداً في تلك الآجلة بالاحسان والمعروف ، والبِرّ والمكرمة ، فكتبت حروفاً قصدت بها إذكارك لا تعليمك ، لأنك تَجِلُّ عن التعليم لما أوجب الله لك علينا من التعظيم ، وإنما ساغ الاذكار وحسن التنبيه لأشغال قد اكتنفتك من تهذيب الدولة ، وأعباء قد تحملتها في حماية البيضة ، وأمورٍ أنت وليُّها في بث المعدلة في الرعيّة ، وإقامتها على سواء المحجّة ، ولو سكتُّ عن هذا كله لأمكن ، وكان لا يتشعّث لك حال قد تولى الله صلاحها ، ولا ينآد (٢) عليك مستقيم قد أذن الله بدوامه ، ولكن كنت أحرمُ القوبى اليك،

---

(١) البذاذة : الهيئة الرثة .

(٢) ينآد : من أود ، أي انحنى وانعطف .

ويفوتُ النظر إلى مثلي ، ومحرومي ألذعُ لقلبي من فائتك ، لأنك سيّدٌ وأنا عبد ، وأنت رئيس وأنا مرؤوس ، فنعمتُ دالاًّ على نفسي بما قدمته من نفسي، فإن كنتُ لم أخرج من حد الأدب المرضيّ ، وعادة أهل الحكمة العالية ، فما أولاك بعرفان ذلك لي ، وإن كنت قد خرجت عن ذلك بعُجبٍ حالَ بيني وبين صوابي ، وخطأ قعد بي عن مرتبة أصحابي ، فما أولاك بستر ذلك علي ، وما بسط الله باعك ، وما وسّع ذرعك إلا ليقيك خطأ غيرك بشكل صوابك ، وإلا ليغمد إساءتهم بإحسانك ، وإلا ليغلب الظن في الجميل ، ولا يغلب الظن فيما خالف ذلك . وأنت كالسماء ذات الآفاق السارحة ، والكواكب المزدهرة ، والحركات اللطيفة والآثار الشريفة ، والأسرار المكنونة والعجائب المثيرة ، والغرائب المشهورة ، فلكل ناظر اليك تعجب ، ولكل عين نحوك تقلب ، ولكل عقل عنك بحث ، ولكل قلب فيك أمل ، ولكل أمل عندك رجاء ، ولكلٍّ عمل عندك جزاء ، وأنا أسأل الله الذي رفعك إلى هذه الذروة والقلّة إلا يحطك إلى شيء من الذلة والقلّة .

هذا ما صحّ لي بالاستخراج من مسوّدته أتيت به على ما ترى .

[قصيدة النمري في مدح ابن العميد]

وأروي لك ها هنا قصيدة أبي عبد الله النمري (١) يمدح بها أبا الفتح، وكان يُعجب بها ويحفظها وينشدها ، ومرادي بذلك تكثير الفائدة ، وتخليد الحديث بمتعٍ مرة ، وبنفع مرة ، وهي :

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن علي النمري ، انظر يتيمة الدهر ٢/٣٠٨ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، ط التجارية .

سرتِ النجائبُ بالنجـائب ترمي الكواكب بالكواكبْ
ترمي تُجاهـات المشـا رق من تُجاهات المغـارب
قصداً إلى ملك تحـكـ كَم في رغائبه الغرائب[١]
ملك تبوأ من خُـزَيْـ مَةَ في النّواصي والذوائب[٢]
حيث الســوابق والسوا ابغُ والنجائب والجنائب[٣]
[يهب المنعّمـة الـكوا عب والمطهّمة السلاهب[٤]]
في سورة المجـد التليـ دِ وسَوْرة القلب القواربْ
يا بن العميـد عميد دَوْ لتـه الموطـدةِ المراتبْ
الألمعيُّ اللـذّ تُحـ دثه الشواهـد بالغرائب
زرناك من أرض البُصيْ رة شاحبين على شواحب
نَرِدُ المنـاهل كالجبا هل والسباسِبَ كالسكاسب[٥]
نطوي الجبالَ إلى جبا ل العـلم والحلم المغـالبْ
الآن قـد قرَّ القـرا رُ بنا وأطْلبتِ المطالِب
[لا ريّ دون الري والـبحر الغطـامط ذي الغوارب
بحـر جـواهره طوا ف في سواحله رواسب[٦]]

---

(١) اليتيمة : « رغباً ... الرغائب » .
(٢) « : « ... من علاه ... »
(٣) « : « حيث السوابغ والسوابق ... » .
(٤) زيادة في اليتيمة .
(٥) اليتيمة : « السبائب » .
(٦) زيادة في اليتيمة .

[٤٤أ] / لا دونها لجج الكوا ... ربِ لا ولاحججُ الكواذب(١)
يرمي بنا تيارها ... قِبَلَ الأباعدِ والأقارب
والبحر لا تَنْدى به ... إلا السواحلُ والجوانب
لما نهضت إلى الرجا ... ءِ وحنَّت البيض الكواعب
وتناثرت عبراتهنَّ ... نَ عليَّ كالدُّر النقائب
ندّى يديَّ وحلّتي ... دمعُ الأحبّة والحبايب
فجعلته مالاً وقلـ ... ـتُ ندى الدموع بذي المواهب
ولئن تلافتني يد الـ ... أستاذِ من أيدي النوائب
وأقمتُ في الظلّ الظليـ ... ـلِ ولم تُسغبني السّواغب
ليشرنْ أحبتي ... بمواهبي شتى المذاهب
وَيُحلّينْ لآلئاً ... أضعافَ أدمعها السواكب
ولأقضينْ من العشيـ ... ـرةِ كلَّ حقٍ حق واجب
حتى يقال أعاذه الـ ... أستاذُ مكربة الضرائب
كم من ظباءٍ بالبُصَيْـ ... ـرةِ في المقاصر والسّباسب
إنس ووحش يشتهـ ... ـنَ سوى الذوائب والحقائب
أدم يقاسمن الأرا ... كَ جناه والقضبَ الرطائب
فلأنسها [أغصانهُ ... تجلو به بُرد السحائب
ولوحشها(٢)] غضّ الجنى ... عبث المغازل(٣) والملاعب
نَصْطادُ وحشيّاتها ... وتصيدنا الأنس الخراعب

---

(١) اليتيمة : « ... دونها اللجج ... ولا اللجج الكواذب » .
(٢) زيادة في اليتيمة .
(٣) اليتيمة : « ... عبث المعازف ... » .

يارُبَّ يومٍ لي كظلّـ ـلِكَ أو كظِلّمِكَ أو يقارب
رقّتْ حواشيهِ وغضْـ ـضَتْ عينُ واشيه المراقب
قصرت لنـا أطرافُهـا قصرَ القِنـاع عن الذوائب
وتبرّجـت لذّاتـه للخاطبين وللخواطب
نزلت بـه حاجاتنـا بين المحاجر والحواجب
يا ليت سعداً من سعو دِكَ ردَّ أيامي الذّواهب
ملك يضيءُ بوجهـه وترى به الظلَم الغياهب
لوْ سامَـهُ أعـداؤه ما بيهم واليوم عاصب
وهب الذّوابل للمُطا عنِ والقواضبَ للمُضارب
ومن السخـاء مذاهبٌ يُعددن في جمل العجـائب
لمـا رآه الطـالع الـ مأمونُ مأمونَ المعايب
وبراه ركن الدولة الـ غرّاءِ ركناً ذا منـاكبْ
ومظفّـر الأقـلام والـ أعـلام ميمون النقـائبْ
كأبيـه خـير أبٍ وأنـجبـه إذا عُدَّ المنـاجبْ
ردَّ الأمور اليـه ردْ دَ مفوّضين على التجارب
حتى إذا انتظمـت له بثقوب آراءٍ ثواقـبْ
وكفى أمير المؤمنـين عُرى الكتابة والكتائبْ
بكفـايتين أقامتـا أوَدَ المُسـالم والمُحاربْ
اشتقّ من أفعـاله لقباً له بِكر المنـاقبْ
مثل الفرِنْدِ على القوا ضب والفريد على الترائبْ
لله توفيـق الإما مِ العدلِ في اللقب المناسبْ
يا خيرَ من ركب الجيا دَ وقادهـا قبّاً شوازبْ

أغنيتني كلَّ الغنى — وكسبتني أسنى المكاسبْ
شرفاً تلقبه العدا — سرفاً فيالك من مُعايبْ
وكسوتني حُللاً صقلـ — نَ خواطري صقل القواضبْ
حللاً كديباج الخدو — دِ مطرَّزاتٍ بالشواربْ
فلتشكرن رياضُنا — جدوى سحائبك الصوائبْ
ولتنظمنَّ لك القصا — ئد كالقلائد للكواعبْ

[أبو عبد الله النمري]

والنمري هذا مليحُ الشعر والأدب والخلق ، ولما توجّه إلى ذي الكفايتين من البصرة وصف بعض ما عناه فقال :

لما رأيت كرَمهم أطمّا (١)
وشجر البلوط خضرا َعمّا
وفتية عن الفصيح صُمّا
ذكرتُ بالبصرة نخلاً جمّا
وفتية بيض الوجوه شُمّا
ناديتُ ياللهمَّ فرّج غمّا
ما أسرع الشيء إذا ما حُمّا

(١) في الأصل : كرام الأصما ، وأطم : علا وغلب .

[حديث عن ابن العميد]

فأما الجملة التي تمت في أمر أبي الفتح ذي الكفايتين فقد كنتُ في أول الكتاب قد وعدتُ بروايتها ، وهذا موضعها على ما سَنَح الرأي فيه ، ولعلها تُفيد ، وإن لم يكن من خاص ما في هذه الجملة لأن هذه الرسالة قد صارت كتابَ خرافة.

[استطراد الى الكلام عن الوزيرين]

وذاك أن القصد الأول لم ينحرف إلى هذه الفنون والشُعب ، ولكن الحديث ذو شجون ، وله نَزْوَةٌ من القلب على اللسان ، ودبيبٌ على اللسان من القلب ، والاحتراس منه يقلّ ، والغلط فيه يعرض ، وحفظُ الكلام على سَنَنه من الكلف الشاقة ، والأمور الصعبة ، واللسانُ فيه أكثر انصافاً من القلم ، واللفظ أعدلُ من الخط ، وبعد وقبل فالكلام في نشر العيب ، وكشف القناع ، وتدنيس العِرْض ، وهجو الإنسان ، ووصفه بالخبائث أكثر استمراراً ، والمتكلم فيه أظهر نشاطاً ، وأمْرَن عادةً ، وأوقدُ هاجساً ، وأحْضر عاطساً ، وهذا لأن الشرَّ طباعٌ ، والخير تكلّف ، والطينة أغلب .

وقد قال بعض فتيان خراسان : الإحسان من الإنسان ذلة ، والرحمة من القادر أعجوبة ، والظلم من المُذلّ مألوف . وقد قيل لبعض من انتجع مأمولاً ، وأدرك حاجته منه ، كيف انقلبت عن فلان ؟ فقال : منعني لذّة هجائه ، وأكرهني على حسن الثناء عليه ، والقلوب مجبولةٌ على حُبِّ

الإحسان،والألسنة تابعة للقلوب كما أن العيون ناطقة عن الضمائر ولهذا قال الشاعر :

تحدثني العينـان ما القلبُ كاتمٌ

ولا جنَّ بالبغضـاءِ والنظر الشَّزْرِ

أي لا حائل ولا ستر ، واللحظُ رائدٌ ، والقلب شاهدٌ ، والرائـــد لا يَكْذِبُ أهلَهُ ، والشاهد لا يكذِبُ نفسَهُ . وقلت لأبي سليمان شيخنا ببغداد،وكان يُتهادى كلامه ويتساح على مايسمع منه:لم صار السبّ والهجاء وذكر كل عورة وفحشاء أخفّ على من حُرِم مأموله ، ومنع ملتمسه من الوصف الحسن ، والثنـاء الجميل ، والمدح الأغرّ المحجّل ، والتقريظ البليغ المتقبل [٤٤ب] / على من صدقه ظنه،وتحقق رجاؤه ، وحضرته أمنيته ، فقـال : لأن الذي يمدح لعلم من نفسه عندها كالعتيد ، والذي يثاب يأخذ لنفسه ما ليس عندهـا كالمستقبل فالفصل بينهما كالفصل ما بين الغارم ما يملكه ، وبين الغانم ما يطلبه ، وهذا كما قال ، وهو راجع إلى شفـاء النفس ، وبرد الغليل ، وإلى بلوغ الغاية ، والاستيلاء على النهاية ، ولولا أن هذين الرجلين — أعني ابن عبّاد وابن العميد — كانا كبيريْ زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعتْ شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينتشر الحسن منهما نشراً ، ويُؤثر القبح عنهما أثراً ، لكنت لا اتسكع في حديثهما هذا التسكّع ، ولا أنحي عليهما بهذا الحد ، ولكنّ النقص ممن يدّعي الكمال أشنع ، والحرمان من السيـــد المأمول فاقِرة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب [١] . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثاً من جميع من كتب للجبل والديلم إلى وقتك هـذا المؤرخ في الكتاب لم تجد .

---

(١)في يا قوت٦/٢٣٢ بزيادة: والجهل من العالم منكر والكبيرة ممن يدعي العصمة جائحة.

[عودة الى الحديث عن ابن العميد]

كان من الحديث الذي زللنا عنه قليلاً الى هذا الموضع ، أن ركن الدولة لما مات في أول سنة ست وستين وثلاثمائة اجتمع أبو الفتح ذو الكفايتين وعليُّ بن كامة (١) وتعاهدا وتعاقدا وتوافقا وتحالفا وبذل كل واحد منها لصاحبه الاخلاص من المودّة في السر والجَهْر ، والذبّ في الظاهر والباطن ، والتوقير عند الصغير والكبير ، واجتهدا في الأيمان الغامسة (٢) ، والعقود المؤرّبة (٣) ، والاسباب المغارة الفتل ، ودبّرا أمر الجيش ، ووعدا الأولياء ، وردّا النافر ، وركنا ألحاظ الحاضر ، وعاقا الخطب العاقر ، واستبر(٤) جل ذلك أبو الفتح خاصة بجدّ من نفسه ، وصريمة من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ربّه . فلما ورد مؤيد الدولة الريّ من أصبهان ، وعاين (٥) الأمر متّسقاً ، ولحق كل فتق مرتقاً بما تقدم الحزم به ، ونفذ الرأي فيه(٦) أنكر الزيادة الموجبة للجند ، وكرهها ودمدم (٧) بها فقال له أبو الفتح : بها نظمتُ لك الملك ، وحفظتُ الدولة ، وصنت الحريم ، وإن خالفتْ هذه الزيادة هواك اسقطت باليد الطولى (٨).

---

(١) في يا قوت : أحد أمراء الديلم والأعيان .

(٢) الأيمان الغامسة والغموس التي تغمس صاحبها في الإثم والنار .

(٣) في ياقوت : الموثقة والأربة ، العقدة التي لاتنحل حتى تحل .

(٤) استبر الشيء : اختبره وجربه .

(٥) في ياقوت : صادف ..

(٦) في ياقوت : ونفذ من الرأي الصائب عنده .

(٧) في ياقوت : يذكرها .

(٨) في ياقوت : فأسقطها فاليد الطولى لك .

[بداية الصاحب في أمور الدولة]

وكان ابن عبّاد قد ورد ، وحطبُه رطْب ، وتنّوره بارد، وزرقه[1] غير نافذ ، هذا في الظاهر فأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثّبه على أبي الفتح بما يجد اليه السبيل من الطعن والقَدْح ، فأحسَّ بذلك كله ابن العميد فألّب الأولياء على ابن عباد[2] ، وهمَّ بقتله ، وقال للأمير : ليس من حق كفايتي في الدولة وقد انتُكثَ حبلُها ، وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسامَ الخسْف،والأحرار [لا] يصبرون على نظرات الذُلّ وغمزات الهوان ، فقال له في الجواب : كلامُك مسموع ، ورضـــاك متبوع ، فما الذي يُبَرِّدُ فوْرَتكَ منــه ؟ قال : ينصرف إلى أصفهان موفوراً ، فوالله لئن أنصفته في مطالبته برفع حساب ما نظر فيه ليَعْرَقنَّ جبينُه ، وليغدقن حنينُه ، ولئن أحسَّ الأولياء الذين اصطنعهم بمالي وإفضالي ، بكلامه في أمري ، وسعيه في فساد حالي ليكوننَّ هلاكُه على أيديهم أسرع من البرق إذا خطف ، ومن المزن إذا نَطَف ، فقال له : لا تخالف لرأيك ، والنظرُ لك ، والزمام بيدك .

[تلطف الصاحب]

وتلطف ابن عبّاد في عرض ذلك لأبي الفتح وقال : أنا أتظلّم منك اليك ،

(١) الزرق : الطعن مصدر زرق .

(٢) في ياقوت بزيادة : « حتى كثر الشغب ، وعظم الخطب » .

وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاش العارض سهل الزوال إذا تألفت الشارد من حلمك علي بشائع كرمك .

ولّني ديوان الانشاء ، واستخدمني فيه ، ورتبني بين يديك ، وأحضرني بين أمرك ونهيك ، ومتّعني برضاك فاني صنيعة والدك ، والجدد بهذا صنيعة لك ، وليس بجميل أن تكرّ على ما بنى ذلك الرئيس فتهوره وتنقضه ، ومتى أجبتني إلى ذلك ، وأمنتني أكون خادماً بحضرتك ، وكاتباً يطلب الزُلفة عندك ، في صغير أمرك وكبيره ، وفي هذا إطفاء الثائرة التي قد تأرثت بسوء ظنّك ، وتصديقك أعدائي عليّ . فقال في الجواب : والله لا تجاورني في بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك إذنٌ عليّ ، ولا عينٌ عندي ، وليس لك مني رضاً إلاّ بالعود إلى مكانك ، والسلوّ عمّا تحدّث به نفسَك .

[فرار الصاحب]

فخرج ابن عبّاد من الريّ على صورة قبيحة ، خرج متنكراً بالليل ، وذاك أنه خاف الفتك والغيلة ، وبلغ أصفهان ، والقى عصاه بها ، ونفسُهُ تغلي ، وصدرُه يفور ، والخوف شامل ، والوسواس غالب ، وهم أبو الفتح بانفاذ من يطلبه ويؤذيه ، ويهينه ويعسف به ، فأحسّ هو بالأمر .

فحدثني ابن المنجم قال : وعمل على ركوب المفازة إلى نَيْسابور لما ضاق عَطَنُه ، واختلف على نفسه ظنُّه .

[ثورة خراسان]

[١٤٥ أ] وإنا لفي هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان / قد أزمعت الدّلوف[١] اليهم، وتشاورت في الإطلال عليهم ،فقال الأمير لأبي الفتح : ما الرأي ؟ قد نمي الينا ما تعلم من طمع خراسان في هذه الدولة بعد موت ركن الدولة ، فقال أبو الفتح: ليس الرأي إليّ ولا إليك ، ولا الهمّ عليّ ولا عليك ، ها هنا من يقول : أنت خليفتي ، ويقول لي : أنت كاتب خليفتي ، يُدبّر هذا بالمال والرجال ، وهو الملك ، قال : فاكتب اليه وأشعِرْهُ بما قد منينا به ، وسَلْه دواء هذا الداء ، وأبلغ في ذلك ما يوجبه الحزم الصحيح ، ويُؤْذن بالسعي النجيح ، فكتب وتلطّف ، وصدر في الجواب أن هـــذا الأمر عجب ، رجلٌ مات وخلّف مالاً وله ورثة وابن ، فلم يُحمل اليه شيء من إرثه زُوياً[٢] عنه ، واستئثاراً به دونه ، ثم خوطب بأن يغرم شيئاً آخر من عنده قد كسبه بجهده، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم يسمع مثله ، ولئن استُفتي الفقهاء في هذا لم يكن إلا التعجب والاستطراف ، ورحمة هـــذا الوارث المظلوم من وَجْهَين : أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطلب بإخراج ما ليس عليه ، وإن أبى قولي حاكمت كل من سام هذا إلى من نرضى به .

فلمّا سمع مؤيد الدولة هذا ، وقرأه أبو الفتح قال : ما ترى ؟ قال : قد قلتُ وليس لي سواه ، أقول : هذا الرجل هو الملك والمدبّر ، والمال كله ماله ، والبلاد بلاده ، والجندُ جنده ، والـكلّ عليه ، والمهنأ له ، والاسم والجلالة عنده ، وليس هاهنا إرثٌ قد زُوي[٢]، ولا مال استؤثر به دونه ،

---

(١) دلف : مشى مشياً قارب الخطو ، وقيل : مشى مشياً فوق الدبيب .

(٢) زوى الشيء عنه زوياً : جرفه وقبضه .

والنادرة لا وجه لها في الجد ، وفيما لا يتعلق باللعب ، أما خراسان فكانت منذ عشرين سنة تطالبنا بالمال ، وتهددنا بالمسير والحرب ، ونحن مرة نسالم ومرة نحارب ، ونحن في خلال ذلك نفرق المـال بعد المال على وجوه مختلفة،فأحسب أن ركن الدولة حيّ باق ، هل كان له الا أن يدبّر بماله ورجاله، وذخـيره وكنزه . أفليس هذا الحكم لازماً لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقي اليه زمام الملك ، وأصدر عنه كل رأي ، وأورد عليه كل دقيق وجليل ، وهل علينا إلا الخدمة والنصرةُ والمناصحة بكل ما سهُل وصعُب ، كما كان ذلك عليه بالأمس من جهة الماضي .

[الحاجة إلى المال]

فقال الأمير : إن الخطب في هذا أراه يطول ، والـكلام يتردّد،والمناظرة تربو ، والحجة تقف ، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن ، وأرى في الوقت أن نذكر وجهاً للمال حتى نحتج [به]،ثم نستمدّ في الثاني منه ، ونرضي الجند في الحـــال ، ونحزم في الأمر ، ونظهر المرارة والشكيمة بالاهتمام والاستعداد ، حتى يطير العين[١] إلى خراسان بجدنا واجتهادنا،وحزمنا واعتمادنا، فيكون في ذلك مكسرة لقلوبهم ، وحسماً لأطماعهم ، وباعثاً على تجديد القول في الصلح ، وإعادة الـكلام في المواعد ، وردّ الحال إلى العادة المعروفة فقـــال: أسأل الله بركة هذا الامر ، فقد نشيتُ[٢] منه رائحة منكرة،وما أعرف للمال

---

(١) العين : الجاسوس .

(٢) نشي : اشتم .

وجهاً . أما أنا فقد خرجت من جميع ما كان عندي مرة بما خدمتُ به الماضي تبرعاً حِدثانَ(١) موتِ أبي ، ومرة بما طالبني به سراً ، وأوعدني بالعزل والاستخفاف من أجله ، ومرة بما عزمتُ في المسير إلى العراق في نصرة الدولة، وهذه وجوه استنفدت قُلّيَّ وكُثْري ، وأتَتْ على ظاهري وباطني ، وقد غرمتُ إلى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كالممتنّ على أولياء نعمتي ، وإن سكتُّ كنت كالمتّهم عند من يتوقع عثرتي وهذا هذا .

وأمّا أحوال النواحي فأحسن حالنا فيها أنّا زجيْنا إلى الأولياء في نواحيها مع النفقة الواسعة في الوظائف والمهمّات التي تنوبها . وأما العامة فلا أحْوَجَ اللهُ اليها ، ولا كانت دولة لاتثبتُ إلا بها ، وبأوساخ أموالها .

[الاستدانة من ابن كامة]

فقال الأمير ، وكان ملقَناً(٢): هذا ابن كامةَ وهو صاحب الذخائر والكنوز ، والجبال والحصون ، وبيده بلاد، قد جمع هذا كله من نعمتنا ، وفي مملكتنا وأيامنا وبدولتنا وهو جامُ(٣) ما شيكَ(٤) ، ومختوم ما فُضَّ مذ كان . ما تقول فيه ؟ قال : مالي فيه كلام ، فإن بيني وبينه عهد

---

(١) الحدثان : أول الأمر وابتداؤه .

(٢) الملقن : السريع الفهم الذكي .

(٣) جام : أي جامع .

(٤) شيك : آلمه بالشوك كناية عن نقص المال . ولعلها : جام ما سبك أي إناء من فضة لم يعد سبكه بعد كسره والمقصود لم يصب بأذى .

ما أخيس[١] به ولو ذهبت نفسي ! فقال اطلب منه القرض لا يبلغ حد الحاجة، فإن الحاجة ماسّة إلى خمسمائة الف دينار على التقريب ، ونفسه أنفع لنا ، وأردُّ على دولتنا من موقع ذلك المال ، وبعد فرأيه وتدبيره واسمه وصيته وبدارُه إلى الحرب فوق المطلوب .

قال : فليس ههنا وجهٌ سواه ، والرأي أن يطالع فارس بهذا لا يكون لخبر من ثمّ . فقال : أنا لا أكتب بهذا فإنه غَدْرٌ ، قال : ياهذا فأنت كاتبي ، وصاحب سري وثقتي ، / والزمام في جميع أمري، ولا سبيل إلى إخراج هذا الحديث إلى أحدٍ من خلق الله ، فإن أنت لم تتولَّ حارّهُ وقارّهُ ، وغثّه وسمينَهُ ، ومحبوبَهُ ومكروهَهُ ، فمن قال أيها الامير ! لا تسُمْني الخيانة فإني قد أعطيته عهداً نقضُهُ يَذَرُ الديار بلاقع ، ومع اليوم غدٌ ، ولعن الله عاجلة تفسد آجلة . فقال : إني لست أسومك أن تقبض عليه ، ولا أن تسيء اليه ، أشر بهذا المعنى على ذلك المجلس وخلاك ذَمٌ ، فإن رأي الصواب فيه تولّاه دونك كما تراه ، وإن أضرب عنه أعاضنا رأياً غير ما رأينا ، وأنت على حالك ، لا تنزل عنها ، ولا تبدل بها ، وإنما الذي يجب عليك في هذا الوقت أن تكتب بين يديّ حرفين انه لا وجه لهذا المال إلا من جهة فلان ، ولست أتولّى مطالبته به ، ولا مخاطبته عليه وفاءً له بالعهد ، وثباتاً على اليمين، وجَرْياً على الواجب ، ولا أقلّ من أن تجيب الى هذا القدر ، وليس فيه ما يدلّ على شيء من النكث والخلاف والتبديل . فما زال هذا وشبهه يتردد بينها حتى أخذ خطه بهذا النص على أن يصدره إلى فارس .

[٤٥ب]

---

(١) خاس بالعهد : غدر ونكث .

[اطلاع ابن كامة على خيانة ابن العميد]

فلما حصل الخط ، وجنّ الليل وسئل ابن كامة وحضر وقال له الامير : أما عندك حديث هذا المخنّث فيما أشار به على الملك في بابك ، وأورد عليه في أمرك ، من إطماعه في مالك ونفسك ، وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك مع صاحبيك ؟ فقال علي بن كامة : هذا الفتى يرتفع عن هذا الحديث ، ولعلّ عدوًّا قد كاده ، وبيني وبينه ما لا منفذَ للسحر فيه ، ولا مَساغَ لظنٍّ سيىء فيه . قال : فما قلت ما سمعتُ إلا على تحقيق ، ودعْ هذا كله يذهب في الريح ، وهذا كتابه إلى فارس يا عرّفتك وخطّه . قال عليّ : فاني لا أعرف الخطّ ولكن كاتبي يعرف ، فان أذنت حضَر ، قال : فليحضر ، فجاء الخثعمي الكاتب وشَهِدَ أنّ الخطّ خطّه ، فحال عليُّ بن كامَة عن سجيّته ، وخرج من مسكه[1]، وقال:ما ظننت أن هذا الفتى بعد الايمان التي بيننا يستجيز هذا ، قال الامير:أيها الرجل إنما أطلعك الملك على نيّة هذا الغلام فيك ، لتعرف فساد ضميره لك ، وما هو عليه من هنات أُخَر ، وآفاتٍ هي أكبر من هذا وأكبر ، وقد حرّك خراسان علينا ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى إلى أخينا بهمذان ـ يعني فخر الدولة ـ أخبارنا ، وهو عين ها هنا لبختيار وقد اعتقد أنه يعمل في تخليص هـــذه البلاد له ، ويكون وزيرًا بالعراق ، وقد ذاق ببغداد ما لا يخرج من ضرسه إلا بنزع نفسه .

---

(١) المسك : بفتح الميم الجلد لأنه يمسك ما وراءه من اللحم والعظم ، وبضمها: العقل.

[وشاية أبي نصر المجوسي]

وكان المجوسي أبو نصر قد قدم وهو يفتل الحبل ويُبرم ، ويؤخر مرة ويقدم أخرى ، ويهاب مرّة ويُقدم . وكان الحديث قد بُيّت بليل ، واهتمّ به قبل وقته بزمان ، فقال علي بن كامة : فما الرأي الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك في القبض عليه ، وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يُظنّ أنا هجمنا على نصيحنا وكافينا ، وعلى ربيب نعمتنا ، وناشىء دولتنا ، فمهّدنا عندك العذر ، وأوضحنا لك الامر ،قال : فأنا أكفيكُموه ، ثم كان ما كان .

قال الخليلي : وكل هذا جرّه عليه الاستبداد بالرأي ، والغرارة والتواني وقلة التجربة ، والركون إلى وصيّة الميت ، وسوء النظر في العواقب ،ومجانبة الحزم والرأي الثاقب ، وكان أمر الله مفعولا .

ورأيت الخليلي والهروي والشاعر المغربي وجماعة من خلطاء أبي الفتح كابن فارس وابن عبد الرحيم يخوضون في حديثه وقالوا : كان الرأي كذا وكذا ، فقال المغربي : أجود من هذه الآراء كلها إن كان يضرب عنق المجوسي جاراً أتى الدهر بما أتى وما كان ليكون أشدّ مما كان ولعله كان يطرح هينه ، ويصير سبباً إلى خلاص .

وذهبنا في القول كل مذهب ، وفي الجملة القدر لا يسبَق ، والقضاء لا يملَك ،ومن استوفى أكله استفى أجله، والكلامُ فضلٌ، والرأي الدّبَري[1]

---

(١) الرأي الدبري : هو الذي يسنح أخيراً عند فوت الحاجة .

مردود ، ومن ساور الدهر غُلب ، ومن لجأ إلى الله فقد فاز فوزاً عظيما .

ما وصلنا ـ حاطك الله ـ حديثاً بحديث ، وكلمة بكلمة إلا لتكثر الفائدة ويظهر العلم ، ويكون ما صرّفنا القول فيه مرفوداً بالحجة الناصعة والامتاع المونق .

[التوحيدي يخاطب القارىء]

أيها السامع ! قد سمعت صريح الحديث ودعيّه ، وعرفت مسخوطَهُ ومرضيَّه ، فان كان الله قد ألهمك العدل ، وحبّبَ اليك الانصاف ، وخفّف عليك الرفق ، ووفّر نصيبك من الخير ، ورفع كعبك في الفضل ، فقد رضيتُ بحكمك ، وأمِنْتُ عداوتك ، ووثقتُ بما كتب الله لي على لسانك ، وجُعل حظي منك . واعلم أنك إن كنت تريد الاعتذار فقد أسلفتُ الواضح فيه، وإن كنت تطلب الاحتجاج فقد أتى البيان عليه ، وإن كنت تغضب لابن عباد أو لابن العميد فقد شحنت هذا الكتاب من فضلها وأدبها وكرمها ومجدهما بما إذا ميّزته وأفردته ثم اجتليته وأبصرته واقع نفسك ، وشفى غليلك ، وبلغ آخر مرادك ، وإلا فعرّفني مَنْ جمع إلى هذا الوقت عشر ورقات في مناقبها وآدابها ومكارمها وما ينطق عن اتساعها وقدرتها ويدعو إلى تعظيمها وتوفية حقوقها ومعرفة أقدارهما وهمَمِها ممن لهما عليه الاصبع الحسنة ،واليد الخضراء، والنعمة السابغة ومن لم يذكر إلا بها ، ومن لم يُعرف إلا في أيامها ، ومن لو لم يلتفت اليه واحد منها لكان يَحرُسُ في الدروب ، أو يلقط النوى في الشوارع، أو يوجد في أواخر الحمامات .

وَدَعِ الشعر جانباً فإنما ذاك عن حسب دنيء ، ومذهب زريّ ، وطمع خسيس ، ومقام مذلّ وموقف مخجل ، ولكن هات رسالة محررة ، وأديباً فاضلاً ، وعالماً مذكوراً تجرّد لنصرتها ، ودلّ على خفي فضلها ، أو عجب من جلي فعلها ، فإذا كنت لا تجــد ذلك فدع الكلب ينبح ،فإنما الكلب نبّاح ، على أني ـ حفظك الله ـ لا أبرىء نفسي في هــذا الكتاب الطويل العريض من دبيب الهوى ، وتسويل النفس ، ومكايد الشيطان ، وغريب ما يعرض للانسان ، فان وقفت على شيء من ذلك ، فقر[1] بالعذل علينـا ، وسل في اللائمة من أجــله ، وإياك أن تحزّ جلدة لا تدمى بشفرتك ، أو تنسم إلى جمّة لا تقشعرّ ذوائبهـا بريحك ، وأن تمتحن جوهراً لا يُحاص[2] عينُه بنـارك .

واستيقن أن من ركب سنام هذا الحديث كما ركبته ، وسبح في غامر هذه القصة كما سبحت ، وقال ما قلت ، وعرّضَ بما عرّضت فغير بعيـد أن يحكم له وعليه ، بمثل ما يحكم به لي وعليّ ، وإذا كان الحكم لازماً ، وهذا القيـاس مطّرداً ، فالرضا بها عزّ ، والصبر عليها شرفوإني لأحسد الذي يقول :

أعُدُّ خمسين عاماً ما عليّ يدٌ

لأجنبيٍّ ولا فضلٌ لذي رَحِمِ

---

(١) العبارة غير واضحة في الأصل ، ولعل الصحيـح ما أثبتناه .

(٢) خوصت العين : أي غارت .

الحمد لله شكراً قد قنعت فلا
أشكو لئيماً ولا أطري أخا كرمِ

لأني أتمنى أن أكونه ، ولكن العجز غالب ، لأنه مبذور في الطينة ، ولقد أحسن الآخر أيضاً حين يقول :

ضَيَّقَ العُذْرَ في الضَّراعة أنَّا
لو قنعنا بقِسْمِنا (١) لكفانا

ما لنا نَعْبُدُ العبادَ إذا كا
نَ إلى الله فقرُنا وغِنانا

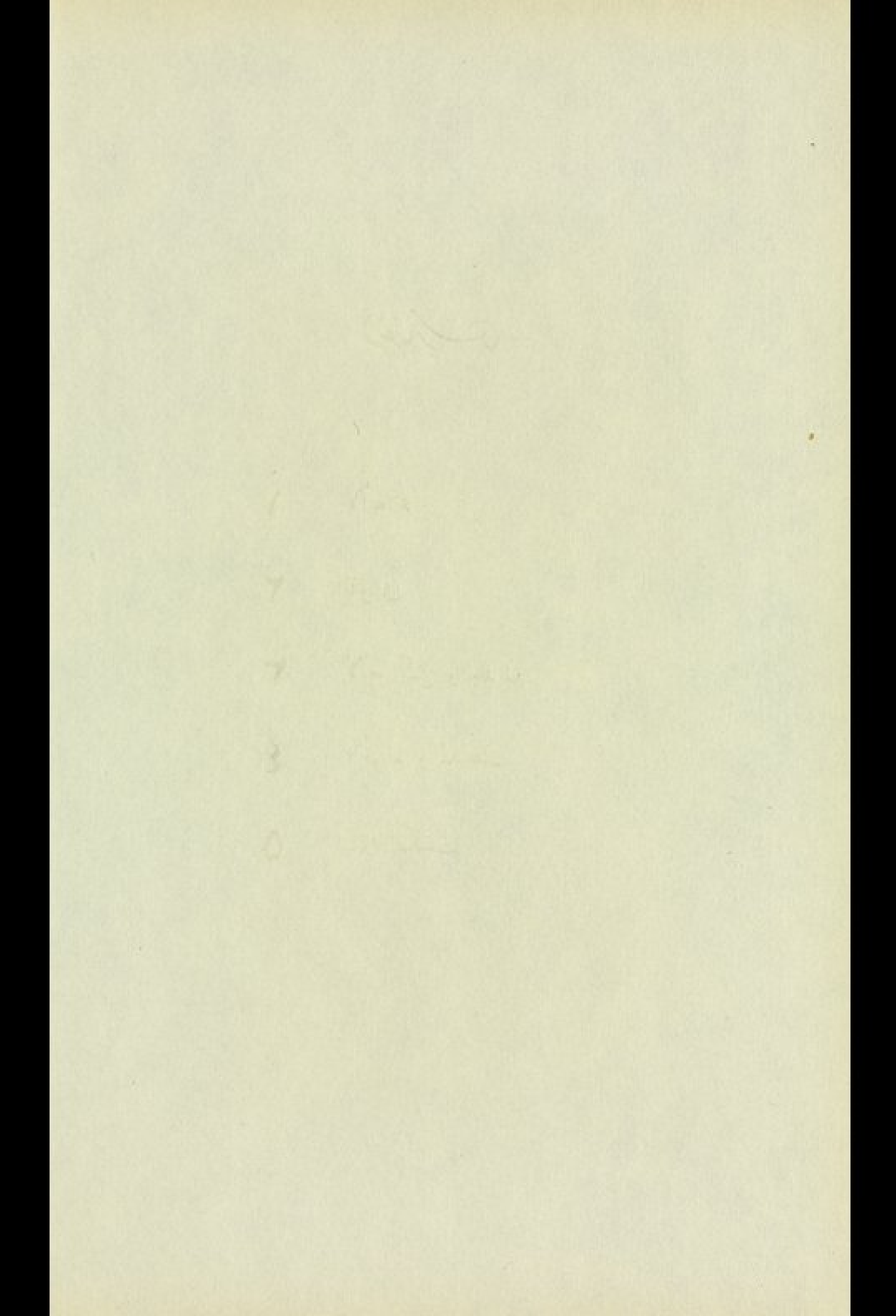
وأدعو هاهنا بما دعا به بعض النسَّاك : اللهم صُنْ وجوهَنا باليَسار ، ولا تبتذلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شرار خلقك ، فنُبتلى بحمد من أعطى ، وذمّ من منع ، وأنت من دونها وليُّ الإعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء ، ياذا الجلال والإكرام .

انتهت رسالة أخلاق الصاحب بن عبّاد وابن العميد .

---

(١) القسم : النصيب .

الفهارس



١ – الأعلام

ت

ث

خ

ش

ص

ض

ط

ن

١ — القوافي

٣ ـ الأماكن والبلدان

٤ ـ الأقوام والمذاهب والفرق

★ ★ ★

٥ — فهرس أسماء الكتب

* * *

فهرست الكتاب

تصويب

صفحة	سطر	
٢٠	١٧	ما يحبطها
٢١	١	ما يغطّيها
٣٠	٢	مغيظ
٣٩	١٣	خيراً
٥٥	٨	دانوا لها
١١٨	٣	أمن العدل
١٦٠	١٤	فرجوت مع ذكره للاسلام خيراً
١٦٢	٨	باللوح
٢٣٠	٧	أذن
٢٤٨	٦	ابن
٢٤٩	٢٢	جريح
٢٥٥	١٠	الهذلي
٣٦١	٩	بخاص .

Epitre

MAṮĀLIB AL WAZĪREIN

(Les défauts des deux ministres)

Par

Abū Ḥayyān At - Tawḥīdī

(Ecrivain arabe du IV[e] siécle de l'Hégire X[e] S.)

Editée et Annotée

Par

Ibrahim Kailani

Directeur au Ministére de la Culture

a Damas (syrie)

DAMAS

1961

